الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الحملة الصليبية السابعة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الخامس والثلاثون

دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٩

الموسوعة الشامية في
تاريخ الحروب الصليبية

١ — حياة القديس لويس لجوانفيل

٢ — التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني

٣ — رسائل صليبية من الأرض المقدسة(١٢٨١ م)

٤ — ما جاء عند ولتر ماب عن الحروب الصليبية،

(١)

حياة القديس لويس

تأليف

جين جوانفيل

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تعـد الحملة الصليبيـة السـابعـة مـن أهم الحمـلات، لا لأنها كـانت الأخيرة، بين الحمـلات الكبرى، بل لما رافقها من أحـداث، فهي أرادت احتلال مصر، وقـد اعتمدت على العناصر الفـرنسية مثل الحملة الأولى، وأخفقت هذه الحملة، وجاء إخفاقها وترافق مع انتهاء الحكم الأيوبي في مصر، ومع التمهيد لقيام حكم المماليك، كما أن هذا كله ترافق مع ظهور المغول على ساحة الأحداث، فعندما كان لويس التاسع في قبرص راسل المغول، وبعد خـلاصه من الأسر ببعض الوقت تلقى الجواب من الخان المغولي، والعلاقات المغولية الأوربية هامة جداً أفردت لها دراسة خاصة، كما أنني جمعت أهم مـا كتب من مصـادر عن المغـول، سأفـرد لها عـدة مجلدات في نهاية الموسـوعـة، وذلك بعـد الفـراغ من الموضـوع الصليبي الأساسي.

وكان الملك لويس التاسع هو الذي قاد الحملة الصليبية السابعة، وقد أخفقت هذه الحملـة، ووقع الملك لويس بـالأسر، وأفضل من أرخ لهذه الحملة ولوقائعها بتفصيل موثق هو جين صاحب جوانفيل، وكان سليل أسرة إقطاعيـة فـرنسيـة عريقـة، هذا وخير مصـدر يتحـدث عن حيـاة جوانفيل هو كتـابه الذي أرخ به لحياة الملك لويس، وكـان هذا الكتاب قد نقل إلى العربية من قبل الـدكتور حسن حبشي، ونشر في القاهرة عام ١٩٦٨ ، ولدى تفحصي الدقيق لهذه الترجمة، وجـدتها تفتقـر إلى الدقـة، تعـرض النص فيها أحيـاناً إلى الاختزال وأحيـاناً إلى البتر، وتكوّن لدي انطبـاع أن الدكتور حبشي لم يقم شخصيـاً بالترجمة ، بل عهـد بذلك إلى

عدد من تلاميذه، ولهذا ساد التفاوت أجزاء الكتاب، وظلت بعض آثار عمل الطلاب واضحة، ويكفي أن أسوق هنا مثل صارخ ورد في صفحة ٢٦٨ تحت عنوان«جنوح باخرة الملك» بدلاً من القول:«جنوح سفينة الملك»، ذلك أن اعتماد البخار في دفع السفن وتسييرها حديث جداً.

وعاصر جوانفيل في منطقة كليكية، في شمالي بلاد الشام، أمير أرمني اسمه سمباط، ويرجح أنه كان أخاً للملك هيتوم الأول، وقائداً من قادة جيوشه، وقد خدم تحت لواء الملك ليون الثاني، بعد وفاة والده هيتوم الأول، ومن المعتقد أنه اعتمد في تأريخه على متى الرهاوي وعلى غريغوري الراهب، وعلى وثائق أنطاكية وسجلاتها، وذلك بالإضافة إلى مذكراته الشخصية، وقد توقف في تاريخه عند سنة ١٢٧٤ م.

ويبدو أن سمباط كان بالإضافة إلى كونه قائداً عسكرياً، كان سفيراً ورجل سياسة، سفر إلى المغول الايلخانيين في إيران، ومن المرجح أنه مات سنة ١٢٧٦ م.

وتاريخه وإن مثل وجهة النظر الرسمية لدولة أرمينيا الصغرى في كليكية تقوم أهميته على المادة الإخبارية التي تعلقت بهذه الدولة، وعلى ما عاصره سمباط من أحداث، لاسيما بعد اجتياح هولاكو لبغداد، ثم هزيمة جيوشه في عين جالوت.

وكان سمباط واسع الثقافة، ومن المعتقد أن الكتاب الذي وصلنا قد حوى مواده الإخبارية، لكن صياغتها قد جرت من قبل إنسان آخر، وهذا لايقلل كثيراً من قيمة الكتاب، وسيظل هو المعتمد حتى تسعفنا الأيام، باكتشاف كتاب سمباط الأصيل نفسه.

وكتاب سمباط هذا هو واحد من كتابين أرمينيين، أرخ ثانيهما لأمة الرماة، أي المغول، وسأنشره — إن شاء الله — مع النصوص المتعلقة

بالمغول.

وهذا وألحقت بمجلدنا هذا رسالتين، لهما ارتباط بادوارد الأول، ملك انكلترا، الذي قاد واحدة من الحملات الصليبية، كانت أشبه بموجة شاردة، وأشار سمباط إلى هذا الملك الانكليزي، وإلى تعرضه لمحاولة اغتيال في عكا.

وعلى هذا أكملت نصوص هذا المجلد بعضها بعضاً، ونظراً لاحتمال أن يكون هذا المجلد، هو الأخير الحاوي لأخبار عسكرية وسياسية حول الحروب الصليبية، مما كُتب بغير العربية، فقد ألحقت به بعض النصوص التي كتبها رجل الدين الانكليزي وولترماب، وكان من معاصري هنري الثاني وابنه رتشارد قلب الأسد، وكنت قد حصلت على مصورة لكتاب ماب الذي نشر سنة ١٩٢٤ منذ أمد وجيز، هذا وأسلوب ماب غريب، وتذكرنا لغته وأسلوبه بالعماد الأصفهاني.

وأملي كبير بأن يمدني الله جل وعلا بالعون لمتابعة العمل بهذه الموسوعة وتحقيق مشروعها كاملاً.

والحمدلله على نعمائه، وصلى على النبي العربي وعلى آله وصحبه وسلم

دمشق ٢٢ محرم ١٤٢٠ ٧ أيار ١٩٩٩

سهيل زكار

تكريس

إلى مـولاه الطيب لويس، ملك فـرنسـا، وبنعمـة الرب ملك نافـار، وكونت بالاتاين Palatine في شامبين، وبري، يبعث جين صاحب جوانفيل، وتابعه المخلص ونائبه في شامبين، بتحياته المخلصة والمحبة.

مولاي العـزيز: أغتنم الفرصة لأخبركـم بأن سيدتنا،الملكة أمكم — منحهـا الرب النعمـة — رجتني بإخـلاص عظيم، أن أكتب كتـاباً لها، يحتوي على الأقوال التقوية والأفاعيل الجيدة لمليكنا القديس لويس، وقد وعـدتها بالقيـام بذلك، وقـد أكملت الكتـاب الآن، الذي قسمتـه إلى قسمين : يتحـدث القسم الأول حـول كيف تحكم الملك لويس في جميع الحالات بحيـاته وفقـاً لإرادة الرب، ولشرائع الكنيسـة المقـدسـة، ويتحدث القسم الثـاني عن شجاعتـه المشهودة وعن براعتـه العظيمة في استخدام السلاح .

مـولاي : بما أنه قد كتب«افعل أولاً الأشيـاء المتعلقـة بخدمـة الرب، وهو سوف يقودك في جميع الأشياء الأخرى»، لقد كرست القسم الأول من كتابي للأشياء الثلاثة التي ذكرتها أعلاه، أي الأشياء المتعلقة بصلاح النفس، وصحة الجسد، والحكم الصالح للناس.

وقمت، فضـلاً عـن هذا، بمعـالجة هذ ه الأمـور بطريقـة تهدف إلى تقديم التشريف اللائق بهذا القديس الحقيقي، لأنني بهذه الطريقة سوف أمكن الناس من إدراك أن مـا من إنسان علماني في أيامنا قـد عاش بمثل حالة الطهـارة التي عاشها طوال حياته، منذ بداية حكمـه وامتداداً حتى وقت وفاتـه، ولم يحدث أنني كنت موجـوداً شخصياً عندما مـات، لكن ابنه بيير دي ألنسون — الذي أحبني تماماً — كان هناك، وأخبرني حول النهاية الطيبـة التي صنعها والده، حسبما ستجـد ذلك موصـوفاً في نهاية

هذا الكتاب.

ويبـدو لي في هـذا المقـام، أن الذيـن أهملوا وضع الملك لـويس بين الشهـداء، لم يقدمـوا له ما يكفـي من التشريف، آخذين بالتقـدير الآلام العظيمـة التي تحملهـا في الأعوام الستـة التي كنت فيهـا معـه في الحملة الصليبية، وبشكل خـاص لأنه حذا حذو مـولانا في حمله الصليب، فإذا كان المسيح قد مـات على الصليب، كذلك فعل هو، لأنه توفي في تونس وهو صليبي يرتدي تلك الشارة المقدسة.

ولسوف يتحدث القسم الثاني من كتـابي عن أعماله العظيمة في ميدان الفروسية، وأفعاله الشجـاعة الرائعة، واتضح هذا في أربع مناسبات — سوف أتحدث لكـم عنها فيما بعد بشكل كـامل — حيث عرض حيـاته عن طواعية للخطر، حتى يحول بين شعبه وبين التعرض للأذى.

وكـانت المرة الأولى التي عرض فيهـا حياته للخطر عندمـا وصل إلى أمام دمياط، فقد نصحـه جميع مستشاروه — حسبما أخبرت — بالبقاء على ظهر سفينتـه، حتى يرى فرسانه — الـذين كانوا على وشك النزول إلى اليابسة — كيف سيتصرفون، وكـان السبب في إسداء هذه النصيحة له، أنه إذا ما نزل إلى اليابسة مع فرسانه وقتل هو وهم، فإن معنى ذلك سيكون إخفـاق المشروع كله، لكنه، مـن جهـة أخـرى، إذا مـا بقي في سفينته، سوف يبقى ليقود حملة جديدة للإستيلاء على مصر، غير أنه — على كل حال — لم يصغ لأحد، بل قفز إلى البحر، وهو شاكي السلاح، ومعه ترسه معلق في رقبته، ورمحه في يده، وكان بين الأوائل في الوصول إلى الشاطىء.

وكانت المنـاسبة الثانيـة، عندما كـان الملك على نية مغـادرة المنصورة والذهاب إلى دمياط، نصحه مستشاروه — حسبما علمت — بالسفر إلى هناك في غليون، وقدمت هذه النصيحة له — كما أخبرت — بسبب أنه

إذا ما حـدث لرجاله أية مأساة، سـوف يكون في وضع أفضل لإنقاذهم من الأسر، وقـدمت هذه النصيحـة لـه بشكل خـاص بسبب وضعـه الصحي، فقـد كـانت عـدة أمراض قـد نخـرت جسمـه، من ذلك حمى ثلاثية مزدوجة، وإسهال حاد، كما أصابه المرض الذي تفشى في الجيش، وأثرعلى فمه وعلى رجليه، ومرة ثانية مـا كان ليصغي إلى أحد وقال بأنه لن يهجـر رجـاله مطلقاً، وسيقـابل المصير نفسـه كما فعلوا، وهكذا قـام بسبب الهجمات الطـويلة للإسهـــال بقطع الجزء الأسفل مـن سراويله، وكان في الوقت نفسه الألم الذي عـانى منه من حمى الجيش هائلاً، حتى أنه أغمي عليه عدة مرات خلال المساء.

وكانت المرة الثـالثة خـلال الأعوام الأربعـة التي أمضاها في الأرض المقدسـة بعد عـودة أخيه إلى فـرنسا، وكـانت حيواتنا وقتـذاك في مخاطر عظيمة، لأنه خـلال الحقبة كلها التي أمضـاها الملك في عكا لم يكن لديه في جيشه سـوى رجل واحد مقابل ثـلاثين رجلاً في تلك المدينة، وذلك في تاريخ متأخـر عندمـا جرى الاستيـلاء عليهـا من قبل المسلمين، وأنا شخصيـاً لا أعـرف أي سبـب، لماذا لم يأت المسلمـون في ذلـك الوقت لأسرنا في عكا، ما لم يكن هو حب الرب لملكنا حيث وضع خوفاً عظيماً في قلوب أعـــدائنا، لـذلك لم يتجـــرأوا على الهجـــوم علينـا، لأنه أولم يكتب:«اخش الـرب وسيخشـــاك جميع الناس»؟ وهكـذا بقي الملك في الأرض المقدسة مراغمة لنصيحة مستشاريه، واضعاً حياته في خطر، من أجل حماية شعبـه في تلك الأرض، فقــد كــان هذا الشعب عــرضــة للخسارة لولا أنه أقام لمساعدته.

وكـانت المرة الرابعة التي تقبل فيهـا الملك مخاطرة مماثلة عندمـا سرنا على محاذاة قبرص في أثناء عودتنـا من(بلاد) ما وراء البحـر، فقد دفعت سفينتنا بشكل خطير جــداً ضـد الصخـور، حتى أن ثـلاثة ياردات من القاعـدة التي بنيت عليها قد انفصمـت، وبعث الملك خلف أربعة عشر

من معلمي الملاحة، وذلك من سفينته ومن السفن الأخرى التي كانت برفقتها، واستوضح منهم ما الذي ينبغي عليه القيام به، وقد نصحوه بالصعود إلى ظهر سفينة أخرى، لأنهم لم يكونوا يدرون كيف يمكن للسفينة التي هو عليها الصمود في وجه ضربات الأمواج، لأن جميع المسامير التي توجب عليها إمساك قطع الخشب مع بعضها قد تفككت، وضربوا له مثلاً على المخاطر التي كانت السفينة عرضة لها، بإخباره كيف أنهم وهم مبحرون إلى بلاد ما وراء البحر، قد خسرنا إحدى سفننا بالطريقة نفسها .

(أنا شخصياً قابلت لدى كونت دي جويني joiny امرأة وطفلاً كانا وحدهما الناجين من هذه السفينة).

ورد الملك على هذا قائلاً: «أيها السادة الجيدين، إنني أعلم أنني إذا ما تركت هذه السفينة ستعد مهجورة، والذي أعرفه أن على ظهرها ثمانمائة روح أو أكثر، وبما أن كل إنسان يثمن حياته كما أفعل، فإذا ما غادرت السفينة ما من واحد سوف يتجرأ على البقاء، بل سيبقى الجميع في قبرص، ولهذا السبب — إذا قدر الرب — لن أدع مثل هذا العدد من شعبي كما هم الآن عرضة لمخاطر الموت، بل سوف أبقى حيث أنا لإنقاذهم، وهكذا بقي الملك على ظهر سفينته، وحفظنا الرب — الذي وثق به — جميعاً من مخاطر البحر، حتى وصلنا سالمين بعد لأي إلى مرسى.

ويمكن أن أضيف أن واحداً اسمه أوليفر دي تيرم Termes ، الذي تصرف بشكل جيد، وقدم برهاناً على شجاعته عندما كنا فيها وراء البحر، قد تخلى بالحقيقة عن الملك، وتخلف في قبرص، ولم نره مرة ثانية لحوالي سنة ونصف السنة، ومهما يكن من أمر، لقد أنقذ الملك، ببقائه في سفينته، جميع الثمانمائة من شعبه الذين كانوا على ظهرها، وجنبهم التعرض لأي أذى.

- ٢٧٦٠ -

ولسوف أحدثكم في القسم الثاني من هذا الكتاب عن وفاة الملك لويس، وعن طريق القداسة التي توفي فيها.

والآن كما أخبرتكم يا مولاي ملك نافار، لقد وعدت سيدتي الملكة، أمك — أراها الرب الرحمة — بأنني سوف أصنف هذا الكتاب، والآن، حتى أفي بوعدي، لقد توليت كتابته، زيادة على هذا، بما أنني لا أرى أحداً له الحق به مثلك، لأنك وريثها، إنني مرسله إليكم، لكي تقوموا أنتم وإخوانكم — وكل واحد آخر سيسمعه يتلى — بإتخاذ بعض الأمثال منه قدوة، وتقوموا بممارسة ذلك، وبذلك سوف تربحون لأنفسكم الفضل بنظر الرب.

القسم الأول

الفصل الأول

عبد الرب

باسم الرب القدير، أقوم أنا جين، صاحب جوانفيل، ونائب شامبين بإملاء سيرة حياة ملكنا الطيب، القديس لويس، حيث سأدون ما رأيته وما سمعته خلال ست سنوات كنت فيها بالحج برفقته فيما وراء البحر، وبعد عودتنا إلى فرنسا، لكن قبل أن أتحدث إليكم عن أعماله العظيمة، وشجاعته البارزة، سوف أخبركم عما لاحظته أنا شخصياً بشأن تبشيره الجيد، وأحاديث القداسة لديه، حتى توضع بنظام لائق لمنفعة الذين سوف يتولون قراءة هذا الكتاب.

لقد أحب هذا الرجل القديس ربنا بكل عواطفه، واحتذى في كل أعماله حذوه، وهذا واضح من حقيقة أن ربنا مات في سبيل الحب الذي حمله لشعبه، وهكذا عرض الملك لويس حياته للخطر، وفعل ذلك مراراً للسبب نفسه، وكان الخطر أيضاً مما يمكن تجنبه، وذلك حسبما سأظهر لكم فيما بعد.

وتجلى الحب العظيم الذي حمله الملك لويس لشعبه فيما قاله — عندما تمدد مريضاً بشكل خطر في فونتبلو — لابنه الأكبر، مولاي لويس، حيث قال:«ولدي العزيز، إنني أتوسل إليك بإخلاص أن تجعل نفسك محبوباً من قبل شعبك كله، ذلك أنني أوثر أن آتي باسكوتلندي من اسكوتلندا ليتولى حكم شعب هذه المملكة بعدل واستقامة، على أن تتولى حكمه بشكل فاسد، أمام نظر جميع العالم»، فضلاً عن هذا أحب هذا الملك المستقيم الصدق كثيراً، حتى أنه — كما سأبين لكم مؤخراً — لم يوافق مطلقاً على الكذب على المسلمين، بالنسبة لكل ميثاق عقده

معهم.

وكـان كبير الاعتـدال في طعـامـه، فلم أسمعــه في أي يوم من أيام حيـاتي، يأمـر بطعـام خـاص لنفسـه، كما يفعل الناس الأغنيـاء وذوي المكانة، وعلى العكس كان دومـاً يأكل بحمد كبير كل ما كان طهـاته قد أعدوه له ووضعوه أمامه، وكـان مثل ذلك معتدلاً بكلامه، فلم أسمعه، في أي مناسبة من المناسبات، يتحدث بشكل شرير عن أي إنسان، كما لم أسمعه قط يتفوه باسم الشيطان، وهو اسم يستخدم كثيراً بشكل عام في أرجاء المملكة، وأعتقد أن هذا الاستخدام، ليس مرضياً للرب.

ولقـد اعتـاد على إضـافـة الماء إلى خمرته، وفعل ذلك بشكل معتـدل، وفقـاً لما تسمح لـه به قـوة الخمـرة، وسألني عنـدمـا كنا في قبرص لماذا لاأمـزج خمرتي بالماء، فأجبتــه بأن مـرد ذلك لنصيحـة أطبــائي، الذين أخبروني أنني أمتلك رأساً قاسياً ومعدة باردة، لذلك لايمكن أن أسكر، فأجابني بأنهم خـدعوني، لأنني إذا لم أتعلم مـزج خمرتي بالماء وأنا شاب بعـد، ورغبت بفعل ذلك في شيخـوختي فإن النقـرس وأوجـاع المعـدة سوف يستبدان بي، ولن أكون بصحة جيدة مطلقاً، فضلاً عن هذا إذا ما تابعت شرب الخمــرة غير المزيجة عندمـا أكـون شيخــاً، سـوف أصبح مخمـوراً كل ليلة، وهذا أمـر ملفوظ بالنسبـة لأي رجل شجـاع، أي أن يكون في مثل هذه الحالة.

وسألني الملك مـرة عما إذا كنت أرغب بالتمجيد في هذه الدنيـا، وأن أدخل الجنة عندمـا أموت، فأجبتـه إنني أرغب بذلك، فقـال:« إذا كنت تريد ذلك، عليك أن تتجنـب عن قصـد قـول أي شيء أو فعله، إذا مـا أصبح معروفاً بشكل عام، ستشعر بالخجل بالاعتراف بذلك بقولك: أنا فعلت هذا، أو: أنا قلت ذاك»، وأخبرني أيضـاً بعدم الاعتراض على أي شيء قيل بحضـوري أو وضعـه مـوضع التسـاؤل، مـا لم يقـد الصمت بالفعـل إلى الموافقــة على أي شيء خطأ، أو مضراً بنفسي، لأن الكلمات

القاسية غالباً ما تقود إلى الخصام، الذي ينتهي بموت عدد لايحصى من الناس.

وغالباً ما قال يتوجب على الناس أن يلبسوا أنفسهم ويسلحوها بطريقة لاتجعل الرجال الناضجين في السن يقولون أبداً بأنهم أنفقوا كثيراً جداً على ملابسهم، أو أن يقول الشباب بأنهم قتروا وأنفقوا قليلاً، وقد رددت هذا الكلام على مسامع ملكنا الحالي عندما كان يتحدث عن الملابس المطرزة بإحكام التي عم استخدامها هذه الأيام، ولقد أخبرته أننا خلال كامل رحلتنا فيها وراء البحر، لم أر قط مثل هذه الملابس المطرزة، لاعلى الملك ولا على سواه، وأخبرني أن لديه عدة أثواب من هذا النوع، وقد طرزت عليها رنوكه، وأنهم قد كلفوه ثمانمائة«ليرة باريسية»، وأخبرته كان أجدى بالنسبة له لو أنه أنفق أمواله بشكل أفضل في أن أعطاهم للرب، وجعل ثيابه تصنع من«الساتان» الصرف، وعليها شعاره كما كان أبوه يفعل.

وبعث الملك لويس خلفي في إحدى المرات وقال:«لديك عقل نبيه وذكي مما يجعلني لا أجرؤ على الحديث معك عن أشياء تتعلق بالرب، لذلك استدعيت هذين الراهبين إلى هنا، لأنني أريد أن أسألك سؤال»، ثم قال:«أخبرني أيها النائب ما هي فكرتك عن الرب»؟ فأجبته :«إنه ياصاحب الجلالة شيء ممتاز جداً، وما من شيء يمكن أن يكون أفضل منه»،فقال :«بالفعل لقد أعطيتني جواباً جيداً جداً، لأن هذا التعريف نفسه قد جاء تماماً في هذا الكتاب الذي هو بيدي».

ثم استطرد يقول:« إنني أسألك الآن أيهما تفضل: أن تكون مصاباً بالجذام، أو أن تقترف إثماً عظيماً»؟، وأجبته، أنا الذي لم أكذب عليه قط:«إنني بالحري أفضل أن أقترف ثلاثين ذنباً عظيماً على أن أصبح مجذوماً»، وفي اليوم التالي، عندما لم يعد الراهبان لديه، استدعاني إليه، وجعلني أجلس عند قدميه وقال لي :«لماذا قلت لي ذلك البارحة»؟

فأخبرته أنني مـازلت أقـول ذلك، فقـال: لقـد تكلمت من دون تفكير، ومثل إنسـان أحمق، وعليـك أن تعلم أنه لايوجـد جــذام أقـذر من أن تكون مذنباً ذنباً عظيماً، لأن الروح في ذلك الوضع مثل الشيطان، لذلك ليس هناك من جـذام يمكن أن يكون شراً مثل ذلك، يضـاف إلى هذا، أن الانسـان عندمـا يموت يبرأ جسـده من الجذام، لكنه إذا مـات بعـد اقترافه لذنب عظيـم، إنه لايمكن أن يكون متأكداً طوال حياتـه بأنه قد كفّـر عن ذنبه بما فيـه الكفاية حتى يغفـر الرب له، وبالمحصلة، لابد أن يكون خـائفاً جـداً خشية أن يلازمـه جذام الذنب، طيلة بقـاء الرب في الفـردوس»، ثم أضـــاف«لذلك إنني أتوسل إليك بقــدر مـا أملك من إخـلاص، ومن أجل محبة الرب، ومحبتي، أن تعـوّد قلبك على أن تفضل أي شر يمكن أن يحدث للجسد، سـواء أكان ذلك جـذام أو أي مرض آخر، وعلى أن تدع أي إثم أخلاقي يستولي على روحك».

وسألني الملك لويس في مرة أخرى عما إذا كنت قد غسلت قدمي أي فقير في يوم الخميس المقـدس، فأجبتـه بدهشة:«مـاهذه الفكرة المرعبـة، ياصـاحب الجلالة، إنني لـن أغسل قـدمي واحـد من هؤلاء الأدنيـاء»، فقال:«حقـاً، هذا خطأ عظيم أن تقوله، لأنه يتـوجب عليك عدم ازدراء أن تفعل مـا فعله ربنا نفسه، وضربه مثـلاً لنا، لذلك إنني أتوسل إليك، من أجل محبة الرب أولاً، ثم من أجل محبتي، أن تعود نفسك على غسل قدمي الفقير».

وأحب الملـك الطيب كثيراً جميع أصنـاف الناس الـذين آمنوا بـالرب وأحبـوه، حتى أنه عين جـايل لى برن Gilles le Brun ، الذي لم يكن من أهل مملكتـه كـافـلاً أعلى لمملكة فـرنســا، لأنه احتل مكانة سـاميـة وسمعة عـالية لإيمانه بالرب، ولتكريسه نفسه لخدمتـه، ومن جانبي إنني أعتقد أنه يستحق تماماً تلك السمعـة، ووجهت الدعوة إلى شخص آخر هو الأخ روبرت دي ســوربون، الذي كـان مشهـوراً لسمعتــه الطيبـة

ولثقافته، وذلك من أجل تناول الطعام على المائدة الملكية.

وحدث في أحد الأيام أن كان كاهناً جيداً جالساً إلى جنبي أثناء تناول الغداء، وكنا نتحدث لبعضنا بعضاً بشكل هادىء، فانتقدنا الملك وقال: «ارفعا صوتيكما، أو أن صحبكما سيظنون أنكما تتناولوهم بالسوء، وإذا كنتما تتحدثان على المائدة بأشياء تمنحنا السرور، فقولا ذلك بصوت مرتفع، أو إلزما الصمت».

وعندما كان الملك يشعر بالانشراح والسرور، كان يطلق عليّ الأسئلة، من ذلك على سبيل المثال: «أيها النائب هل يمكنك أن تعطيني الأسباب لماذا رجل علماني عاقل ومستقيم أفضل من راهب»؟، وهنا كانت تبدأ المناقشة بيني شخصياً وبين الأخ روبرت، وعندما كنا نتجادل لوقت طويل، كان الملك ينطق بالحكم، حيث كان يقول: «الأخ روبرت، أتمنى لو أنني أعرف أنني رجل عاقل ومستقيم، وتأمل أنني كذلك بالفعل، وبإمكانك أن تأخذ جميع البقية، لأن الحكمة والجودة سمعتان ساميتان جداً، حتى أن التلفظ باسمهما يترك طعماً طيباً في الفم».

هذا من جهة ومن جهة أخرى، كان دائماً يقول: إنه عمل شرير أن تأخذ أملاك الآخرين، ثم يتابع القول: «وأن ترد، هو أمر صعب لأن تفعله، لابل حتى أن تتلفظ بالكلمة نفسها سوف تتحشرج في البلعوم، لأن فيها «ر» الرد، والراء هذه مثل عملية الجرف للشيطان، الذي يود أن يجذب إلى نفسه كل من يودون «ردّ» ما أخذوه من الآخرين، زيادة على هذا يفعل الشيطان هذا ببراعة كبيرة، لأنه يعمل اعتماداً على مغتصبين كبار، وعلى لصوص عظام، حتى أنهم يتظاهرون بإعطاء الرب ما ينبغي رده إلى الآخرين».

وأعطاني الملك في إحدى المناسبات رسالة لآخذها إلى الملك ثيبوت، نبّه فيها صهره، لأن يأخذ حذره، خشية أن يضع ثقلاً على روحه بانفاقه

مبلغــاً كبيراً من المال على البيت الذي كــان يبنيــه«لـلآباء المبشرين» في بروفانس، وقـال الملك:«يتعامل، الرجال العقـلاء مع ممتلكاتهم، مثل ما يتـوجب على منفــذي الوصيـة أن يفعلوا، وأول شيء يفعلـه المنفـذ هو سـداد جميع الديون المتـوجبة على المتوفى، ورد جميع الممتلكات العـائـدة للآخــرين، ووقتهـا يصبح حــراً في التصرف بما بقي لديه مـن مـال في مقاصد الإحسان».

وحدث أن كان الملك القديس في أحد أيام العنصرة في كوربيل -Cor beil ، حيث كـان جميع الفـرســان قـد تجمعـوا، ونزل بعـد الغـداء إلى الساحة تحت البيعة، وكان واقفاً عند المدخل يتحدث مع كونت بريتاني، والد الكونت الحالي — حفظه الرب — عندمـا جـاء الأخ روبرت دي سوربون، ليبحث عني، وأمسك بطرف عباءتي وقادني نحو الملك، ولهذا قلت للأخ روبرت :«مـاذا تريـد يا سيـدي الطيب مني»؟ فـردّ:«أود أن أسألك فيما إذا كـان الملـك جـالسـاً في هذ السـاحـة، فـأنت قـد ذهبت وجلست على مقعــده في مكان أعلى منه، ولذلـك ينبغي أن تلام كثيراً لفعلك ذلك» ؟، وأخبرته فعـلاً إنني أستحق ذلك، ثم قال:«من المؤكـد أنك تستحق اللوم، لأنـك ترتدي من الثيــاب مـا هو أثمن من ثيــاب الملك، ذلك أنك ترتدي عباءة من الفراء الجيد، ذات غطاء أخضر ممتاز، وهو لايرتدي مثل هذه الأشياء»، وأجبته:«الأخ روبرت، إذا سمحت لي بالكـلام، إنني لم أفعـل شيئاً يستحق اللـوم في ارتدائـي لملابس خضراء وفــراء، لأنني ورثت الحق بمثل هذا النـوع من اللبــاس عن أبي وعن أمي، لكن من جهــة أخـرى، أنت جــدير أكثـر بالملامــة، لأنه مع أن والديك كانا من العـامة، لقد تخليـت عن نمطيهما من الثياب، وترتدي الآن ثيــاباً من الصــوف أفضل مما يرتـديه الملك نفســه»، ثم أمسكت بالطـرف الأدنى مـن المعطف الخارجي الـذي كــان يـرتديـه، وبطرف معطف الملك، وقلت للأخ روبرت:«إنظر، إذا كنت أنا لا أقـول الحق»،

ووقتها بدأ الملك ينحاز إلى جانب الأخ روبرت، وقال كل ما أمكنه قوله للدفاع عنه وبعد وقت قصير، استدعى الملك ابنه الأمير فيليب — والد ملكنا الحالي — والملك ثيبوت، ثم إنه جلس عند مدخل محرابه، واعتمد على الأرض بيديه، وقال للشابين:«اجلسا هنا، بملاصقتي تماماً، حتى لايمكن سماع ما يدور بيننا»، لكنهما احتجا قائلين:«لكن يا مولانا يجب ألا نتجرأ على الجلوس ملاصقين لك»، ثم قال الملك لي:«أيها النائب اجلس هنا»، وقد أطعته وجلست ملاصقاً له حتى أن ثيابي لامست ثيابه، ثم جعل الإثنين الآخرين يجلسان بعدي، وقال لهما:«لقد تصرفتما بشكل عظيم الخطأ، فأنتما ولداي، ومع ذلك لم تبادرا إلى تنفيذ ما أمرتكما به لحظة إخباركما بذلك، أرجوكما ألا يصدر عنكما مثل هذا ثانية»، وأكدا له أن ذلك لن يكون.

ثم قال الملك لي بأنه دعانا لنكون معاً ليعترف بأنه دافع خطأ عن الأخ روبرت ضدي، وقال:« لقد رأيته قد غلب على أمره، وأنه كان في أمس الحاجة إلى مساعدتي، وعلى كل حال ينبغي ألا تعطيا أهمية كبيرة لأي شيء ربما قلته في الدفاع عنه، ومثلما قال النائب محقاً، عليكما أن تلبسا بشكل جيد، وبشكل يتوافق مع أوضاعكما، وبذلك سوف تحبكما زوجتيكما أكثر، ولسوف يحترمكما رجالكما أعظم، لأنه مثلما قال فيلسوف عاقل : ينبغي أن تكون ملابسنا من نوع ودرجة إذا ما رآها المجربون العقلاء لن يقولوا أنفقناكثيراً عليها، وإذا ما رآها الشباب لن يقولوا أنفقنا قليلاً عليها» .

ولسوف أحدثكم هنا عن واحد من الدروس علمني إيّاه الملك أثناء رحلتنا عائدين من بلاد ما وراء البحر، فقد حدث أن جنحت سفينتنا على الصخور خارج جزيرة قبرص وذلك بوساطة ريح تعرف باسم«الجريان Garbino »التي لم تكن واحدة من الرياح الأربع، ولدى تلقي السفينة للصدمة أصيب البحارة بالهلع، فمزقوا ثيابهم،

ونتفوا لحاهم، ووثب الملك من فراشه عاري القدمين — لأن الوقت كان ليلاً — ولم يكن يرتدي شيئاً سوى مئزره، ومضى نحو تمثال ربنا على المذبح، وتمدد على الأرض مادّاً ذراعيه ليكون على شكل صليب أمامه، وفعل ذلك فعل إنسان لم يكن يتوقع شيئاً سوى الموت.

ودعاني الملك في اليوم التالي لهذه الحادثة المنذرة، وانفرد بي، وتحدث إليّ وحدي، وقال لي:«لقد أرانا الرب أيها النائب لمحة خاطفة من عظيم قدرته، لأن واحدة من هذه الرياح الصغيرة، التي هي صغيرة بالفعل إلى درجة أنها بالنادر استحقت اسماً، كادت أن تغرق ملك فرنسا،وأولاده، وزوجته، ورجاله، ولقد قال القديس أنسلم Anselm بأن مثل هذه الأشياء تأتي بمثابة إنذار من ربنا، وكأن الرب قصد أن يقول لنا: انظروا كم كان من السهل علي إنزال الموت بكم لو أن ذلك كان ما أردته، وقال القديس : أيها المولى الرب لماذا أرعبتنا هكذا؟ لأنك عندما فعلت ذلك، لم يكن ما فعلته لمنفعتك، كما أنه لم يكن لصالحك، لأنك لو قضيت علينا جميعاً بالخسران، لما كان من هو أفقر منك، ولن يكون هناك من هو أغنى منك عندما قضيت بإنقاذنا، وبناء عليه إن الإنذار الذي أرسلته إلينا لم يكن لمنفعتك، بل لمنفعتنا، إذا ما عرفنا كيف نستفيد منه».

ثم قال الملك :«ولهذا دعونا نأخذ هذا الإنذار الذي أرسله الرب إلينا، وفق مايلي: إذا كنا نشعر في قلوبنا أو في أجسادنا بأننا غير مرضيين له، سوف نتخلص من ذلك بدون تأخير، هذا من جانب، ومن جانب آخر، إذا كان بإمكاننا أن نفكر بأي شيء سوف يرضيه، دعونا ننظر في كيفية تنفيذه بسرعة كافية، وإذا ما فعلنا ذلك سوف يمنحنا ربنا المباركة في هذا العالم، ولسوف تكون نعمته أعظم في العالم الآخر، وأكبر مما نستطيع أن نفكر، لكن إذا لم نفعل كما ينبغي، فإنه سوف ينزل بنا مثلما ينزله السيد الجيد بعبده غير الوفي،لأنه إذا لم يقم هذا العبد بإصلاح

سبله، بعـدمـا تلقى الإنذار، سـوف يعـاقبـه مـولاه بالموت، أو حتى بعقوبات تحملها أصعب من ذلك» .

ثم قلت أنا جين جوانفيل:«ليكن الملك الذي يحكم الآن متنبهـاً، فقد نجا من مخاطر عظيمة بقدر ما كنا عرضة له، أو حتى أعظم، ولهذا عليه أن يبتعد عن اقتراف الخطأ، وبهذه الوسيلة لن يضربه الرب بقسوة لا في نفسه ولا في ممتلكاته» .

وفي حديث كان للملك معي، فعل هذا القـديس كل ما في استطاعته ليعطيني اعتقـاداً ثابتاً في المبـادىء الأساسية للمسيحيـة، حسبما أعطيت إلينا من قبل الرب، واعتاد أن يقول بأننا ينبغي أن نمتلك عقيدة راسخة في جميع أركان الإيمان، بحيث لاالخوف من الموت أو من أي أذى يمكن أن يحدث لأجسادنا يمكـن أن يجعلنا قابلين بأن نقف ضـدهم بكلمة أو بفعل، وكـان يضيف :«يبـذل العدو قصـارى جهـده وهو يعمل بذكـاء عندمـا يكونُ بعض الناس على حـافـة الموت فيجـرب كل مـا بإمكانه ليجعلهم يمـوتون مع بعض الشك في عقـولهم حـول بعض النقـاط في ديانتنا، وهو يقـوم بهذه الأعمال المضـادة ببراعة لإدراكـه أنه لايمكنه أن ينتزع فضيلة أي عمل جيد عمله إنسـان، وهو يعرف أنه قد خسر روح كل إنسان، إذا ما مات في ظل الإيمان الحقيقي».

وكـان الملـك يقـول :«ولهذا إن واجبنا هو أن نـدافع عن أنفسنا وأن نحميهـا ضـد المصائـد، بأن نقـول للعـدو، عندمـا يرسل إلينا مثل هذه الغـواية: ابتعـد،"فإنك لن تستطيع تضليلي بإبعـادي عن إيماني الراسخ بأركان عقيدتي، حتى لو قمت بتقطيع جميع أطرافي، سأظل أعيش مؤمناً ولسوف أموت مؤمناً حقيقياً، وكل من يفعل ذلك يتغلب على الشيطان بالسلاح نفسـه تماماً، وهو السلاح الذي أخـذ به عدو الإنسانيـة لتدمير الإنسان» .

وكـــان الملك يقـــول أيضـاً بـأن الديانة المسيحيـــة حسبما هي محددة بالعقيدة هي شيء ينبغي أن نؤمن به إيماناً مطلقـاً حتى لو قام إيماننا فيها على هرطقـة، وحول هذه النقطة سألني: مـا هو اسم أبيك، فأخبرته بأن اسمـه كـــان سمعـان، فما كـــان منه إلاّ أن سألني كيف عـــرفت ذلك، ورددت عليه بأنني متأكد من ذلك، وأؤمن بذلك بدون شك، لأن أمي أخبرتني به وأكدته لي، وعندها قال:«ينبغي أن يكون لديك إيماناً راسخاً بجميع مبـادىء إيماننا اعتماداً على شهادة الـرسل، وفقاً لما سمعتـه يغنى يوم الأحد في العقيدة» .

وأعـاد الملك في إحـدى المناسبـات على مسـامعي، مـا أخبره به وليم أسقف باريس حول أحد اللاهوتيين البـارزين الذي جاء لرؤيته، وقال هذا الرجل للأسقف بأنه يود أن يتحدث معه، فقال له الأسقف:«تكلم بحرية وكما تريد يا سيد»، وعندما — على كل حال — حاول اللاهوتي أن يتحدث إليـه انفجر باكياً، ولهذا قال الأسقف له:«قل مـا تريد قوله ياسيد، ولا تخف، مـا من أحد مهما كان مذنبـاً إلا ويشمله عفو الرب»، فقال اللاهوتي:«في الحقيقة يا سيـدي لايمكنني التحكم بدموعي، خشية أن أكـون مـرتداً، لأنني لايمكنني إرغـــام قلبي على الاعتقـاد بالقـربان المقدس الموضوع على المذبح، وذلك وفق الطريقة التي تقول بها الكنيسة المقدسة، ومع هذا إنني أعرف تماماً بأن هذا إغواء من العدو».

فقال الأسقف:«أرجوك أخبرني يا سيـد، هل تشعر بأي سرور عندما يعـــرضك العــــدو إلى هذا الإغـــواء»؟ فقـــال الـلاهوتي:«على العكس ياسيـــدي، فهـــذا يضـــايقني أكثـــر من أي شيء ممكن»، فقـــال له الأسقف:«والآن سوف أسألك فيما إذا كنت تتقبل أي ذهب أو فضة إذا ما عرضنا عليك بشرط أن تسمح لفمك بالتفـوه بأي قذف ضد القربان المقدس فوق المذبح، أو ضد أي قداس من قداسات الكنيسة المقدسة»؟ فقـال الرجل الآخر:«يا سيـدي يمكن أن أؤكد لكم أن مـا من شيء في

الدنيا يمكن أن يغـريني بفعل ذلك، وإنني بالحري أوثر أن يبتر واحـد من أطرافي عن جسدي على أن أوافق على مثل هذا الشيء» .

فقـال الأسقف:«سوف أقـوم الآن بمقاربة الموضـوع مقاربة مختلفـة، فأنت تعرف أن ملك فرنسا في حـالة حرب مع إنكلترا، وتعلم أيضاً أن أقرب قلعة من خط الحدود بين المملكتين هي قلعة روشيل Rochelle في بواتو، وهكذا سـوف أسألك سؤالاً: افترض بأن الملك قـد أقـامك شحنة لقلعـة روشيل، وأقامني مسـؤولاً عن قلعة مـونتلهيري Montl-heri ، التي هي في قلب فرنسا، حيث تعيش البلاد بسلام، فلمن تعتقد أن الملك سوف يشعـر بالدين العظيم عند انتهاء الحرب: لك أنت الذي حميت لي روشيـل بدون خســائــر، أو لي أنا الذي بقيـت بأمـــان في مـونتلهيري»؟ فصرخ اللاهوتي قائـلاً:«لماذا، باسم الرب يا سيـدي، إلي، فأنا توليت حماية روشيل، ولم أخسرها لصالح الأعداء» .

فقـال الأسقف:« يـا سيـد إن قلبي مثل قلعــة مـونتلهيري، لأنني لم أتعرض لا للإغواء ولا للشك فيما يتعلق بالقـربان المقدس فوق المذبح، ولهذا السبب سأخبرك فيما إذا كـان الرب مـديناً لي بأية نعمـة لأن إيماني مصون وليس فيه شك، إنه مدين لك بأربعـة أضعاف أكثر مما هو مدين لي، فأنت الذي حفظك قلبـك من الهزيمـة عندمـا تعـرض للمشـاكل، ولديك — زيادة على هذا — نوايا طيبة نحوه، وأنه لا المنافع الدنيوية، ولا الخوف من أذى يمكن أن يلحق بجسدك، يمكن أن يغريك بالتخلي عنه، ولذلك أقول لك: كن مطمئنـاً، لأن وضعك يرضي الرب أكثر من وضعي»، وعندمـا سمع اللاهوتي هذا، ركع أمام الأسقف، وهو يشعـر بالسلام في نفسه، وبالرضا التام.

وأخبرني الملك مـرة كيف ذهـب عـدة رجـال من الألبجيسيين إلى كونت دي مـونتفورت، الذي كـان وقتذاك يتولى حماية بـلادهم لصالح الملك، وسألوه أن يأتي ليرى جسد ربنا الذي تحول إلى لحم ودم في أيدي

الكاهن، فأجابهم الكونت قائلاً:«اذهبوا وانظروا إليه لأنفسكم، أنتم الذين لاتؤمنون به، أما بالنسبة لي فأنا مؤمن به بثبات، تماشياً مع تعاليم الكنيسة المقدسة حول القربان المقدس للمذبح»، وأضاف:«وهل تعرفون ما الذي سأكسبه في هذه الحياة الفانية، لتمسكي بالاعتقاد بما علمته الكنيسة المقدسة لنا؟ سوف أنال تاجاً في الجنة، وسيكون تاجاً أفضل من تاج الملائكة، لأنهم يرون الرب وجهاً لوجه، ونتيجة لذلك لايمكنهم إلا أن يؤمنوا».

وحدثني الملك لويس أيضاً عن اجتماع عظيم لرجال الدين ويهود، وأن ذلك كان في دير كلوني، وكان هناك فارس فقير، كان راعي الدير يعطف عليه ويعطيه أحياناً خبزاً في سبيل محبة الرب، وسأل هذا الفارس راعي الدير عما إذا كان بإمكانه أن يتحدث أولاً، وقد استجيب لطلبه، لكن بعد شيء من التلكؤ، وهكذا انتصب واقفاً، واستند على عكازه، وطلب أن يمثل أمامه أهم حاخام وأكثرهم علماً بين اليهود، وجاء اليهودي على الفور، فسأله الفارس سؤالاً قائلاً:«هل يمكن أن تخبرني يا سيد فيما إذا كنت تعتقد بأن العذراء مريم، التي حملت بربنا في جسدها، ووضعته على ذراعيها، كانت عذراء وقت ولادته، وأنها بالحقيقة أم الرب» ؟

وأجابه اليهودي بأنه لايؤمن بأي شيء من هذه الأشياء، وبناء عليه أخبر الفارس اليهودي بأنه تصرف تصرفاً أحمقاً، حين لم يؤمن بالعذراء ولم يحبها، ومع ذلك دخل إلى ذلك الدير، الذي هو بيتها، ثم صرخ الفارس قائلاً:«بحق السماء سأجعلك تدفع من أجل ذلك»، ثم رفع عكازه وضرب اليهودي ضربة، وقعت قرب أذنه، جعلته يقع لما فيه، ثم هرب جميع اليهود، وحملوا حاخامهم الجريح معهم، وبذلك انتهى المؤتمر.

وتوجه راعي الدير إلى الفارس، وأخبره بأنه اقترف حماقة كبيرة، فرد

الفـارس بأن راعي الدير مجرم، لا بـل أكثـر حماقـة، في دعـوته لمثل هذا المؤتمر وحشـده له، لأنه كـان هنـاك عـدداً كبيراً من المسيحيين، كـانوا سينصرفون قبل انتهاء المناقشـة، وسيحملون معهم لدى ذهابهم شكوكاً حـول ديانتهم، مـن خـلال عـدم فهمهـم الكامل لليهـود، ثم قـال الملك:«ولهذا أخبرك، أنه لايتوجب على أحد المغامرة بالنقاش مع هؤلاء القـوم، ما لم يكن لاهوتيـاً خبيراً، أمـا الرجل العلماني، فإن عليه عندمـا يسمح بتـوجيـه الإهانـة للديانة المسيحيـة، ألا يحاول الدفـاع عن عقائدها،إلاّ بسيفه، ويتوجب عليه أن يطعن به المجدف في جوفه، ويظل يدفع به إلى أقصى ما يمكن له أن يدخل» .

الفصل الثاني

خادم شعبه

أعدّ الملك لويس نهاره لأن يتملك في وسط انشغاله بشؤون مملكته وقتاً ليستمع إلى ساعات الغناء بوساطة جوقة كاملة، وإلى قداس Re-quiemبدون موسيقى، بالإضافة إلى ذلك إذا كان الوقت موائماً، كان يستمع إلى قداس منخفض لليوم، أو قداس مرتفع في يوم جميع القديسين.

وكان يرتاح في كل يوم بعد الغداء في فراشه، وبعدما يكون قد نام ثم صحاكان يقوم مع واحد من شماسته بقداس للموت في غرفته بشكل خاص، وكان يحضر في آخر النهار صلاة العشاء، ثم آخر الصلوات وتمامها في الليل.

وجاء إليه مرة راهب فرنسيسكاني، لرؤيته في قلعة هيري Hyeres، حيث كنا قد نزلنا لدى عودتنا إلى فرنسا، وقد قال في قداسه المخصص للتوجيهات للملك بأنه قرأ في التوراة وفي الكتب الأخرى التي تحدثت عن الحكام غير المسيحيين، فلم يجد في التاريخ الخاص بشعوب الكفار أو شعوب المسيحيين أية مملكة فقدت حاكمها أو غيرته، إلا عندما كان يتم تجاهل العدل، وقال:«ولهذا على الملك العائد الآن إلى فرنسا أن يتنبه جيداً أنه يمارس العدل تماماً وبشكل كامل بين شعبه، وبذلك يسمح له ربنا بأن يحكم مملكته بسلام حتى نهاية أيامه» ولقد أخبرت بأن هذا الرجل الصالح، الذي علم ملكنا هذا الدرس الوعظي يرقد مدفوناً في مرسيليا، حيث صنع ربنا من أجله، وما يزال يصنع كثيراً من المعجزات الكبيرة، وهو لم يوافق على البقاء مع الملك لمدة تزيد على يوم واحد، مع أن جلالته ضغط عليه بقوة حتى يبقى، وعلى كل حال، لم ينس الملك

مطلقاً موعظة الراهب الجيد، وحكم مملكته بشكل جيد، وبإخلاص وفقاً لشريعة الرب.

وكانت خطة المملكة المتبعة بالنسبة لمعالجة مسائل كل يوم، أنه كان يبعث خلف جين دي نيسل Nesles الذي كان الكونت الجيد لسواسون، ويبعث خلف بقيتنا، حالما نكون قد سمعنا القداس، ويخبرنا بالذهاب والإصغاء للتوسلات عند باب المدينة، الذي يدعى الآن باسم باب الالتماسات .

وبعدما يكون الملك قد عاد من الكنيسة، كان يرسل خلفنا، ويجلس عند طرف فراشه، ويجعلنا جميعاً نجلس من حوله، ويسألنا عما إذا كانت هناك قضايا لا يمكن فصلها من دون تدخله الشخصي، وبعدما كنا نخبره بالقضايا، كان يبعث خلف ذوي الشأن بالقضايا ويسألهم:«لماذا لم تقبلوا ما عرضه أصحابنا»؟ وكانوا يجيبونه:«لأن الذي عرضوه علينا قليلاً جداً»، وبعدها كان يقول:«إنكم ستحسنون صنعاً إذا ما قبلتم بكل ما هم على استعداد لإعطائكم إيّاه»، وهكذا كان ملكنا القديس يبذل قصارى جهده في إقناعهم بتبني تفكير منطقي.

وغالباً ما كان الملك يذهب في الصيف، بعد سماع القداس إلى غابة فنسن Vincennes، حيث كان يجلس ويسند ظهره إلى شجرة بلوط، ويجعلنا نجلس من حوله، وكان بإمكان كل من لديه قضية يريد تقديمها أن يأتي ويتكلم إليه بدون عوائق من حاجب أو أي شخص آخر، وكان الملك يخاطبهم مباشرة، ويسأل:«هل هناك من أحد لديه قضية تحتاج إلى حل»؟ وكل من لديه قضية كان يقف، ووقتها كان يقول:«الزموا الصمت أنتم جميعاً، ولسوف يستمع إليكم بالدور، واحداً تلو الآخر»، ثم كان يستدعي بيير دي فونتين Fontaines وغيوفري دي فيليت Villette، و يقول لواحد أو لآخر منهما:«فض هذه القضية لي»، وإذا ما رأى أي شيء يحتاج إلى التصحيح فيما قيل من

قبل الذين تحدثوا باسمه أو باسم أي شخص آخر، كان يتدخل ليقوم بالتقويم الضروري.

ورأيته في بعض الأحيان يذهب في الصيف ليتولى معالجة العدالة لشعبه في حديقة باريس العامة، مرتدياً مئزراً من الصوف الخالص، ومعطفاً خارجياً بلا أكمام، مبطن بالصوف، ورداء من قماش أسود حول كتفيه، وشعره ممشط بشكل دقيق، لكن من دون غطاء لتغطيته، وقبعة من ريش الطاووس الأبيض فوق رأسه، وكان يأمر بمدّ زربية حتى يمكننا الجلوس من حوله، ويقف كل من لديه قضية لعرضها أمامه، على مقربة، ثم كان يصدر حكمه على كل قضية، وكما أخبرتكم كان بالغالب يفعل هذا في غابة فنسن.

ورأيت الملك في مناسبة أخرى، في وقت قال فيه جميع أساقفة فرنسا بأنهم يرغبون بالحديث معه، وقد ذهب إلى قصره ليستمع إلى ما كانوا يودون قوله، وكان الأسقف غي أوف أوكسير Auxerre ابن وليم دي ميلو Melloبين الحضور، وقد خاطب الملك باسم جميع الأساقفة قائلاً:«يا صاحب الجلالة، وجهني السادة الروحيون لهذه المملكة الموجودين هنا لأخبرنكم بأن قضية المسيحية، التي من واجبكم حراستها والدفاع عنها،تلقى الدمار على أيديكم» ولدى سماعه هذه الكلمات، رسم الملك علامة الصليب وقال:«أرجوك أخبرني كيف يمكن أن يكون ذلك »؟

فقال الأسقف:«ياصاحب الجلالة، هذا بسبب أنه في هذه الأيام، ينظر إلى الحرمان الكنسي باستخفاف، حتى أن الناس لايهتمون فيما إذا ماتوا دون أن يطلبوا التحليل، ويرفضون إقامة مصالحة مع الكنيسة، ولهذا يطلب السادة الروحانيون، من أجل حبّ الرب، ولأن ذلك هو واجبكم، أن تأمروا عمالكم ونوابكم، أن يبحثوا عن الذين سمحوا لأنفسهم بالبقاء تحت الحرمان الكنسي لمدة سنة ويوم واحد، ومن ثم

إرغامهم على طلب التحليل، بوساطة الاستيلاء على ممتلكاتهم» .

وأجابهم الملك أنه على استعداد بكل رضا لإعطائهم مثل هذه الأوامر، شريطة أن يتمكن هو شخصياً من أن يرى بدون أي شك، بأن الأشخاص ذوي العلاقة مذنبين، وأخبره الأسقف بأن الأساقفة، في ظل أي ظروف لن يوافقوا على قبول هذا الشرط، لأنه يشكك بحقوقهم في إدارة أمورهم، وأجابهم الملك بأنه لن يفعل أي شيء غير الذي قاله، لأنه سيكون إجراءاً ضد الرب، ومضاداً للحق وللعدل إذا ما أرغم أي إنسان على طلب التحليل، إذا كان رجال الدين مذنبين بحقه.

وتابع الملك يقول:«سأضرب لكم مثلاً أنقله من قضية كونت بريتاني، الذي أمضى سبع سنوات تحت الحرمان، وقد تظلم وعرض قضيته ضد أساقفة مقاطعته، ثم استمر في عرض قضيته حتى قام البابا بإدانة جميع خصومه، والآن لو أنني أرغمت في نهاية السنة الكونت على طلب التحليل، لكنت أذنبت ضد الرب، وضد الرجل نفسه»، وهكذا هيأوا أنفسهم لقبول الأمور كما كانت، ولم أسمع قط من تحدث عن أي مطلب جديد فيما يتعلق بهذه القضية.

وفي مسألة إقامة صلح مع إنكلترا، تصرف الملك لويس ضد نصيحة مستشاريه، الذين قالوا له:«يبدو لنا يا صاحب الجلالة أنك لست بحاجة للتخلي عن الأرض التي أعطيتها إلى ملك إنكلترا، ذلك أنه لايمتلك الحق بها، لأنها أخذت بطريقة عادلة من أبيه»، وعلى هذا أجابهم الملك، بأنه مدرك تماماً بأن ملك إنكلترا ليس له حق بتلك البلاد، لكن هناك سبب شعر بأنه ملزم له بإعطائها له، وقال:«ألا ترون زوجتينا أختين، وأنه نتيجة لذلك أولادنا أولاد خالة، وهذا هو السبب الذي يجعل من الهام جداً بالنسبة لنا أن نكون بسلام فيما بيننا، يضاف إلى هذا أنني مجدداً زدت من تشريف نفسي وتمجيدها من خلال السلم الذي صنعته مع ملك إنكلترا، لأنه هو الآن تابع لي، مع أنه لم يكن

كذلك من قبل».

ومن الممكن التعـرف إلى حب الملك للاستقـامـة وللتعـامل الحر، واستنتاج ذلك من تصرفه في قضية واحد اسمه رينو دي تريت Trit ، فقد أحضر هذا الرجل إلى الملك وثيقة تـذكر بأنه، أي الملك قد منح منطقة دامارتين Dammartin في غولي Gouelle إلى ورثة كونتسة بولوني المتوفاة، لكن ختم الوثيقة قد انكسر، ولم يبق منه سوى رجل الصورة المثلة للملك، والمسند الذي أراح عليه قدميه، وأطلع الملك على الختم جميعنا نحن الذين كنا أعضاء في مجلس مستشاريه، وسألنا تقديم المساعدة له للوصول إلى قرار، وعبّرنا نحن جميعاً عن رأينا بأن الملك ليس ملزماً بقبول الوثيقة، ثم طِلب من كاتم سره جين ساراسين Sarrasin ، أن يناوله وثيقة كان قد طلبها منه، وما أن صارت الوثيقة في يده حتى قال لنا:«سادتي يوجد هنا الختم الذي استعملته قبل الذهاب إلى بلاد ماوراء البحر، ويمكنكم أن تـذكروا بوضوح من النظر إليه أن الطبعة الموجودة على الختم المكسور تتشابه تماماً مع الموجودة هنا، ولذلك لا يمكنني بضمير صحيح الاحتفاظ بهذه المنطقة»، ولهذا بعث الملك خلف رينودي تريت وقال له : «إنني أعيد منطقتك إليك» .

القسم الثاني

- ٦٢٧٨٣ هـ -

الفصل الأول
تمرد البارونات
١٢٢٦ — ١٢٤٢

باسم الرب القدير، كنا قد دونا كتابة بعضاً من الأقوال التقوية، والتعاليم الطيبة، لملكنا القديس لويس، ليقف عليها من يستطيع قراءة هذا الكتاب، وليجد هذه الأشياء معروضة وفق ترتيب لائق، ولعله سيستخرج منهم المزيد من المنافع لو أنهم أدرجوا ودونوا بين أعماله، وهكذا نبدأ انطلاقاً من هذه النقطة، ونمضي باسم الرب وباسم الملك لويس، لنتحدث عن الأشياء التي صنعها.

ولقد سمعت الملك لويس يتحدث مراراً ويذكر أنه قد ولد في يوم عيد القديس مرقص الإنجيلي، بعد وقت قصير من عيد الفصح، وكانت قد جرت العادة أن يحمل الناس في عدد كبير من الأماكن الصلبان في مواكب، ويعرف هؤلاء في فرنسا باسم«الصلبان السوداء»، ويمكن النظر إلى هذا من بعض الجوانب بمثابة نبوءة حول الأعداد الكبيرة التي سوف تموت في الحملتين الصليبيتين، أي الصليبية ضد مصر، والصليبية التي مات فيها الملك نفسه في قرطاج(تونس)، فقد ترتب على هاتين الحملتين حزن عظيم في هذه الدنيا، وسرور عظيم في الفردوس، لأن الصليبيين الصادقين قد ماتوا في مجريات هذين الحجين.

وكان تتويج الملك لويس قد جرى في أول أحد البشارة(٢٩ — تشرين ثاني ١٢٢٦)، وكان القداس يفتتح في يوم الأحد ذلك، بكلمات:«بك أيها الرب أسمو بروحي، وبك أيها الرب أضع ثقتي»، وفي الحقيقة، وضع الملك دوماً ثقة عظيمة بالرب، وكان ذلك منذ طفولته حتى وقت وفاته، لأنه في آخر الكلمات التي تفوه بها وهو ممدد

يموت كانت الدعوة إلى الرب وإلى قديسيه، وبشكل خاص إلى القديس جيمس، وراعيتنا القديسة جنفييف.

ولقد رعاه الرب الذي وضع ثقته فيه طوال حياته منذ الطفولة حتى النهاية، وبشكل خاص في أيام شبابه الأولى، عندما كان بحاجة كبيرة إلى الوقاية، وذلك حسبما ستسمع بعد قليل، فقد حفظ الرب شبابه من الأذى من خلال التوجيهات الجيدة التي تلقاها من أمه، التي علمته كلاً من حب الرب والإيمان به، وربت ابنها ونشأته وسط جماعة من الناس ذوي العقول الدينية، ولقد جعلته يقوم بالتلاوة طوال جميع الساعات، وأن يقوم بالاصغاء إلى القداسات في أيام الأعياد العالية، وكان دوماً يتذكر كيف كانت تخبره في بعض الأحيان أنها تفضل موته على أن يقترف ذنباً عظيماً.

* وكان الملك لويس بحاجة إلى عون الرب في شبابه، لأن أمه، التي جاءت من إسبانيا، لم يكن لها لا أقرباء ولاأصدقاء في جميع مملكة فرنسا، ولأن الملك كان مجرد طفل، والملكة أمه أجنبية، اتخذ البارونات من عمه كونت بولونيا Boulogne رئيساً لهم، وتصرفوا نحوه وكأنه كان مولاهم، وبعد تتويج الملك، تقدم البارونات بطلبات إلى الملكة طلبوا فيها منحهم ممتلكات كبيرة، ولأنها رفضت(متذرعة بأنه لم يعد من شأنها التنازل عن أجزاء من مملكة فرنسا ضد إرادة ابنهاالذي توج) اجتمع هؤلاء مع بقية البارونات في كتلة واحدة في كوربيل Corbeil .

وأخبرني الملك القديس مرة أنه لم يتجرأ لاهو ولا أمه على العودة إلى باريس، حيث كانا آنذاك في مونتهليري، حتى جاء أهل تلك المدينة وهم بكامل السلاح لجلبهما، وقال أيضاً بأن الطريق كله من مونتهليري إلى باريس كان مكتظاً بحشود الناس من مسلحين وغير مسلحين، يدعون إلى الرب أن يمنح ملكهم الشاب حياة طويلة وسعيدة، وقد تولوا الدفاع عنه وحراسته من أعدائه، ولقد استجاب الرب لأدعيتهم،

حسبما ستسمع فيما بعد.

ويحكى أنه في الاجتماع الذي عقده البارونات في كوربيل، قرر الذين كانوا حضوراً، أن يقوم الفارس الجيد، كونت بريتاني، بالثورة ضد الملك، وبالإضافة إلى هذا قرروا أن بقيتهم — باستثناء ليس أكثر من فارسين فقط — سوف يرافقون الكونت عندما سيلبي طائعاً دعوة الملك التي سوف ترسل إليه، ورتبوا هذا لأنهم أرادوا أن يروا فيما إذا كان الكونت سيتمكن من نيل الأفضل من تلك المرأة الغريبة، أي الملكة، وقال كثير من الناس بأن الكونت سينجح بالتغلب على الملكة، وعلى ابنها أيضاً، لولا أن الرب قد أعان الملك في ساعة عوزة، مثلما لم يخذله قط.

وتمثل العون الذي أعطاه الرب إياه، بوصول الكونت ثيبوت صاحب شامبين، الذي صار فيما بعد ملك نافار، مع جماعة مؤلفة من ثلاثمائة فارس، ليضع نفسه تحت خدمة صاحب الجلالة، وبسبب تأييد الكونت هذا للملك، أرغم كونت بريتاني على أن يضع نفسه تحت رحمة الملك، وأن يقيم سلاماً معه بتسليمه — كما قيل — كونتيتي آنجو ولى بيرش Perche .

وبما أنه هام بالنسبة لكم الحصول على فهم كامل لبعض الأشياء التي سوف أتناولها فيما بعد، أعتقد أنه مفيد هنا أن نقوم باستطراد لطيف، وبناء عليه سوف أخبركم هنا بأن كونت شامبين الجيد، المعروف باسم هنري الكريم، كان له من زوجته الكونتسة مريم — التي كانت أخت ملك فرنسا، الملك فيليب(أغسطس) وأخت رتشارد ملك إنكلترا لأمه(إليانور) — ولدين، كان اسم الأسن منهما هنري، واسم الآخر ثيبوت، وقد ذهب الابن الأسن إلى الأرض المقدسة حاجاً وصليبياً، وكان ذلك عندما حاصر الملك فيليب والملك رتشارد عكا، واستوليا عليها.

وكـان ما أن جـرى الاستيـلاء على عكا، حتى عـاد الملك فيليب إلى فـرنسـا، وهو عمـل سبب له اللوم العظيم، وبقـي الملك رتشـارد في الأرض المقـدسة، يقـوم بأفـاعيل اتسمت بالشجاعـة وجعلت المسلمين يرتعبـون منه، وبلغ الأمـر إلى بالفعل، كما هو مـدون في الكتـاب حـول الأرض المقدسـة، عندما كـان طفل مسلم يبدأ البكاء، كـانت أمه، حتى يلتزم بالهدوء تقول له:«أوقف هذا،الملك رتشـارد موجود هنا»، وعندما كانـت أياً من خيول المسلمين أو البـدو تجفل في شعراء، كـان أصحابهم يخاطبونهم بقولهم:«هل تظنون إن هذا هو الملك رتشارد»؟

ورتب هذا الملك بعـد مبـاحثـات طـويلة زواجـاً بين الكونت هنري الشاب كونت شـامبين، الذي بقي معه، وبين ملكة القدس، التي ورثت هذه المملكة مـن والدها، ورزق الكونـت هنري من هذه الملكـة بابنتين، الأسن بينهما هي التي أصبحت ملكة قبرص، في حين تزوجت الأصغر من الكونت ايرارد دي بـريين، الذي جـاء منه خط نبيل، حسبما يعـرف كل واحد في فرنسا أو شامبين، ولن أقول الآن شيئاً عن زوجة الكونت ايرارد، بل ســوف أتحدث إليكم عن ملكة قبرص، لأن لها عــلاقـة بالقضية التي أنا بصددها.

وعلي الآن استئناف روايتي: بعدما تمكن الملك لويس من غلبة كونت بريتـاني، صار النبـلاء الفـرنسيـون الآخرون غضـابى جـداً مع الكونت ثيبوت، حتى أنهم قـرروا الطلب من ملكة قبرص — التي، كما تعلمون كـانت الابنة الكبرى للابن الأسـن لهنري الكريم — أن تقـوم بتجـريد الكونت ثيبوت، الذي كان أبوه هو الابن الأصغر للكونت هنري.

وقام — على كل حال — بعض البـارونات بخطوات للمصالحة بين الكونت بيير والكونت ثيبـوت، وقـد نجحـوا في جهـودهم إلى حـد أن الكونت ثيبوت وعـد باتخاذ ابنة كونت بريتاني زوجـة له، وجرى تحديد اليـوم الذي كان سيتـزوج فيه كـونت شـامبين من المرأة الشابة، وتقـرر

حملها للاحتفال إلى واحد من أديرة الأخوان المبشرين قرب قلعة ثييري، وكـانت تدعى، كما أعتقـد، فـال ـ سكرت Val - Secret ، وتولى البارونات الفـرنسيون الذين كانوا كلهـم تقريباً يمتـون بالقرابة لكونت بيير، مرافقة ابنته، وبعـدما وصلت إلى فال — سكرت، أرسلت رسالة إلى الكونت ثيبوت، الذي كان آنذاك في قلعة ثييري.

وفيما الكونت في طريقـه إلى فـال ـ سكرت من أجـل الزواج، جـاء غيـوفري دي شـابيل Chapelle إلى مقابلته حاملاً رسالة سرية من الملك، وقال له:«مولاي، لقد سمع الملك أنك عقدت اتفاقية مع كونت بريتاني للزواج من ابنتـه، ولهذا يحذرك أنك إذا كنت لا ترغب في فقدان كل شيء تمتلكه في مملكة فـرنسا، فعليك عدم القيـام بهذا العمل، لأنك تعلم بأن الكونت قـد ألحق مـن الأذى بحق الملك أكثـر من أي إنسـان آخر على قيـد الحياة»، وبناء عليه، قـام كونت شـامبين، بناء على نصيحة الذين كانوا معه، بالعودة إلى قلعة ثييري.

وعندما سمـع الكونت بيير وبارونات فرنسـا، الذين كانوا يتـوقعون وصول كونت ثيبـوت إلى فال ـ سكرت، بالذي صنعه، اشتعل غضبهم جميعـاً بسبب الإهانة التي ألحقهـا بهم وبعثوا على الفـور لإحضـار ملكة قبرص(*)، ومـا أن وصلت حتى توافقـوا على أن يقومـوا بتجنيـد أكبر عـدد ممكن مـن الرجـال المسلحين، وأن يدخلوا إلى بـري وشـامبين من الجانب الفـرنسي، بينما يدخل دوق دي بيرغنـدي، الذي كـانت زوجتـه ابنة الكونت روبرت دي درو، إلى شامبين من بيرغندي ، وحـددوا يوماً تجتمع فيه قواتهم أمام تروي Troyes ، مع نية الاستيلاء على المدينة إذا تمكنوا من ذلك.

---

* ـ كذا، وقـد وقعت هذه الوقائع سنة ١٢٣٠ في حين وصلت ملكة قبرص إلى فـرنسا سنة ١٢٣٣ .

ودعا دوق دي بيرغندي جميع الرجال الذين كانوا تحت تصرفه، وحشد البارونات رجالهم، وزحف البارونات نحو الأمام يحرقون كل شيء ويدمرونه على جانبهم، وعمل البيرغنديون دماراً مماثلاً على جانبهم الآخر، وزحف في الوقت نفسه ملك فرنسا من الجانب الآخر لقتالهم، واتخذ كونت شامبين الاحترازات الوقائية، فأحرق جميع بلداته قبل أن يتمكن البارونات من الوصول إليها، وذلك بهدف ألا يجدهم الأعداء مشحونين بالمؤن، وكان من بين المدن التي أحرقها الكونت ثيبوت ودمرها ابرني Epernay ، وفيرتوس Vertus ، وسيزان Se-zanne .

وعندما أدرك سكان تروي أنه ليس بإمكانهم التعويل على مساندة مولاهم، بعثوا يطلبون من سمعان صاحب جوانفيل، والد صاحبها الحالي، القدوم لمساعدتهم، وما أن وصلته هذه الرسالة حتى حشد مقاتليه، وغادر جوانفيل في الليلة نفسها، ووصل إلى تروي في الصباح التالي، ولهذا مروا من أمام تروي دون أن يحاولوا القيام بأي شيء، ومضوا لنصب خيمهم في سهل يعرف باسم حقل آيل Isle ، حيث كان دوق بيرغندي معسكراً .

وسمع ملك فرنسا بأنهم كانوا هناك، فزحف مباشرة نحو ذلك المكان لمحاربتهم، وبناء عليه بعث البارونات إليه ورجوه بأن ينسحب شخصياً من القتال، وهم سوف يمضون ويواجهون كونت شامبين، ودوق اللورين، وبقية رجال الملك، مع أقل بثلاثمائة فارس مما لدى الدوق والكونت في جيشيهما، وبعث الملك إليهم رسالة جوابية قال فيها بأنه لن يدعهم يحاربون ضد رجاله ما لم يكن هو شخصياً هناك معهم، وبعث البارونات بدورهم يخبرون الملك أنهم من جانبهم على استعداد لإقناع ملكة قبرص لإقامة سلام، ورد الملك بأنه لن يوافق على أي نوع من السلام، كما أنه لن يسمح لكونت شامبين بفعل ذلك، حتى يسحب

البارونات عساكرهم من ممتلكات الكونت.

ووافق البارونات على هذا المطلب، لكـن بالانسحاب من الآيل فقط وأن يذهبـوا للعسكرة في بقعـة تقع إلى الجنوب مـن جـولي Jully ، ثم عسكر الملك في المكان الذي طردهم منه، وما أن سمعـوا بأنه كان هناك حتى قـوض هؤلاء البـارونات معسكرهـم وذهبـوا إلى شـورس Chaource ، غير أنهم لم يتجـرأوا على الانتظار هنـاك حتى وصـول الملك، بـل أزالوا معسكرهـم وذهبـوا الى لين Laignes للعسكرة هناك، وكانت عائدة لكونت نـافار، الذي كان من حزبهم، وهكذا أرغم الملك كـونت شامبين وملكة قبرص على التصـالح معه، وعقـد الاتفاق الذي تم على أساس التفـاهم بأن يعطي الكونت الملكة ممتلكات تعطيها كل سنة حوالي الألفي دينار، مع منحة قدرها أربعين ألف دينار.

ودفع الملك المبلغ الأخير هذا لصـالح كـونت شامبين، وبالمقـابل باع الكونت الملك أربعـاً من إقطاعيـاته هي : إقطاعيـة بليـوس Blois ، وإقطاعية تشارترز، وإقطاعية سانسير Sancerre ، وإقطاعية شاتودون Chateaudun ، وقـال بعض الناس بـأن الملك استحـوذ على هذه الإقطاعيـات بمثـابة رهـن فقط، لكن ذلك لم يكن مطلقـاً، ذلك أنني سألت صـاحب الجلالة حـول هذه القضية عندمـا كنا في بلاد مـا وراء البحر، أمـا فيما يتعلق بالممتلكات التي أعطاها كونـت شامبين إلى ملكة قبرص، فإن شطراً منهـا الآن بحـوذة كـونت دي بريين الحالي، وشطراً بحـوذة كـونت دي جـواني Joigny ، لأن جدة كونت دي بريين كـانت ابنة ملكة قبرص، وهي كـانت قـد تزوجت من الكونت غـوتيير دي بريين الكبير.

ولكي تعرف كيـف تملك كونت دي شامبين هذه الإقطـاعيات التي باعها إلى الملـك، أخبرك بأن جده الكونت ثيبـوت الكبير، المدفون الآن في لاني Lagny ، كـان لديه ثلاثـة أولاد، الأسن بينهم كـان إسمـه

هنري، واسم الثاني ثيبوت، واسم الأصغر إتيين Etienne ، وكان هنري الذي صار كونت دي شامبين ودي بري يعرف بالعادة باسم هنري الكريم، وكان اسمه لائقاً به، لأنه كان كريماً في تعامله مع كل من الرب، ومع الناس، أما بالنسبة لكرمه نحو الرب، فهذا واضح من خلال كنيسة القديس إتيين في تروي والكنائس الجميلة الأخرى التي بناها في شامبين، أما فيما يتعلق بكرمه تجاه التعامل مع الشؤون البشرية، فهذا واضح في قضية أرتود أوف نوغنت Artaud of Nogent ، وفي مناسبات أخرى، بودي إخباركم بها، لولا خشيتي من إثقال كتابي.

وكان هذا الرجل أرتود من سكان نوغنت، وواحداً ممن وثق به الكونت هنري أكثر من أي رجل آخر في العالم، وقد صار ثرياً جداً، إلى حد أنه بنى قلعة نوغنت لى أرتود Artaud على حسابه، ولقد حدث أن نزل الكونت هنري على سلم بيته الكبير وهو قادم للذهاب لسماع القداس في كنيسة القديس إتيين، ووقتها جاء فارس فقير إلى أسفل الدرج وركع أمامه وقال:«أرجوك يا مولاي أن تعطيني بعضاً من مالك حتى أتمكن من تزويج ابنتي هاتين، الواقفتان هنا أمامك»، وقال أرتود الذي كان واقفاً خلف الكونت للسائل:«ليس من اللائق بالنسبة لك أيها الفارس الطيب أن تسأل مولاي اللوزد المال، لأنه قد أعطى وأنفق كثيراً حتى لم يبق لديه ما يعطيه»، والتفت الكونت صاحب القلب الكبير نحو أرتود وقال له:«أيها الفلاح الجيد إنك لم تذكر الحقيقة عندما قلت بأنه لم يبق لدي شيئاً لأنفقه، في الحقيقة، أنت لدي، خذه أيها الفارس، ذلك أنني أعطيك إياه، وفضلاً عن هذا أنا سأكون ضمانة له»، ولم يتقاعس الفارس، بل أمسك برداء أرتود، وقال بأنه لن يخلي سبيله حتى يعقد معه صفقة، وقبل أن يتخلص أرتود عقد صفقة مع الفارس وأرضاه بمبلغ خمسمائة دينار.

وكان الأخ الثاني للكونت هنري هو ثيبوت كونت بليوس، أما الأخ

الثالث، أي إتيين فكان كونت دي سانسير، ونال الأخوان من الكونت هنري كل شيء ورثاه، بما في ذلك كونتياتهما مع حقوقهما غير الاستقلالية، وامتيازاتهما، واستحوذا فيما بعد على هذه الإقطاعيات من أبناء الكونت هنري الذين تملكوا بلاد شامبين، حتى جاء الوقت الذي باع فيه الكونت ثيبوت هذ الاقطاعيات إلى الملك.

ودعوني الآن أستأنف روايتي، وأخبركم كيف عقد الملك لويس بلاطاً كبيراً في سومور Saumur في أنجو، وكان ذلك بعد الحوادث التي رويتها، ولقد كنت هناك، ويمكنني أن أؤكد لكم أنه كان أفضل بلاط منظم قد شهدته قط، فقد جلس خلف منضدة عالية، بعد الملك كونت بواتييه، الذي نصبه الملك فارساً في يوم عيد القديس يوحنا، ثم تلاه كونت التخوم، وجلس بعده كونت بريتاني الطيب، وجلس خلف المنضدة المقابلة لمنضدة الملك، وفي مواجهة الملك كونت دي دور، ثم تلاه بالجلوس مولاي ملك نافار(الذي كان آنذاك كونت شامبين)، وكان يرتدي مئزراً وعباءة من الحرير، رتبت بشكل جميل بوساطة حزام جلدي، وكان يرتدي أيضاً قلادة مذهبة وقبعة من القماش المذهب، وقد جلست إلى جانبه أقطع اللحم له.

وجلس كونت دي أرتو Artois ،أخو الملك، أمام صاحب جلالته، جاهزاً ليقوم بخدمته في توزيع لحمه، وقتذاك إلى جانب الكونت جين دي سواسون الطيب، وبيده سكين التقطيع حيث كان يستخدمها، ووقف لحراسة منضدة الملك، إيمبرت دي بيجو، الذي صار فيما بعدالنائب الأعلى لفرنسا، ومعه انغوراند دي كوسي En-guerrand de coucy ، وأرشيمبود Archimbaud دي بوربون، ووقف من خلفهم حوالي الثلاثين فارساً وهم يرتدون مآزر من الحرير، وكان عليهم القيام بحراسة سادتهم، ووقف خلف هؤلاء الفرسان كوكبة من السيرجندية الذين يرتدون الثياب الفاخرة التي

طرزت عليها رنوك كونت بواتو، وكان الملك نفسه يرتدي مئزراً من الحرير الأزرق مع معطف خارجي أحمر براق، وعباءة من القماش نفسه، مبطنة بالقطيفة، ووضع على رأسه قبعة من القطن بدت غير موائمة لإنسان مازال شاباً.

وعقد الملك هذه الوليمة في قاعة سومور، التي — قيل — بأنها بنيت من قبل الملك هنري الكبير، ملك إنكلترا، وذلك من أجل إقامة ولائمه هناك، وبنيت هذه القاعة وفق نمط قاعات الديرة السسترشانية، ولاأعتقد بوجود أية قاعة تدانيها حتى في الحجم، وسوف أخبركم لماذا أعتقد هذا، لأنه كان يوجد إلى جانب جدار القاعة الديرية التي كان الملك يتناول فيها الطعام محاطاً بفرسانه وسيرجنديته الذين شغلوا مساحة كبيرة، أيضاً غرفة من أجل منضدة جلس إليها عشرون من الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وبالاضافة إلى جميع هؤلاء الأساقفة، كانت هناك منضدة للملكة بلانشي الملكة الأم، وذلك على مقربة منهم، في الطرف الأقصى من القاعة الكبرى، في مواجهة المنضدة التي شغلها الملك.

وكان الذي يتولى خدمة الملكة بلانشي ورعايتها الكونت دي بولون، الذي صار فيما بعد ملكاً على البرتغال، وكذلك الكونت الطيب هوغو Hugues دي سينت بول، وفتى ألمانياً كان في الثامنة عشرة من عمره، يحكى بأنه كان ابن القديسة إليزابث أوف تورنجيا، وبناء على هذا — كما قيل — قبلت الملكة بلانشي الفتى على جبينه، وذلك كعمل تقوي خالص، لأنها اعتقدت أ ن أمه، لا بد قد قبلته مراراً هناك.

ووجدت المطابخ عند نهاية القاعة الكبرى، وذلك في الجانب الآخر، وكذلك مخازن النبيذ، والقوارير والزبدة، ومنها كان الملك والملكة الأم يخدمان باللحوم. والخمرة، والخبز، وعلى يمين وعلى يسار القاعة الرئيسة، وفي وسط البلاط، كان هناك عدداً كبيراً من الفرسان يتناولون

الطعام، وكـانوا من الكثرة بمكان أنني لم أستطع تعـدادهم، ولقد أعلن كثير من الناس، أنهم لم يروا قط في أية مناسبة احتفـالية أخرى مثل هذا العدد من الأردية والملابس الأخرى المصنعـة من الحرير والذهب، ولقد قيل كان هناك في هذه المناسبة ما لايقل عن ثلاثة آلاف فارس.

وبعـدمـا انتهى المحتفلون ذهب الملك إلى بواتييـه، وقـد اصطحب كـونت بواتييـه معـه، حتى يقـدم أتبـاع الكونت إليـه الولاء من أجل إقطاعاتهم، ولكن مـا أن وصل جلالته إلى بواتييـه حتى رغب من قرارة نفسه بالعـودة إلى باريس،لأنه وجـد كونت التخوم الـذي تناول الطعام على مائـدته في يوم عيد القديس يوحنا، قد حشـد من الرجال المسلحين بقدر ما استطاع وتمركـز قرب بلدة لوزغنان، وبقي الملك في بواتييه لمدة أربعـة عشر يومـاً، ذلك أنه لم يتجـرأعلى مغـادرة المدينة حتى توصل إلى مصالحة مع كونت التخوم، لكن أنا لا أستطيع أن أقول كيف.

ولاحظت في أثناء ذلك الـوقت أن الكونت جـاء عـدة مـرات من لوزغنان ليتحـادث مع الملك في بواتييه، وقـد جلب في كل مرة زوجتـه معـه، التي كـانت من قبل ملكة إنكلترا(*)، وأم ملكهـا الحالي، وهناك عدد كبير من الناس قد أكدوا بأن الملك وكونت بواتييه قد عقدا صلحاً مع كونت التخوم وفق شروط غير مرضية تماماً.

وبعـد عـودة الملك من بواتييـه بوقـت قصير، جاء ملك إنكلترا إلى غسكوني لإنشـاب الحرب ضـد مـولاه الملك، وتـوجـه ملكنا القـديس ليقـاتل ضـده على رأس قـوة كبيرة وذلك بقـدر مـا استطاع حشـده، وزحف ملك إنكلترا وكونت التخـوم للاشتباك بالقتـال مع الملك، أمام قلعة تيليبورغ Taillebourg ، التي تقوم إلى جانب نهر صغير بائس يدعى شارنتي Charente ، وذلك عند نقطة لايمكن للانسان فيها الجواز إلاّ عبر جسر حجري ضيق جداً.

* — هي إيزابل أرملة الملك جون وأم الملك هنري الثالث .

ومـا أن وصل الملك لويس إلى تيليبـورغ، ورأى الجيشـان بعضهما بعضـاً، حتى لم يـوفـر رجالنا الذين كانوا على الطرف الذي قامت عليه القلعة، جهداً للعبور إلى الطرف الآخر، وعبروا النهر بعد مخاطرة كبيرة، وجاء عبـورهم بالقوارب وفوق ذلك الجسر، واستهدفـوا إلقاء أنفسهم على الإنكليـز، ثم نشب قتـال حـاد جـداً، وعندمـا رأى الملك مجريات الأحداث وتقلبـاتها حمل وألقى بنفسه وسط المخـاطر مع الآخرين، غير أن الإنكليـز امتلكوا مقـابل كـل رجل عبر النهـر عشرين رجـلاً على الأقل،ومهما يكن من أمر، فقد قضى الرب أنه في اللحظة التي رأى فيها الانكليـز الملك يعبر، فقـدوا شجـاعتهم وهربوا للالتجـاء في سـانتس Siantes ، ولحقهم بعض رجـالنا، غير أنهم حـوصروا في وسطهم، ومن ثم أخذوا أسرى.

وروى رجـالنا الذين وقعوا أسرى في سـانتس، فيما بعد أنهم سمعـوا كلاماً كان خصامـاً حقيقياً بين ملك إنكلترا، وكونت التخوم، وقد اتهم ملك إنكلترا الكونت بأنـه بعث إليـه يعـده بأنه سيجـد تأييـداً كبيراً في فرنسـا، وفي جميع الأحوال، قام ملك إنكلترا في الليلـة، التي تراجع فيها من تيليبورغ بمغادرة سانتس والعودة إلى غسكوني .

وعندما رأى كونت التخوم، أن لا أمل أمـامه بالمساعدة، استسلم إلى الملك لويس وأخـذ زوجتـه وأولاده معـه إلى السجن، والآن وقـد بات الكونت في قبضتـه، أقـام الملك صلحـاً معـه، كان قـادراً بمـوجبـه على الحصـول على جزء كبير من بلاده، لكن كم كـان حجم هذا الجزء، هذا ما لاأستطيع قـوله، لأنه لم يتوفـر لي دور في هذه القضية، فـوقتها لم أكن قـد صرت فارسـاً بعـد، وعلى كل حـال لقد أخبرت أنه بـالإضافـة إلى الأرض التي حصل عليهـا الملك ونالها من كونت التخـوم، توجب على هذا الكونت دفع عشرة آلاف دينار كـانت له في الخزينة الملكية، ومبلغـاً مماثلاً كل سنة مقبلة .

وعندما كنت مع الملك في بواتييـه، قابلت واحداً من الفـرسان يدعى غيوفـري دي رانكون Rancon ،كان — كما أخبرت — قـد تضرر كثيراً من كـونت التخوم، ولهذا السبب نـذر على الأناجيل المقدسـة، أن لايقوم بقص شعـره، حسبما كانت العـادة مع الفرسان، بـل تركه يطول مثل النسـاء منتظراً الوقت الذي سينتقم فيـه من الكونت، إما بيـديه أو على يدي سـواه، ومـا أن رأى هذا الفـارس كـونت التخـوم، وزوجتـه وأولاده يركعـون أمـام الملك، صـارخين طلبـاً للرحمة، حتى جلس على مقعـد صغير، وأمـر بقص شعـره هناك، وكـان ذلـك بحضـور الملك، وكونت التخوم، مع كل إنسان كان هناك .

وقـــام الملـك لويس في أثنـاء حملتـــه الأخيرة ضــــد ملك إنكلترا والبـارونات، بمنح أعطيات مـاليـة كريمـة، وذلك حسبما أخبرني الذين عادوا من هذه الحملة، والملك لم يطلـب قط ولم يقبل أية مساعدة مـالية من باروناته، وفرسـانه، ورجاله أو من أي من مدنه الجميلة بطريقـة قد تنجم عنهـا شكـوى، وذلك فيما يتعلق بالأعطيـــات التي منحهـا، أو النفقـات التي تحملهـا أثناء تلك الحملـة، أو أثناء أي حملة أخـرى في الوطن أو فيما وراء البحـار، وينبغي عـدم التعجـب من هذا، لأنه عمل هكذا بناء على نصيحـة أمه الطيبـة التي كانت إلى جـانبه، وهو قـد اتبع دومـاً نصـائحهـا، وكـذلك بناء على نصيحـة بعض الـرجـال العقـلاء والجديرين بالاحترام، الذين ظلوا خدامـاً مخلصين للعرش منذ أيام أبيه، وأيام جده .

الفصل الثاني
استعدادات لحملة صليبية
(١٢٤٤ — ١٢٤٨)

بعد مضي عام أو عامين على الأحداث التي دونت للتو أخبارها، وبإرادة من الرب، وقع الملك لويس، الذي كان آنذاك في باريس، مريضاً جداً، واقترب أخيراً من لفظ أنفاسه، حتى أن واحدة من السيدتين اللتان كانتا تتوليان العناية به أرادت أن تمد الغطاء فوق وجهه، مقدرة أنه قد مات، لكن السيدة الأخرى التي وقفت على الطرف الآخر من فراشه، لم تسمح لها، وقالت بأنها متأكدة بأن روحه ما تزال في جسده .

وفي الوقت الذي تمدد فيه الملك يصغي إلى النقاش بين السيدتين، عمل ربنا معه، وأعاده بسرعة إلى وضع صحي استرد به القدرة على الكلام، مع أنه كان حتى ذلك الحين غير قادر على التلفظ بكلمة، وما أن أصبح قادراً على الكلام حتى طلب صليباً ليعطى إليه، ونفذ هذا المطلب على الفور، وعندما سمعت أمه أن القدرة على الكلام قد عادت إليه حتى امتلأت بالحبور على قدر الإمكان، ولكن عندما علمت بأنه قد طلب صليباً وأنه قد أخذه — وهو ما سمعته من شفتيه — حتى شرعت بالنواح، وكأنها تراه قد تمدد ميتاً.

وبعدما تناول الملك الصليب، حذا حذوه أخوته الثلاثة : روبرت كونت دي أرتو، وألفونسو، كونت بواتييه، وشارل، كونت آنجو، الذي صار فيما بعد ملك صقلية، وإلى هؤلاء ينبغي أن نضيف هوغو دوق دي بيرغندي، ووليم كونت فلاندرز، وهو أخو الكونت غي دي فلاندرز الذي توفي مؤخراً، والكونت هوغو الطيب، كونت دي سانت

بولص، وابن أخيه غوتيير، وغوتيير هذا تصرف بشجاعة في بلاد ماوراء البحر، وكان سيبرهن على جدارة أعظم لوأنه عاش مدة أطول.

وينبغي أن أذكر بين الأسماء الذين حملوا الصليب كونت التخوم، وابنه هوغو لى برن Brun ، وكذلك ابني عمي كونت دي ساربروك Sarbruck مع أخيه غوبرت دي أبريمونت Apremont ، وبفضل قرابتنا، قمت أنا جين لورد جوانفيل بالرحلة برفقتهما إلى بلاد ما وراء البحر، وذلك في سفينة استأجرناها معاً، وشكلنا آنذاك فئة مكونة من عشرين فارساً، تسعة منهم كانوا عائدين إلى كونت دي ساربروك ومن رجاله، وكان التسعة المتبقين تابعين لي.

وقمت في يوم عيد الفصح في سنة ١٢٤٨ لتجسيد ربنا بجمع رجالي، وجميع الذين استحوذوا على إقطاعيات مني، وحشدتهم في جوانفيل، وفي مساء يوم عيد الفصح عندما وصل جميع الناس الذين استدعيتهم،ولد ابني جين صاحب أنسرفيل Ancerville من زوجتي الأولى التي كانت أختاً لكونت دي غراندبري Grandpre ، ولقد احتفلنا ورقصنا طوال ذلك الأسبوع، فأقام أخي صاحب فوكولور Vaucouleurs، وكذلك أغنياء الناس وذوي المكانة منهم، ممن كان موجوداً وليمة وكذلك فعل الآخرون واحداً تلو الآخر، وكان ذلك في يوم إثنين الفصح وفي الأيام الثلاثة التي تلت.

وقلت لهم في يوم الجمعة:«إنني ذاهب بالحال إلى ماوراء البحر، ولست أدري فيها إذا كنت سأعود، لذلك على الفور من له دعوى ضدي أن يتقدم بها، فإذا كنت قد أسأت إلى أحد فلسوف أعوض ذلك لكل واحد بدوره، وذلك حسبما اعتدت أن أفعل في حالة الذين تتوفر لديهم طلبات مني، أو من أتباعي»، وتعاملت مع كل ادعاء بطريقة عدّها الناس الذين في بلادي بأنها صحيحة، ولكي لا يكون لي تأثير على قرارهم انسحبت ولم أحضر المناقشات، ثم وافقت بدون اعتراض على

كل ما أوصوا به.

وبما أنني لم أرغب في أن أحمل معي أي درهم ليس لي حق فيه، ذهبت إلى متز في اللورين، ورهنت الجزء الأعظم من أراضيّ، ويمكن أن أؤكد لكم، أنني في اليوم الذي تركت فيه بلادي للذهاب إلى الأرض المقدسة، لم يكن بحوذتي — بما أن سيدتي الأم كانت حية — من دخل تجاوز الألف دينار من ممتلكاتي، ومهما يكن الحال، لقد مضيت، وأخذت معي تسعة فرسان، وفارسين من حملة الأعلام إلى جانبي شخصياً، وقد عرضت هذه الأمور أمامكم ولفت انتباهكم إليها، لتعرفوا أن الرب الذي لم يتخل قط عني، لو لم يأت لمساعدتي، لما أمكنني البقاء متماسكاً طوال الوقت الطويل، وهو الست سنوات التي مكثتها في الأرض المقدسة.

وعندما كنت قد بت جاهزاً للمغادرة، بعث إلي جين لورد أبريمونت،وكونت دي ساربروك، بوساطة زوجته، يخبرني أنه قد أعدّ كل شيء من أجل رحلته إلى ما وراء البحر، وأنه سيصطحب معه تسعة فرسان بالإضافة إلى نفسه، واقترح فيما إذا كنت أوافق وأرغب في أن نستأجر سفينة لنا في مرسيليا.

ووقتها بالذات جمع الملك جميع باروناته في باريس، وجعلهم يقسمون له أنه إذا ما حدث له حادث، بينما هو في بلاد ماوراء البحر مسافراً، أن يبقوا مخلصين وأوفياء لأبنائه، وسألني أن أفعل الشيء نفسه، فرفضت أن أقسم له، لأنني لم أكن من أتباعه الإقطاعيين.

وعندما كنت في طريقي إلى باريس، مررت بعربة فيها ثلاثة رجال أموات، وكانوا قد قتلوا من قبل رجل دين، وكانوا هناك ممددين، ولقد أخبرت أنهم كانوا مأخوذين إلى الملك، ولدى سماعي بهذا بعثت بواحد من أتباعي ليجد لي خبر ما حدث، ولدى عودته أخبرني هذا التابع، أن

الملك عندما خرج من البيعة توقف على الدرج لينظر إلى هؤلاء الرجال الأموات، وسأل عمدة باريس كيف حدث هذا الحادث.

وأخبره العمدة بأن الرجال الثلاثة كانوا ثلاثة من سيرجنديته من شاتليه Chatelet، كانوا يتجولون في شوارع غير مطروقة، ويسلبون الناس، وقال للملك أيضاً:«إنهم رأوا رجل الدين هذا، الذي تراه هنا، وجردوه من ثيابه، وذهب رجل الدين عائداً إلى مقر إقامته، وليس على جسده سوى قميص، فانتزع قوسه العقار، وجعل واحداً من الأطفال يحمل سيفه، وما أن وقع نظره على اللصوص، حتى صرخ عليهم، وقال بأنه سوف يقتلهم، وأوتر قوسه، وأطلقه نحوهم،فأصاب واحداً منهم في قلبه، وهرب الآخران، لكن رجل الدين تناول سيفه من الطفل الذي كان يحمله، وجرى خلفهما تحت ضوء القمر، الذي كان مشرقاً وواضحاً».

وأضاف العمدة يقول:«وحاول واحد منهما أن يجتاز حاجز إحدى الحدائق ويدخل إليها، لكن رجل الدين ضربه بسيفه فقطع ساقه، وبقي هذا الساق داخل الحذاء، حسبما يمكنك أن تراه هنا، ثم مضى خلف الرجل الآخر، الذي حاول الدخول إلى بيت غريب، كان سكانه ما يزالون مستيقظين،لكن رجل الدين سدد إليه ضربة بسيفه جاءت على أم رأسه فشطرته حتى أسنانه، وذلك كما يمكن لجلالتكم أن ترون أيضاً»، ثم تابع العمدة حديثه قائلاً بأن رجل الدين«قد أخبر الجيران بما فعله بالشارع، ثم جاء وسلم نفسه إلى سجن جلالتكم، وقد أحضرته الآن أمامكم لتفعلوا معه الذي تريدونه، فها هو موجود».

فقال الملك:«أيها الشاب، أفقدتك شجاعتك فرصة أن تكون كاهناً، لكن بسبب شجاعتك سوف أدخلك في خدمتي، ولسوف تذهب معي إلى بلاد ماوراء البحر، وأنا فاعل هذا ليس من أجلك، لكن بسبب أنني أود أن يعلم أتباعي أنني سوف لن أحميهم في اقترافهم لأي عمل

– ٢٨٠٠ –
شرير»، وعندما سمع الناس الذين كانوا هناك مجتمعين هذا، دعوا لمخلصنا، وصلوا له ليتوسط لدى الرب، حتى يمنح الملك حياة طويلة وسعيدة، وأن يعيده إليهم بسرور وصحة.

وعدت بعد هذا الحادث بوقت قصير إلى دياري في شامبين، واتفقت مع كونت ساربروك، على وجوب إرسال أمتعتنا في عربات إلى أوكسون Auxonneلتحمل من هناك في قارب إلى آرل عبر طريق السوان والرون.

الفصل الثالث

رحلة إلى قبرص

(١٢٤٨)

بعثت في اليوم الذي غادرت فيه جوانفيل أستدعي راعي دير شمنون Cheminon ،الذي قيل بـأنه أحكم رهبـان أخـوانيـة السسترشيـان وأفضلهم، وعندما كنت في كليرفـون في يوم عيد سيـدتنا بصحبة ملكنا القـديس، سمعت هذا الموقف يعبر عنه كثيراً من قبل عضـو من تلك الطائفة، رشحه لي وأوصاني به، وسألني فيما إذا كنت أعرفه، ولهذا قلت له:«لماذا سألتني ذلك»؟ وقد أجـابني على سؤالي:«لأنني شخصيـاً أعتقد أنه أكثر الرجـال مقدرة في طائفتنا كلها وأعظمهم قـداسة»، ثم استطرد يقـول:« دعني أخبرك بالذي سمعته من راهـب تقي قد نام في القـلاية نفسها التي نام بها راعي دير شمنون، ففي إحدى الليالي — حسبما ذكر ذلك الرجل — بينما كـانا نـائمين في الفـراش في القـلاية، كشف راعي الدير عن صـدره لأنه كان يشعـر بحرّ عظيم، وقد رأى بنفسـه أم ربنا تمضي نحـو فـراش راعي الدير وتسحـب القميص فـوق صـدره، حتى لاتؤذيه رياح الليل».

وأعطاني راعي ديـر شمنون هذا نفسـه عصـا الحج والتلفيعـة، ثم غادرت جوانفيل على الفور، ولم أعـد إلى قلعتي ولم أدخلها حتى عودتي من بلاد ما وراء البحر، وحين غادرت جـوانفيل غادرتها عاري القدمين وأرتدي قميصي فقط، ومضيـت باللبـاس نفســه إلى بليكورت Ble-court ، وإلى سينت أوربين Urbain ، وإلى أمـاكن أخـرى، يوجـد فيها آثار مقـدسة، وطوال الطريق إلى بليكورت، وسينت أوربين، لم أدع عينيّ تلتفتان نحو جوانفيل، خشية أن يمتلي قلبي بالشوق لدى تفكيري

بقلعتي المحبوبة، وبولديّ اللذين تركتهما خلفي.

وفي طريقنا إلى مرسيليـا، توقفت أنا وصحبي لتناول الطعام عند«نبع رئيس الأساقفـة» وهو قريب على هذا الطـرف من دونجو Donjeux ، وهنا أهـدانا راعـي دير سينـت أوربين عـــدداً من الجواهـر الثمينة لي وللفرسـان التسعة الذين كانوا معـي، وذهبنا من هناك إلى أوكسون، ثم انطلقنا مـرة ثانيـة مع أمتعتنا التي كـانت محملة من أجلنا على قـوارب، وهكذا رحلنا معها هبـوطاً في السوان إلى ليون، في حين اقتيـدت خيول حربنا العظيمة على طول شاطىء النهر على محاذاة القوارب.

وفي ليــون ركبنـا متن نهر الرون للذهـاب إلى آرل — لى — بلانك Arles - Le - Blanc ، وفيها كنا هابطين ذهـاباً على النهـر مـــررنا بخرائب قلعة اسمها روشي — دي — غلن Roche - De - Glun، كان الملك قـد خربها، لأن روجر صاحـب القلعة قد وجد مجرمـاً لسلبه التجار والحجاج.

وصعدنا إلى ظهـر سفينتنا في ميناء مرسيليـا في شهر آب(١٢٤٨) وفي يوم ركـوبنا جـــرى فتح باب السفينة المصـاقب لجانـب الميناء، من أجل وضع جميع الخيـول التي نريد أن نأخـذها معنا إلى بلاد ما وراء البحـر، وربطها، وما أن أصبحت الخيول في الداخـل حتى جرى إغلاق الباب، وسد جوانبه بالقار بكل عناية، مثلما يصنع بالدن قبل إلقائه في الماء، لأنه ما أن تصبح السفينة في أعالي البحار، حتى يغدو الباب تحت الماء تماماً.

وعندما انتهت هذه العملية ، دعـا قبطاننا بحارته الذين كانوا واقفين قرب مقدمتها وصرخ:«هل أنتم جاهزون» ؟ فصرخوا مجيبين«نعم، نعم، أيها السيد، يمكـن لك استدعاء الكهنـة والقسس للتقدم نحـو الأمام»، ومـا أن كمل اجتماع هؤلاء حتى صرخ قبطاننا لهم قائـلاً:«باسم الرب، اشرعـوا بالغناء»، وبناء عليـه غنت المجمـوعـة كلها بصـوت واحـد

«Venicreater spiritus» ولدى الانتهـاء هتف القبطـان ببحـارته قائلاً:«انشروا الأشرعة باسم الرب» وجرى تنفيذ هذا على الفور .

وسرعان ما هبت الرياح، وأبعدتنا عن مشهد اليابسة، ثم لم نعد نرى شيئاً سوى البحر والسماء من حـولنا، وتابعت الريح دفعنا وإبعادنا أكثر فأكثر عن الأرض التي ولدنا فيها، وإنني إذ أقص عليكم هذه التفاصيل لتقدروا حمق الإنسـان الذي يتجرأ على وضع نفسـه في مثل هذا الوضع الخطر، وهو مغتصب لأمـلاك الآخـرين، أو مقترف شخصيـاً لذنب عظيم،لأن ما من مسـافر يمكنه أن يعـرف عندما يمضي للنوم في الليل، هل سيكون في الصباح التالي متمدداً في قاع البحر أم لا ؟

وشاهدنا نحن أنفسنا أعجـوبة غريبة جداً، عندمـا كنا في البحر، ففي إحدى الأمسيات وفي حوالي وقت العشاء كنا نبحر على طول السواحل المغربيـة، فمررنا بجبل له شكل مستدير كالطشت تمامـاً، وأبحرنا طوال الليل، وبتقـديـري أننا قطعنا مـا يزيد على الخمسين ميـلاً، لكن عند الصبـاح وجدنا أنفسنا في الخلف نسـاير الجبل نفسـه(*)، ولقد حـدث هذا الأمر تماماً لنا مرتين أخرتين أو ثلاث مرات، واندهش بحارتنا تجاه هذه الظاهرة الغريبة، وجاءوا ليخبروننا أنهم يخشون أن سفينتنا في خطر عظيم جـداً، ذلك أننا قـد حبسنا على مقـربة قـريبـة جـداً من سـواحل المغرب، التي هي بأيدي المسلمين.

وبيّن عند هذه النقطة واحـد من الكهنة الجيـدين، الذي كـان عميـد موروبت Maurupt أنه شخصياً عندما كـان يعاني من مشكلة صعبة، سواء في قلة الماء، أو في سقـوط مطر كثيف أو في أية حالة من الحالات المعاكسـة، كان عليه فقط أن يقـوم بثلاث مسيرات خـلال ثلاثة سبوت متوالية، حـول المنطقة، ووقتها سوف يبادر الرب وأمـه إلى منحه تفريج سريع، ولقد قـال هذا عندما حدثت الواقعـة، وكان ذلك في يوم سبت، ولقـد قمنا بمسيرتنا حول صـاريتين من صواري سفينتنا، وكنت أشعـر بالمرض الشديد آنذاك، ولهذا حملت على أذرعة بعض رجالي، ولم نر ذلك

*— لعل مرد هذا كان إلى تيار معاكس في البحر المتوسط، وليس عملاً عجائبياً كما تصور جوانفيل .

الجبل ثانية، ووصلنا في السبت الثالث إلى قبرص .

وفي الوقت الذي وصلنا فيه قبرص كان الملك هناك، ووجدنا كميات وافرة من العتاد موضوعة هناك لاستخدام جلالته: من ذلك على سبيل المثال كميات كبيرة من المال في خزانته، ومخزون كبير من الخمرة ومن القمح، وصنع له رجاله نوعاً من أنواع الأقبية في وسط حقل قريب من الشاطىء، لوضع أعداد كبيرة من البراميل الضخمة من الخمرة، وكانوا قد شرعوا بشرائها منذ عامين قبل وصول الملك، وقد صفوها فوق بعضها بعضاً حتى باتت إذا ما نظرت إليها عن بعد خيل إليك أنها بيوت كبيرة.

وجرى تكديس القمح والشعير على مساحات كبيرة حول الحقول حتى باتت أشبه بالتلال العالية، وطال سقوط الأمطار على هذه الأكوام، مما سبب إنباتها حتى ظهرت الأكوام وهي مغطاة بالأعشاب، ولذلك كان بإمكانك أن تتصور هذه الأكوام عندما تلقي نظرة أولى عليها أنها كانت روابي، وعندما حان الوقت لنقل الحبوب إلى مصر،وجدنا الوضع عندما أزحنا الطبقة الأولى الخضراء، أن القمح والشعير تحتها كان في وضع جيد وكأنه قد حصد الآن.

وسمعت فيما بعد في سورية أن الملك نفسه كان يود الذهاب مباشرة إلى مصر، دون التوقف في قبرص، لولا أن باروناته قد نصحوه بالانتظار في قبرص وصول الناس الذين لم يكونوا قد وصلوا بعد.

وعندما كان الملك مقيماً في جزيرة قبرص، بعث ملك التتار العظيم برسل يحملون كثيراً من الرسائل اللطيفة، وذات المشاعر الصديقة، وقد أومأت هذه الرسائل ضمن أشياء كثيرة، بأنه كان على استعداد لتقديم العون إلى ملكنا في الاستيلاء على الأرض المقدسة واستخلاص القدس من أيدي المسلمين.

واستقبل الملك هؤلاء الرسل بحفاوة كبيرة وأكرم وفادتهم بمشاعر صديقة، وبعث لدى عودتهم برسل من عنده، وقد بقي هؤلاء في سفرهم لمدة عامين، وأرسل صاحب الجلالة مع هؤلاء الرسل إلى ملك التتار بخيمة أعدت لتكون كنيسة، وكانت ثمينةوغالية حقاً، لأنها صنعت من قماش قرمزي ممتاز، فضلاً عن هذا أمر الملك أن يصنع لهذه الكنيسة مجموعة من التماثيل الصغيرة المنحوتة من الحجر، تمثل البشارة التي جاءت إلى سيدتنا مع مواضيع تتعلق بالعقيدة المسيحية، وكان هدفه من هذا جعل ديانتنا تبدو أكثر جاذبية للتتار.

وكان الرجال الذين عهد إليهم بهذه الأشياء عبارة عن رجلين أعضاء في طائفة البندكتيين، وكانا يعرفان لغة التتار، وبالتالي كان يمكنهما تعليمهم مبادىء ديانتنا، وأن يوضحوا لهم ما الذي ينبغي عليهم اعتقاده.

وعاد هذان الراهبان من بلاد التتار في الوقت الذي غادر فيه أخوي الملك عائدين إلى فرنسا، وقد وجدا الملك قد ترك عكا، وأن أخويه قد فارقاه، وتوجه هو إلى قيسارية حيث كان مشغولاً بتحصينها،لأنه لم يكن آنذاك لا صلح ولا هدنة بينه وبين المسلمين، ولسوف أخبركم فيما بعد كيف جرى استقبال رسولي جلالته في بلاد التتار، وذلك حسبما أبلغاه، ووقتها سوف تسمع بأشياء كثيرة غريبة ورائعة، غير أنني لن أتعامل مع هذه القضية الآن، لأنني إذا ما أردت ذلك سوف أقطع سياق الرواية التي بدأت أحكيها وأذكرها.

وأعود الآن إلى سياق روايتي: ومع أنني امتلكت أقل من ألف دينار،وكان هذا دخلي الذي يأتيني سنوياً من بلادي، لقد كان علي — عندما ذهبت إلى بلاد ماوراء البحر — أن أتحمل بالإضافة إلى نفقاتي الخاصة، الإنفاق على تسعة فرسان مع فارسين من حملة الأعلام،وحدث أيضاً، أنه في الوقت الذي وصلت فيه إلى قبرص، لم يكن في يدي، بعد

الدفع لسفينتي أكثر من مائتين وأربعين ديناراً، ولهذا أخبرني بعض فرساني أنني إذا لم أجهز نفسي بالمال سوف يتخلون عني، لكن الرب لم يخذلني قط، وجاء إلى مساعدتي في هذه الحالة الحرجة، حيث أن الملك الذي كان آنذاك في نيقوسيا، بعث إلي، ليضعني في خدمته، وأعطاني ثمانمائة دينار لإضافتهم إلى ميزانيتي، وهكذا امتلكت في النهاية من المال أكثر مما احتجته بالفعل.

وعندما كنا مقيمين في قبرص، أرسلت امبراطورة القسطنطينية رسالة إليّ، أخبرتني فيها بأنها قد وصلت إلى بافوس، وهي بلدة في تلك الجزيرة، وسألتني التوجه لزيارتها هناك، بصحبة إيرارد دي بريين، وعندما وصلنا إلى بافوس، وجدنا أن عاصفة شديدة من الريح قد قطعت حبال المرساة التي تحبس سفينتها وتمسكها، ودفعتها إلى عكا، وبذلك لم يبق معها من جميع ثيابها شيئاً باستثناء عباءة كانت ترتديها،ومعطف خارجي من أجل وجبات طعامها، وقد أحضرناها معنا إلى ليماسول، حيث استقبلها الملك والملكة وجميع بارونات الجيش الفرنسي بحفاوة عظيمة.

وبعثت إليها في اليوم التالي ببعض الأقمشة لصنع ملابس لها، وذلك مع قطعة من فراء الفاقم الثمين لتزيينها، وإلى هذا أضفت قطعاً من القماش الصوفي«التفتاه»والحرير لتستخدم بطانة، وصدف أن قابل فيليب دي نانتيل Nanteuil— وكان فارساً جيداً من فرسان حاشية الملك — تابعي وهو ذاهب، وحامل لهذه الأشياء إلى الامبراطورة، ولما رأى هذا الرجل الجيد ما هو جاري، ذهب على الفور إلى الملك وأخبره بأنني أهنت كل من الملك والنبلاء الآخرين، ببعث ملابس إلى الامبراطورة، في حين أنهم أنفسهم الذين كان عليهم التفكير بهذا الموضوع لم يفعلوا ذلك.

وقد جاءت الامبراطورة لطلب العون إلى زوجها الذي بقي في

القسطنطينية، وقد عرضت المسائل بشكل جيد وبتوفيق حتى أنها كانت قادرة على أن تحمل معها لدى عودتها أكثر من مائتي رسالة، مني ومن أصدقائها الآخرين في قبرص، فيها تعهدنا بأغلظ الأيمان، أنه بعدما يعود الملك من بلاد ما وراء البحر، إذا ما رغب هو أو النائب البابوي في إرسال كوكبة مكونة من ثلاثمائة فارس إلى القسطنطينية، سوف نكون جاهزين للذهاب بصحبتهم .

ويمكنني القول، أنه عندما حان وقت عودتنا إلى فرنسا، قمت أنا شخصياً ببحث هذه المسألة مع الملك، أي مسألة الوفاء بتعهداتي التي أقسمت عليها، وفعلت ذلك بحضور كونت دي أيو Eu ، الذي أحمل كتابه معي، وسألت الملك فيما إذا كان يرغب بارسال ثلاثمائة فارس إلى القسطنطينية، فإذا ما رغب بذلك، فأنا سأذهب برفقتهم، وذلك حسبما تعهدت شخصياً بفعل ذلك، وعلى كل حال، أجابني الملك بأن إمكاناته المالية لاتسمح له، لأن جميع الاحتياطات المالية الكبيرة التي امتلكها فيما مضى في خزانته، قد أنهكت الآن تماماً وتبددت.

وبعدما ذهبنا إلى مصر، مضت الامبراطورة إلى فرنسا بصحبة أخيها، مولاي جون(دي بريين) صاحب عكا، الذي هيأت له فيها بعد زواجاً من الكونتسة دي مونتفورت.

وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى قبرص كان سلطان قونية هو الأغنى في جميع العالم الإسلامي، وقد تصرف على سبيل المثال تصرفاً مدهشاً تماماً، فقد أمر بتذويب جزء كبير من ذهبه، وصبه في جرار فخارية كبيرة، من النوع الذي يستخدم في بلاد ما وراء البحر لحفظ النبيذ، وسعة كل منها ما بين الثلاثة إلى أربعة براميل كبار، ثم أمر بعد ذلك بكسر الجرار،وترك السبائك الذهبية الضخمة غير مغطاة في إحدى قلاعه، حيث يمكن لكل إنسان يدخل إليها رؤيتهم وإمساكهم، وكان هناك ما لايقل عن ست أو سبع من هذه السبائك الضخمة.

ومن الممكن تكوين تصور عن الثروة الضخمة لهذا السلطان من خلال فسطاط يساوي ثمنه ما لايقل عن خمسمائة دينار، كان ملك أرمينيا قد بعث به إلى ملك فرنسا، وأخبره بالوقت نفسه أنه هو شخصياً قد أعطي له من قبل واحد من أتباع سلطان قونية، وأريدكم الآن أن تعرفوا أن التابع هو خادم يتولى الاهتمام بسرادقات السلطان، ويحفظ بيوته نظيفة.

ولكي يحرر ملك أرمينيا نفسه من الخضوع إلى سلطان قونية، ذهب إلى ملك التتار، وصار من أتباعه بهدف الحصول على مساعدته، ولدى عودته إلى أرمينيا جلب هذا الملك معه عدداً كبيراً من الرجال المسلحين، حيث صار في وضع هو فيه من القوة بمكان بحيث يستطيع شن الحرب على سلطان قونية، ولقد استمر الصراع بينهما لوقت طويل جداً، وفي النهاية قتل التتار عدداً كبيراً جداً من رجال السلطان، وهكذا فقد حاكمهم هذا مكانته، ولم يعد يسمع عنه أحد من الناس، وانتشرت في الوقت نفسه تقارير كثيرة مثيرة عن المعركة في قبرص، إلى حد أن بعض سيرجنديتنا، جذبتهم فرصة القتال وأمل الحصول على الغنائم، فعبروا إلى أرمينيا، لكن ما من واحد منهم قد عاد .

وكان سلطان مصر يتوقع وصول ملكنا إلى مصر في الربيع، لذلك ارتأى في الوقت نفسه أن ينتهز الفرصة ويذهب للإطاحة بعدوه اللدود سلطان حمص، ولهذا ذهب لمحاصرته في مدينته، ولم ير سلطان حمص من سبيل للتخلص من عدوه، ولقد أدرك أن هذا العدو إذا ما عاش طويلاً بما فيه الكفاية فلسوف يدمره بدون أدنى شك، ولهذا اتصل بواحد من خدم سلطان القاهرة، ورشاه حتى يتولى دس السم إلى مولاه.

وهاكم خبر الطريقة التي طبقها: كان الخادم يعرف أن السلطان معتاد على أن يجلس للعب بالشطرنج بعد تناول الغداء، وقد اعتاد على

- ٢٨٠٩ -

الجلوس على السجاد الممدود عند طرف فراشه، لهذا عمد إلى رش السم على السجادة التي كان يعرف بأن مولاه اعتاد أن يجلس عليها كل يوم، والذي حدث هو أن السلطان كان يغير طبيعة جلوسه، وفي تلك الأثناء كان حافي القدمين، وكان في ساقه جرح، وفي هذه الأثناء دخل السم على الفور إلى الجرح المفتوح، وشل حركة الطرف الذي سرى فيه من الجسد، وهاجم السم قلبه مراراً، وهكذا بقي السلطان لمدة يومين غير قادر على الشرب، أو الأكل، أو الكلام، وهكذا ترك أصحابه سلطان حمص ينعم بالهدوء، وحملوا سيدهم عائدين إلى مصر.

الفصل الرابع
النزول في مصر
(١٢٤٩)

مع بدية شهر أيار، وبناء على قرار ملكي، صدرت الأوامر إلى جميع السفن العائدة إلى الملك، والبارونات ولبقية الصليبيين، بشحنها بكميات جديدة من الخمرة وببقية أنواع الميرة، وأن تكون جاهزة للابحار عندما تصدر توجيهات الملك، وما أن رأى جلالته أن كل شيء قد تمّ على مايرام، صعد هو وملكته إلى ظهر سفينتيهما يوم الجمعة قبل أحد الشعانين، وفي يوم السبت نشر الملك لويس أشرعته، وذلك بعدما أخبر باروناته باللحاق به في سفنهم مباشرة إلى مصر، وانطلق هو وانطلق الجميع يسيرون خلفه، ولقد كان بالفعل منظراً جميلاً أن تنظر إليه، لأن البحر كله بدا بقدر امتداد البصر مغطى بقلوع السفن المبحرة، ولقد بلغ تعداد السفن المبحرة ما بين صغيرة وكبيرة ألفاً وثمانمائة .

وألقى الملك مرساة سفينته عند هضبة صغيرة تدعى باسم رأس ليماسول، وتوقفت جميع السفن من حوله، وكان قد ذهب إلى الشاطىء في يوم أحد الشعانين، وبعدما سمع قداساً، هبت ريح عاصفة شديدة، جاءت عبر البحر من اتجاه مصر، وبدأت بالهبوب بشكل بلغ من العنف أن سبعمائة من الألفين وثمانمائة فارس الذين كان الملك يصحبهم معه في هذه الحملة بقيوا فقط، ولم تفصلهم الريح عن جماعته، ولم تحملهم إلى عكا وإلى مراسي أجنبية أخرى، ولم يستطع هؤلاء الالتحاق بالملك إلاّ بعد مضي وقت طويل.

وسكنت الريح في يوم الإثنين التالي لأحد الشعانين، وقام الملك والذين بقيوا — بإرادة الرب — معه بالابحار على الفور، والتحق بنا

على الطـريق أمير المورة، ودوق بيرغنـدي، الذي كـــان مقيماً في بـلاد الأمير، وفي يوم الخميس التــالي وصـل الملك إلى أمــام دميــاط، حيث وجـدنا صفاً كـاملاً من قـوات السلطان متمركـزاً على الساحل، وكـان منظراً يريح العين، لأن أسلحة السلطان كانت كلهـا مذهبة، وكانت إذا مـا وقعت عليهـا أشعـة الشمس يصــدر عنهـا بريق يخطف الأبصـار، وكانت الأصوات الصـادرة عن طبول هذا الجيش وعن أبواق المسلمين مرعبة لسامعيها.

واستدعى الملك باروناته ليسمع آراءهم حول ما يرون أن عليه القيام به، وقد نصحه عدد كبير منهم بالبقاء حتى يلتحق به بقية أتباعه، لأنه لم يكن بقي معـه في تلك السـاعة أكثـر من ثلث قـواته، لكنه لم يوافق على ذلك بأي حال من الأحوال، والسبب الذي قـدمه لهم أن التأخير سوف يفيد في رفع معنـويات الأعداء وتقويتهـا، والأكثر أهميـة من ذلك أنه لم يكن في دمياط مرسى يمكنه أن ينتظر فيـه رجاله، دون التعرض لمخاطر ريح أخرى تهب فتجـرف المتبقي من سفنه، وتدفعهـا إلى بلدان أخرى، كما حدث لبقية السفن يوم أحد الشعانين.

وتقـرر أن ينزل الملك إلى اليـابسـة يـوم الجمعـة قبل يوم أحـد عيـد التثليث، والاشتبـاك بالقتـال مع المسلمين، مـا لم يرفضوا القتـال، وأمـر جـلالته جين دي بيمـونت بأن يخصص غليـوناً لايرارد دي بريين ولي شخصيـاً، حتى نتمكن مع فرسـاننا من النزول إلى اليابسـة، لأن السفن الكبيرة لايمكنهـا الاقتراب بشكل كاف من الشـاطىء، وحـدث بإرادة من الرب، أنني وأنا عـائـد إلى سفينتي أن مـررت بمركب أصغـر، قـد أعطي لي مـن قبل صــاحبــة بيروت، التي هـي ابنة عم لي شخصيــاً ولكونت مونتبليارد، وقد حمل هذا المركب ثمانية من خيولي.

وعندما جاء يوم الجمعة توجهت أنا وكونت إيرارد، ونحن مسلحين تماماً إلى الملك، وطلبنا منه الغليون، وبناء عليه أخبرنا جين دي بيمونت

أننا لن نحصل على واحـد، وعندما علم رجالنا بأنه لن يكون هناك غليون سيأتي لنقلنا، جعلوا أنفسهم يتساقطون من سفينتنا إلى قاربها الطويل، واحداً فوق الآخر، وذلك بقدر ما استطاعوا من سرعة، لهذا بدأ القارب بالغرق، وعندما رآه البحارة يغرق قليلاً قليلاً، هربوا عائدين إلى السفينة الكبيرة، وتركوا فرساني في القارب، وسألت وقتها ملاحي كم عدد الزيادة من الناس في القارب فوق قدرته على الحمل، فأخبرني بوجود اثنين وعشرين رجلاً مسلحاً، ثم سألته فيما اذا كان بإمكانه تدبر أخذ رجالنا إلى اليابسة، إذا ما أخذت عدداً منهم من بين يديه، وعندما أخبرني أنه يستطيع ذلك، احتفظت بعددٍ كافٍ من الرجال، وجعلتهم ينقلون على ثلاث دفعات إلى السفينة التي حملت خيولي.

وبينما أنا مشغول بالإشراف على نقل رجالي، قام فارس اسمه بلونكيه Plonquet ، وكان من فرسان ايرارد دي بريين، بمحاولة إلقاء نفسه من السفينة الكبيرة إلى القارب الطويل، لكن القارب دفع بعيداً، لهذا سقط في البحر وغرق.

وعندما عدت إلى سفينتي وضعت زورقي الصغير في عهدة واحد من أتباعي، اسمه هوغو دي فوكولير Vaucouleurs ، وقد قمت فيما بعد برسمه فارساً هناك، وقد أعطيته مرافقين له اثنين من الفرسان الشباب غير المتزوجين، وهما: فيلين دي فيرسي Vilain de Versey ووليم دي دامارتين Dammartin، وحدث أن كانا يكرهان بعضهما كراهية شديدة، حتى أنه ما من أحد استطاع حتى ذلك الحين مصالحتهما، وكان سبب ذلك أن أحدهما أمسك بشعر الآخر عندما كانا في المورة، وعلى كل حال جعلتهما يتخليان عن خصومتهما ويتعانقان، لأنني أقسمت لهما على الأناجيل المقدسة أننا لن ننزل إلى اليابسة ماداما مصران على مخاصمة أحدهما للآخر.

ثم وجهنا سيرنا نحـو اليابسة ووصلنـا إلى محاذاة القارب المربوط إلى سفينة الملك الكبيرة، حيث كان جلالتـه على ظهرها، وحيث كنا ماضين بسرعـة أعظم من سرعة رجـال الملك، وشرع الرجال الذين كـانوا على ظهر السفينة يهتفون تحية لنا، وأخبروني بالـرسو إلى جانب راية القديس دنس التي كانت محمولة فوق سفينة أخرى سارت أمام سفينة الملك، ولم أصغ إليهم، بل على العكس رسـوت مع رجـالي أمام كـوكبـة كبيرة من المسلمين، كـان تعـدادهم في ذلك المكان ستـة آلاف رجـل على ظهـور خيولهم.

وما أن رأونا ننزل حتـى حملوا علينا حملة شديدة، وبالنسبـة لنا عندما رأيناهم مقبلين نحونا غرسنا النهـاية الحادة من ترستنا في الرمال، وثبتنا رماحنا في الأرض، بكل شدة، وجعلنا أسنتهـا مشرعة نحو العدو، لكن في اللحظة التي رأوا فيهـا أن رماحنا سوف تخرق بطـونهم، نكصوا على أعقابهم وولوا هاربين.

وبعث إليّ بلدوين دي رايمـز، وكـان فـارساً جـديراً له مكانتـه، قـد وصل لتـوه إلى الشـاطىء، رسالة حملهـا إليّ تابعـه، يطلب فيهـا مني أن أنتظره، ولقد أعلمتـه بأنني سوف أفعل ذلك بكل تـرحيب، لأن إنساناً له سماته جـدير بالانتظار في مثل هذه الساعـة الحرجة، ويمكنني القـول أنه بسبب جـوابي هذا، كان ينظر إليّ دومـاً نظرة تقدير، وقـد جلب هذا الرجل الجيد معه ألف فـارس للالتحاق بنا، ويمكن أن أؤكد لكم أنني عندما نزلت إلى اليـابسة لم يكن معي لاتابع، ولافـارس، ولاخادم، ممن جلبته معي من مقاطعاتي، ومع هذا لم يتركني الرب غير مجهز بالرجال.

وكان كونت يافـا على وشك الإرساء على يسارنا، وهذا الكونت هو ابن عم مـولاي لورد أوف مونتبليارد، وأسرة جـوانفيل، وحين نزل إلى اليابسة نزل في أبهى مشهد، ذلك أن غليـونه كان مغطى فوق الماء وتحته بصور تحمل رنوكـه، كما كانت محلاة بالذهب مـع شكل صليب محفور،

وكان لديه في غليونه ما لايقل عـن ثلاثمائة مجذف، وكان إلى جانب كل مجذف ترس صغير عليــه رنك الكونت، وقــد ربط إلى كـل ترس علم صغير عليه الرنك نفسه معمول من الذهب.

ولدى اقتراب هذا الغليـــون ، بدا وكأنه يطير طيرانـاً، فقـد دفعــه المجذفـون بسرعة كبيرة نحو الأمـام وبقوة بفضل قوة حـركة مجاذيفهم، ومع سماع أصـوات خفقان الرايات، وقـرع الطبول، وزعقـات الأبواق الإسلامية على ظهـر هذه السفينة، كان يمكن أن يخيل إليك أن صواعق كانت تنزل من السماء، ومـا أن دفع هذا الغليون إلى طرف الرمـال بقدر ما هو ممكن حتى قفـز الكونت وفرسانه إلى الشـاطىء، وكانوا مسلحين بشكل جيد، ومجهزين بشكل ممتاز، ومضوا لأخذ مواقعهم إلى جانبنا.

ونسيت أن أخبركم، أنه بعـد النزول إلى اليـابسـة ، أمر كـونت يافـا بنصب خيمه وسرادقه على الفور، ومـا أن رآهم المسلمون يرفعون حتى اجتمعوا معاً في كتلة واحدة أمامنا، ثم قـدموا ثانية، وقد هزوا خيولهم، وكأنهم عزموا على سحقنا، لكن عندما رأوا أننا لانريد الانهزام، نكصوا ثانية على أعقابهم وانسحبوا.

وعلى يميننا، وعلى مسافـة رمية قوس عقـار عنا، رست السفينة التي كـانت تحمل راية القديـس دنس، وحمل واحد من المسلمين، إمـا لأنه لم يستطع ضبط حصــانه، أو لأنه ظن بأن بقيــة المسلمين سـوف يحملون خلفـه، وصـار هـذا المسلم في وسط الرجـال الذين نزلـوا إلى اليـابسـة لتوهم، غير أنه مزق إلى أشلاء.

وعندمـا سمع الملك بأن راية القـديس دنس صارت على الشـاطىء، اعتلى بسرعـة على ظهر سفينتـه، وعلى الرغم من جميع ما قـاله القاصـد الرسـولي الذي كـان معـه،رفـض التخلي عن شعـاره الملكي، وقفـز إلى البحـر، حيث وصل الماء إلى إبطيـه، ومضى نحو الأمـام، وترسـه معلق

من رقبتــه ورمحه بيـده، وخــوذته على رأسـه وتـابع سيره حتى التحق بجماعتـه على الشاطىء، وعندمـا وصل إلى اليـابسة ولمح الأعـداء، سأل من هؤلاء ؟، فأخبر بأنهم مـن المسلمين، فـوضع رمحه تحت إبطه، وحمل ترسـه وجعلـه أمـامـه، وأراد أن يحمل مبــاشرة عليهم، لولا أن بعض الرجال الحكماء الذين كانوا من حوله لم يسمحوا له بذلك.

وأرسل المسلمـون ثلاث مـرات رسـائـل بوسـاطة الحمام الزاجل إلى السلطان، يخبرونه فيها بأن الملك نزل إلى اليـابسة، غير أنهم لم يتلقوا أي رسالة جوابيـة منه، وكان سبب ذلك عجز السلطان نتيجـة مرضه الذي استبد به، ولقـد تصوروا لذلك أنه قد مـات، وهكذا تخلى المسلمون عن دميـاط، وبعث الملك بواحد من الفـرسان ليتحقق فيما إذا كـانوا بالفعل قد تركوا المدينة، وقد عاد ليخبر الملك بأنه قد دخل إلى قصر السلطان، وأكـد بأن التقـرير كـان صحيحـاً وأرسل جـلالته على الفـور القـاصـد الرسـولي وجميع الأساقفـة الذين كانوا في الجيش، وعندمـا تجمعوا معـاً أنشدوا«Te deum Laudamus»، وامتطى الملك بعـد هذا فـرسـه، وحذا البقية حذوه، وزحفنا جميعاً، وعسكرنا أمام مدينة دمياط .

وتصرف الترك بشكل غير حكيـم بتخليهم عـن دميـــاط، من دون قطعهم لجسر القـوارب، لأنهم لو فعلوا ذلك لأعاقـونا كثيراً، وهم على كل حال آذونا كثيراً بإلقاء النار بـالسوق، حيث جمعت البضائع والسلع الأخرى التي كانت تباع بالوزن، وكانت نتائج هذا العمل كبيرة بالنسبة لنا، لايعدلها — لاسمح الرب — سوى أن يقوم إنســان ما غداً، بإلقاء النار على الجسر الصغير في باريس.

الفصل الخامس

احتلال دمياط

(١٢٤٩)

دعونا الآن نعلن أن الرب القدير كان كريماً جداً معنا ونحونا، عندما حفظنا من الموت ومن الخطر، الذي نزلنا فيه إلى اليابسة، ذلك أننا نزلنا مترجلين، وهاجمنا عدواً كان على ظهور الخيول، وأظهر الرب نحونا نعمة كبيرة بمنحنا دمياط ووضعها بين أيدينا، لأنه كان من الممكن الاستيلاء عليها فقط بتجويع الأعداء، ويمكن أن نعد هذا مؤكداً، لأنه بهذه الطريقة نفسها استولى عليها الملك جون(دي بريين صاحب القدس) قبل أكثر من جيل مضى بقليل.

وعلى كل حال يستطيع ربنا أن يقول عنا، مثلما قال عن بني إسرائيل:«نسوا الرب مخلصهم .. ورذلوا الأرض الشهية»(المزامير : ٢١، ٢٤) ثم ماذا قال بعد ذلك ؟ لقد قال بأنهم نسوا الرب مخلصهم، وكذلك نحن نسيناه، كما سأخبركم بعد قليل.

غير أنني سوف أخبركم أولاً، كيف استدعى الملك لويس إليه باروناته، وطلب منهم مساعدته لاتخاذ قرار حول كيف يمكن توزيع الغنائم التي جرى أخذها من المدينة، وكان أول المتحدثين هو البطريرك حيث قال:«أعتقد يا صاحب الجلالة أنه سيكون مفيداً أن تبقى مشرفاً على القمح والشعير، والأرز، وكل ما هو محتاج للتقوت به، وبذلك يمكنكم الاستمرار في إمداد المدينة بالأطعمة، وأعتقد أيضاً أنه يتوجب عليكم الإعلان في جميع أرجاء الجيش أنه ينبغي جلب جميع البضائع إلى أماكن تمركز النائب البابوي، وذلك تحت التهديد بالحرمان الكنسي»، ولاقى هذا الاقتراح موافقة عامة، وكان الذي حدث على كل حال، أن

مجمل قيمة البضائع التي جلبت إلى أماكن تمركز النائب البابوي، لم يتجاوز الستة آلاف دينار.

وبعدما جرى جمع كل شيء، أرسل الملك والبارونات خلف جين دي فاليري Valery ، الذي كان معروفاً بأنه رجل حكيم ومحترم، وقال له الملك:« مولاي صاحب فاليري، لقد اتفقنا جميعاً على أن يسلمك القاصد الرسولي هذه الستة آلاف دينار، لتقوم بتوزيعها حسبما تراه هو الأفضل»، وقد أجابه هذا الرجل الجيد بقوله:«لقد منحتني جلالتكم شرفاً عظيماً، وأشكركم لذلك من قلبي، لكن — إنشاء الرب — لايمكنني قبول هذا التشريف، كما لايمكنني تنفيذ رغباتكم، لأنني لو قبلت، عليّ العمل بشكل معاكس للعادة الحسنة للأراضي المقدسة، التي قضت أنه إذا ما تم الاستيلاء على إحدى مدن العدو، يأخذ الملك ثلث جميع البضائع التي توجد فيها، ويأخذ بقية الصليبيين الثلثان، وقد جرى احترام هذه العادة ومراعاتها من قبل الملك جون، عندما استولى على دمياط، وكذلك فعل — كما يخبرنا المؤرخون — جميع ملوك القدس قبل هذا اليوم، وبناء عليه إذا كنت ترضى بإعطائي ثلثي القمح، والشعير، والأرز، وبقية أنواع الميرة، سوف أتولى بكل سرور توزيعهم بين الصليبيين»، وعلى كل حال، لم يوافق الملك على فعل هذا، وهكذا بقيت المسائل على ما هي عليه، لكن كثيراً من الناس كانوا غير راضين باختيار جلالته تجاهل مثل هذه العادة الجيدة القديمة.

وجعل رجال الملك التجار يدفعون، مع أنه كان متوجباً عليهم المحافظة على علاقات جيدة معهم، ومعاملتهم بشكل كريم، ويقال بأنهم حصلوا منهم أعلى الإيجارات التي أمكنهم فرضها عليهم مقابل الحوانيت التي باعوا فيها بضائعهم، وانتشر هذا التقرير إلى مناطق أخرى، ونتيجة لذلك، تخلى كثير من التجار عن فكرة جلب الميرة إلى المعسكر.

أما البارونات، الذين كان من المتوجب عليهم الحفاظ على أموالهم، لإنفاقها لأفضل المنافع، في الوقت المناسب والمكان الموائم، فقد شرعوا في إقامة احتفالات وولائم عظيمة جرى خلالها استهلاك كميات كبيرة من الأطعمة، أما بالنسبة للسواد الأعظم والأساسي من القوات، فقد انصرفوا نحو معاشرة العاهرات، ولهذا قام الملك بعد عودتنا من الأسر، بصرف عدد كبير من أتباعه، وعندما سألته لماذا فعل ذلك، أخبرني أنه وجد بشكل مؤكد أن هؤلاء الذين عزلهم من جيشه، قد اجتمعوا من أجل فسوقهم في مكان لايبعد رمية حجر عن سرادقه، وأن هذا كان منهم في الوقت الذي كان فيه الجيش كله يعاني فيه من أشد ضروب الشقاء، ومن أعظم ما عرفه قط من آلام.

ولسوف أعود الآن إلى موضوعي الأساسي، وأخبركم كيف قام فرسان السلطان بعد مضي وقت قصير على استيلائنا على دمياط بالاحتشاد أمام المعسكر، وهاجموه من ناحية البر، وقام الملك وفرسانه بتسليح أنفسهم، أما أنا فمن جانبي ، قمت بعدما لبست دروعي بالذهاب للحديث مع الملك، وقد وجدته شاكي السلاح، وجالساً فوق مقعد، مع خيرة فرسانه من حوله، وهم أيضاً في سلاحهم وعدتهم الكاملة، وسألته عما إذا كان يرغب أن أذهب مع رجالي للتمركز خارج المعسكر، لأحول بذلك بين المسلمين وبين تدمير خيمنا، ولدى سماعه لسؤالي، قام جين دي بيمونت بمخاطبتي بأعلى صوته، وأمرني باسم الملك، أن لاأغادر مكان تمركزي حتى تصدر إليّ أوامر الملك بفعل ذلك.

ولقد تحدثت للتو عن الفرسان المحترمين الذين كانوا مع الملك، ولقد كان عددهم ثمانية، وكانوا جميعاً رجالاً جيدين، نالوا جوائز لشجاعتهم وحسن تصرفهم في ميدان المعركة، في كل من بلادهم وفي بلاد ما وراء البحر، وأسماء هؤلاء الذين تولوا رعاية الملك بشكل

خاص كانت كمايلي: غيـوفري دي سارجنس Sargines ، وماثيو دي مارلي Marly ، وفيليب دي نانتويل Nanteuil ، وإيمبرت دي بيجو، قسطلان فرنسا، ولم يكن صاحب الاسم الأخير بين هؤلاء حاضراً في تلك المناسبة، وكان في تلك الساعة خارج المعسكر، مع قائد رماة القسي العقـارة التـابعين للملك، وذلك مع غـالبيـة سيرجندية الملك المسلحين للاحتراز خشية أن يهاجم الترك خيامنا أو يلحقوا أية أضرار بمعداتنا.

وقام في هذه الأثناء غوتيير دي أوتريخ Autreche بتسليح نفسه في جميع أطراف سرادقه ، وبعدما امتطى حصـانه، ووضع ترسه عند رقبته، وخوذته على رأسه، أمر برفع جميع سجف سرادقه، وهمز حصانه ليحمل على الترك، وعندمـا كـان ماضيـاً من سرادقـه بدون مـرافقـه، رفع جميع رجاله أصواتهم وصرخوا«Chatillon »، لكن الذي حدث أنه سقط قبل الوصـول إلى الترك، وقفز حصـانه فوق جسـده، وظل ماضيـاً نحو الأمـام، وهو حامل لأسلحـة صاحبـه، ودخل إلى وسط أعدائنا، وكـان مرد هـذا أن غالبية المسلمين كـانوا يمتطون ظهور إناث الخيـل، ونتيجة لذلك جذب الفحل إلى جانبهم.

وأخبرنا الذين رأوا الحادث، أن أربعـة من المسلمين الترك جـاءوا مندفعين نحـو مولاي غـوتيير عندمـا كان ممدداً على الأرض، وسـددوا نحو جسده ضربات شديدة بدبابيسهم، وهم ماضين في حملتهم، ومضى نحـوه قسطلان فرنسـا مع عدة من سيرجندية الملك، وأنقـذوه، وحملوه عـائـدين على أذرعتهم إلى سرادقـه، وعندمـا وصل لم يكن باستطاعتـه الكلام، وتوجه لرؤيته عدد مـن الجرائحيين والأطباء العائدين للجيش، ولأنه بدا لهم أنه ليس في وضع مميت، قاموا بفصده بذراعيه.

وفي وقت متأخـر من الليـل قـال أوبرت دي نارسي Aubert de Narcy بأننا ينبغي أن نذهب ونلقي نظرة عليـه، لأننا لم نكن قـد رأيناه بعد، يضاف إلى هذا أنه كـان رجلاً كان صاحب سمعـة رفيعة، وعندما

دخلنا إلى سرادقه تقدم نحونا حاجبه لاستقبالنا، وسألنا أن نتحرك بهدوء، حتى لا نوقظ مولاه، وقد وجدناه ممدداً على غطاء من الفرو، وتوجهنا نحوه بهدوء كبير، ووجدناه ميتاً، وعندما أخبرنا الملك بذلك علق قائلاً: بأنه لا يرغب أن يكون لديه ألف رجل مثل غوتيير، لأنهم سوف يعملون ضد أوامره، مثلما فعل هذا الفارس.

وقدم المسلمون كل ليلة إلى معسكرنا على الأقدام، وقتلوا رجالنا حيثما وجدوهم نائمين، وقتلوا بهذه الطريقة حارس مولاي صاحب كورتني Courtenay وبعدما قطعوا رأسه وحملوه معهم، تركوا جسده ممدداً فوق منضدة، وقد تصرفوا هكذا لأن السلطان أعطى كل من جاء برأس رجل فرنجي ديناراً ذهبياً.

وتوجب علينا تحمل هذا العذاب، لأن كتائبنا، عندما كانت كل منها تنفذ دورها في حراسة المعسكر كل ليلة، قام أفرادها بالدوران حول المعسكر على ظهور الخيول، وعندما كان المسلمون يودون دخول المعسكر، كانوا ينتظرون حتى تكون طوائف الجند الخيالة قد ابتعدت، ولهذا كانوا يتسللون إلى المعسكر خلف الجياد، وبناء عليه أصدر الملك أوامره، أنه بدلاً من القيام بالحراسة على ظهور الخيول، على طوائف الجند تنفيذ واجبهم في المستقبل على الأقدام، ونتيجة لهذا تمت حراسة المعسكر بأمان من قبل رجالنا، الذين انتشروا بشكل كان فيه الرجل لايبعد عن جاره سوى ذراع واحد.

وبعد تنفيذ هذه الترتيبات ، قرر الملك أن لايغادر دمياط حتى يصل أخوه كونت بواتييه، مع احتياطات الجيش الفرنسي، ولكي يحول دون حملات المسلمين على المعسكر وهم على ظهورالخيول، أمر بحفر خندق عميق حول المعسكر، ومركز رماة القسي العقارة مع السيرجندية ليقوموا بالحراسة كل ليلة، ووضعت حراسة مماثلة عند مدخل المعسكر.

وعندما مرّ عيد القديس ريميجيوس Remigius ، ولم تصل أخبار عن كونت بواتييه — الأمر الذي أقلق الملك وجميع جيشه كثيراً، لأنهم خافوا أن يكون قد واجه مأساة ما — ذكّرت القاصد الرسولي، كيف جعلنا عميد موروبت، عندما كنا على وجه البحر، نقوم بمسيرات خلال ثلاثة سبوت متوالية، وكيف أنه قبل حلول السبت الثالث قد نزلنا في قبرص، وأولى القاصد الرسولي اهتمامه لما قلته، وأعلن في أرجاء المعسكر أنه سوف تكون هناك مسيرة في كل واحد من السبوت التالية.

وبدأت المسيرة الأولى من محلات القاصد الرسولي، وتوجهت إلى كنيسة سيدتنا في المدينة، وكان هذا المكان مسجداً إسلامياً من قبل، لكن القاصد الرسولي كرسه الآن كنيسة على شرف أم ربنا، وقام القاصد الرسولي خلال سبتين متواليين بقيادة القداس، وكان ذلك بحضور الملك وأعيان الرجال في الجيش، الذين منحهم توبة كاملة.

وقدم كونت بواتييه قبل السبت الثالث، وفي الحقيقة لم يكن قدومه ذا فائدة أعظم كثيراً لو أنه حاول الوصول أبكر، لأن عاصفة هوجاء قد ثارت بين الأسابيع الثلاثة، وكان هيجانها في البحر خارج دمياط مباشرة، حيث جرى تحطيم ما لا يقل عن مائة وعشرين سفينة ما بين صغيرة وكبيرة، وصارت مزقاً وفقدت كلياً، وغرق جميع الناس الذين كانوا على ظهورها، ولذلك لو وصل كونت بواتييه في وقت أبكر، لهلك هو ورجاله في البحر.

وما أن وصل الكونت حتى قام الملك باستدعاء جميع بارونات الجيش، لاتخاذ قرار بشأن الاتجاه الذي سوف يقصدونه، أي الذهاب إلى القاهرة أم إلى الإسكندرية، وتوافق الكونت بيير الطيب، كونت بريتاني مع غالبية البارونات، على تقديم نصيحة له بالذهاب للقيام بحصار الإسكندرية، لأن تلك المدينة امتلكت ميناء جيداً، حيث يمكن للسفن الحاملة للميرة إلى الجيش الرسو وإنزال حمولاتها، لكن كونت دي أرتو

- ٢٨٢٣ -

Artois كـان مناهضاً لهذا الـرأي، وأصر على أنه لن يوافق على الذهاب إلى مكان آخـر غير القاهرة، لأنها كـانت المدينة الرئيسـة في مملكة مصر، وإذا مـا أردت قتـل الثعبـان، عليك قبل كـل شيء أن تهرس رأسـه، ورفض الملك آراء البارونات لصالح رأي أخيه.

الفصل السادس
عمليات فوق النيل
تشرين ثاني ١٢٤٩ — شباط ١٢٥٠

مع بداية استهلال قدوم(المسيح) انطلق الملك مع جيشه للذهاب إلى القاهرة، تماشياً مع نصيحة كونت أرتو، وأتينا إلى موقع كان ملاصقاً تماماً لدمياط، على مجرى ماء صغير، صدر عن النهر نفسه، وتقرر أن يتوقف الجيش هناك لمدة يوم ليقوم بسد هذا المجرى، حتى يمكننا الزحف عبره، وتم إنجاز هذا بسهولة مناسبة، فقد تولينا إغلاق هذا الفرع وسويناه حتى نقطة التفرع عن النهر، بطريقة جعلت الماء ينساب بدون صعوبة كبيرة عائداً إلى المجرى الأساسي، وأرسل السلطان في أثناء عبورنا خمسمائة من خيرة فرسانه الذين وجدهم في جيشه، لمضايقة رجال الملك، وتعويق زحفنا.

وفي يوم عيد القديس نيقولا أمرنا الملك أن نستعد للركوب والزحف نحو الأمام، ومنع في الوقت نفسه أي واحد أن يتجرأ ويهاجم العدو من حولنا، وحدث على كل حال أن الجيش عندما بدأ بالتقدم نحو الأمام، لاحظ المسلمون أن ما من هجوم قد قام ضدهم — ذلك أن جواسيسهم أخبروهم أن الملك كف رجاله عن ذلك — وهنا أصبحوا أكثر جرأة، وانقضوا بأنفسهم على الداوية، الذين شكلوا المقدمة، وقام واحد من المسلمين فحمل واحداً من فرسان الداوية، وألقاه أرضاً أمام حوافر الفرس الذي كان يمتطيه الراهب رينودي فيشير Vichiers ، الذي كان آنذاك مقدم الداوية، وعندما رأى هذا المقدم هذا هتف بأخوانه الداوية قائلاً:«من أجل الرب، دعونا ننقض عليهم، فأنا لا أستطيع أن أتحمل ما يجري أكثر»، ثم غمز فرسه، ولحق به الجيش كله،

وكانت خيول رجالنا آنذاك مرتاحة نشطة، بينما كانت خيول المسلمين مرهقة، وهكذا سمعت أن ما من واحد من الأعداء قد نجا، بل هلكوا جميعاً، فبعضهم سقطوا في النهر وغرقوا.

وقبل أن أستطرد أكثر، عليّ أن أخبركم عن النهر الذي يجري خلال مصر، وكذلك حول الفردوس الأرضي، وإنني إذ أفعل هذا لكي تفهموا بعض الأمور المتعلقة بروايتي.

وعلى هذا يختلف هذا النهر عما سواه من الأنهار، ففي الوقت الذي تُرفد الأنهار فيه وهي جارية نحو البحر بأنهر صغيرة وروافد من مختلف الأنواع، ليس هناك من روافد أو أنهر صغيرة من أي نوع تصب في هذا النهر، والحادث هو أن هذا النهر يجري بمجرى واحد في مصر ثم ينقسم إلى سبعة أفرع تنتشر في البلاد كلها.

وعندما يأتي وقت محدد من السنة في نطاق عيد القديس ريميجيوس(أي في الأسبوع الأول من تشرين الأول)، تفيض هذه الأنهار السبعة، وتنتشر فوق الأرض وتغمر السهول كلها بالكامل، وما أن يتراجع الفيضان حتى يخرج الفلاحون، ليقوم كل منهم بفلاحة حقله، بوساطة محراث بلا دواليب، به يقلبون الأرض من أجل بذارها بالقمح، وبالشعير، وبالكمون،وبالأرز، وكلها تعطي محاصيل عظيمة لايمكن للانسان أن يتأمل أحسن منها، وما من أحد يعرف كيف تتم هذه الفيضانات، اللهم إذا كانت بإرادة من الرب، لكنها إذا لم تحدث، ما من شيء جيد سوف ينبت في الأرض، لأن حرارة الشمس سوف تذبله، لأن الأمطار غير معروفة في هذه البلاد، ومياه هذا النهر دائماً موحلة، ولهذا عندما يود السكان الشرب منه، ينضحون بعض الماء منه عند المساء، ويضيفون إليه أربع حبات مسحوقة من الفول أو من اللوز، ويكون هذا الماء في الصباح التالي صالحاً للشرب دون أية شوائب فيه.

وقبل أن يدخل هذا النهر إلى مصر، يعمد بعض الناس — جرياً على عادتهم — على رمي شباكهم في المساء في الماء ويدعوها ممدودة طوال الليل، وعندما يأتي الصباح سوف يجدون في شباكهم أشياء تباع بالوزن، وتستورد إلى مصر، ومن هذه الأشياء : الزنجبيل، والراوند، وخشب الصبر، والدارصيني، وقد قيل بأن هذه الأشياء تأتي من الفردوس الأرضي، لأن الرياح تقتلع في هذا المكان الفردوسي الأشجار، مثلما تفعل بالأشجار الجافة في غابات بلادنا، أما بالنسبة للأخشاب الجافة من الأشجار في هذا الفردوس، التي تقع في النهر، فتباع لنا من قبل التجار في هذه البلاد، ولمياه هذا النهر طبيعة مدهشة، هي أننا عندما نضع بعضها في أواني فخارية مصنوعة في مصر، ونعلقها بحبال سرادقتنا، تغدو، حتى في أشد الأيام حرارة،باردة مثل المياه المنضوحة من بئر.

وقال شعب هذه البلاد: غالباً ما حاول سلطان القاهرة أن يكتشف منابع هذا النهر، ولتحقيق هذه الغاية أرسل أناساً حملوا معهم نوعاً من الخبز يعرف بالبقسماط، لأنه خبز مرتين، وقد عاشوا على هذا الخبز حتى عادوا إلى السلطان.

ولقد ذكروا أنهم بعدما قطعوا مسافة كبيرة صعوداً مع النهر، وصلوا إلى كتلة كبيرة من الصخور، كانت عالية جداً، وحادة لايمكن لانسان أن يجاوزها، ومن هذه الصخور ينبع النهر وتتدفق مياهه، ويبدو أنه يوجد فوق قمة هذا الجبل وفرة هائلة من الأشجار الرائعة، وقالوا أيضاً أنهم رأوا عدداً من المخلوقات المتوحشة من مختلف الأنواع مثل الأسود، والأفاعي، والفيلة، وقد جاءت تنظر إليهم من ضفاف النهر،وهم يسيرون بالاتجاه المعاكس لجريان النهر.

وسأعود الآن إلى حيث كنت من روايتي، وأكرر أنه عندما يدخل النهر إلى مصر يصنع فروعه البعيدة والعريضة، ويذهب واحد من هذه

الفـروع إلى دمياط، وآخـر إلى الإسكندرية، وثالث إلى تنيس، ورابع إلى رشيد، وعبر الفـرع الأخير جاء ملك فـرنسا مع جيشـه، ونصب مخيمه بين النهر الذي يتدفق نحـو دمياط والفرع الذي يمضي إلى رشيد، وعلى أقصى طرف الفرع الأخير عسكر جيش السلطان بكامل قواته في مقابل عساكرنا،حتى يمنعوا عبورنا، وهو أمر كان من السهل عليهم القيام به، لأن ما من إنسان كان يمكنه العبور للوصول إلى الأعداء،إلاّ سباحة.

وقـررالملك بناء جسر عبر النهر حتى يمكنه الوصـول إلى المسلمين، ولكي يؤمـن حماية الذين كـــانوا يعملون في الجسر، أمـــر ببناء برجين متحـركين، وكـان هذان من النوع الـذي يعـرف باسم«بيـوت السنور»، لأنهما يقفان أمام«السنانير»(أويغطون الطـرقات) بوساطة«بيتين» خلفهما، ويكونان بمثـابة غطاء واقي للـذين يقـومـون بالحراســة ، وذلك من الحجـارة التي تقذفهـا آلات المسلمين، التي كان عـددها ست عشرة آلة قذف،كلها جاهزة للعمل.

وعند وصولنـا إلى النهر، أمر الملك ببنـاء ثماني عشرة آلة قذف، وعين جوسلين دي كـورنوت Cornaut مسؤولاً بمثـابة مهندس رئيسي، وتطايرت قـذائف آلاتنا ضـد الأعـداء وآلاته، وقـامت هذه الآلات بدورها بالرماية علينـا، غير أنني لم أسمع أن آلاتنا قد سببت أذى كبيراً، وتولى أخـو الملك الحراسـة تحت طريق مغطى خـلال النهـار، وقمنا من جـانبنا بـالحراســة أثناء الليل، وهكذا استمـــر الحال حتى وصلنا إلى الأسبوع الذي جاء قبل الميلاد.

ومـا أن اكتمل بناء الطرق المغطـاة، حتى شرع رجـالنا ببناء الجسر، وليس قبل ذلك، لأن الملك لم يرغب أن تصيب رمـايات المسلمين، التي كـانوا يسـددونها من عبر النهـر، رجـالنـا الذين كـانوا ينقلون التراب، وتجرحهم، وكـانت الأمـور كلها بلا فـوائـد، ففي بناء هذا الجسر عمل الملك وباروناته بدون مـا يكفي من بصيرة فيها افترضـوه، لأنهم سـدوا

واحداً من فروع النهر — وهو عمل سهل القيام به، لأنهم شغلوا أنفسهم بردم هذا الفرع عند النقطة التي تفرع فيها المجرى الرئيسي — وكان بإمكانهم سدّ فرع رشيد في نقطة كان يبعد فيها نصف فرسخ عن عمود النهر.

ولكي يعيق المسلمون بناء جسر الملك حفروا طاقات في الأرض عند الطرف الذي عسكر فيه جيشهم، وكانت المياه ما أن تصل إلى الطاقات، حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة مملوءة بالمياه، وهكذا تمكنوا في يوم واحد من تخريب كل الذي صنعناه خلال عمل ثلاثة أسابيع، لأننا كنا كلما أسرعنا في سد المجرى من جانبنا، قاموا بتوسيع عرض مجراه بوساطة الفتحات التي عملوها من جانبهم.

واختار المسلمون مكان السلطان الذي مات نتيجة الإصابة التي نالها أثناء حصاره لحمص واحداً اسمه فخر الدين، الذي كان ابناً لشيخهم، وقد قيل بأن الامبراطور فردريك(الثاني)جعله فارساً، ولقد أمر كوكبة من رجاله بمهاجمة معسكرنا قرب دمياط، وقد انطلقوا على الفور وجاءوا إلى بلدة اسمها شار مساح، التي كانت قائمة على فرع رشيد من النهر.

وكنت في يوم عيد الميلاد أنا وفرساني نتناول الغداء مع بيير دي أفالون Avallon وعندما كنا جالسين إلى المائدة، انقض المسلمون باندفاع هائل على معسكرناوقتلوا عدداً من الأشخاص المساكين الذين خرجوا يتنزهون في الحقول، وخرجنا جميعاً لتسليح أنفسنا، ولكن على الرغم من إسراعنا، لم نستطع الالتحاق بالوقت المناسب بمضيفنا، ذلك أنه كان قد صار خارج المعسكر، وقد ذهب لقتال المسلمين، فأسرعنا نركض خلفه وتمكنا من إنقاذه من العدو، الذي رماه أرضاً، ثم أعدناه إلى المعسكر مع أخيه اللورد دي فال Val ، وتولى الداوية الذين جاءوا لدى سماعهم الاستغاثة، تغطية انسحابنا بشكل جيد وبفعالية،

وجـاء المسلمــون خلفنا، وتابعـوا مضـايقتنـا حتى وصلنا إلى المعسكر، ونتيجـة لهذا أعطى الملك الأوامـر بـإغـلاق المعسكر من جهـة دميـاط، وذلك من فرع دمياط حتى فرع رشيد.

وكـان فخر الـدين، الذي أشرت إليه على أنه قـائـد المسلمين، أعظم الناس مكانة في العالم الإسـلامي، وحمل على رايته التي تألفت من ثلاثة أقسام:على القسم الأول رنوك الامبراطور(فـردريك الثاني) الذي جعله فـارسـاً، وعلى القسم الثـاني رنوك سلطـان حلب، وعلى القسم الثـالث رنوك سلطان القاهرة، وقـد عرف باسم فخـر الدين ابن شيخ(الشيوخ) — الذي كـان معناه :«الرجل العجـوز»، فهو على هذا«الرجل العجـوز ابن الـرجل العجــوز» — وكـــان هذا اللقــب يدل على الاحترام بين المسلمين، لأن المسلمين هم الشعب الذين يجلون المتقـدمين بالسن أكثـر من أي شعب آخر في العالم بشرط أن يحفظهم الـرب من أية وصمة عار خلال حياتهم.

وتبجح هذا المسلم الشجـاع — حسبما ذكـر جـواسيس الملك له — بأنه سـوف يتنـاول طعـامـه في سرادق جـلالتـه في يوم عيــد القـديس سبـاستيـان Sebastian (٢٠ — كـــانون ثاني)، ولدى سماع الملك بهذا رتب قـواتـه حسب مقتضيـات الحاجـة، بحيث تـوجب على أخيـه كـونت أرتو القيام بحـراسـة الطرق المغطاة وآلات القذف، وقـام الملك وكـونت دي أنجو — الـذي صار فيها بعـد ملكاً لصقليـة — بحراسـة الجانب المتجه نحـو القاهرة ، وقـام كونت دي بواتييـه وقمنا نحن معه، أي رجال شـامبين، بتولي حـراسة الجانـب المتجه نحـو دمياط، فهـذا ما طلب منه القيام به.

وفي الوقت نفسـه أمر فخـر الدين رجـاله بالقيام بالعبـور إلى الجزيرة القائمـة بين فرعي دمياط ورشيـد من النيل، حيث كان جيشنا معسكراً، وعبأ قواته على شكل صفـوف تمتد من الفـرع الأول إلى الآخر، وهاجم

كونت دي أنجو هذه القوات وهزمها، وغرق الكثير في واحد من فرعي النهر أو في الآخر، ومع ذلك بقيت أعداد كبيرة، لم يتجرأ شعبنا على مهاجمتها، لأن آلات المسلمين استمرت في قذف الصخور على الأرض القائمة بين الفرعين .

وفي الوقت الذي كان كونت دي أنجو خلاله يقاتل(المسلمين)، قام الكونت غي دي فورز Forezبشق طريقه، وهو على ظهر حصانه، وسط صفوف المسلمين،واشتبك هو وفرسانه مع كتلة من المقاتلين المسلمين، فألقاه المسلمون أرضاً،وكسرت ساقه، وقام اثنان من فرسانه بحمله على أذرعتهم وأعادوه، ونجا كونت دي أنجو بصعوبة بالغة من الوضع الخطير الذي وضع نفسه فيه، لكنه ربح لنفسه سمعة عظيمة في ذلك اليوم، وفي تلك المناسبة نفسها قام المسلمون بحملة ضد كونت دي بواتييه، وقمنا نحن أنفسنا بحملة بهجوم معاكس، وطاردناهم لمسافة طويلة، وقد قتل بعض رجالهم، غير أننا عدنا بدون خسائر.

وفي إحدى الليالي عندما كنا نتولى حراسة البرجين اللذان حميا الطرق المغطاة، جلب المسلمون آلة تسمى«العرادة Petrary »، ولم يكونوا قد صنعوها من قبل، ووضعوا ناراً إغريقية(نفوط) في كفتها، وعندما رأى هذا الفارس الطيب غوتيير دي إيكوري الذي كان معي قال لنا:«نحن يا أصدقائي في أعظم المخاطر التي كنا فيها قط، لأنهم إذا ما ألقوا النار في أبراجنا، وبقينا هنا،سوف نحترق ونحن أحياء، ومن جهة أخرى إذا ما تخلينا عن المراكز التي أوكل إلينا حراستها سوف يلحق بنا العار، وبناء عليه ما من أحد يمكنه أن يدافع عنا في هذا الرعب غير الرب، والذي أنصح به هو لجميعنا هو أن ننبطح على مرافقنا وركبنا في كل مرة يقذفون فيها نيرانهم نحونا، وأن نصلي إلى مخلصنا أن يحفظنا في ساعة الرعب هذه».

وما أن رموا بأول قذيفة حتى رمينا بأنفسنا على مرافقنا وركبنا حسبما

وجهنا الفـارس الجيـد، ومـرت أول كتلة من اللهب مـا بين برجينا، وسقطت على الأرض أمـامنا، حيث كانت عسـاكـرنا تقيم سداً، وكـان الرجـال الذين كلفـوا بإطفـاء النـار جـاهزين لإطفـائهـا، وعندمـا رأى المسلمون أنه ليـس بإمكانهم التسديد مباشرة نحـوهم، بسبب السرادقين ذوي الجناحين، اللذين أقامهما الملك، شرعـوا برمي قذائفهم أفقيـاً نحو السحاب، وبذلك سقطت فوق رؤوس رجال الإطفاء .

وبدت النار الإغـريقيـة وهي تمر مقـذوفـة من الأمـام، باتجاهنا مثل برميل كبير من القـار، وكـان ذيل النار المشتعل خلفهـا مثل قناة رمح طويل، وكـان الصوت الذي تثيره وهي قـادمـة مثل الرعد السـاقط من السماء، وقد بدت مثل تنين يطير في الجو، وكان الضوء الذي نشرته هذه الكتلة النارية من حـولنا مشعـاً إلى حـد أنه كـان بإمكانك أن ترى في خلال المعسكر بوضـوح وكأنك في النهار، وقـذف العدو في تلك الليلة النار الإغـريقية ثلاث مـرات من عرادتهم، ورمـوهاثلاث مرات أيضـاً من قسيهم العقارة المتحركة.

وكـان ملكنا القديس كلما سمـع المسلمون يقـذفـون النار الإغريقيـة نحـونا يجلس في فراشـه، ويرفع يديه بالـدعاء، ويقـول وهو يبكي:«أيها الرب الكريم احمي شعبي لي»، وحقـاً إنني أعتقـد أن أدعيتـه أفـادتنا في وقت حـاجتنا، وكـان في كل مرة سقطت فيهـا النار، يرسل واحـداً من حجـابه ليسألنا كيف تصرفنا، وفيما إذا سببت القذائف الملتهبـة أي أذى لنا.

وعندمـا قذفوا في إحـدى المرات النار الإغريقيـة علينا، سقطت هذه النار قرب البرج الذي تولى رجـالُ بيير دي كورتني حراستـه، وأصابت ضفـة مجرى الماء، وبناء عليـه جـاء فـارس إليّ يدعى لى أبيجـويز -Au bigoiz وقـال:«مولاي، إذا لم تأت لمسـاعدتنا سـوف نحترق كلنا، لأن المسلمين أطلقوا نحـونا عدداً كبيراً من نشـابهم الحامل للنيران حتى بدا

الحال وكأن هناك سياجاً عظيماً من اللهب يزحف نحو برجنا»، واندفعنا نحو المكان ووجدنا ما تكلم عنه صحيحاً، وقمنا بإطفاء النار، وعندما أكملنا عملية الإطفاء، رمى المسلمون كل واحد منا بسهام جاءت من عبر المجرى المائي.

وتابع أخوة الملك حراسة البرجين أثناء النهار، وصعدوا إلى قمتيهما لرماية النشاب من قسيهم العقارة ضد معسكر المسلمين ، وقرر الملك الآن أنه بعدما يتولى كونت دي آنجو الحراسة أثناء النهار، علينا أن نتولى ذلك في الليل، وفي أحد الأيام عندما كان كونت دي أنجو في مركز حراسته، وكنا على وشك المضي لتسلم الحراسة عند حلول الظلام، شعرنا جميعاً بغم عظيم، لأن المسلمين اقتربوا الآن من تحطيم برجينا، فقد جلبوا عراداتهم هذه المرة وأخرجوها في وضح النهار، مع أنهم حتى الآن كانوا يخرجونهم في الليل فقط، وشرعوا في قذف برجينا بالنار الإغريقية.

وسحبوا آلاتهم لتلاصق الجسر الذي بناه رجالنا لسد مجرى الماء، وأخذوا يرمون عدداً كبيراً جداً من الصخور العظيمة على ظهره، إلى حد أن ما من أحد تجرأ على الاقتراب من البرجين، ونتيجة لذلك جرى إحراقهما معاً، وأصيب كونت دي أنجو بانهيار عظيم، وفقد السيطرة على نفسه إلى حد أنه حاول أن يرمي بنفسه على النار حتى يتولى إطفائها، لكن لئن أصيب هو بالجنون لشدة غضبه، حمدت أنا وفرساني الرب على ما حدث، لأننا لو كنا نتولى الحراسة تلك الليلة، لاحترقنا جميعاً.

وعندما سمع الملك بهذه الكارثة، بعث واستدعى إليه جميع بارونات جيشه وتوسل إلى كل واحد منهم أن يعطيه بعض الخشب من سفنهم، لينشىء طريقاً جديداً مغطى، وبذلك تكون المساعدة على سد المجرى المائي، وشرح لهم بوضوح تام أنه ليس هناك خشب متوفر لهذه الأعمال

باستثناء مـا يمكن الحصـول عليـه من السفـن التي جلبت بضـائعنا ومعـداتنا عبرالنهـر، وجلب كل رجل بقـدر مـا كـان راغبـاً أن يعطي، وعندمـا اكتمل بناء البرج، كانت قيمـة الأخشـاب التي استخدمت قـد وصلت إلى مايزيد على عشرة آلاف دينار.

وقرر الملك أيضاً عدم وجوب دفع الطريق المغطى الجديد نحو الأمام فـوق الجسر حتى يحين الوقت الـذي يكون فيـه دور كـونت دي أنجـو القيـام بالحراسـة، لعله يتمكن مـن نيل فـرصـة التعـويض عن إحـراق البرجين الآخرين عندمـا كان مسؤولاً عنهما، وحسبما كان مقـرراً جرى التنفيذ، ومـا أن جاءت نوبة كـونت دي أنجو بالحراسـة حتى أمر الملك بدفع الطريق المغطـى نحـو الأمـام فـوق الجسر، وذلك إلى المكان الذي جرى إحراق البرجين فيه.

وعندما رأى المسلمون ما كان يجري، أعدوا جميع آلاتهم الست عشرة لتقذف بقـذائفها فوق الجسر، إلى البقعة نفسهـا التي جلب إليها الطريق المغطى، ثم لدى إدراكهـم أن رجـالنا كـانوا خـائفين من الاقتراب من ذلك المكان، بسبب الحجـارة التي كانت تتسـاقط على الجسر، عند ذلك جلبوا عـرادة تولت رمي النار الإغريقيـة على المنشأة الجديدة، وأحرقت كل شيء، وأظهـر الرب نفسـه أنه كـريم جـداً نحوي شخصيـاً ونحـو فـرسـاني في هذه المسألة، لأننا لو تـولينا الحراسـة في تلك الليلة، لكنا في خطر عظيم مثلما كـان عليه الحال في تلك المناسبة التي تحدثـت عنها من قبل.

ونتيجـة لهذه الانتكاسـة الجديدة، دعـا الملك إليـه جميـع البـارونات وطلب منهم مشورتهم، ولقد وافقوا بـالإجماع على القول أنه لافائدة من محاولة بناء جسر يمكنهم عليـه الزحف ضـد المسلمين والاقتراب منهم، لأن رجـالنا لا يمكنهم الردم من جهتهم من المجـرى، بقـدر مـا يمكن للأعداء فتحه مجدداً من الجهة الأخرى.

وعند هذه النقطة أخبر القسطلان إيمبرت دي بيجــو الملك أن بدوياً قد جاء إليه وأخبره أنه يمكنه أن يرينا مخاضة جيـدة، شريطة أن نعطيه خمسمائة دينار، وقال الملك بأنه موافق على دفع المال له، شرط أن ينفذ ما وعـد به، وقال الـرجل إنه لن يرينا المخـاضة مـا لم ندفع له المال سلفـاً، وتمت الموافقـة على وجـوب دفع الدنانير له، وبالفعل دفعت إليـه بدون تأخير.

وقرر الملك وجوب بقـاء دوق بيرغندي وأصحاب المراتب العليا من رجـال مـا وراء البحـر الذين كـانـوا في الجيش لحراسـة المعسكر، حتى لايلحق به ضرر، في حين سيقـوم هو مع أخوته الثـلاثة بعبور المخـاضة في المكان الذي ســوف يريهم البـدوي إياه، ووضعت هـذه الخطة قيـد التنفيـذ، وبات كل شيء معـداً للعبـور في يوم ثلاثاء المرافع(قبل أربعـاء الرماد)، وهو اليوم الذي وصلنا فيه إلى مخاضة البدوي، واجتمعنا هناك مع أول عـلامات الفجـر، من جميع الجهـات، وما أن أصبحنا جـاهزين حتى دخلنا إلى الماء مع خيــولنا تسبح تحتنا، وعنـدمـا غــدونا في وسط مجرى الماء، لامسنا الأرض، ووجــدت خيـولنا مكاناً آمنـاً تسير عليـه، ورأينا على الضفـة الأخرى ثلاثمائـة من المسلمين مصطفين، كلهم فـوق ظهور خيولهم.

ثم هتفت بفرساني وقلت:«انظـروا أيها السادة إلى يساركم ، واجعلوا طريقكم بهذا الاتجاه، فـالضفة هنا مبللة ومـوحلة، والخيول تنزلق فـوق ركابها وتغرقهم»، وفي الحقيقة كان بعض رجـالنا قدغرقوا أثناء العبور ، وكـان من بينهم جين دي أورلين Orleans الذي كـــان يحمل علماً له خطوط متمـوجة، وهكذا انحـرفنا نحـو اتجاه حملنا نحو نهاية المجـرى، حيث وجدنا مكاناً جافاً للـوقوف عليه، وهكذا عبرنا — والحمد للرب — من دون أن يسقط واحـد من مجمـوعتنا، وما أن رآنـا المسلمون قـد عبرنا النهر حتى شرعوا بالفرار.

وأعدت العـدة، أن يشكل الداوية طليعة الجيش مع قيـام كونت دي أرتو بالسير خلفهم قائداً للفرقة الثـانية، لكن الذي حدث هو أنه ما أن عبر الكونت حتى انقض هو ورجاله على المسلمين الذين هربوا أمامهم، وجعله الداوية يعـرف بأنـه وجّـه إليهم إهانة كبيرة بتـوليـه القيـادة، في الوقت الذي توجب فيه عليـه السير خلفهم، ورجوه السماح لهم بالمضي في الطليعة، حسبما جـرى الإعداد من قبل الملك، لكن الكونـت — كما حدث — لم يقم بالاستجابة لهم، بسبب خطأ نجم من جهة فوكود دي مارل Foucaud de Merle ، الذي كان ممسكاً بلجـام فرسـه، وكان هذا الرجل فارساً جيداً وبارعاً، لكنه كان أصم تماماً، ولم يسمع شيئاً مما قاله الداوية لمولاه، واستمر يهتف:«عليهم، يارجال، عليهم».

وهنا اعتقـد الداوية أنه سيكون عاراً عليهم إذا مـا تركوا كـونت دي أرتو متقــدمـاً أمـامهم، لـذلك همزوا خيـولهم واندفعــوا بلا توقف في مطاردة المسلمين، الذين فـروا أمـامهم إلى داخل مـدينة المنصـورة، وإلى الحقـول خلفهـا باتجاه القـاهرة، وعنـدمـا حـاول رجـالنا العـودة، رمى المسلمـون في المنصـورة جـذوع أشجـار ضخمـة وقطع أخشـاب كبيرة عليهم وهم يمـرون من خلال الشوارع ،التـي كانت ضيقة جـداً، وقتل كونت دي أرتو هناك مع راؤول دي كوسي Coucy ، وعدد كبير آخر من الفـرسان، حتى أن عـدد القتلى جرى تقديره بثـلاثمائة، أمـا الداوية ففقـدوا — حسبما أخبرني مقـدمهم الأعلى فيما بعـد — مـائتين وثمانين رجلاً، كانوا جميعاً من الفرسان المقاتلين.

الفصل السابع
معركة المنصورة
٨شباط ١٢٥٠

وقررت في الوقت نفسه أنا وفرساني المضي ومهاجمة بعض المسلمين الذين كانوا يضعون بعض أمتعتهم في معسكرهم على يسارنا، وهكذا انقضضنا عليهم، وفي الوقت الذي كنا نطاردهم فيه خلال المعسكر، وقع نظري على واحد من المسلمين، كان على نية امتطاء فرسه، وقد أمسك اللجام واحد من فرسانه، وفي اللحظة التي كانت فيها يداه على السرج ليصعد، وجهت إليه طعنة تحت إبطه، فجندلته ميتاً، ولدى رؤية فارسه ماحدث ترك مولاه وترك حصانه، وطعنني برمحه، وأنا مار به، وأصابني ما بين كتفي، مما جعلني أنبطح فوق رقبة حصاني، بطريقة لم أستطع بها سحب السيف المعلق بحزامي، ولهذا توجب عليّ سحب السيف المعلق إلى فرسي، وعندما رآني وسيفي مسلول سحب رمحه وتركني.

ولما غادرت أنا وفرساني معسكر المسلمين، وجدنا ماقدرناه بحوالي ستة آلاف من المسلمين، الذين تخلوا عن خيمهم، وانسحبوا إلى داخل الحقول، وفي اللحظة التي رأونا فيها،قدموا حاملين علينا، وقتلوا هوغودي تركتيل Trichatel صاحب كونفلان Conflans، الذي كان معي يحمل علماً، وركضت أنا وفرساني على ظهور خيولنا، ومضينا لانقاذ راؤول دي وانو Wanou وكان واحداً آخر من أصحابي قد رموه أيضاً.

ولدى عودتي، طعنني المسلمون برماحهم، وتحت ثقل حملتهم كبا حصاني على ركبتيه، وطرت نحو الأمام وصرت فوق أذنيه، ونهضت

بقدر مـا أوتيت من سرعة، وترسي في الأمـام عند رقبتي وسيفي بيدي، وجاء إليّ واحد من فرسـاني، اسمه إيرارد دي سيفري Erard de Si-verey — منحه الرب النعمة— ونصحنا بالانسحاب نحو بيت مهدم، حيث يمكننا انتظار الملك، الذي كـان على الطريق، وبينما كنا متـوجهين إلى هناك، جاءت كتلة كبيرة من المسمين مندفعـة نحونا، بعضهـا رجالة وبعضها الآخـر على ظهور الخيـول، ولقد طرحوني أرضـا، وبذلك طار ترسي من أمام رقبتي.

وما أن عبروا حتى جاء إيرارد دي سيفري عائداً نحوي وأخذني معه إلى البيت المهدم، والتحق بنا هناك: هوغو دي ايكوت Ecot، وفردريك دي لوبي Loupey ، ورينودي مننكـورت MenonCourt ، وبينما كنا هناك هاجمنـا المسلمـون من جميـع الجهـات، ودخـل بعضهم إلى البيت، وشرعـوا يطعنوننا برمـاحهم من الأعلى، وطلب مني فـرساني الامسـاك بلجم خيـولهم، الأمر الـذي فعلته خشيـة فـرارها، ثم قـاموا بعـد ذلك بدفاع فعال ضد المسلمين مما جعلهم ينالون فيما بعد، كما يمكنني القول، الثناء العالي من جميع الرجال ذوي المكانة العالية في الجيش، وذلك سواء الذين شهدوا شجاعتهم، والذين سمعوا عنها فيما بعد.

وفي خـلال هذا الحادث تلقى هوغـو دي ايكوت ثلاث اصـابات في الوجه من رمح، وكذلك راؤول دي وانو، بينما تلقى فردريك دي لوبي طعنة رمح بين كتفيه، فتحت جرحـاً كبيراً جعل الدم يتدفق من جسده، كأنه يتدفق من فتحة برميل، وجاءت ضربة من واحد من سيوف العدو الى وسط وجـه إيرارد دي سيفـري، فقطعت حتى خلال أنفـه، وتركتـه معلق فـوق شفتيه، وتذكـرت في تلك اللحظة القـديس جيمس، وخطر ببالي، فتوجهت بـالدعاء إليه قائلاً: «أيها القـديس جيمس الطيب، تعال لمساعدتي وأنقذنا في وقت حاجتنا العظيمة هذه».

ومـا أن تفوهت بهذا الدعـاء، حتى قال لي ايرارد دي سيفـري: « إذا

كنت يامولاي ترى أنني لن أوصم بالعار وكذلك ورثتي، لإقدامي على الذهاب، وجلب المساعدة إليك من كونت دي أنجو، الذي أراه في الحقول هناك، فأسفعل» فقلت له: «يبدو لي ياسيدي العزيز أنك ستنال شرفاً عظيماً إذا ما ذهبت لجلب المساعدة إلينا لانقاذ حياتنا، وبالمناسبة، حياتك أيضاً في خطر عظيم» (ولقد قلت الحق، لأنه مات من جرحه)، وتشاور مع بقية الفرسان الذين كانوا هناك، وقدم له الجميع النصيحة نفسها التي أعطيتها له،وبعد سماعه ما قالوه، طلب مني أن أخلي له عن حصانه، الذي كنت ممسكاً بلجامه، وهذا مافعلته وتركته يأخذه.

ومضى إلى كونت دي أنجو ورجاه القدوم لانقاذي وانقاذ رجالي، وحاول شخص صاحب مكانة عالية أن يصرفه عن الاستجابة، غير أنه قال بأنه سوف يفعل حسبما سأله فارسي، وبناء عليه عطف رأس فرسه ليقدم إلى مساعدتنا، وقام عدد من سيرجنديته بغمز خيولهم أيضاً، وما أن رآهم المسلمون قادمون، حتى نكصوا ليتركوننا، ورآهم بيير دي أوبرايف Auberive وهم يغادرون، وكان يسوق أمام السير جندية وسيفه في قبضة يده، فحمل على وسط المسلمين الذين كانوا ممسكين لراؤول دي وانو، واستنقذه من بين أيديهم، بعد أن أصيب بجراحه بليغة.

وبينما كنت واقفاً هناك على قدمي مع فرساني، مصاب بجراحة كما ذكرت لكم، قدم الملك لويس على رأس كتائبه، مع زعقات عالية للأبواق ولقرع الطبول، وتوقف مع عساكره فوق جسر مرتفع كان هناك، وأنا لم أرقط فارساً أجمل أو أكثر رشاقة منه، فقد بدا سامياً برأسه وكتفيه فوق شعبه، وكان على رأسه خوذة مذهبة، وبيده سيف من فولاذ ألماني.

وما أن توقف، حتى قام الفرسان الجيدون الذين كانوا في فرقته، والذين سميتهم لكم من قبل مع فرسان شجعان من فرسانه،

بالانقضاض مباشرة على المسلمين، وأؤكد لكم أنه أعقب ذلك ملحمة رائعة، وامتحاناً رائعاً للسلاح، لأن ما من واحد استخدم قوساً أو زنبورك، بل كانت المعركة معركة رماح ضد السيوف بين المسلمين وبين شعبنا، وقد انخرط فيها الطرفان بشكل عنيف جداً.

وكان واحد من أتباعي، الذي كان يحمل رايتي قد هرب، غير أنه عاد الآن والتحق بي وجلب معه واحداً من خيولي الفلمنكية، فامتطيته، ومضيت لآخذ مكاني إلى جانب الملك، وعندما كنا معاً، جاء الفارس الجيد جين دي فاليري إلى الملك وقال ناصحاً له بأن ينتقل نحو اليمين باتجاه النهر، وبذلك سوف ينال دعم دوق بيرغندي، ولإعطاء الفرصة أيضاً لسيرجندية جلالته للشرب، لأن النهار أخذ يزداد حرارة بشكل كبير.

وأمر الملك سيرجنديته بالذهاب لإحضار الفرسان الجيدين من مستشاريه ممن كان على مقربة منه، مشيراً إلى كل واحد منهم بالاسم، وذهب السيرجندية وأحضروهم من وسط القتال الكثيف، حيث كانت الحرب محتدمة بين المسلمين وبين رجالنا، وجاءوا إلى الملك الذي سألهم بماذا يشيرون، فأجابوه بأنهم يعتقدون بأن نصيحة جين دي فاليري صحيحة جداً، بناء عليه أمر الملك حملة الأعلام بالسير مع راية القديس دنس العظمى باتجاه النهر، وعندما شرع الجيش بالتوجه إلى هناك، كانت هناك مرة ثانية أصوات مرتفعة جداً صدرت عن الأبواق وعن الطبول، وكذلك عن النفر الاسلامية.

وما كاد الملك يتقدم بضع خطوات حتى تلقى عدة رسائل من كونت بواتييه، ومن كونت دي فلاندرز، ومن رجال أخر كانوا في القيادات العليا، وكانوا هناك مع عساكرهم، وقد توسل الجميع إليه بعدم التحرك، لأنهم كانوا يتعرضون إلى ضغط شديد من المسلمين، إلى حد أنه لن يكون بإمكانهم اللحاق به، ومرة ثانية استدعى الملك ذوي

المكانة من فرسانه للتشاور معهم، وقد نصحوه بالانتظار، وجاء بعد قليل جين دي فاليري عائداً، وانتقد الملك ومستشاريه بسبب البقاء حيث هم، وبناء على ذلك نصح المستشارون الملك بالتحرك نحو النهر، حسبما أوصى جين دي فاليري.

وقدم في هذه اللحظة القسطلان ايمبرت دي بيجو ليخبر الملك بأن أخاه كونت دي أرتو كان يدافع عن نفسه في بيت في المنصورة، وليتوسل إلى جلالته للذهاب للتفريج عنه، فقال الملك: «امض أيها القسطلان أمامي، وأنا سوف أسير في إثرك»، وأخبرت القسطلان بأنني سوف أسير معه بمثابة فارسه، الأمر الذي شكرني عليه من قلبه، وهكذا شرعنا معا نأخذ طريقنا نحو المنصورة.

وفيما نحن ماضيان إلى هناك، جاء سيرجندي مسلح برمح، وسعى نحو القسطلان في وضع مضطرب جداً من الرعب، وأخبره بأن زحف الملك قد توقف، وأن المسلمين مركزوا أنفسهم بين جلالته وبيننا، والتفتنا فرأينا هناك مايزيد على الألف منهم بيننا وبين جيش الملك، ولم يكن تعدادنا أكثر من ستة، وبناء عليه قلت للقسطلان :«لايمكننا يامولاي العودة إلى الملك من خلال هذا الحشد من الرجال، لذلك دعنا نسير بالاتجاه المعاكس لجريان النهر، ولندع هذا الخندق الذي تراه أمامك بين الأعداء وبيننا أنفسنا، فبهذه الوسيلة يمكن أن نتدبر أمر العودة إلى الملك، وأخذ القسطلان بنصيحتي، لكن يمكن أن أؤكد لكم أن المسلمين لو انتبهوا إلينا أدنى انتباه، لقتلونا بكل تأكيد، وكانوا على كل حال، في ذلك الحين لايولون الاهتمام إلاّ إلى الملك ولكتائب الرجال الكبيرة، مهملين ما سوى ذلك، وهكذا افترضوا بأننا كنا بعضاً من رجالهم.

وبينما كنا عائدين نزولاً على شاطىء النهر، بين المجرى الفرعي والنهر الأساسي، شاهدنا بأن الملك بات قريباً من النهر، وكان المسلمون

يسوقون إلى الوراء كتائبه الأخرى، وهم يضربون ويطعنون فيها بالرماح وبالسيوف، ويرغمونها بالتدريج مع كتيبة الملك الخاصة على التراجع على طول النهر، وكانت الهزيمة هناك كاملة إلى حد أن كثيراً من رجالنا حاولوا السباحة عبر النهر للالتحاق بدوق بيرغندي، غير أنهم كانوا غير قادرين على فعل ذلك، لأن خيولهم كانت منهكة، والنهار صار حاراً جداً، ولهذا عندما كنا نازلين على محاذاة النهر باتجاههم، رأينا النهر مغطى بالرماح وبالترسة، ومليئاً بالرجال وبالخيول الذين كانوا يغرقون في الماء.

ولدى وصولنا إلى جسر صغير قائم على المجرى، قلت للقسطلان:«دعنا نقف هنا ونتولى حراسة هذا الجسر، لأننا إذا تركناه سوف يلقي المسلمون بأنفسهم على الملك من هذا الاتجاه أيضاً، وإذا ما هوجم جندنا من الجانبين لسوف يغلبون»، وهكذا فعلنا حسبما نصحت، وعلمنا فيما بعد أننا كلنا كنا سنقتل في ذلك اليوم لولا الملك، فقد أخبرني بيير دي كورتني وجين ساليني Saillenay بأن ستة من المسلمين قد أمسكوا بمقود فرس الملك، وكانوا يقودونه نحو الأسر، عندما قام بإنقاذ نفسه بدون مساعدة من أحد، بتوجيه ضربات كبيرة نحوهم بسيفه، وعندما رأى رجاله كيف يقوم الملك بالدفاع عن نفسه استردوا شجاعتهم، وتخلى كثير منهم عن التفكير بالنجاة عبر النهر، وتجمعوا للقيام بانقاذه.

وقدم مباشرة نحونا نحن الذين كنا نتولى حراسة الجسر الصغير الكونت بيير دي بريتاني، وقد تلقى ضربة عبر وجهه، كان الدم يسيل منها إلى فمه، وكان يمتطي فرساً رشيقاً جداً، وقد ألقى بمقوده فوق قربوسه، الذي أمسك به بكلتا يديه، خشية أن يقوم رجاله الذين كانوا يسيرون إلى جانبه للحصول على الطمأنينة، بقلعه من مكانه وهم يعبرون الجسر الصغير، ويبدو أن رأيه فيهم كان سيئاً، لأنه كان وهو

ينفث الدم من فمه قد تابع القول بصوت جهوري: «أيها الرب الطيب، هل رأيت قط مثل هـؤلاء الأوغـاد»؟ وجـاء بعـد رجـاله كـونت دي سواسون وبيير دي نوفيل Neuville، الذي كان لقبه «كيرCaier »، وكان كلاهما قد تلقى ما فيه الكفاية من الضربات ذلك اليوم.

وبعد ما عبر هؤلاء الرجال الجسر، رأى المسلمـون أننا نتولى حراسته ووجوهنا منصرفة نحوهم، لهذا توقفوا عن مطاردة كونت بيير وجماعته، ووقتها توجهت إلى كونت دي سواسـون، الذي صدف أنه كان ابن عم (خال) زوجتي، وقلت له: «أعتقـد ياسيدي أنه سيكون أمـراً مفيداً، إذا وقفت هنا لحراسـة هذا الجسر، لأننا إذا تركناه بدون حـراسـة سـوف يندفع المسلمـون عبره، ولسوف يتعـرض الملك إلى الهجـوم من كل من المقدمة ومـن الخلف»، وسألني فيما إذا بقي هو ، هل سأبقى معه هناك، فأجبتـه: «سـوف أفعل ذلك بكـل تأكيـد»، ولدى سماع القسطلان بهذا أخبرني أن لا أتحرك من مكاني حتى يعود، وقال بأنه ذاهب للبحث عن مساعدة لنا.

وبقيت حيث كنت هناك، ممتطيـا ظهـر جـوادي القـوي، وذلك مع كونت دي سـواسون من على يميني، وبيير دي نوفيـل من على يساري، وفجأة قـدم مسلم يركض بفرسـه نحونا من جهـة عساكـر الملك، التي كانت خلفنا، ووجه ضربة عنيفة جـداً لبيير من الخلف بدبوسه، فأرغمه على الإرتماء فوق رقبة حصـانه، ثم قفز عابراً للجسر، واندفع ليكون في وسط جماعته.

وعندما رأى المسلمون أننا لن نتخلى عن الجسر الصغير، عبروا مجرى النهر الصغير، وتمركزوا بينه وبين النهـر، مثلما فعلنا عندما كنا منحدرين على محاذاة النهـر، وبناء عليـه زحفنا نحـوهـم لنكون جـاهزين للحملة عليهم إذا مـا حاولوا المضي باتجاه عسـاكر الملك أو القيـام بعبور الجسر الصغير.

وكـان أمـامنا مبـاشرة اثنان من سيرجندية الملك، اسم أحـدهما وليم دي بون Boon، واسم الآخر جين أوف غاماش Gamaches، وكان المسلمون الذين وقفوا بين مجرى النهر الصغير والنهر قد أحضروا معهم عـدداً كبيراً من الفلاحين سيراً على الاقـدام، وقـد راح هؤلاء يقذفـون هذيـن الرجلين بكدر الارض، غير أنهم لم يستطيعـــوا إرغـــامهم على التراجع إلى حيـث كنا، وأخيراً جلب المسلمـــون رجـــلاً قصيراً، تولى رمـايتهما بالنار الاغريقيـة ثلاث مـرات متواليـة، وحدث أن صـدّ وليم أوف بون قدر النفط بوساطة ترسه، لأن اللهب لو أمسك أي طرف من ثيابه، لاحترق بكل تأكيد وهو حي.

وتغطينا جميعـاً بالنشـاب الذي أطلق على السيرجنديين ولم يصبهما، وصدف لحسن الحظ أن وجدت قميصاً إسلامياً محشواً بحشوتين، فقلبته ووضعت الجانب المفتـوح باتجاهي، واستخـدمته بمثـابة ترس لي، وقـد أفادني فـائدة كبيرة، لأنني كنت مجروحـاً بنشاب العدو بخمسـة أماكن، مع أن فرسي كان مجروحاً في خمسة عشر مكاناً، وحدث أيضاً أن شخصاً جيـداً من جوانفيل جلب إليّ قصبـة ثُبت عليهـا رنوكي إلى سنان رمح، وكنا في كـل وقت نرى فيـــه المسلمين يضغطـون فيـــه بشـــدة على السيرجنديين، ننقض عليهم، ونجعلهم يفرون.

واستمـر في هذا الوضع الصعب كـونت سواسـون الطيب، وفي تلك السـاعة الحرجـة كان يمـزح ويقول لي بانشراح وفكاهة :«بحق قلنسـوة الرب— فهـذه كـانت صيغـة يمينه المحبب إلى نفسـه— دع أيها النائب هؤلاء الكلاب ينبحون كما يريدون، ولسوف نتحدث عن هذا اليوم فيما بعد، أنا وأنت، ونحن جلوس في البيت مع زوجاتنا».

وفي ذلك المسـاء، عندمـا كـانت الشمس مـوشكة على المغيب، جـاء القسطلان مع مجموعة من رماة الزنبورك الرجالة التابعين للملك، الذين انتظمـوا في صف أمـامنا، ومـا أن رآهـم المسلمـون يوترون جـروخهم

بأقدامهم، حتى تركونا وفروا، وعندها قال القسطلان لي: «حسناً ما كان أيها النائب، اذهب الآن إلى الملك، ولاتفارقه حتى يعود ثانية إلى سرادقه»، وما أن وصلت إلى الملك، حتى جاء إليه جين دي فاليري وقال له: «ياصاحب الجلالة، يسألك صاحب شاتليون أن تعطيه إمرة ساقة الجيش»، ووافق الملك عن طيب خاطر، ثم شرع يتقدم نحو الأمام، وفيما نحن سائرون جعلته يخلع خوذته وأعرته قبعتي الفولاذية، عسى أن يتخلل بعض الهواء رأسه.

وبعدما عبر الملك النهر، جاء الراهب هنري دي روني Ronnay ، مقدم الاسبتارية، وقبل يده المدرعة، وسأله الملك إذا كانت لديه أية أخبار عن كونت أرتو، فأجابه المقدم، بأنه حقاً لديه أخباراً عنه، لأنه متأكد تماما من أن أخاه كان الآن في الفردوس، وأضاف هذا المقدم يقول: «أواه ياصاحب الجلالة، كن مرتاح الضمير، فما من ملك من ملوك فرنسا قد نال من الشرف مثل الذي نلته اليوم، لأنك من أجل أن تقاتل الأعداء، اجتزت النهر سباحة، حتى تهزمهم كلياً وتطردهم من الحقل، وفضلاً عن هذا لقد استوليت على آلاتهم، وكذلك على خيمهم التي سوف تنام فيها الليلة»، وأجابه الملك قائلاً: «دعنا نصلي للرب من أجل كل ما أعطاني إياه»، ثم أخذت دموع غزيرة تنحدر من عينيه.

وعندما وصلنا إلى المعسكر وجدنا بعض الرجالة من عساكر المسلمين يشدون حبال خيمة كانت قيد الفك، في حين كان عدد من عساكرنا يشدونها من الجانب الآخر، وهنا حملت أنا ومقدم الداوية على وسطهم، وهكذا هرب العدو، وبقيت الخيمة في أيدينا.

وفي أثناء مجريات معركة ذلك اليوم كان هناك عدد كبير من الناس، ومن ذوي المظهر الجميل أيضاً، الذين جاءوا مجللين بالعار فارين عبر الجسر الصغير الذي حدثتكم عنه، وقد هربوا والفزع قد استولى عليهم واستبد بهم، حتى أن محاولاتنا لجعلهم يقيمون معنا تبددت بدون فائدة،

وبإمكـاني اخبـــاركـم ببعض أسمائهم، لكنني سأمتنع عـن ذلك لأنهم أموات الآن.

وعلى كل حـال لن أتجنب ذكـر اسم غي مـوفـوسين Mauvoisin ، لأنه عـاد ممجداً من المنصـورة، وسـايرنا أنـا والقسطلان طوال الطريق النهـر، ولحق هوبنـا، وعندمـا ضغط المسلمـون بشـدة على كـونت دي بريتاني وعلى رجاله، وضـايقوا موفوسين ورجاله، نال رجـال موفوسين وهو أيضاً مجداً عظيماً لجانبهم في قتال ذلك اليوم، وليس عجباً ما فعلوه في ذلك اليـوم، لأن— كما علمت من الذيـن عـرفـوا تشكيلة قـواته— جماعته تكونت— باستثناء عـدد قليل— من فرسان كانوا إمـا من أفراد أسرته أو من أتباعه الاقطاعيين.

وبعــدمــا هزمنا المسلمين، وطـردناهم من خيمهـم، وفي حين ترك أصحـابنا مخيمهم فارغـاً اندفع البـداة للقيام بنهبـه، لأن المسلمين الذين كانوا معسكرين هناك كـانوا رجالاً من ذوي المراتب العاليـة وأصحاب الممتلكات العظيمة، ولم يترك اللصوص خلفهم شيئاً، بل حملوا كل شيء خلفـه المسلمـون، وعلى كل حـال، لم أسمع بأن البـداة، مع أنهم كـانوا رعايا للمسلمين، قد كانوا أقل تقـديرا، لاقدامهم على السرقة، ولحملهم هذه الأســلاب، لكن المعـروف أن عــادة هؤلاء القــوم عــدّ الجانب الضعيف صيداً حلالاً لهم.

وفيما يتعلق بمـوضـوعي، سـوف أخبركـم أي نوع من الناس البـداة هؤلاء: إنهم لايتبعون محمـداً (صلى الله عليه وسلم) بل يقبلـون تعاليم علي (رضي الله عنه)، الذي كان (ابن) عم محمد (صلى الله عليه وسلم) (ومثل هذا الموقف يتبناه شيخ الجبل، الذي يتزعم الحشيشية، وهذه هي قناعاته أيضـاً) ويعتقد هؤلاء القـوم أن الانسان عندمـا يموت في سبيل مولاه، أو لأي سبب آخر جيد، تذهـب روحه لتحل في انسان آخر، هو أحسن حـالاً وأكثـر سعادة من المتقـدم، ولهذا السبب لايعبأ الحشيشيـة

بالقتل سوى قليلاً عندما ينفذون أوامر مقدمهم، وعلى كل حال لن أتحدث الآن أكثر عن شيخ الجبل، بل سأقصر حديثي عن البدو وحدهم:

ولايعيش هؤلاء القوم في قرى أو في مدن أو في قلاع، بل ينامون دوما في العراء، وفي أثناء الليل، أو في أثناء النهار عندما تكون الأحوال الجوية سيئة يتخذون بيوتاً لخدمهم ولزوجاتهم ولأولادهم، مما يشبه أكواماً من البراميل مربوطة إلى أعمدة، تشبه بعض الشيء محفات السيدات، ويلقون فوق هذه الأكوام جلود الأغنام، المعالجة بالشب، والتي تعرف باسم الجلود الشامية.

وارتدى البداة عباءات كبيرة من الصوف، كانت تغطي الجسد كله، بما في ذلك الساقين والقدمين، وعندما كانت تمطر في المساء، أو عندما تكون الأحوال الجوية سيئة في الليل، كانوا يلفون أنفسهم بالعباءات، ووقتها كانوا ينزعون اللجم من أفواه خيولهم، ويتركونها تقتات من الأعشاب قربهم، ويقومون في الصباح بنشر عباءاتهم في الشمس ثم يقومون بفركها واعطائها وجبة جديدة من الشب، وبعد ذلك لايبقى فيها أدنى أثر على أنها كانت مبللة.

وهم يعتقدون أن ما من واحد يمكن أن يموت قبل اليوم المحدد له، ولهذا السبب يرفضون ارتداء أي نوع من أنواع الدروع، وكلما أرادوا شتم أولادهم كانوا يقولون لأحدهم «عليك اللعنة مثل فرنجي يلبس الدروع خوفاً من الموت»، ولايحملون أثناء القتال شيئاً سوى السيوف أو الرماح.

ويرتدي كلهم تقريباً فرجية طويلة تشبه الرداء الخارجي الذي يرتديه الكهنة، ويلفون رؤوسهم بأقمشة تمضي حتى تحت ذقونهم، وهكذا يبدو هؤلاء بألوان شعورهم السوداء كالفحم وكذلك ألوان لحاهم، ذوي

شكل قبيح، ومن المرعب أن تنظر إليهم.

وهم يعيشون اعتماداً على ما يقتاتونه من حليب مواشيهم، ويدفعون ايجاراً إلى الرجال الأغنياء الذين يمتلكون بسائط للرعي، منها تقتات هذه الحيوانات، وما من انسان يمكنه أن يذكر تعداد هؤلاء الناس، ذلك أنهم يعيشون في مملكة مصر، وفي مملكة القدس، وفي البلدان الأخرى العائدة للمسلمين وللشعوب الكافرة الأخرى، الذين يدفعون إليهم مبالغ كبيرة من المال بمثابة جزية كل عام.

ولقد صدفت في بلادنا، بعد ما عدت من بلاد ماوراء البحر، بعض المسيحيين غير المخلصين، الذين يؤمنون مثل البداة، في أن ما من انسان يمكن أن يموت إلاّ في اليوم المكتوب له، وفي هذا الاعتقاد إنكار لديننا، لأنه يقود إلى القول بأن الرب لاقدرة لديه على عوننا، وبالنسبة للذين يعبدون الرب منا، سوف يكونون في الحقيقة حمقى، إذا لم يعتقدوا بأن الرب لديه القدرة على إطالة أعمارنا، وعلى حفظنا من الشر، ومن سوء الحظ، ومن المؤكد تماما وجوب إيماننا به، والاعتقاد أنه لديه القدرة على فعل كل شيء.

الفصل الثامن
نصر وعقابيله
شباط — نيسان ١٢٥٠

ولسوف أتابع الآن حديثي لأخبركم، أنه عند حلول الظلام، قام الملك، وقام المتبقي منا، بعد عودتنا من المعركة المرعبة، التي وصفتها للتو، بالاستقرار في المكان نفسه الذي اقتلعنا الأعداء منه، وجلب لي رجالي الذين بقيوا في المعسكر، الذي انطلقنا منه أولاً، خيمة، كان الداوية قد أعطوني إياها، ونصبوها أمام الآلات، التي استولينا عليها من المسلمين، والتي وضع لها الملك من يتولى حراستها.

وعندما عدت أخيراً إلى فراشي، حيث كنت بالحقيقة بحاجة ماسة إليه، بسبب الجراح التي نلتها أثناء النهار، لم أنل طعم الراحة، فقبل بزوغ فجر النهار دوى صوت خلال المعسكر ينادي:«إلى السلاح، إلى السلاح»، فأيقظت حاجبي الذي كان نائماً عند طرف فراشي، وطلبت منه الذهاب لرؤية ما الذي كان يجري، ولقد رجع وهو يرتجف من الرعب، وصرخ:«انهض، يامولاي انهض، المسلمون هنا،لقد جاءوا حشداً على الأقدام، وخيالة،وهزموا سيرجندية الملك الذين كانوا يحرسون الآلة، وطردوهم حتى حبال سرادقاتنا».

ونهضت، وألقيت قميصاً مبطناً على ظهري، ووضعت قبعة من الفولاذ فوق رأسي، وهتفت رافعاً صوتي إلى سيرجنديتنا:«بحق القديس نيقولا،لن يبقواهنا»، وتحلق فرساني من حولي، مع أنهم كانوا جميعاً جرحى، وطردنا الجنود المسلمين وأبعدناهم عن آلاتنا، حتى وصلوا إلى قواتهم من الخيالة، الذين كانوا قرب الآلة التي كنا قد أخذناها منهم، وبعثت إلى الملك أطلب المساعدة، لأنه لم يكن لابإمكاني ولابإمكان

فرساني لبس الدروع بسبب الجراح التي أصبنا بها، وأرسل الملك لنا غوتيير دي شاتليون، الذي تمركز أمامنا بين المسلمين وبيننا أنفسنا.

وعندما رد المدافعون منا الرجالة المسلمين، تراجع هؤلاء والتحقوا بكتلة كبيرة من الخيالة المسلمين، الذين اصطفوا أمام معسكرنا، ليحولوا بيننا وبين القيام بهجوم مفاجىء على الجزء الرئيسي مَن جيشهم، الذي كان معسكراً خلفهم، وكان ثمانية من القادة الرئيسيين لهذه الكتلة، قد ترجلوا، وهم شاكي السلاح، وأقاموا نوعاً من أنواع السواتر الدفاعية من الحجارة المنحوتة، حتى لا يتمكن رماة جروخنا من جرحهم، وأطلق هؤلاء الرجال الثمانية سحابة إثر سحابة من النشاب إلى معسكرنا، فجرحوا عدداً من رجالنا ومن خيولنا.

وبعدما تشاورنا معاً، اتفقت أنا وفرساني، أنه ما أن يسدل الظلام، سنقوم بإزالة الحجارة التي تحصن خلفها هؤلاء الرجال، ولم يستطع كاهن تابع لي كان بيننا أثناءمناقشاتنا،أن ينتظر طويلاً، فغادر مخيمنا وحده فقط، وكان يرتدي قميصاً، وقبعة فولاذية فوق رأسه، وزحف نحو المسلمين، يجر رمحه خلفه، وقد وضعه تحت ذراعه، وسنانه مصوب نحو الأرض حتى لايبصره المسلمون.

واقترب من المسلمين، الذين ازدروه لأنهم رأوه أنه كان وحيداً، وسحب رمحه من تحت ذراعه بسرعة وركض نحوهم، ولم يفكر واحد من الثمانية بالدفاع عن نفسه، بل الجميع نكصوا على أعقابهم وهربوا، وعندما رأى المسلمون الخيالة أن سادتهم يفرون نحوهم، بادروا مسرعين نحو الأمام لإنقاذهم، وفي الوقت نفسه قدم حوالي الخمسين من سيرجنديتنا مندفعين إلى خارج المعسكر، وتابع الخيالة المسلمون حث خيولهم على التقدم، ولكنهم لم يتجرأوا على مهاجمة رجالتنا، بل انحرفوا جانباً بشكل مفاجىء.

وكـرروا هذا الذي فعلوه مـــرتين أو ثلاث مـرات، وقـام واحـد من سيرجنديتنا بإمساك رمحه من وسطه وقذف به نحو واحد من المسلمون، وبذلك طعنه بين أضـلاعه، ونكص الرجل المطعـون على عقبيه، ورجع والرمح معلق من سنانه في جسـده، ولدى رؤية المسلمين لهذا لم يعـودوا يتجرأون على التقدم، وتراجعوا من أمامنا، وتولى على الفور سيرجنديتنا إزاحة الحجـارة، ومنذ تلك الساعة وفي المستقبل بات كاهني معـروفاً في أرجاء الجيش كله، وكان أحد الناس يقـول للآخر وهو يشير إليه:«انظر ذلك هو كاهن مولاي صاحب جوانفيل، الذي هزم المسلمين الثمانية».

وجرت الأحداث التي توليت ذكـرها في أول الصوم الكبير، وقام في ذلك اليوم نفسه واحد من المسلمين الشجعان— الذي انتخبه المسلمون قـائداً لهم في مكان فخـر الدين ابن الشيخ، الذي فقـدوه في معركـة يوم ثلاثاء المرافع — بحمل سـابغـة ودروع كـونت دي أرتو، الذي قتل في المعـركـة نفسها، وعـرضهم أمـام شعبـه، مخبراً إياهم بأن المعـروض هو دروع الملك وسابغته، وأن الملك نفسه قد مات.

وقـــال لهم:«إنني أريكم هذه المغـــانم، لأن جسماً بلا رأس ينبغي ألا يخيف، وكـــذلك شعبـــاً بلا ملـك، ولذلك إذا مـــا أردتم وكنتم على استعـداد، سوف نهاجمهـم يوم الجمعة، ويبـدو لى إن عليكم أن توافقـوا على هذا، لأننا لن نخفق في قهـرهـم جميعـاً، طالما أنهم فقـدوا قائـدهم»، ووافق الجميع على الهجوم علينا في يوم الجمعة.

وقـدم بعـد هذا جـواسيس الملـك الذين كـانوا في معسكر المسلمين، إليه، وهـم يحملون إليه أخبـار مشروع الهجوم، وبناء عليـه أمر جـلالته جميع الأمـراء القياديين لديه والمتـولين قيادة مختلف الفـرق، بأن يقومـوا بتسليح رجـالهم في منتصف الليل، وأن يقـومـوا بصفهم فيما بين الخيم، والسيـاج الممدود حـول المعسكر، وكـان هذا معمولاً من أوتاد خشبيـة طويلة لمنع المسلمين مـن الإغـارة بشكل مفـاجـىء على معسكرنا، ومع

هذا كانت هذه الأوتاد مثبتة بالأرض بطريقة كان من الممكن المرور فيما بينها على الأقدام، وتم تنفيذ أوامر الملك حسبما كان قد أصدرها تماماً.

ومع إشراق الشمس تمامــاً، قــام المسلم، الذي أشرت إليــه على أنه القائد المنتخب للمسلمين، بقيادة أربعة آلاف من الخيالة المسلمين، الذي تولى صفهم وبثهم حـول معسكرنا وحـوله شخصيـاً، وذلك في تشكيلة امتــدت من النهــر الذي يأتي مـن القــاهرة إلى النهــر الذي يخرج من معسكرنا نحو بلدة تدعى رشيد(اقـرأ : أشموم طناح)، وجلب بعد هذا كتلة كبيرة جــداً من المسلمين الرجـــالة، الذين تولوا تطـويق معسكرنا بالطريقـة نفسهـا، وإلى جانب هاتين الكتلتين من العســاكـر اللتين أتيت على ذكـرهما للتـو، كانت جميـع قوات سلطان القـاهرة واقفـة بالقـرب، وجاهزة لتقديم العون للآخرين إذا ما احتاجوا إلى ذلك.

وما أن جرى تنفيـذ هذه العملية، حتى قدم قائـد المسلمين لوحده، وكان يمتطي على مهـر صغير الحجم، وقد تقدم نحـو الأمام لاستطلاع أوضاع عســاكرنا، وكان كلما رأى قـواتنا في أحد الأماكن كـانت أقوى ممن يقـابلها، كان يعـود ليجلب المزيد من الرجـال، ليقوم بدعم كتـائبه ضـدنا، وأرسل بعد هـذا بالبداة، الذين كـان منهم هناك مـا لايقل عن ثلاثة آلاف، ووجههـم للزحف ضـــد المعسكرالـذي كـــان بأيدي دوق بيرغندي، الذي كان قائماً بين النهـرين، وفعل هذا لأنه اعتقد بأن الملك سـوف يرسل بعضـاً من رجـاله لمسـاعـدة الدوق ضـد البـداة، وبذلك يضعف قواته.

واحتـاج هذا المسلم حتى منتصف النهـار ليقـوم بهذه الترتيبـات، ثم أصدر أوامره بقرع الطبول، وعلى الفور قامت القوات الاسلامية جميعها من رجّـالة وخيالـة بالحملة علينا، حملة رجل واحـد، وسوف أحـدثكم أولاً عن ملك صقلية(الـذي كان في ذلك الوقت كونـت دي أنجو)لأنه كـان في طليعـة جيشنـا على الطرف المتجـه نحـو القـاهـرة، فقـد أنشب

الأعـداء القتال معـه وفق طريقـة اللعب بالشطرنج، حيث أرسلوا أولاً رجّـالتهم نحو الأمـام لقتـاله، وبعثوا أيضـاً الذين قـذفوا النفـوط(النار الاغريقيـة) نحو عساكـره، ثم ضغط المسلمون جميعاً من خيـالة ورجّالة بشدة متناهية على عسـاكرنا، إلى حد أن ملك صقلية الـذي كان مترجلاً واقفاً بين فرسانه قد قهر تماماً.

وجـاء رسل إلى الملك لويس لإخباره عن الخطرالعظيم الذي أحـاق بأخيه، ولدى سماعه بهذا اندفع وقد غمز حصانه حتى كان وسط قوات أخيـه، واندفع بين صفـوف المسلمين والسيف بيده، حتـى أنهم أحرقـوا حصانه وتجافيفه بالنفوط(النار الاغريقية)، لكن بحملة ملكنا هذه، أنقذ ملك صقلية، وطرد المسلمين من المعسكر.

وكان التالي لعساكر ملك صقلية فـرقة بارونات ماوراء البحر، بقيادة غي دي إيبلين مع أخيـه بلدوين، وتلا هذه القـوات فرقـة كانت بقيـادة غـوتيير دي شاتليـون، وكـانت مشحـونة برجال أشـاوس تمامـاً، كلهم مشهور بشجاعته وأعمال فـروسيته، ودافعت هاتان الفرقتان عن أنفسهما بفعـالية، لهذا لم يتمكن المسلمـون من خـرق صفوفهما أو ارغـامهما على التراجع نحو الخلف.

وكـــان التـالي في تلقي حملـة الأعـداء الأخ الراهـب وليم دي سيناك Sennac، مقـدم الداوية، وذلك مع الأعضـــاء القلة الذين بقيـوا من طائفته، بعد معـركة ثلاثاء المرافغ، وقد امتلك متراساً أقيـم أمام رجاله، وقد صنع من الآلات التي استولينـا عليها من المسلمين، وعندما زحف العدو لقتالهم قذف بالنفوط (النار الاغريقية) على السواتر الدفاعية التي أقـاموها، ولقـد التقطت النار بسرعـة، لأن الداوية استخـدموا كميـات كبيرة من الألواح في انشائها، ولم ينتظر المسلمون النيران حتى تخمد بعد اكتمال الاحتراق، بل اندفعـوا وقاتلوا الداوية وسط اللهب، وفقـد مقدم الداوية في هذا الاشتباك احـدى عينيه، وكان قد فقـد العين الأخرى في

يوم ثلاثاء المرافع، ولقد نجم عن هذا الحادث موته، منحه الرب الرحمة، وكان خلف الداوية شريط من الأرض، تساوي مساحته مساحة ما يمكن لعامل أن يفلحه في يوم، وكانت هذه المنطقة مغطاة بشكل كثيف بنشاب المسلمين، إلى حد أنه لم يكن بإمكانك رؤية الأرض تحتهم.

وكان التالي لقوات الداوية العساكر التي قادها غي موفوزين Mau-voisin ، وهذه العساكر لم يستطع المسلمون هزيمتها أبداً، ومع هذا استطاعوا غمره شخصياً تماماً بالنار الاغريقية، حتى أن رجاله وجدوا صعوبة بالغة في إطفائها.

وشروعاً من المكان الذي كان غي موفوزين معسكراً فيه، امتد السياج الدفاعي الذي أحاط بمعسكرنا نحو النهر ولم يبعد إلاّ قرابة رمية حجر، ومرّ هذا السياج من هناك من أمام العساكر التي تولى قيادتها الكونت وليم دي فلاندرز، وامتد بعيداً حتى النهر الذي يتدفق باتجاه البحر، وواجهت فرقتنا السياج الدفاعي على الجانب نفسه مثل فرقة غي موفوزين، لكن بما أن رجال كونت دي فلاندرز قد تمركزوا أمام جيش المسلمين مباشرة، لم يغامر المسلمون على القدوم ومهاجمتنا، وفي هذا المجال عاملنا الرب بنعمة عظيمة، لأنني لم أكن أنا شخصياً ولا فرساني نرتدي الدروع أو نحمل الترسة، بسبب الجراحات التي أصبنا بها في معركة يوم ثلاثاء المرافع.

وقام المسلمون الرجّالة منهم والخيالة بهجوم فغال وشجاع جداً على كونت دي فلاندرز، وعندما رأيت الذي يجري أمرت رماة الزنبورك من رجالي بالرمي على الخيالة، وما أن رأى هؤلاء الرجال أنهم أخذوا يتعرضون للجراحات من جانبنا، حتى بادروا إلى الفرار، ولدى رؤيتهم يفرون، غادر رجال الكونت المعسكر، وقفزوا فوق الحواجز، وركضوا بين الرجالة المسلمين وتغلبوا عليهم، وتمّ قتل عدد كبير من الأعداء، وتم الاستيلاء على كثير من ترستهم، وأبدى غوتيير دي لى

هورن Horgne، الذي حمل راية صاحب أبريمونت شجاعة عظيمة، وفعالية في عملية الصد هذه.

وكانت الفرقة التالية التي اشتبكت بالأعداء الفرقة التي قادها أخو الملك كونت بواتييه، وكانت قوات هذه الفرقة من الرجّالة، وكان الكونت وحده هو الذي امتطى جواداً، وقد ألحق المسلمون بهذه الفرقة هزيمة ساحقة، وحملوا كونت بواتييه أسيراً، وعندما رأى الجزارون والعاملون الآخرون في المعسكر، بما في ذلك النساء اللائي تولين بيع المؤن، هذه الواقعة، رفعوا أصواتهم بالصراخ المنذر في أرجاء المعسكر، وبمعونة الرب جرى انقاذ الكونت، وطرد المسلمين من محلاتنا.

وجاء بعد العساكر التي قادها كونت دي بواتييه، القوات التي قادها جوسراند دي برانكيون، الذي كان قد جاء إلى مصر مع الكونت، وكان واحداً من أفضل الفرسان في الجيش، وقد عبأ قواته بأن جعل جميع فرسانه رجّالة، بينما ركب هو نفسه فرساً، ومثله فعل ابنه هنري وابن جوسراند دي نانتون Nanton ، وقد وضعه أيضاً على ظهر فرس لأنهما كانا مايزالان في مقتبل العمر، وكسب المسلمون الجولات القتالية عدة مرات، غير أنه كان كلما رأى رجاله في شدة، كان يغمز حصانه ويهاجم الأعداء من الخلف، وفي عدة مناسبات من هذا القبيل تخلى المسلمون عن مضايقة رجاله ليقوموا بالهجوم عليه.

إلاّ أن هذا كله ما كان ليحول بين المسلمين وبين قتلهم جميعاً على أرض ميدان المعركة، لولا وجود هنري دي كون Cone، الذي كان فارساً عاقلاً، وشجاعاً، وثاقب الرأي تماماً، وكان موجوداً في فرقة دوق بيرغندي، حيث كان كلما رأى المسلمين يضغطون بشدة على اللورد برانكيون وقواته، كان يجعل رماة القسي العقارة التابعين للملك يقومون بالرماية عليهم من عبر النهر، وهكذا بقي جوسراند دي برانكيون سالماً من رعب ذلك اليوم، لكن ليس بدون فقدان اثني عشر فارساً من بين

العشرين الذين كانوا معه، وذلك بصرف النظر عن الرجال الآخرين الذين كانوا من المراتب الأدنى، يضاف إلى هذا أنه هو نفسه قد أصيب إصابة بالغة، حتى لم يعد بمقدوره منذ ذلك الحين الوقوف على قدميه، وفي النهاية مات بسبب الجراحات التي تلقاها أثناء خدمته للرب.

ولسوف أخبركم الآن ببعض المزيد عن جوسراند دي برانكيون، ففي الوقت الذي توفي فيه كان قد شارك في ست وثلاثين معركة واشتباك صغير، وحمل دوماً الجائزة لشجاعته، ولقد قابلته مرة عندما كنا معا في حملة عسكرية قادها ابن عمه كونت دي شالون Chalon ، وقد جاء إليّ في يوم الجمعة الحزينة وقال لي ولأخي: «تعالا ياولدي أخي وساعداني، أنتما ورجالكما، لأن الألمان يقومون بتدمير الكنيسة»، ومضينا معه وانقضضنا على الألمان وسيوفنا مشهورة، وبعد صعوبة كبيرة، وصراع عنيف طردناهم من الكنيسة.

ولدى انتهاء هذه المعركة، ركع هذا الرجل أمام المذبح، ودعا بصوت مرتفع إلى مخلصنا قائلاً: «مولاي، أرجوك أن ترحمني، وأن تنتشلني من هذه الحروب بين المسيحيين، التي أنفقت فيها شطراً كبيراً من حياتي، وامنحني امكانية الموت في خدمتك، ومن ثم التمتع بملكوتك في الجنة».

ولقد أخبرتكم بهذه الأشياء لاعتقادي بأن ربنا قد استجاب لدعائه، حسبما يمكنكم استخلاص ذلك مما قلته من قبل.

وبعد هذه المعركة، التي وقعت في الجمعة الأولى من الصوم الكبير، استدعى الملك لويس جميع باروناته للمثول أمامه، وقال لهم: «ينبغي علينا تقديم الشكر العظيم لمخلصنا، الذي أسبغ علينا فضله وشرفنا مرتين خلال هذا الاسبوع: في يوم ثلاثاء المرافع، عندما طردنا العدو من المخيم الذي نسكنه نحن أنفسنا الآن، وعلى يوم الجمعة التالي، الذي

مرّ للتو، الذي دافعنا فيه عن أنفسنا ضد أعداء هاجمونا وهم على ظهور الخيول، في حين كنا رجالة فقط»، وقال الملك أيضاً أشياء لطيفة وخيرة كثيرة لباروناته، ليواسيهم، وليبعث فيهم روح شجاعة جديدة.

وأجد وأنا أتابع سياق روايتي من الضروري ملامسة بعض القضايا المكملة، ولهذا إنه من المفيد التوقف عند هذه النقطة لأوضح كيف احتفظ السلاطين بقواتهم بشكل حسن، وفي أحوال جيدة، ونحن نعلم بشكل مؤكد أن معظم الشخصيات القيادية في جيوشهم كانوا من الأجانب، الذين جلبهم التجار من بلدان أخرى لبيعهم، وهم الذين كان المسلمون يقبلون بسرور على شرائهم، حتى مقابل أسعار عالية جداً، وجلب هؤلاء الناس الذين أحضرهم التجار إلى مصر، بالغالب من الشرق، لأنه عندما كان واحد من الحكام الشرقيين يهزم حاكماً آخر كان يستولي على البؤساء الذين قهرهم، ويبيعهم إلى التجار، الذين كانوا يقومون بدورهم بجلبهم وبيعهم مجدداً إلى المصريين.

وإذا كان أي من هؤلاء أطفالاً، فقد كان السلطان يتولى تربيتهم في بيته الخاص حتى تبدأ لحاهم بالنمو، وكان يراعي أن يرى في أيديهم قسياً موائمة لقواهم، وعندما كانوا يزدادون قوة كان يأمر بالقسي الضعيفة لتودع في دار الصناعة، ويجعل المعلم العام المسؤول عن النظام أن يقوم بتجهيزهم بأقوى القسي التي يمكن لهم ايتارها.

وكان هؤلاء الغلمان يعرفون باسم البحرية (أو الناس من البحر)، وكانوا يتمتعون بامتياز ارتداء دروع الرنوك نفسها— التي كانت من الذهب— مثلما يرتدي السلطان نفسه، وما أن كانت لحاهم تبدأ بالنمو، حتى كان يجعلهم فرساناً، ويستمرون في حمل رنوكه، لكن مع شيء من الخلاف، أي أن تقول أنهم كانوا يضيفون بعض الأشكال القرمزية، مثل الورود، أو الخطوط، أو الطيور، أو تصاميم أخرى، تبعاً لإختيارهم.

وهم يعرفون الآن باسم (جند) الحلقة (أو الحرس الملكي)، لأنهم ينامون في خيم السلطان، وكانوا يعطون، عندما يكون في المعسكر، أماكن مجاورة له، ويتولون حراسته شخصياً، وكان حجّاب السلطان يعيشون في خيمة صغيرة عند المدخل إلى محلاته مع عازفيه، الذين كانت أدواتهم الرئيسية: الأبواق، والطبول وأنواع من الكوسات، وكانوا يحدثون جلبة عظيمة بهذه الآلات عند اشراق الشمس وعند غيابها، تجعل من المستحيل على الذين قربها سماع أحدهم حديث الآخر إليه، وكان الصوت يسمع بشكل واضح في جميع أرجاء المعسكر.

ولايقدم العازفون مطلقاً على استخدام آلاتهم أثناء النهار، إلاّ بناء على أوامر مقدم الحلقة، ومتى ما رغب السلطان بقيامهم بالعزف كان يرسل هذا المقدم إليهم ويعطي الأمر من خلاله، وعندها كان مقدم الحلقة يعمد إلى اصدار الأمر للعازفين بالعزف، ووقتها يجتمع الجيش كله لسماعهم، فهكذا كانت طبيعة أوامر المقدم، وهي كانت مطاعة بشكل طبيعي.

وإثر ذهاب السلطان إلى حرب ما، كان يقوم بتأمير فرسان الحلقة الذين ميزوا أنفسهم أثناء القتال، ويعينهم قادة لمائتين أو ثلاثمائة من الفرسان، وكانوا كلما برهنوا على المزيد من شجاعتهم، كلما زاد من عدد الفرسان الموضوعين تحت قيادتهم.

وكانت المكافأة الخاصة التي تحفظ لتميزهم في الخدمة هي كما يلي: عندما يصبحون مشهورين جداً، وأقوياء إلى درجة أن ما من أحد يتجرأ على تحديهم، والسلطان يخشى أن يقتلوه، أو أن يغتصبون محله، كان يأمر باعتقالهم واعدامهم، ومن ثم حرمان زوجاتهم من كل شيء كانوا قد امتلكوه، فعلى هذه الصورة تعامل السلطان مع الذين تولوا أسر كونت دي مونتفورت، وكونت دي بار Bar ، وكذلك تصرف أيضاً البندقداري، وفعل مع الذين هزموا ملك أرمينيا، فقد كان هؤلاء

يتوقعون نيل جائزة ما، ولذلك ترجلوا وذهبوا لتقديم احتراماتهم للبندقداري أثناء قيامه باصطياد بعض الحيوانات الضارية، وقد ردّ عليهم بقوله: «لاتحية لكم عندي» لأنهم قطعوا عليه صيده، وأمر بقطع رؤوسهم.

ولسوف أستأنف الآن حكايتي كيف أن السلطان المتوفى كان لديه ولداً (توران شاه) كان حكيماً، ولبقاً وداهية، وخشية من السلطان أن يقوم هذا الشاب بخلعه، أعطاه مملكة امتلكها في الشرق (قلعة كيفا)، وبعد وفاة السلطان بعث الأمراء إلى الابن، الذي ما أن عاد إلى مصر حتى انتزع الصولجانات الذهبية من ذوي المراتب من أمراء أبيه، مثل الأتابك، والاسفهلار وناظر الجيش، وأعطاهم إلى رجال قدموا معه من الشرق.

وعندما وجد الأمراء الثلاثة أنفسهم هكذا محرومين من وظائفهم، غضبوا غضباً شديداً، وكذلك فعل بقية الأمراء من مستشاري السلطان المتوفى، وقد شعر الجميع بالإهانة الكبيرة من الحاكم الجديد، واقتنعوا بأن الابن سوف يعاملهم مثلما تعامل الأب مع الذين كانوا قد أسروا كونت دي بار، وكونت مونتفورت، لذلك دخلوا بمباحثات مع جند الحلقة، الذين كان واجبهم كما أخبرتكم، حراسة شخص سيدهم، ونالوا وعداً منهم أنه ما أن يطلب منهم الأمراء قتل السلطان حتى يقوموا بفعل ذلك.

وبعد انقضاء المعركتين اللتين توليت وصفهما مرّ الجيش بحقبة عصيبة جداً، فبعد مضي تسعة أيام طفت جثث قتلانا الذين فتك المسلمون بهم على سطح الماء، ويقال بأن مرد هذا إلى حقيقة تفجر الصفراء، وجاءت هذه الجثث طافية مندفعة مع التيار حتى وصلت إلى الجسر الذي كان قائماً بين معسكرينا، ولم تستطع هذه الجثث المرور من تحت الجسر، لأن الماء كان عالياً قد وصل حتى القناطر، وكانت هناك

كثـرة كثيرة جـداً منهم إلى حـد أن النهـر امتـلأ تمامـاً بالجثث بالطول وبالعـرض من ضفة إلى ضفـة أخرى، وكـان المجرى مغطى بها مسـافة رمي حجر صغير.

واكترى الملك مائـة من الرجال القسـاة الأشداء، وقـد احتاج هؤلاء مدة أسبـوع حتى تمكنوا من تنظيف النهر، وقد قـذفوا بجثث المسلمين عبر الطرف الآخـر من الجسر، وقـد تعـرفـوا عليهم من ختـانهم، وقـد تركـوهم ليحملهم التيـار، وجـرى دفن الصليبيين جميعـاً في خنادق عظيمـة، وقـد رأيت حـاجب كـونت دي أرتو مع عـدد كبير آخـر من الناس كـانوا يبحثون عن أصـدقـائهم بين الموتى، لكنني لم أسمع أن أياً منهم قد عُثر عليه هناك.

وكـان نوع السمك الوحيـد الذي أكلناه طوال الصـوم الكبير، هو أفـاعي الماء، لأنها كانت مخلوقـات شرهة، تتغذى على جثث الأمـوات، وبسبب هذه الأوضـاع السيئة، ونتيجـة للمناخ غير الصحي — لأنه لم يهطل في مصر ولا قطرة ماء واحدة — انتشر وباء مروع في جميع أرجاء الجيش، وكـان من النـوع الذي سبب جفـاف جلود أرجلنـا، ومن ثم أصبح الجلد مغطى ببقع سـوداء، ثم كـان يتحـول إلى لون التراب مثل لون حـذاء قـديم، ومـع الإصـابة بهذا المرض الشـديد، عـانى الذين تعرضوا من مرض آخر سبب تورم اللثث وإصابتها بالغنغرينا، وما من واحد وقع ضحيـة لهذه العلة، كان بإمكانه بأن يأمل بالشفـاء، لكنه كان متأكداً من الوفاة، وكانت العلامة المؤكدة على اقتراب الوفاة الرعاف من الأنف.

وقام المسلمون بعد مضي أسبوعين بإجراءٍ سبب صدمة هائلة لشعبنا، فمن أجل إجـاعتنا حملوا عـدداً من غـلايينهم التي كـانت تطفـو فـوق سطح الماء قرب معسكرنا، وبعدما سحبـوها فوق اليابسة، أعادوا إنزالها إلى النهر، على بعـد فرسخ دون المكان الذي كـانت خيمنا منصوبـة فيه،

وسببت هذه الغلايين حدوث مجاعة بيننا،فبسببهم لم يعد أحد يتجرأ على القدوم عبر النهر من دمياط ليجلب لنا ميرة جديدة وأطعمة، وكنا نحن أنفسنا جاهلين تماماً بهذا، حتى تمكنت سفينة صغيرة، كانت عائدة إلى كونت فلاندرز، من الافادة من التيار، فأفلتت من الحاجز، وأعطتنا أخبار وضع العدو، وأعلمتنا في الوقت نفسه أن غلايين السلطان قد استولت على ما يقارب الثمانين من غلاييننا عندما كانت قادمة عبر النهر من دمياط، وقتلت كل إنسان كان على متونها.

والمحصلة كان هناك ندرة عظيمة وانعدام للمؤن في المعسكر، وبلغ الأمر حداً أنه جرى تقدير ثمن الثور في عيد الفصح بثمانين ديناراً، والشاة الواحدة أو الخنزير بثلاثين ديناراً للرأس الواحد، في حين بلغت قيمة البيضة اثني عشر درهماً، وكان عليك أن تدفع عشرة دنانير مقابل البرميل من النبيذ.

وعندما أجرى الملك والبارونات استعراضاً للوضع، قرروا وجوب تغيير مكان معسكره الذي كان قائماً على الطرف المتجه إلى القاهرة، ونقله إلى المكان الذي كان دوق بيرغندي معسكراً فيه، وذلك على طول النهر الذي كان يجري نحو دمياط.

ولكي يضمن الملك جمع قواته مع أكبر قدر من السلامة، أمر بتشييد برج أمام الجسر بين المعسكرين، وقد بني وفق طريقة لايتمكن فيها أحد من دخول الجسر على ظهر حصان من أي من الجانبين.

وما أن أصبح هذا البرج جاهزاً، حتى تولى الجند تسليح أنفسهم جميعاً، وانتهز المسلمون هذه الفرصة، وقاموا بهجوم على معسكرنا، ولم يتقدم على كل حال لا الملك ولا جيشه نحو الأمام حتى كانت الأثقال كلها قد نقلت عبر النهر، وبعد هذا جاز هو على رأس رجاله، وتبعه جميع البارونات، وذلك باستثناء غوتيير دي شاتليون، الذي كان قائداً

لقـوات السـاقة، وفي الوقت الذي كـانت القـوات تدخل فيـه إلى البرج للجـواز، ذهب إيرارد دي فـاليري لإنقـاذ أخيـه جين،، الذي أسره المسلمون وكانوا على نية حمله بعيداً.

وعندما نجز عبـور الجزء الأساسي من الجيش، بات الذين بقيـوا في البرج عـرضة لخطر عظيم، لأن جـدرانه لم تكن عـالية جـداً، وعلى هذا كان بإمكان الخيالة المسلمين الرمـي بشكل مباشر نحوهـم، في حين تولى الذين كـانـوا رجّـالة رميهم بكدر من التراب على وجـوههم مبـاشرة، وكانوا جميعـاً سيموتون لولا قيام كونت دي أنجـو بالمضي إلى إنقاذهم، وجلبهم سالمين آمنين، وبين الرجال الذين كـانوا في البرج قاتل غيوفري دي موسامبورك Mussambourc ، بشجاعة فائقة، وربح أعظم أمجاد ذلك اليوم.

وسـوف أحـدثكم الآن عن حـادث غـريب كنـت أنا شـاهد له يوم ثلاثاء المرافع، فقد كانوا في ذلك اليـوم يدفنون هوغو دي لاندريكورت Landricourt، وكان فارسـاً يحمل الراية، وكان معي في الجيش، وفيما هو مسجى على نعش في بيعتي، كـان هناك ستـة من الفـرسـان، متكئين على بعض الغـرارات المليئة بالشعير، ولأنهم كـانوا يتحـدثون بصـوت مرتفـع في بيعتي، وكانوا يزعجـون الكاهن، ذهبت إليهم وطلبت منهم التـزام الصمت، وقلـت لهم إنه من غير اللائق بهم كفـرسـان وسـادة التكلم أثناء ترتيل القـداس، وشرعوا بالضحك، وأخبروني باستخفـاف بأنهم يرتبون الأمور لإعـادة زواج زوجة الرجل المتوفى، وتكلمت معهم بحدة، وبينت أن الحديـث حول مثل هذه الأشيـاء لم يكن صحيحاً ولا لائقاً، وأنه يبدو لي أنهم قد نسـوا رفيقهم بكل سرعة، ولقد انتقم الرب منهم، ففي اليـوم التـالي بالذات، وفي أثناء المعركـة الكبرى ليـوم ثلاثاء المرافع، كانوا جميعاً بين قتيل أو جريح لا يرتجى له شفاء، وبذلك كانت زوجات الستة جميعاً في وضع للزواج ثانية.

ونتيجة للجراحات التي تلقيتها في يوم ثلاثاء المرافع، سقطت ضحية للمرض الذي أصاب الجيش، وقد أثر ذلك على فمي وعلى رجلي، وكنت أيضاً أعاني من حمى ثلاثية مزدوجة، وقد ألمّ برد شديد برأسي حتى أن المخاط قد سال من أنفي، وأرغمت بسبب هذه الأمراض على ملازمة فراشي في منتصف الصوم الكبير، وحدث أن جاء كاهني ليرتل القداس لي إلى جانب فراشي في داخل سرادقي، وكان يعاني مما أعاني أنا نفسي منه من أمراض، وحدث في أثناء التراتيل أن اعترته غيبوبة، وعندما رأيته أنه موشك على السقوط، قفزت وأنا عاري القدمين من فراشي، وليس علي سوى قميصي، وأخذته بين ذراعي، وأخبرته أن يعمل بهدوء وأن يتابع الترتيل وقت راحته، لأنني لن أدعه يذهب قبل أن ينهي القداس، واستعاد وعيه، وبعد ما أكمل الترتيل، أنشد القداس حتى النهاية، لكنه لم ينشد قداساً آخر مرة ثانية.

وبعد أمد قصير حدد مستشارو الملك والسلطان يوماً يجتمعون فيه للوصول إلى اتفاق، وكانت الشروط المقترحة هي كمايلي: كان علينا تسليم دمياط إلى السلطان، وأن يقوم هو بالمقابل بتسليم مملكة القدس إلى ملكنا، وبالإضافة إلى ذلك كان على السلطان القيام برعاية المرضى في دمياط، وأن يحفظ اللحوم المملحة في المخازن من أجلنا — بما أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير — وأن يحتفظ بالآلات العائدة لجيشنا حتى يحين الوقت الذي يكون الملك فيه قادراً على إرسال من يحمل أشياءه إليه.

واستفسر مستشارو السلطان عن الضمانات التي سنعطيها لإعادة دمياط إلى سلطانهم، وعرض عليهم رجالنا السماح لهم بالاحتفاظ بواحد من أخوي الملك، أي إما كونت دي أنجو، أو كونت دي بواتييه، بمثابة رهينة حتى توضع دمياط بين يدي السلطان، وقال المسلمون بأنهم لن يعقدوا معاهدة معنا، ما لم يترك الملك لديهم ضمانة،وهنا أبدى

- ٢٨٦٣ -

الفارس الطيب غيوفري دي سارجين Sargines دهشته وامتعاضه وقال بأنه بالحري يفضل أن يقتلهم المسلمون جميعاً، أو يأخذوهم أسرى على تحمل مسبة ترك الملك رهينة بين أيديهم.

وبدأ المرض الذي أصاب الجيش الآن بالازدياد إلى درجة خطيرة، وعانى كثير من الناس من تورم اللثث، إلى حد أنه توجب على الحلاقين الجرائحيين القيام بإزالة اللحم المصاب بالغنغرينا، قبل أن يمضغوا أطعمتهم أو يبتلعوها، وكان من المؤلم سماع الصرخات في جميع أرجاء المعسكر، صرخات الذين كانت لحومهم الميتة تزال، وكانت هذه الصرخات تشبه صرخات امرأة في المخاض.

الفصل التاسع
الفرنسيون في الأسر
نيسان ١٢٥٠

وعندما لاحظ الملك، بعد طول لأي، أنه ورجاله يمكنهم البقاء فقط ليموتوا، اتخذ قراره بالمغادرة، وأصدر أوامره إلى الجيش بتقويض المعسكر في أواخر الليل يوم الثلاثاء، وبعد ثامن أيام عيد الفصح، والعودة إلى دمياط، وأرسل يخبر الرجال الذين كانوا مسؤولين عن الغلايين أن يقوموا بجمع المرضى وحملهم إلى المدينة، وأمر كذلك جوسلين دي كورنوت Cornaut مع أخوانه والمهندسين الآخرين القيام بقطع الحبال التي تمسك الجسر الذي كان قائماً بيننا وبين المسلمين، وعلى كل حال هم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل.

وأقلعت في يوم الثلاثاء بعد الظهر، وبعد الغداء، وكان معي اثنين من فرساني هما اللذان بقيا معي وكذلك خدمي، وعند حلول الظلام، أخبرت بحارتي برفع المرساة والابحار نزولاً مجاراة للتيار، غير أنهم قالوا لي بأنهم لا يتجرأون على فعل ذلك، بسبب رجال غلايين السلطان، التي كانت متمركزة بيننا وبين دمياط، فهؤلاء سوف يقتلوننا بكل تأكيد، وأشعل الملاحون الذين شحنوا غلايينا في الوقت نفسه نيراناً عظيمة للفت انتباه المرضى الذين تدبروا جر أنفسهم إلى ضفة النهر، وعندما كنت أحث بحارتي على الاقلاع والتحرك، دخل المسلمون إلى المعسكر، ورأيت بوساطة ضوء النيران أنهم كانوا يتولون قتل التعساء من الناس على ضفة النهر.

وبينما كان ملاحو سفينتي يرفعون المرساة، قطع البحارة الذين كان واجبهم جمع المرضى، حبال مراسيهم، والحبال التي ربطت غلايينهم،

وجـاءوا إلى محاذاة سفينتنا الصغيرة، واحتشـدوا بكثافـة من حـولها وبمحاذاتنا من كل جـانب حتى كادوا أن يغـرقوننا، وبعدمـا نجونا من ذلك الخطر، وكنا نازلين نساير التيار، كان بإمكان الملك الذي كان يعاني من المرض الذي أصـاب الجيش، ومن إسهـال شـديد أيضـاً، أن يمضي بسهولة ويبتعـد بوساطة الغـلايين، لكنه قال بأنه لـن يتخلى مطلقاً عن شعبه مرضاة للرب، وقد أغمي عليه في تلك الليلة عدة مرات، وبسبب الاسهـال الشـديد الذي عـانى منه، وأرغمـه على التردد على الكنيف بشكل متواصل، اضطروا إلى قطع الجزء الأسفل من سراويله.

وصرخ إلينا الرجـال الـذين كـانوا على الضفـة، عندمـا شرعنا ننزل مسايرين لتيار النهر، وأخبرونا بوجـوب انتظار الملك، وعندما لم نتوقف لانتظاره شرعـوا يرمـون علينا بنشـابهم من قسيهم العقـارة، ولذلك اضطررنا إلى التوقف، حتى سمحوا لنا بالذهاب.

ولسوف أقطع حـديثي هنا لأخبركم كيف وقع الملك بالأسر، وذلك حسبماروى لي ذلك شخصياً، فقـد أخبرني بأنه ترك فـرقتـه الخاصـة، وذهب مع غيـوفري دي سـارجين، ليضع نفسـه في الفـرقة التي كـانت تحت قيادة غـوتيير دي شاتليـون، الذي كان يتولى قيـادة قوات السـاقة، وقال بأنه شخصيـاً كان يمتطي على ظهـر مهر صغير، وعليـه برذعة من الحرير، وأخبرني أيضـاً أنه لم يبق معـه من فـرسانه وسيرجنديتـه سـوى غيوفـري دي سارجين، وقد أخـذني إلى قرية صغيرة، كـانت في الحقيقة هي القـرية التي أسر فيهـا أخيراً، وأخبرني الملـك في الرواية التي قصهـا عليّ حـول هذه الحادثة، أن غيـوفـري دي سـارجين قـد دافع عنه ضـد المسلمين دفـاعـاً بطوليـاً، مثلما يدفع الخادم المخلـص الذباب عن كأس مـولاه، ففي كل مـرة حاول المسلمـون الاقتراب منه، كـان يأخـذ رمحه الذي كان قد وضعه بينه شخصيـاً وبين قوس سرجه، ويضعه على كتفه ويحمل عليهم، ويتولى طردهم عن الملك.

وبهذه الطريقة جلب الملك سليماً إلى القرية الصغيرة، حيث حمل إلى بيت ومدد فيه، وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، ووضعوه في حجر امرأة، صدف أنها كانت أصلاً من أهالي باريس، وساد الاعتقاد آنذاك أنه لن يظل حياً حتى المساء، وجاء إليه إلى هناك فيليب دي مونتفورت وأخبره بأنه قد رأى الأمير الذي تباحث معه حول قضية الهدنة، وإذا كان جلالته يرضى، فهو سيذهب إلى هذا الرجل ويجدد المباحثات حول شروط للهدنة ستكون مرضية للمسلمين، وتوسل الملك إليه بأن يذهب، وأضاف بأنه راغب في إنجاز ذلك كل الرغبة.

وبناء عليه عاد فيليب دي مونتفورت إلى المسلم، وقام هذا بخلع عمامته عن رأسه، وانتزع خاتمه من إصبعه دليلاً على أنه سوف يلتزم باخلاص بشروط الهدنة.

وحدث في الوقت نفسه حادث شؤم سبب كارثة لشعبنا، فقد قام سيرجندي خائن منا اسمه مارسل Marcel ، وشرع يصرخ في الجيش ويقول لأفراده:«استسلموا أيها الفرسان، لأن الملك قد أمر بذلك، ولاتكونوا سبباً في قتله»! وقد اعتقد كل إنسان بأن الملك قد أصدر بالفعل هذه الأوامر، وهكذا سلموا سيوفهم إلى المسلمين، ولدى رؤية الأمير بأن المسلمين يقومون بجلب رجالنا بمثابة أسرى، أخبر فيليب دي مونتفورت بأنه قد تحلل من شروط منح الهدنة والحفاظ عليها، بما أنه من الواضح أمام مرأى العين أن رجالنا باتوا في الأسر.

وهكذا سارت الأمور، ووقع جميع رجالنا بالأسر، إنما بما أن فيليب دي مونتفورت كان رسولاً، لم يعان من المصير نفسه، وكان هناك على كل حال عادة سيئة بين المسلمين، هي أنه إذا ما بعث الملك رسلاً إلى سلطان، أو أرسل سلطان إلى ملك، وحدث ومات واحد من هذه الملكين قبل عودة الرسل، آنذاك كان يجري اعتقال هؤلاء الرسل واسترقاقهم، بصرف النظر عن المكان الذي جاءوا منه وسواء أكانوا

مسيحيين أم مسلمين.

وفي الوقت الذي عانى فيه بعض من شعبنا من سوء المصير حيث سيقوا أسرى وهم على اليابسة، واجهت أنا ورجالي — حسبما سأقص عليكم بعد قليل — سوء المنقلب نفسه على سطح الماء، فقد كانت الريح تهب من اتجاه دمياط، وهكذا حرمتنا من الإفادة من المنافع التي كان يمكن للتيار أن يقدمها لنا، فضلاً عن هذا كان الفرسان الذين وضعهم الملك في المراكب الخفيفة للدفاع عن المرضى قد هربوا، وهكذا لم يكن بمقدور بحارتنا التحرك نحو الأمام مع مجرى تيار الماء، فدخلوا إلى أحد الخلجان، وأرغمنا بعد هذا على النكوص عائدين نحو خطوط المسلمين.

وبينما كنا نسير وفق اتجاه التيار، وصلنا قبيل بزوغ الفجر بوقت قصير، إلى مجاز للنهر، حيث وقفت غلايين السلطان، التي تولت منع ورود الميرة من دمياط، وكانت جميع هذه الغلايين مصفوفة معبأة، وكان هناك فوضى عظيمة وجلبة كبيرة، لأن المسلمين توجهوا برماياتهم نحونا ونحو رجالنا الذين كانوا على ظهور الخيول الواقفين على الشاطىء، بالنشاب الكثيف المشبع بالنار الإغريقية، حتى بدا الأمر وكأن النجوم كانت تتساقط من السماء.

وبعدما أخرجنا ملاحونا خارج نطاق الخليج الذي كانوا قد أخذونا إليه، رأينا السفن الصغيرة التي كان الملك قد أعطانا إياها لإيواء مرضانا، تسابق الريح باتجاه دمياط، ثم بدأت الريح تهب من جهة الشمال بشدة متناهية، حتى أنه على الرغم من التيار، لم نستطع التقدم نحو الأمام.

وكان هناك على طول ضفتي النهر عدد من القوارب الصغيرة، تعود، إلى أناس من قومنا لم يستطيعوا النزول إلى الماء ومجاراة التيار، ونتيجة

لذلك توقفوا وأسروا من قبل المسلمين، وكان هؤلاء الأشقياء يتولون قتل رجالنا ورمي أجسادهم في الماء، ويجرون الصناديق والأمتعة إلى خارج المراكب التي استولوا عليها، وأطلق الخيالة المسلمون الذين كانوا على الشاطيء النشاب علينا بسبب أننا رفضنا الذهاب إليهم، وأعطاني رجالي درعاً واقياً لأرتديه، حتى أحول دون الإصابة بالجراحة بوساطة النشاب الذي استمر بالسقوط علينا في القارب.

وفجأة صرخ رجالي — الذين كانوا يقفون في الخلف — لي يقولون: مولاي، مولاي، إن بحارتك سوف يأخذوك إلى الشاطيء، لخوفهم من تهديد المسلمين، وهنا وجدت من ساعدني على الوقوف مستنداً على ذراعي، ومع أنني كنت ضعيفاً جداً، جردت سيفي على البحارة، وأخبرتهم أنني سوف أقتلهم لو أنهم أخذوني إلى اليابسة، وأخبروني أنني ينبغي أن أعمل اختياري: إما بالأخذ إلى الشاطيء، أو الرسو في وسط النهر والوقوف حتى تتوقف حركة الريح، وأخبرتهم أنني أفضل الرسو في وسط النهر على أن أحمل إلى الشاطيء، حيث ليس أمامنا غير خيار واحد هو الموت، وبناء عليه توقفوا ورسوا.

وبعد ذلك بقليل رأينا أربعة من غلايين السلطان قادمة نحونا، وعلى ظهورهم ألف رجل، وبناء عليه دعوت فرساني وبقية رجالي للاجتماع معاً، وسألتهم ما الذي يفضلون: الاستسلام إلى غلايين السلطان، أم إلى المسلمين الواقفين على الشاطيء، واتفقنا على تفضيل الاستسلام إلى غلايين السلطان، لأن تلك كانت هي الوسيلة التي تمكننا من البقاء مع بعضنا بعضاً، وذلك بدلاً من الاستسلام إلى الذين على الشاطيء، الذين سوف يفرقون فيما بيننا، ومن ثم يبيعوننا إلى البداة.

ثم قال لي واحد من أتباعي، وكان هو من مواليد دوليفانت Dou-levant: «لايمكنني يا مولاي الموافقة على هذا القرار»، فسألته : ما الذي يمكن أن يوافق أن علي القيام به؟ فأجاب: «إن الذي أراه وأنصح

به هو أن ندع أنفسنا نقتل، لأننا بذلك سوف نذهب إلى الجنة»، لكن ما من أحد أصغى إلى نصيحته.

والآن وقد أدركت أن علينا الاستسلام لنؤخذ أسرى، انتزعت صندوقي ومجوهراتي ورميتهم في النهر مع الآثار المقدسة التي كانت لدي، ثم قال لي واحد من بحارتي:«مولاي ما لم تسمح وتأذن لي بأن أقول بأنك ابن عم الملك، سوف يقتلون كل واحد منا، معك شخصياً»، فأجبته بأنني موافق على كل ما سيقوله.

وما أن سمع رجال الغليون الأول، الذي كان قادماً نحونا ليقوم بصدمنا في وسط السفينة، الذي أعلنه هذا الرجل، حتى ألقوا مراسيهم على محاذاة مركبنا، وفي هذه الساعة بعث الرب لي مسلماً كان من بلاد امبراطور ألمانيا، وقد قدم سباحة عبر النهر، وكان يرتدي سراويل من الكتان المانع لتسرب المياه، وصعد إلى ظهر سفينتنا، واحتضنني من وسطي وقال لي:«إنك ما لم تتصرف بسرعة وبشجاعة لسوف تقتل، والذي عليك القيام به هو أن تقفز من سفينتك إلى القيدوم المعلق فوق عارضة هذا الغليون، وإذا فعلت هذا ما من أحد سوف ينتبه إليك، لأنهم الآن مشغولون بالأسلاب التي يمكنهم الحصول عليها من سفينتك»، ورمى لي أحدهم حبلاً من الغليون، وبعون الرب قفزت إلى القيدوم، وبما أنني كنت غير متوازن وغير قادر على الوقوف على قدمي، ولولا أن المسلم قفز خلفي، وأمسكني، لسقطت في قلب الماء.

وسحبت إلى داخل الغليون حيث كان هناك مائتين وثمانين من الأعداء، وتابع في أثناء ذلك المسلم في وضع ذراعيه من حولي، ثم أنهم ألقوني أرضاً، وألقوا بأنفسهم فوق جسمي ليقوموا بذبحي وقطع رقبتي، لأن كل واحد منهم كان يعتقد أنه بقتله لي سوف ينال شرفاً بذلك، غير أن المسلم ما انفك يمسكني بذراعيه وصرخ:«إنه ابن عم الملك»، ومع هذا كان ذلك بلا فائدة، فقد ألقوا بي مرتين إلى الأرض،

وأرغموني مرة على الركوع على ركبتي، وعند ذلك شعرت بالسكين عند بلعومي، لكن الرب أنقذني في هذه المحنة بعون المسلم، الذي قادني إلى واحد من أبراج السفينة، حيث كان فرسان المسلمين مجتمعين.

وما أن قابلتهم حتى انتزعوا درعي، ثم إنهم عطفوا علي فرموا إلي لحافاً قرمزياً من لحفي كان مبطناً بفراء أبيض، كانت أمي العزيزة قد أعطتني إيّاه، وجلب أحدهم إلي حزاماً من الجلد الأبيض، فتمنطقت به فوق اللحاف، وذلك بعد عمل فتحه في هذا اللحاف، من أجل أن أستعمله بمثابة جلباب، وجلب إليّ إنسان آخر قلنسوة وضعتها فوق رأسي، ثم إنه بسبب حالة الرعب التي كنت فيها، وكذلك بسبب مرضي الذي أضرّ بي، أخذتني قشعريرة مرعبة واصطكت أسناني، ولهذا طلبت ما أشربه، وقد جلبوا بعض الماء في جرة، لكنني ما كدت أرفع الجرة إلى فمي حتى أخذ الماء يسيل من أنفي.

وعندما رأيت هذا يحدث، أرسلت خلف رجالي وأخبرتهم بأنني رجل يحتضر، بسبب الدمامل التي كانت في فمي، وسألوني كيف عرفت ذلك، فأريتهم إياها، وما أن شاهدوا الماء ينقذف من حلقي ومن أنفي، حتى شرعوا بالبكاء،وعندما رأى فرسان المسلمين الدموع تنهمر من أعين رجالي، سألوا الرجل الذي تولى إنقاذي: لماذا هؤلاء الرجال يبكون؟ فأجابهم بأنه عرف بوجود دمامل في حلقي، وأنه لا أمل لي بالشفاء، ثم قام واحد من الفرسان المسلمين بإخبار الرجل الذي أنقذنا بأن علينا الاطمئنان، ذلك أنه سوف يعطيني شيئاً لأشربه، وأنه سيشفيني خلال يومين، ويمكنني القول بأن هذا ما كان حسبما فعل.

وكان راؤول دي وانو، الذي كان واحداً من أتباعي، قد أقعد خلال المعركة الكبرى التي وقعت يوم ثلاثاء المرافع، ولم يكن بإمكانه الوقوف على قدمية، ويودي إعلامكم أن فارساً عجوزاً مسلماً كان في الغليون، اعتاد على أن يحمله على الظهر والكتفين إلى المرحاض عندما كان يحتاج

إلى ذلك.

وبعث إليّ القائد العام للغلايين، وسألني فيما إذا كنت بالفعل ابن عم الملك، فأجبته:«لا»، وأخبرته كيف ولماذا قال الملاحون بأنني كذلك، وأعلمني هذا القائد بأنني تصرفت بشكل حكيم، لأنني لو تصرفت بشكل مغاير، لتعرضنا جميعاً للموت، وسأل فيما إذا كانت هناك أية قرابة لي مع الامبراطور فردريك امبراطور ألمانيا، وأجبته أنني أعتقد مؤكداً أن سيدتي الوالدة هي ابنة عمه، وبناء عليه عقب القائد بأنه قد أحبني أكثر لهذا السبب.

وبينما كنا نتناول الطعام، استدعى رجلاً أصله من باريس ليقف أمامنا، وعندما وصل هذا الإنسان قال لي:«مولاي ما الذي تصنعه»؟ فقلت:«لماذا، ما الذي يمكن أن أقوم به»؟ فأجابني:«باسم الرب، إنك تأكل لحماً في يوم جمعة»، وما أن سمعت هذا حتى وضعت الطشت خلفي،وسأل القائد المسلم لماذا تصرفت هكذا، فأخبره، فقال: إن الرب سوف لن ينظر إلى ما قمت به على أنه ذنب قد اقترفته، بسبب أنني لم أنتبه أنني كنت أقترف ذنباً.

ويمكنني أن أخبركم بأن الجواب نفسه قد أعطي لي من قبل النائب البابوي، بعدما أطلق سراحنا من الأسر، ومع هذا لم أتوقف عن الصوم على الخبز والماء كل يوم جمعة في الصوم الكبير منذ ذلك الحين فصاعداً، وجعل هذا النائب البابوي يغضب كثيراً مني، لأنني الرجل الوحيد من ذوي المراتب العليا ممن بقي مع الملك.

وفي يوم الأحد التالي، نقلت والآخرين، بناء على أوامر الأمير، بمثابة أسرى، ونزلنا على ضفة النهر، وعندما كانوا يأخذون، جين، قسيسي الطيب، من قاع الغليون، وقع مغشياً عليه، فقتله المسلمون وألقوا بجسده في النهر، وأيضاً وقع كاهنه مغشياً عليه نتيجة للمرض الذي

اعترت حمّاه الجيش، فتلقى ضربة قـاتلة على رأسه، وبذلك قتلوه أيضـاً، وألقوا جسده في الماء.

وفي الوقت الذي جـرى فيـه إنزال المرضى من الغليـون الذين كـانوا مسجونين فيه، كان هناك مسلمون يقفون جانباً وسيوفهم مسلولة، وهم جـاهزون للتعـامل مع الذين يقعـون كما تعـاملوا مع قسيسي، وبعثت إليهم بمسلمي ليخبرهم أن هذا — كما أعتقـد — ذنبـاً عظيماً لا يجوز اقترافـه، وهو مضاد لتعـاليم صلاح الدين، الذي قـال:ينبغي عليك ألا تقتل أبداً إنساناً شـاركك مرة الخبز والملح، فأجاب القـائد بأن المقتولين موضـوع البحث لاقيمة لهما، بسبب المرض الذي كانا يعانيـان منه، فقد تركهما هذا المرض عاجزين عن القيام بأي عمل مفيد لهما.

وجلب بعد هذا وأحضر أمامي جميع بحارتي، وأخبرني بأن كل واحد منهم قد تخلى عن عقيدته، فحذرته من وضع ثقته بهم، فمثلما تخلوا بكل سرعـة عنا، سـوف يتخلون عنه، عندمـا يجدون إما الوقت أو الفـرصـة لفعل ذلك، وأجابني القـائد بأنه يتفق معي، لأن صـلاح الدين اعتاد أن يقـول، بأنه لم ير قط مسيحياً سيئاً قـد صـار مسلماًصالحاً، وكـذلك لم ير أبداً مسلماً سيئاً قد صار مسيحياً جيداً.

وجعلني بعـد هذا بوقـت قصير أمتطي ظهـر حصـان، وأن أسير إلى جانبه، ولقد عبرنا فـوق جسر من القوارب وذهبنا إلى المنصورة، حيث كـان الملك ورجاله في الأسر، ووصلنا إلى مـدخل سرادق كبير كان فيـه كتّاب السلطان، ودونوا هناك اسمي، وعنـد هذه النقطة أخبرني مرافقي قائلاً:«مولاي، لن أستطيع المضي معـك أبعد فهذا غير ممكن بالنسبة لي، لكن اسمح لي أن أتوسل إليك يا مـولاي أن تظل ممسكاً بيـدك بالطفل الذي هو معك، خشيـة أن يأخـذه المسلمون، وكـان الطفل الذي أشـار إليـه يدعى بارثلمي، وكـان ابناً طبيعيـاً لصـاحب مونتفـوكـون Mont-faucon.

وبعـدما جـرى تدوين اسمي أخـذني القـائد إلى سرادق آخـر، حيث جرى حشـد البارونات مع مايزيد على عشرة آلاف رجل آخـر، وما أن دخلت حتى عبر البارونـات عن فرحتهم بشكل مرتفـع إلى حد صعب فيـه على أحـدهم سماع كلام الآخـر، وقـدمـوا الشكر للرب لحفظه لي، وقالوا بأنهم اعتقدوا أنني قد فقدت.

ولم يطل بنا المقام هناك قبل أن يأمر المسلمون الأعيان بيننا بالنهوض، ونقلونا إلى سرادق آخر، وبقي كثير من الفرسان مع أناس آخرين داخل ساحة مسورةبجدران من الطين، وكـانت عادة أعدائنا أخذهم من هناك واحـداً واحـداً، حيث كـانوا يسألـون أحـدهم:«هل أنت على استعـداد للتخلي عن إيمانك» ؟، وكـان الذين يرفضـون يوضعـون جـانبـاً، حيث جرى إعدامهم، أما الذين وافقوا فقد احتفظوا بهم في الجانب الآخر.

وفي هذه الساعة بعث السلطان مستشاريه للحديث معنا، فسألونا إلى من سيـؤدون رسالة مـولاهم، فأخبرناهم بأن يتـوجهوا بالخطاب نحـو الكونت الطيب بيير دي بريتـاني، وكان معهم بعض من الناس يعـرفون بالتراجمة، أي أنهم كانوا أناساً عـرفوا لغتنا وكذلك لغتهم، وتولى هؤلاء ترجمة رسالة السلطان إلى الفرنسية لصالح الكونت بيير.

وكان الذي جرى في هذه المقابلة كمايلي:فقـد قال المسلمون:«مولاي، بعثنا السلطان إليكم لنسأل فيها إذا كنتم ترغبون في إطلاق سراحكم» ؟ وأجـابهم الكونت في التأكيـد على الرغبـة بذلك، فسألـوه إثر ذلك : «مـاالذي سـوف تعطونه الى السلطان مقـابل الحصـول على حـريتكم»؟ فأجـابهم الكونـت بقـوله:«كل مـا نستطيعـه، مـا دام الأمـر في حـدود المعقول»فقالوا:«هل ستعطوننا أياً من القلاع العائدة للبارونات من بلاد ما وراء البحـر» ؟ وأجابهم الكونت بأنه لايملك القـدرة على تسليم أياً من هذه القـلاع، لأنها ممنوحـة من قبل الامبراطور الحاكم في ألمانيـا، ثم سألوه عما إذا كنا على استعـداد أن نسلم مقابل الحصول على حـريتنا أياً

من القلاع العـائدة إلى الداوية أو الاسبتارية، فـأجابهم الكونت بأن هذا من غير الممكن القيـام به، لأن شحن هذه القـلاع، أقسمـوا — لدى تسلمهم لمناصبهم — على الأناجيل المقـدسة أنهم سوف لـن يسلموا أياً من هذه القلاع مقـابل الحصول على حرية أي إنسـان أو إطلاق سراحه من الأسر، وعلق عند ذلك هؤلاء المستشـارون بقولهم: يبـدو لنا بأنكم ليست لديكم رغبة في إطلاق سراحكم، وأخبرونا بأنهم سوف يرسلون إلينا رجالاً سوف يتدربون بسيوفهم بنا، مثلما فعلوا بآخرين من جيشنا، ثم إنهم ذهبوا.

ومـا أن انصرفـوا حتى اندفع حشـد كبير مـن شبـاب المسلمين، وسيوفهم معلقـة على أجنابهم، إلى داخل سرادقنا، وجلبـوا معهم رجلاً متقدماً بالسن، حيث كان شعره أبيض مثل الثلج، وقد سألنا عما إذا كنا نؤمن بالرب الذي اعتقل من أجلنا، وجـرح وأميت في سبيلنا، وأنه قام مجدداً في اليوم الثالث؟ فأخبرناه بأن هذا كـان كذلك، ثم إنه أخبرنا بأنه ينبغي علينا عـدم الخوف إذا مـا عـانينـا من هذا العـذاب والشقـاء من أجله، وقال: «لأنكم لم تموتوا بعد من أجله، مثلما مات من أجلكم، وإذا كـان قـد امتلك القـدرة على العـودة إلى الحيـاة، عليكم الاطمئنان بأنه سوف ينقذكم، عندما يشاء أن يفعل ذلك».

ثم إنه ذهب مغـادراً، ومعه جميع الفتيان المسلمين، ومن جـانبي كنت مسروراً جداً تجاه هذا الـذي حصل، لأنني كنت اعتقدت بشكل مـؤكد تمامـاً بأنهم قـد جـاءوا لقطع رؤوسنا، ولم يمـض وقت طويل بعـد هذا عندمـا جاء رجـال السلطان ليخبروننا بأن ملكنا قد عقـد اتفاقيـات مع سيدهم من أجل إطلاق سراحنا.

وحدث هذا بعـد وقت قصير من مغادرة الرجل العجـوز الذي تفوه بتلك الكلمات التي واسانا فيهـا، وعاد مستشـارو السلطان لإخبارنا بأن الملك قد ابتاع لنا إطلاق سراحنا، وأن علينا إرسال أربعة من مجموعتنا

لسماع كيف صنع ذلـك، فبعثنا جين دي فــاليري الطيـب، وفيليب دي مونتفورت، وبلدوين دي إيبلين نائب قبرص، وغي دي إيبلين قسطلان الجزيرة نفسهـا، وكـان واحـداً من أعظم الفـرسـان كمالاً ممن رأيتـه قط وعـرفتـه، وكـان من أعظم الناس حبـاً لأهل الجزيرة الذين كـانوا تحت رعايته وقيادته، وجلب هؤلاء الأربعة إلينا رواية بينت كيف تمكن الملك من الحصول على إطلاق سراحنا من الأسر.

الفصل العاشر
مباحثات مع المسلمين
نيسان — أيار ١٢٥٠

اتبع مستشارو السلطان الطريقة نفسها باتصالاتهم التجريبية بالملك، مثلما فعلوا معنا وفي حالتنا، وذلك من أجل معرفة، أو اكتشاف، فيما إذا كان هو نفسه على استعداد لأن يعد بتسليمهم أياً من القلاع التي كانت بأيدي الداوية أو الاسبتارية، أو أيا من القلاع التي كانت بأيدي بارونات البلاد ، وبمشيئة الرب جاء جواب الملك مماثلاً تماماً لجوابنا، ونتيجة لهذا هدده المسلمون، وقالوا إنه إذا لم يستجب لرغباتهم سوف يضعونه في آلة الفلق Barnacle، التي مثلت أصعب أشكال التعذيب التي يمكن لأي إنسان أن يعاني منها.

وصنعت هذه الآلة من عارضتين خشبيتين ملتويتين، تتشابك أطرافهما بأسنان متداخلة، وتربطان في النهايتين بقطع من جلد الثور القوي، وعندما كان المسلمون يريدون إخضاع أي إنسان لهذا العذاب، كانوا يمددونه على الأرض على جنبه، ويضعون رجليه بين الأسنان، ثم يطلبون من إنسان أن يجلس على رأس هذه الآلة، وتكون النتيجة عدم بقاء نصف قدم من العظم غير مهروس، زيادة على هذا — ولكي يفعلو الأسوأ مما يمكنهم، عندما تصبح الأرجل متورمة بعد مضي ثلاثة أيام، كانوا يضعون الأطراف المتورمة ثانية في الآلة، ويقومون بسحق العظام من جديد.

ورداً على هذه التهديدات، أجابهم الملك بأنه كان أسيرهم، وبإمكانهم أن يفعلوا معه كما يرغبون.

وعندما رأى المسلمون أنهم لايستطيعون التغلب على ملكنا الجيد بوساطة التهديد، عادوا إليه وسألوه كم من المال هو على استعداد لدفعه إلى السلطان، وفيما إذا سيسلمه دمياط أيضاً، وأجابهم الملك: إذا كان السلطان على استعداد لقبول مبلغ معقول هو سوف يرسل إلى الملكة وينصحها بدفع ذلك المبلغ فدية لهم، وسألوه:«كيف لا تخبرنا بالتأكيد فيما إذا كنت ستفعل ذلك وتنفذه»؟ وأجابهم الملك بأنه لايعرف فيما إذا كانت الملكة ستوافق أم لا، وصحيح أنها زوجته، ولكنها هي سيدة أعمالها.

وبناء عليه ذهب المستشارون للتداول مع السلطان، وعادوا في وقت متأخر لإخبار الملك أنه إذا كانت الملكة على استعداد لدفع ألف ألف بيزيتة ذهبية، أي ما يعادل خمسمائة ألف ليرة ذهبية بنقودنا، فإن سيدهم سوف يطلق سراحه.

وبناء عليه سألهم الملك أن يحلفوا له أن الملكة إذا وافقت على دفع هذا المبلغ إلى السلطان، سيقوم السلطان بالفعل بإطلاق سراحه وسراح أتباعه، وتوجه المستشارون عائدين ثانية للتشاور مع السلطان ولمزيد من الحديث معه، ولدى عودتهم أقسموا بشكل مهيب إلى الملك، بأن سيدهم سوف يطلق سراحه بناء على هذه الشروط.

والآن بعدما أعطى الأمراء عهدهم وأقسموا عليه، قام الملك بدوره بالتأكيد لهم بأنه سوف يدفع عن طيب خاطر الخمسمائة ألف ليرة ذهبية من أجل إطلاق سراح أتباعه، وسوف يسلم دمياط لإطلاق سراح نفسه، لأنه من غير اللائق بالنسبة لإنسان من مثل مقامه العالي الإقدام على شراء حريته بالمال، وعندما نقل هذا الكلام إلى السلطان تعجب وقال:«والله، إن هذا الفرنجي رجل كريم الطباع، لأنه لم يساوم على دفع مبلغ كبير كهذا، ولهذا اذهبوا وأخبروه بأنني قد أعفيته من دفع مبلغ مائة ألف ليرة ذهبية من مبلغ الفدية».

وأصـدر السلطان أوامره بحمل أعيـان الرجـال بيننا على ظهر أربعـة غلايين، وأخـذهم نحـو دمياط، ووجد في الغليـون الذي وجـدت فيه، بالإضـافة إليّ:صـاحب المقـام الكونت بيير دي بريتـاني، والكونت وليم دي فـلاندرز، وكـونت جين دي سـواسـون الجيـد، ومـولاي اللورد إيمبرت دي بيجـو، القسطلان الأعلى لفرنسـا، والفارس الجيـد بلدوين دي إيبلين مع أخيه غي.

ووجه الذين كـانوا معنا في الغليون مركبنا للرسو أمـام معسكر أقامه السلطان على طرف النهر، وكـان مقاماً حسب الخطة التاليـة: كان يوجد في الأمــام مبـاشرة برج صنع مـن أعمـدة من خشب الشربين، وكــان مكسواً بقماش القنب المصبوغ، وقد استخدم هذا بمثابة المدخل الرئيسي إلى المعسكر، وكــان خلف هـذا سرادق ترك فيـه الأمــراء سيــوفهم وسلاحهم عندما ذهبوا للحديث مع السلطان، وجاء خلف هذا مباشرة برج آخـر مثل البرج الأول تمامـاً، شكل دهليـزاً إلى سرادق كبير جـداً، وكـان هو القـاعـة السلطانيـة، وتـلاه برج آخـر مماثل في سماته للبرجين الآخرين، وقد قاد إلى محلات السلطان الخاصة.

ومجاور لهؤلاء كانت هناك سـاحة قام في وسطهـا برج، كان أعلى من الأبراج الأخرى، كـان يمضي إليه السلطان كلما رغب بتفحـص المنطقة المحيطة بالمعسكر، أو كلما أراد معرفة الذي يجري في داخل المعسكر.

وخـرج من هذه السـاحـة ممـر انتهى إلى النهـر، حيث أقـام السلطان خيمة كبيرة امتدت فوق الماء، وقد استخدمها مكاناً للاستحمام.

وكـان هذا المعسكر كله محاطاً بسـور من التكعيبـات الخشبية، وكـان الطرف الخارجي منه مغطى بقماش مـن القنب الأزرق — مثل الذي في الحقيقــة استخـدم في الأبراج — وبذلك كــان من الممكن للـذين هم خارج المعسكر رؤية ما فيه.

وكنا قد وصلنا إلى هذا المكان الـذي أقيم فيه المعسكر، يوم الخميس، قبل أسبـوع كـامل تماماً من حلول يوم عيـد الصعـود، وألقت المراكب الأربعة التي كنا فيهـا مسجونين جميعـاً، مراسيهـا أمام محلات السلطان، وأخـذ الملك إلى سرادق مجاور، ورتب السلطان الأمـور على أسـاس أن تسلم دمياط إليه في يوم السبت قبل يوم عيـد الصعود، وكان سيقوم في اليوم نفسه بإطلاق سراح الملك.

وقـرر الأمـراء الذين فصلهم السلطـان من مجلس مستشـاريه، ليعين محلهم أناساً كـان قد جلبهم معـه من مناطق أجنبية، عقـد اجتماع، وقام مسلم داهيـة بالتـوجه إليهـم بالخطاب، وقـال:«تعرفـون ياسـادتي كيف أهاننا السلطان وجللنا بالعار، بانتـزاعه منا المناصب العاليـة التي كنا قد عينا فيهـامن قبل أبيه، وبنـاء عليه كـونوا متأكـدين أنه ما أن يستقـر في مدينة دمياط الحصينة، حتى سيقوم باعتقالنا، ومن ثم إرسالنا لنموت في السجن، مثلما فعل جـده مع الذين أسروا كونت دي بار ، وكـونت دي مونتفـورت، وبناء عليه يبـدو أن الأفضل بالنسبة لنا هو أن نقـوم بقتله قبل أن ينجو من أيدينا».

وبناء عليـه ذهب هؤلاء الأمــراء إلى حـرس السلطان الشخصي من جند الحلقـة، وطلبوا من هؤلاء الرجـال قتل السلطان فور الانتهـاء من السماط الذي كـانوا هـم أنفسهم مدعـوين إليـه، وهكذا حدث أنه بعـد الفراغ من تناول الطعام، وقيام السلطان بوداع أمرائه، وبينما هو مشرف على الدخـول إلى سرادقــه، قـام واحـد من فــرسـان الحرس الشخصي للسلطان، وهو الذي كان يحمل سيف السلطان، بتسديد ضربة بالسيف نفسه إلى منتصف يد مـولاه، مباشرة بين أصابعه الأربعـة، ففصمها عن الذراع، وهنا التفت السلطـان نحـو الأمـراء الذين حـرضـوا على هذا العمل، وقال:«أنقذوني، ياسادتي، من حرسي الشخصي، فأنتم ترون أنهم عـازمـون على قتلي»، وبناء عليــه صرخ رجـال الحرس هؤلاء بصـوت

واخـد: «نعم كما تقـول نحن نرغـب بقتلك، لأن ذلك خير لنا أن نفعله بدلاً من أن ندع أنفسنا أن نقتل من قبلك».

ثم أعطيت الشـارة لقـارعي الطبـول بقرعهـا، واحتشـد جميع جيش السلطان لمعرفة ما هي الأوامر، فأخبرهـم الأمراء بأن دمياط قد أخذت، وأن السلطان ذاهب إلى هناك، وهو يأمـرهـم باللحـاق به، وهكذا حملت العساكر أسلحتها وهمزت خيـولها باتجاه دمياط، وعندما رأيناهم ذاهبين باتجاه المدينة، شعـرنـا بغم شـديد في قلوبنا، لأننا اعتقـدنا بأنها سقطت بأيدي الأعداء.

وفي الوقت نفسـه هرب السلطان الذي كان شـاباً فتيـاً، مع ثلاثة من الأئمـة كانوا يتناولون الطعـام معـه، وصعد إلى أعلى البرج العـالي الذي كـان قد شيـده. والذي كنت قـد حـدثتكم عنه، وأنه كـان موجـوداً إلى الخلف مباشرة من محلاته الخاصة.

وكان تعداد حرسه الشخصي خمسمائة من الخيالة، وقد قاموا بتقويض سرادقاته، واحتشدوا حول البرج الذي التجـأ إليه هو وأئمته، وصرخوا له لكـي ينزل، فقـال إنـه سيفعل ذلك شريطـة أن يضمنوا له حيـاته وسلامتـه، فأخبروه أنهم سوف يرغمونـه على النزول، وذكروه أنه ليس في دميـاط، وقـامـوا بعـد هذا برمي البرج بالنفـوط، وكـان البرج كما تعلمون مصنعاً من ألواح خشب الصنـوبر والقنب، فاشتعل على الفور، والتهم بسرعة، وأنا لم أر قط بحيـاتي لهباً أقوى وأجمل وأكثر فـاعلية من هذا اللهب.

ومـا أن رأى السلطـان النار تستبـد بـالبرج حتى بادر بالنـزول منه مسرعـاً وسعى يركض طيراناً نحـو النهر، وذلك على طول الممـر الذي ذكـرته لكم من قبل، وكان حـرسـه الشخصي قد أغلقـوا وسكروا جميع المنافذ بسيوفهم، وبينما كان السلطان يركض نحو الماء، سدد نحوه واحد

من هؤلاء الرجال طعنةرمح خرقت أضلاعه، وتابع فراره وهو يجر جر الرمح من الجرح، ولاحقــه مطاردوه، حتى أنهم فعلوا ذلك سبــاحـة، وأخيراً أخــذوه وقتلوه في النهــر، بعيــداً عن المكــان الذي وقف فيــه غليوننا،وقـام واحد من الفـرسان، واسمه فـارس الدين أقطاي، بشطره بسيفه، واستخرج قلبه من جسده، ثم جـاء وهو بيده تتقاطر منه الدماء إلى ملكنا وقـال:«ما الذي سـوف تعطيني إياه، وقد قتلت عـدوك الآن، لأنه لوعاش لكان من المؤكـد أنه سيقدم على قتلك»، ولم يجبه الملك ولا بكلمة.

وصعد الآن على ظهر سفينتنا ثلاثـون رجلاً من المسلمين، وسيوفهم مشهـورة في أيديهم، وعلقـوا في أعناقهم الفـؤوس الدانماركيـة، وسألت بلدوين دي إيبلين، الذي كان يعرف لغتهم معرفة جيدة، ما الذي يقوله هؤلاء الناس، فأخبرني بأنهم كـانوا يقولون بأنهم جـاءوا لقطع رؤوسنا، وعلى هذا احتشد عدد كبير من الناس للاعتراف بذنوبهم إلى راهب من الثـالـوث المقـدس، اسمـه جين، وكــان في خـدمــة الكونت وليم دي فـلاندرز، ومن جهتي أنا، لم أستطع تذكر أية ذنوب اقترفتهـا، وأمضيت الوقت أفكر أننـي كلما حـاولت الدفــاع عن نفسي، أو الخروج من هذه المحنة، كلما ازدادت الأمور سـوءاً بالنسبة لي، وبناء عليه رسمت عـلامة الصليب على نفسي، وركعت عند قدمي واحـد من المسلمين، كان يحمل فأســاً دانماركيــة، مثلما يفعل النجــارون، وقلت لنفسي:«هكذا مــات القــديـس أغنس»، وركع غي دي إيبلين قسطلان قبرص إلى جــانبي، واعترف لي، فقلت لـه:«إنني أحللـك بكل القـــوة التي منحنـي الرب إياها»، وكـان على كل حـال عندما نهضت واقفـاً على قـدمي لم أستطع تذكر كلمة مما أخبرني به.

وجعلنا المسلمـون ننتقل من حيـث كنا، وألقـوا بنا في سجن في قـاع الغليون، واعتقـد عدد كبير من شعبنا بأنهم فعلوا ذلـك لأنهم لم يرغبوا

في الحملة علينا كلنا معاً، بل ليقتلـوننا واحـداً واحـداً، ومكثنا في ذلك الحبس طوال ذلك المسـاء، وخلال الليـل كله في عذاب وشقـاء عظيـم، وملتصقين ببعضنا بعضاً حتى أن قدمي جاءتا في وجه الكونت بيير دي بريتاني الطيب، ولامست قدماه وجهي.

وأصدر الأمراء في اليوم التـالي أوامر إلينا بالخروج من سجننا في قاع السفينة، وبعثـوا رسـائل لإخبـارنا بأن علينـا الذهاب إليهم، للحـديث معهم حول مـوضوع تجديد المعاهدة التي عقـدها السلطان المتوفى معنا، وأخبرنا هؤلاء الرجال بأن يجب أن نكون متـأكدين أن السلطان لو ظل حياً لتولى إعدام الملك ونحن جميعاً معه.

وذهب الذين كـان بإمكانهم السير لرؤية الأمراء، وبقي كـونت دي بريتـاني، والقسطلان وأنا حيث كنا لأننا كنا نعـاني من المرض الشـديد، لكن كـونت دي فـلاندرز، والكونت جين دي سـواسـون، والأخـوان الإيبلينيان، والذين كانوا في حالة صحية موائمة ذهبوا لحضور المؤتمر.

وتوصل الذين كـانـوا من جـانبنا إلى اتفـاق وترتيبـات مع الأمـراء، قضت أنه مـا أن يتـم تسليم دميـاط إلى المسلمين، فإن هؤلاء سـوف يطلقون سراح الملك والرجال الآخرين من ذوي المراتب الذين كانوا في السجن، أما بالنسبة للأناس الذين كـانوا أدنى مكانة، فقد كان السلطان قد بعث بهم إلى القاهـرة، وطبعاً باستثناء الذين كانوا قد أعـدموا، وقد فعل هذا مراغمـة للاتفاقية التي كان قـد عقدها مع الملك، ولهذا بدا لنا كبير الاحتمال أنه كـان مـا أن يحصل على دميـاط، حتى كـان سيتـولى إعدامنا أيضاً.

وأضـافوا شرطاً آخـر هو أن على الملك إقسـام يمين يلبي به مطلب المسلمين بدفع مـائتي ألف ليرة ذهبية إليهـم قبل مغادرته النهـر، ومبلغ مماثل لدى وصـوله إلى عكا، وتوجب على المسلمين من جانبهم، القيـام

— وفقاً لشروط هذه المعاهدة — بتولي رعاية شؤون المرضى في دمياط، وأن يبقوا لديهم القسي العقارة، والدروع، واللحوم المملحةوالآلات، والحفاظ عليها في المدينة حتى يحين الوقت الذي سوف يرسل الملك فيأخذهم.

أما الأيمان التي كان الأمراء سيقسمونها للملك، فقد دونت كتابة، وقد نصت على أنهم إذا لم يراعوا ميثاقهم مع الملك، فسيعدّون بمثابة الرجل الذي فقد سمعته والذي عليه بسبب ما اقترفه من ذنب أن يحج إلى مكة، وهو عاري الرأس، أو إنساناً جديراً بالعار، مثل الذي طلق زوجته وأراد بعد ذلك إعادتها ثانية(لأنه في تلك الحالة، لايمكن لرجل طلق زوجته أن يعيدها ثانية، ما لم تكن قد تزوجت من إنسان آخر وذلك حسب ما قضت به شريعة محمد) (ﷺ)، وكان القسم الثالث حسبما يلي: أنهم إذا ما خرقوا عهدهم مع الملك، فسوف يتلطخون بمثل العار الذي يتلطخ به المسلم الذي يأكل لحم الخنزير، وكان الملك راضياً بهذه الأيمان التي ذكرتها للتو، لأن نيقولا العكاوي، وهو كاهن عرف لغتهم، قد أكد له، أنه بالنسبة لشريعتهم لايمكنهم أداء أيمان أقوى وأكثر توثيقاً.

وبعدما أقسم الأمراء، وضعوا صيغة اليمين الذي أرادوا أن يقسمه الملك كتابة ، وقد صيغ هذا القسم بناء على مشورة كهنة مرتدين، كانوا قد التحقوا بجانب المسلمين، وبدأت هذه الصيغة كمايلي: إنه إذا لم يلتزم الملك بشروط معاهدته مع الأمراء، سوف تتلطخ سمعته كمسيحي أنكر ربنا وأمه، وأصبح خارجاً عن تبعية حوارييه الإثني عشر وجميع القديسين، ووافق الملك على هذه الصيغة عن طيب خاطر.

وكانت الفقرة الأخيرة من القسم تقول: إذا لم يكن الملك وفياً مع الأمراء سوف تتلطخ سمعته كمسيحي وسيكون مثله مثل من أنكر الرب وأنكر شريعته، وازدراه، وبصق على الصليب، ووضعه تحت

قدميه وداسه، وعندما قـرأ الملك ذلك قال: إن شاء الرب هو سوف لن يقسم مثل ذلك اليمين.

وبما أن نيقولا العكاوي، كان يعرف لغتهم، فقد أعطاه الأمراء رسالة ليحملهـا إلى الملك، وقـد قال له:«يـا صاحب الجلالة، الأمـراء حـانقين جداً، ففي الوقت الذي أقسمـوا لك فيه على كل مـا طلبته منهم، قمت من جانبك، برفض القسم على مـا طلبوه منك، وكن متأكداً أنك إذا لم تقسم اليمين سـوف يـأمـرون بقطع رأسك ورؤوس جميع بنـي قـومك أيضاً»، وأجاب الملك بأن الأمراء في وضع يمكنهم فيه أن يفعلوا الذي يريدونه بالنسبة لهذه القضيـة، أما بالنسبة لما يتعلـق به شخصياً، إنه يؤثر أن يموت مسيحياً جيداً، على أن يعيش معادياً لربنا ولأمه.

وقـام بطريرك القـدس، وكـان رجلاً عجـوزاً ووقـوراً في الثمانين من عمره، بالحصـول على أمان من المسلمين، وقدم ليسـاعد الملك في تأمين إطلاق سراحـه، وحدث أن العادة كـانت بين المسيحيين والمسلمين، أنه إذا مـا مـات ملك أو سلطان، فإن الذين كـانوا يعملون رسـلاً في تلك الأثناء، سواء أكانوا في أرض مسيحية أو غير مسيحية، يتخذون أسرى، ويسترقـون، وبما أن السلطان الذي أعطى الأمـان إلى البطريرك هو الآن ميت، فإن هذا الرجل الوقور غدا أسيراً مثلما كنا.

وبعدما أعطى الملك جوابه إلى الأمراء، أعلن واحد منهـم بأن هذا قد صنع بناء على نصيحـة البطريـرك، وقـال للمسلمين الآخـرين:«إذا كنتم تثقـون بي، سـوف أجعل الملك يقسم، أو أنني سـوف أرسل رأس البطريرك طائراً إلى حضن جلالته».

ولم يصغ إليه بقيـة الأمراء، وبعـد ذلك أبعدوا البطريرك عن جـانب الملك، وربطوه إلى عمـود السرادق الملكي، ويديه مشدودتان بقـوة وراء ظهـره، حتى أنهما تورمتا وصـارتا بحجم رأسـه، وأخذ الدم يتـدفق من

بين أظافره، فصرخ إلى الملك قائلاً:«احلف يا صاحب الجلالة، بدون خوف ، لأنك بالفعل عازم على الوفاء بيمينك، أو لسوف أحمل على نفسي كل ذنب قد يكون موجوداً، فيما طلب منك أن تقسمه»، ولا أعرف كيف تمت تسوية القضية، لكن في النهاية كان الأمراء راضين عن الطريقة التي جرى إقسام اليمين بها، من قبل كل من الملك والرجال الآخرين من ذوي المراتب من الذين كانوا معه.

وبعد وفاة السلطان بوقت قصير جداً، وضعت شارات السلطنة أمام خيمة الملك، وقد أعلم بأن الأمراء، اجتمعوا للتشاور، وقد عبروا عن رغبتهم العظيمة في جعله سلطان مصر، وسألني عما إذا كنت أرضى بأن يقبل بأخذ هذه المملكة إذا ما عرضت عليه، فأخبرته أنه إذا ما فعل ذلك فسوف يتصرف بحماقة عظيمة، بعدما رأينا قيام هؤلاء الأمراء بقتل سيدهم السالف ، وعلى كل حال لقد أخبرني بأنه لن يرفض ذلك.

ويمكنني القول أن ما من شيء حدث بعد هذا، وتوقفت المسألة عند هذا الحد، لأنه بسبب أن المسلمين قالوا بأن الملك كان أكثر المسيحيين المتصلبين، ولايمكن أن يوجد مثله،وأقاموا دليلاً على هذا بواقعة أنه كان في كل مرة يترك فيها خيمته، كان يتمدد على الأرض على شكل صليب، ويرسم علامة الصليب فوق جسده كله، وقالوا لو أن محمداً(ﷺ) سمح لهم بالتعرض للعذاب مثلما تعرض الملك، ما كانوا ليحافظوا على إيمانهم به، وزيادة على هذا قالوا لو أن المسلمين جعلوا الملك سلطاناً عليهم، كانوا سيصبحون جميعاً مسيحيين، أو أنه كان سيقتلهم جميعاً.

وبعدما جرى إقرار المعاهدة بين الملك وبين الأمراء، وتأكدت باليمين، تم الاتفاق على إطلاق سراحنا غداة يوم عيد الصعود، وأنه ما أن يفرغ من تسليم دمياط إلى الأمراء، حتى سيقومون بفك أسار الملك

وجميع الناس المهمين معـه، وفي مسـاء يوم الثلاثاء قـام المسـؤولون عن غلايينـا الأربعة بالرسـو بهم في وسط النهر، عبر جسردميـاط، ونصبوا سرادقاً تجاه الجسر، في المكان الذي كان سينزل الملك منه إلى اليابسة.

وعند شروق الشمس دخل غيوفـري دي سارجين إلى دمياط، وتولى مسـؤوليـة تسليمهـا إلى الأمـراء ، ورفعـت أعـلام السلطان فـوق جميع الأبراج،وتدفـق الفـرسـان المسلمـون على المدينة، وشرعـوا يشربون الخمـرة، ولهذا أصبحـوا جميعاً في وقت قصير جـداً سكارى مخمـورين، وصعـد واحـد من هؤلاء الرجـال ظهـر مـركبنا، وسيفـه مسلول وكله ملطخ بالدم، وأعلن أنه من جانبه قد قتل سبعة من شعبنا.

وقبل استسـلام دميـاط، جـرى استقبـال الملكة على متن سفننا، هي وجميع بني قومنا الذين كـانوا في المدينة، وذلك باستثناء المرضى، فهؤلاء كان المسلمون قد تعهـدوا بالحفاظ عليهم، لكنهم قتلوا كل واحد منهم، أمـا آلات الملك، التي توجب عليهم الحفـاظ عليهـا فقـد حطمـوها إلى قطع، وأمـا فيما يتعلق باللحـوم المملحـة، التي كـان عليهم حفظهـا لنا لأنهم لايأكلون لحم الخنزير، فقـد دمروها، فقـد جمعوا الآلات كلهـا في كـومة واحـدة، ولحوم الخنزير المملحـة في كومـة أخرى، والأمـوات في كومة ثالثـة، وألقوا النار فيهم جميعاً، وكانت نـاراً عظيمة استمرت جميع يوم الجمعة، ثم السبت، والأحد.

وكـان المتـوجب إطلاق سراح الملك وجميع الذين كـانوا هناك عند إشراق الشمس لكـن المسلمين احتفظوا بهم حتى غيـاب الشمس، ولم يكن لدينا طوال ذلك الـوقت شيئاً نأكله، ولا الأمـراء أيضـاً، وأمضـوا ذلك النهار كله في الخلاف فيما بينهم، وقـد تحدث واحد منهم إلى الذين وقفـوا إلى جانبـه وأيدوه، وقال للبقيـة:«أيها الأصدقـاء إذا أصغيتم إليّ وإلى الذين يرون رأيي، اقتلوا الملك، وكل الأعيـان الذين معه، ووقتهـا ستكونـون للأربعين سنة المقبلـة بدون مخاطـر، لأن أولادهم مـازالوا

صغاراً، ولقد أخـذنا دمياط ولذلك يمكننا أن نفعل ذلك في ظل الأمان الأعظم».

وعارض مسلم آخر، اسمـه صبر الدين، وكان من أهل المغرب، هذا الاقتراح، وقـال:«إذا مـا قتلنا الملك، بعـد قتلنا لسلطاننـا، سيقـول كل إنسـان: إن المصريين هم أكثر الناس سـوءاً وأعظمهم خيانة في الدنيـا»، أما الذين رغبـوا في قتلنا فردوا قـائلين:«صحيح تماماً أننا تصرفنا بشكل شرير تماماً في التخلص من سلطاننا بقتله، لأننا بفعلنا هذا خالفنا شريعة محمـد(ﷺ) الذي أمرنا بالمحـافظة على مـولانا محافظتنا على بؤبؤ أعيننا، ودونكم مـا جـاء في هذا الكتـاب من وصـايا مكتـوبـة» ثم استطرد يقول:«لكن أصغـوا إلى هذه الوصية التي جاءت بعـد ذلك»، ومع قوله هذا قلب صفحة الكتاب الذي كـان يمسكه بيده وأراهم وصية أخرى، جـاء فيهـا:«حتى تصـونوا إيمانكم، اقتلـوا أعـداء الشريعـة»، وقـال:«ويمكنكم الآن أن تروا كيف عصينا إحـدى وصايا محمـد(ﷺ) بقتلنا مـولانا، غير أننا سوف نكون أعظم عصيـاناً إذا لم نقتل الملك، بما أنه أقوى أعداء شريعتنا الإسلامية».

وتم الاتفاق تقـريباً على موتنـا، وحدث أن قدم واحـد من الأمراء، الذين كـانوا ضـدنا، وكـان يرى وجـوب قتلنا جميعاً، قـدم إلى شـاطىء النهر، وبدأ يصرخ بلسان المسلمين إلى الرجال الذين كانوا مسؤولين عن غلايينا، وانتزع في الوقت نفسه عمامته، وأخذ يلوح بها كإشارة خاصة، وقـام البحـارة على الفور برفع المراسي، وأبحـروا بنا إلى الخلف مسـافـة فرسخ باتجاه القاهرة، واعتقدنا هنا بأننا لابد مقتولون، فذرفنا الكثير من الدموع.

غير أن الرب الذي لم ينس شعبـه، قضى أن تم الاتفاق عند غـروب الشمس، على وجـوب إطلاق سراحنا، وهكـذا أعـدنا، وجـرى سحب مراكبنا وصفهـا على طرف الشاطىء وهنا طلبنا أن يسمح لنا بالذهاب،

لكن المسلمين قالوا بأنهم لن يدعـونا نذهب، حتى نتناول طعامنا، ذلك أنهم قـالوا:«سوف يلحق العـار بأمـرائنا إذا تركنا أسرانا جياعـاً»، وبناء عليـه طلبنا منهم إحضـار بعض الطعـام، وأخبرناهم أننا سـوف نأكل، وتألـف الطعـــام الذي أعطوه لنا مـن الجبن المجفف في الشمـس حتى لاتتوالد فيه اليرقات، وكذلك بيض مسلوق، جرى سلقه قبل ثلاثة أيام أو أربعة، وإكراماً لنا صبغوا قشور هذا البيض بألوان مختلفة.

وبعدما أنزلونا إلى اليابسة، ذهبنا إلى مقابلة الملك الذي كانوا يرافقونه من السرادق الذي حبس فيه إلى شاطىء النهر، وسار خلفه عشرون ألفاً من المسلمين على الأقـدام وقـد تمنطقوا بسيـوفهم، ورسى في النهـر، في مـواجهـة الملك مباشرة غليـون جنوي، بدا أن على ظهـره رجل واحـد فقط، ومـا أن رأى هـذا الرجل الملك على شـاطىء النهـــر حتى نفخ بصفـارة، ولدى سماع صــوتها تدفق ثمانون مـن حملة القسي العقـارة وخرجوا من قاع السفينة، وكانوا جميعاً في سلاح كامل، وقسيهم العقارة مفـوقة، وبلحظة واحـدة وضعـوا سهامهم في تجاويف إطلاقهـا، ولدى رؤية المسلمين للرجـال الذين ظهـروا هربوا مثل الأنعـام، ولم يبق منهم أكثر من اثنين أو ثلاثة إلى جانب الملك.

وجـرى إلقـاء لوح من الخشب مـن الغليـون إلى الشـاطىء، ليتمكن جـلالتـه من الصعـود إلى ظهر السفينة، وذهب معـه أخـوه كـونت دي أنجـو، وغيـوفـري دي سـارجين، وفيليب دي نيمـور Nemours ، وهنري دي متز Mez ، مارشال فرنسا، ومقدم الثالوث المقدس، وأنا، وبقي كـونت دي بواتييـه سجيناً حتى الوقت الذي دفع فيـه الملك مبلغ المائتي ألف ليرة ذهبية، الذي كان عليه دفعه كمال فدية قبل تركه النهر.

وفي يوم السبت التالي ليوم عيد الصعـود — أي أن تقول اليوم التالي لإطلاق سراحنا — جاء كـونت دي فلاندرز، وكونت دي سـواسون، وعدد آخـر من الرجال ذوي المراتـب، ممن كانوا محبـوسين في الغلايين،

جاءوا لوداع الملك، وقال لهم الملك بأنه يرى من المفيد لو أنهم انتظروا حتى يتم إطلاق سراح أخيه كونت دي بواتييه، وعلى كل حال، لقد أخبروه أنه ليس بإمكانهم الانتظار، بما أن غلايينهم جاهزة للابحار، وهكذا أقلعوا وانطلقوا نحو فرنسا، وأخذوا معهم كونت بيير دي بريتاني الجيد، الذي كان مريضاً جداً، حتى أنه عاش ثلاثة أسابيع فقط ومات في البحر.

وجرت استعدادات لدفع الفدية إلى المسلمين، وقد بدأت في صباح يوم السبت، واستغرق الأمر طوال ذلك اليوم واليوم التالي حتى الليل لتعداد المال، وتمت أعمال التعداد بوساطة الوزن بالميزان، وساوت كل وزنة ما قيمته عشرة آلاف ليرة ذهبية، وفي جوالي الساعة السادسة من مساء يوم الأحد، بعث رجال الملك الذين كانوا يتولون وزن المال ، إليه يخبرونه أنهم مازالوا يحتاجون إلى ثلاثين ألف ليرة ذهبية هي النقص في المبلغ المطلوب ، وكان الملك في ذلك الوقت معه فقط كونت دي أنجو، ومارشال فرنسا ومقدم الثالوث المقدس، وأنا شخصياً،فقد انشغل البقية بتعداد مال الفدية.وأخبرت الملك أنه سوف يكون عملاً مفيداً أن يبعث فيستدعي قائد الداوية ومارشالهم، ذلك أن المقدم كان متوفى، ويطلب منهما إقراضه ثلاثين ألف ليرة ذهبية، وهو المبلغ الذي مايزال يحتاجه لفدية أخيه، وبناء عليه بعث الملك واستدعى الداويين، ووجه تعليماته إليّ لإخبارهما بالذي نريده.

وبعدما كلمتهما التفت إليّ الراهب إيتين دي أوتريكورت Etienne d` otricourt قائد الداوية، مجيباً،حيث قال:«مولاي صاحب جوانفيل، إن هذه المشورة التي أسديتها إلى الملك ليست جيدة وغير معقولة، لأنك تعلم أن جميع المال الموضوع بعهدتنا،قد ترك معنا على شرط أقسمنا عليه، بأن لانسلم هذا المال إلى أحد إلاّ إلى الذين عهدوا به إلينا»، وإثر هذا تبادلنا أنا وهو كلمات كثيرة قاسية وشتائم فيما بيننا.

وبينما كنا نتجادل هكذا تدخل الراهب رينو دي فيشير Vichiers الذي كان مارشال الداوية ليقول:«دعنا يا صاحب الجلالة نوقف هذا الخصام بين القائد وبين مولاي صاحب جوانفيل،لأن قائدنا يقول: لايمكننا أن نسلف أياً من هذا المال دون أن نحنث بأيماننا، أما بالنسبة لما أشار به نائبك، بأن تأخذ المال إذا لم يقرض لك، إنني لا أجد شيئاً مدهشاً كثيراً في مثل هذا الاقتراح، وعليك أن تفعل الذي تراه هو الأفضل، وفي جميع الأحوال إذا ما أخذت ما هو عائد إلينا هنا في مصر، لدينا الكثير مما هو عائد إليك وموجود في عكا، يمكنك من أن تقدم لنا التعويض بكل سهولة».

وقلت للملك بأنني ذاهب لأخذ المال إذا كان موافقاً، فأمرني بالذهاب، وبناء عليه ذهبت إلى واحد من الغلايين العائدين للداوية، وكان بالواقع هو الغليون الرئيسي، وعندما كنت على وشك النزول إلى المخزن، حيث حفظت الخزانة، طلبت من قائد الداوية القدوم ورؤية الذي سوف آخذه، غير أنه لم يتنازل بفعل ذلك، وعلى كل حال قال المارشال بأنه سوف يقدم ويكون شاهداً على العنف الذي سأمارسه ضده.

وما أن نزلت إلى الأسفل حيث كانت الخزانة، حتى طلبت من خازن الداوية، الذي كان هناك أن يعطيني مفاتيح الصندوق الذي كان أمامي، ولكنه وقد رآني مهزولاً، قد أنهكني المرض،ردّ عليّ بأنه لن يعطيني مفاتيحه، ورأيت فأساً ملقاة هناك، فالتقطتها وقلت بأنني سأجعلها تعمل بمثابة مفتاح لجلالته، وعند هذا أمسك المارشال بمقبض يدي وقال:«بما أنك عازم على استخدام العنف ضدنا، سندعك تأخذ المفاتيح»، وهكذا أمر الخازن بإعطائي إياهم، ففعل ذلك عندما أخبره المارشال من أنا، وهو أبكم تماماً لدهشته.

ولدى فتحي لواحد من الصناديق وجدته ملكاً لنيقولا دي شوسي

Choisi، وكـان من سيرجندية الملك، و أخرجت مـا وجدت فيــه من مـال، ثم ذهبت عـائداً إلى المركب الذي جلبني، وجلسـت على قوسـه، وأحضرت مارشال فـرنسا وتركته مع مقدم الثـالوث المقدس مسؤولين عن المال الموجـود في الغليـون، وسلـم المارشـال المال هناك إلى المقـدم، وناولني المقـدم إياه على القـارب الذي كنت جـالسـاً فيـه، وعندمـا كنا قـادمين نحو غليـون الملك شرعت أصرخ له قـائـلاً:«مولاي، مـولاي، انظر كيف أنا مجهـز بشكل جيـد»، وكان الرجـل القديس مسروراً جـداً برؤيتي، ورحب بي ببهجـة بالغة، ونـاولنا المال الذي جلبته إلى الرجـال الذين كانوا يتعاملون مع مال الفدية.

وبعدما أكمل مستشارو الملك الذيـن كانوا مسؤولين عن هذه المهمة، عمليـة تعدادهم جـاءوا إلى الملك وقـالوا بأن المسلمين لن يوافقـوا على إطلاق سراح أخيـه حتى يكون المال بالفعل في حـوزتهم، وارتأى بعض أعضـــاء مجلس مستشـاريـه أن على الملك عـدم تسليـم المال حتى يكون أخـوه عنده بالفعل، ورد الملك بـأنه سـوف يسلمهم المال، بما أنه وعـد المسلمين بفعل ذلك، وبالنسبـة إليهم، إنهم إذا ما أرادوا التعامل بـأمانة، فسوف يحافظون على عهودهم معه .

وبعدمـا تمت أعمال الدفع قال فيليـب دي نيمور Nemours للملك أنهم اقتطعوا أثناء تعـدادهـم للمال عشرة آلاف ليرة ذهبية على المسلمين، ولدى سماع الملك بذلك صـار غـاضباً كثيراً، وقـال بأنه وعـد المسلمين بدفع مبلغ مـــائتي ألف ليرة ذهبيـة بشكل كـامل قبـل مغـادرته للنهـر، وأصر على إعادة العشرة آلاف ليرة ذهبية لهم، ووقتها ضغطت على قدم اللورد فيليب، وأخبرت الملك أن لايصدق مـا سمعه منه، لأن المسلمين كانوا أذكى وأبرع من هو معـروف في العالم، وأقر مـولاي فيليب أن ما قلته أنا كان صحيحاً، وأضاف أنه كان يتحدث مزاحاً، وأخبره الملك أن هذا المزاح غير مقبـــول ويـدل على ذوق سيء جـــداً، وقـــال لمولاي

فيليب: «إنني آمرك، بحق طاعتك لي، بسبب أنك تابع لي، إذا لم تكن قد دفعت هذا المبلغ، أي العشرة آلاف ليرة ذهبية إلى المسلمين، أن تقوم بدفعهم دون تلكؤ».

ونصح كثير من أتباع الملك، الملك بالانسحاب إلى سفينته التي كانت تنتظره في البحر، وذلك حتى يكون بعيداً عن متناول أيدي المسلمين، لكنه رفض الإصغاء إليهم.

وأعلن أنه سوف يبقى عند النهر، حسبما كان قد وعد المسلمين، وذلك حتى ينقضي الوقت الذي يكون قد دفع فيه المائتي ألف ليرة ذهبية، وعلى كل حال، ما أن كمل الدفع، حتى أخبرنا، دون أن يحرضه أحد، أنه يعد نفسه من تلك اللحظة قد تحلل من يمينه، وأنه بات علينا مغادرة النهر والذهاب إلى السفينة التي كانت في البحر.

وما لبث غليوننا أن انطلق نحو الأمام، وقطعنا مرحلة كاملة قبل أن يتلفظ أي منا بكلمة لرفاقه، وكنا منزعجين لأننا تركنا كونت دي بواتييه ما يزال في الأسر، وفي تلك الساعة صعد فيليب دي مونتفورت إلينا في الغليون، وحيّا الملك هاتفاً: «مولاي، مولاي، تحدث إلى أخيك، كونت بواتييه، الذي هو في هذه السفينة الأخرى»، وهتف الملك في تلك اللحظة: «تمهلوا، تمهلوا»، ونفذ هذا بسرعة، وكانت البهجة التي شعرنا فيها في تلك اللحظة عظيمة، لابل أعظم من أية بهجة كانت، وذهب الملك إلى سفينة الكونت، وكذلك فعلنا نحن، وتلقى صائد سمك فقير، ذهب لإخبار كونتسة دي بواتييه، بأنه قد رأى زوجها قد أطلق سراحه، عشرين ليرة ذهبية باريسية منها.

وقبل أن أمضي أبعد، علي أن لا أنسى إخباركم ببعض الأشياء التي حدثت ونحن ما نزال في مصر، وسأتكلم أولاً عن غوتيير دي شاتليون، وكان واحد من فرساننا، اسمه جين مونسون Monson قد

أخبرني بأنه قد رآه في شوارع القرية التي أخذ الملك فيها أسيراً، وكان هذا الشارع يشق القرية بشكل مباشر، وبذلك كان يمكنك رؤية الحقول المفتوحة على كلا الطرفين، وكان غوتيير في هذا الشارع وسيفه مجرداً في يده، ولدى رؤيته أن المسلمين داخلون إلى الشارع، اندفع نحوهم وسيفه بيده، وتولى طردهم إلى خارج القرية، غير أنهم كانوا قادرين وهم فارين على الرماية بسهولة نحو الأمام ونحو الخلف، وقد غطوه من رأسه إلى قدميه بنشابهم، وما أن فرغ من طردهم إلى خارج القرية، حتى أخذ ينزع النشاب من دروعه، ثم لبس دروعه وامتطى فرسه، ووضع رجليه في ركاباته وسيفه مرفوع بذراعه، وصرخ بصوت مرتفع:«شاتليون يافارس، شاتليون، أين هم رجالي الموثوقين»؟ وعندما التفت نحو الخلف، ورأى المسلمين قد دخلوا الشارع من النهاية الثانية، اندفع نحوهم ثانية، وسيفه بيده، وطردهم وأبعدهم، وقد فعل ذلك ثلاث مرات، مع النتيجة نفسها.

وبعدما أخذني قائد الغلايين للالتحاق برفاقنا الذين أسروا فوق اليابسة، سألت عن أخبار غوتيير دي شاتليون، وتقصيت من الناس الذين كانوا يعيشون معه، فلم أستطع العثور على أحد يمكنه أن يخبرني كيف أسر، لكنني سمعت من الفارس الجيد جين فونون Fouinon ، أنه عندما أسر شخصياً، وحمل أسيراً إلى المنصورة، رأى مسلماً يمتطي فرس غوتيير دي شاتليون، وكان سرجه مغطى بالدم، وسأل الفارس الجيد هذا المسلم: ما الذي فعله للرجل الذي عاد الفرس إليه، وأجابه بأنه قطع عنقه وهو على ظهر ذلك الفرس، حسبما يمكن رؤية آثار ذلك بكل سهولة من الدم الذي يغطي سرجه.

وكان هناك رجل آخر شجاع جداً في جيشنا، هو أسقف سواسون، الذي كان اسمه جاك دي كاسل Jacques de Castel ، فعندما رأى عساكرنا وهي تتراجع نحو دمياط، وبما أن أعظم رغباته كانت في

أن يكون مع الرب، فقد شعر أنه ليس لديه رغبة بالعودة إلى البلاد التي ولد فيها، ولهذا بادر مسرعاً ليكون مع الرب، بغمز حصانه، والاندفاع لقتال المسلمين وحيداً، وقد تناوشه هؤلاء وقطعوه بسيوفهم، وبذلك بعثوا به ليكون برفقة الرب، بين أعداد الشهداء.

وعندما كان الملك ينتظر من أجل إتمام إجراءات الدفع لإطلاق سراح أخيه ، كونت دي بواتييه، جاء مسلم ملابسه جيدة، وبهي الطلعة ووسيم جداً، إلى جلالته ليقدم له هدية، تكونت من جرار فيها حليب، وورود من مختلف الألوان والأنواع، وقدمها له باسم أبناء الناصر، الذي كان سلطان القاهرة، وعندما قدم هذه الهدايا تحدث إلى الملك بالفرنسية.

وعندما سأله الملك أين تعلم الفرنسية، أجابه هذا الرجل، بأنه كان من قبل مسيحياً، وبناء عليه قال الملك له:«انصرف، لاأريد الحديث إليك»، وسحبت الرجل جانباً وسألته أن يخبرني عن ظروفه، فأخبرني بأنه قد ولد في بروفانس، وأنه قدم إلى مصر، وتزوج من مصرية، وأنه الآن شخصية لها أهمية عظيمة، فقلت له:«ألا تدرك أنك إذا ما مت في هذا الوضع سوف تدان، وتذهب إلى جهنم»، فأجاب بأنه يعرف ذلك، وفضلاً عن هذا هو متأكد أن ما من ديانة جيدة مثل الديانة المسيحية» ثم أضاف:«لكنني أخاف من أن أواجه الفقر، وأن أعاني من العار إذا ما عدت إليكم، فكل يوم سوف يقول واحد ما أو آخر لي:«اغرب، أنت جرذ»، ولهذا إنني أوثر أن أعيش هنا غنياً وبيسر، على أن أضع نفسي في وضع يمكنني تصوره»، وقد بينت له، أنه في يوم الحساب، عندما تكون ذنوبه واضحة أمام الجميع، سوف يعاني من عار أعظم مما تحدث عنه في تلك الساعة، وقدمت له كثيراً من النصائح المسيحية الجيدة، لكن ذلك كله كان بلا نفع وبلا تأثير، وهكذا انصرف عني ولم أره ثانية.

ولقد سمعتم حتى الآن عن العذاب العظيم الذي عانى الملك منه

وعانى منه بقيتنا أيضاً، ولم تنج الملكة(التي كانت آنذاك في دمياط)، كما سأخبركم، من الآلام شخصياً، فقبل ولادتها بثلاثة أيام بولد، جاءتها الأخبار بأن الملك قد وقع بالأسر، وقد أخافها هذا كثيراً جداً إلى حد أنها كانت كلما أوت إلى فراشها، خيل إليها أن الحجرة كانت مليئة بالمسلمين، فكانت تصرخ بصوت مرتفع:«النجدة، النجدة»، وخشية منها أن يلد الولد الذي كانت تحمله ميتاً، جعلت فارساً عجوزاً ينام قرب فراشها، ويمسك يدها في كل مرة كانت تصرخ فيها ويقول لها:«لا تكوني خائفة، ياسيدتي، فأنا هنا».

وأمرت قبل أن تلد كل إنسان بمغادرة غرفتها، باستثناء ذلك الفارس، ثم إنها ركعت أمام ذلك الرجل العجوز، وترجته أن يؤدي لها خدمة، وقد وافق، وأقسم أنه سوف يفعل الذي تطلبه منه، وبناء عليه قالت له:«أطلب منك بموجب القسم الذي أقسمته لي، أنه إذا ما استولى المسلمون على هذه المدينة، أن تقطع رأسي قبل أن يأسروني»، وأجابها الفارس:«كوني واثقة ، أنني سأفعل ذلك بدون تردد، لأنني صممت في فكري، بأن أقتلك قبل أسرنا معاً».

وولدت الملكة ولداً ذكراً أطلق عليه اسم جين، وسماه قومها ترسترام Tristram(الحزين) بسبب الحزن العظيم الذي رافق ولادته، ففي اليوم نفسه الذي ولدت فيه أخبرت بأن رجال بيزا، وجنوى والمدن الأخرى الحرة، عازمون على الهرب من دمياط فقامت في اليوم التالي بإحضارهم، فوقفوا إلى جانبي فراشها، وكانت الحجرة مليئة بهم، وقد قالت لهم:«أيها السادة، من أجل الرب، لاتغادروا هذه المدينة، حيث لابد أن يكون واضحاً لكم أننا سوف نخسر بذلك الملك مع جميع الذين أخذوا أسرى معه أيضاً، وإذا كان هذا الالتماس لم يثركم، اعطفوا على المخلوقة الضعيفة المسجاة هنا، وانتظروا حتى أتعافى».

وقد أجابوها:«ما الذي يمكننا فعله ياسيدتي؟ إننا نموت جوعاً في

هذه المدينة»، فأخبرتهم الملكة أنهم لايحتاجون إلى مغادرة المدينة خوفاً من المجاعة، «لأنني — كما قالت — سوف آمربشراء جميع الأطعمة الموجودة بالمدينة باسمي، ومن الآن فصاعداً سوف تعيشون على حساب الملك»، وبعدما تداولوا الأمر فيما بينهم، عادوا إلى الملكة وأخبروها بأنهم سوف يبقون عن طيب خاطر، ثم قامت — منحها الرب النعمة — بتدبر شراء جميع الأطعمة التي كانت بالمدينة بمبلغ ثلاثمائة وستين ألف ليرة ذهبية، لكن قبل أن يحين الوقت الذي كان عليها فيه مغادرة فراشها، اضطرت إلى تركه، لأن المدينة كانت ستسلم إلى المسلمين، وهكذا توجب عليها الذهاب إلى عكا لتنتظر وصول الملك.

وبينما كان جلالته ينتظر إطلاق سراح كونت دي بواتييه، أرسل الراهب راؤول — وكان من الرهبان المبشرين — إلى أمير يدعى فارس الدين أقطاي، الذي كان من أكثر المسلمين أمانة ممن رأيته قط، وقد أخبره هذا الراهب بأن الملك مندهش كثيراً، كيف أنه مع الأمراء الآخرين قد سمحوا بهذا الخرق الفاضح للمعاهدة، لأنهم قتلوا المرضى، الذين توجب عليهم بموجب اليمين العناية بهم، وحطموا جميع آلاته إلى قطع، وأحرقوا أجساد المرضى، وكذلك لحوم الخنزير المملحة، التي كان من المتوجب عليهم حفظها.

وقال فارس الدين أقطاي في جوابه للراهب:«إذهب وأخبر ملكك، أنني بسبب شريعتي لا أستطيع فعل شيء لإرضائه، بل إنني حزين جداً لما حصل، وحذر جلالته أيضاً باسمي، بعدم إبداء أية علائم تدل على أن هذه القضية قد أزعجته، ما دام باقياً في أيدينا، لأن معنى ذلك سيكون موته»، وعبر هذا الأمير عن رأيه، أنه ما أن يصبح الملك في عكا سالماً، يمكنه أن يحرك هذه المسألة من جديد.

الفصل الحادي عشر
الملك في عكا
أيار ١٢٥٠ — آذار ١٢٥١

عندما وصل الملك إلى ظهر سفينته، وجد أن جماعته لم يعدّو له شيئاً لا من الأثاث والفراش، ولا من الثياب، لذلك توجب عليه أن ينام على حشايا أعطيت له من قبل السلطان، وذلك حتى وصولنا إلى عكا، وأن يرتدي الملابس التي أمر السلطان بتجهيزه بها وإعدادها له، وكانت هذه الملابس من الساتان الأسود، المبطن بالفراء الأبيض وبفراء السنجاب الأغبر، ومزينة بأعداد كبيرة جداً من الأزرار، المصنوعة من الذهب الخالص.

وبسبب وضعي الصحي وضعفي أمضيت الأيام الستة، التي قضيناها في البحر إلى جانب الملك، وأخبرني في أثناء ذلك الوقت كيف وقع بالأسر، وكيف تمكن بعون الرب ، من إجراء مباحثات من أجل إطلاق سراحه وسراحنا، ومن أجل الفدية أيضاً.

وجعلني أخبره بدوري كيف أنني أسرت وأناعلى سطح الماء، وبعدما استمع إلى روايتي، أخبرني أنني مدان بالشكر العظيم لمولانا، لأنه خلصني من مثل هذا الخطر الجسيم، وحزن حزناً عظيماً لوفاة أخيه، كونت دي أرتو، وقال لو أنه كان حياً ما كان ليتجنب مرافقته مثلما فعل كونت دي بواتييه، بل كان سيأتي لرؤيته على ظهر غليونه.

واشتكى الملك لي من أخيه الآخر، كونت دي أنجو، فمع أنهما كانا على ظهر المركب نفسه، فإنه اهتم قليلاً بمرافقته، وسأل الملك في أحد الأيام عن الذي كان يفعله كونت دي أنجو، فأخبر بأنه كان يلعب لعبة

حظ مع غـوتيير دي نيمور Nemours ، ومع أنـه كان ضعيفـــاً من مـرضـه، تحامل الملك على نفسـه حتى وصل إلى اللاعبين، والتقط النرد والألواح، وألقى بالجميع في البحر، ووجه النقد إلى أخيه بصوت مرتفع لإقدامه على لعب الميسر بمثل هذه السرعـة، وتخلص مولاي غوتيير من ذلك، بخير وسيلة، لأنه ألقى جميع المال الذي كان على المائـدة — وكان هناك منه الشيء الكثير — في حضنه، وحمله معه وابتعد.

وأريد الآن أن أحدثكم بعض الشيءعن المحن والمشاكل التي عانيت منهـا أثناء إقـامتي في عكا، والتي خلصني الرب منهـا في النهـاية، ذلك أنني وضعت ثقتي فيـه، ومـازلت أضعهـا فيـه، وهدفي من تدوين هذه الأمـور، أن يقوم الذين يسمعـون بهم بوضع ثقتهم بالرب، في أوقـاتهم العصيبة ، فوقتها سوف يجدونه جاهزاً لمساعدتهم مثلما ساعدني.

ودعـوني أخبركم أولاً كيف أنه عنـدمـا وصل الملك إلى عكا، خـرج جميع رجال الدين وأهل المدينة في مـوكب، ونزلوا في مسيرة إلى شاطىء البحـر للترحيب به ببهجــة عظيمـة جـداً، وجلب لي أحــدهم جـواداً صغيراً، لكن عندما امتطيته شعرت بغيبوبة فطلبت من الذي جلبه لي أن يمسكني، خشية أن أسقط، وصعدت بصعوبة بالغة درجات السلم إلى قاعـة الملك، حيث ذهبت وجلست إلى جانب نافـذة، ووقف إلى جانبي طفل صغير له من العمـر عشر سنوات، وكـان هـذا هو بارثلمي الابن الطبيعي لآمي دي مونتبليارد، صاحب مونتفوكون.

وبينما كنت جـالساً هناك، غير لافت لانتبـاه أحد، اقترب.مني خـادم يرتدي مئزراً أحمر له خطين أصفـريـن، وانحنى أمـامي، وسألني فيما إذا كنت أعرفه، فقلت: لا إنني لا أعرفه، فعندها أخبرني بأنه جاء من قلعة عمي في أويسلي Oiselay، فسألتــه: خـادم من هو ؟ فقـــال بأنه غير مـرتبط بـأحـد، لكنه سيبقى معي إذا مـا رغبـت، وهكذا أخبرته أنني سأكون مسروراً جداً لأن أستخـدمه، وبناء عليه ذهب وأحضر لي بعض

الأغطية البيضاء لتغطية رأسي، ومشط شعري لي بدقة متناهية.

وبعد هذا بوقت قصير بعث الملك يستدعيني لتناول الطعام معه، وذهبت إليه مرتدياً المئزر القصير الذي كان قد صنع لي من أثمال من اللحاف الذي ارتديته عندما كنت أسيراً، وقد أعطيت بقية اللحاف إلى الطفل بارثلمي، مع أربعة أذرعة من الموهير، قد أعطيت لي، في سبيل محبة الرب، وذلك قبل أن يطلق المسلمون سراحي، وجاء رجلي الجديد، أي وليم، وقطع لحمتي لي، وحصل على بعض الطعام للطفل، بينما كنا نأكل.

وجاء جوليمين ليخبرني بأنه حصل على بعض الحجر لي قرب الحمامات، حيث يمكنني إزالة القذارة والتعرق وما علق بي وجلبته معي من السجن، وعند إقبال الليل، ووقتها كنت بالحمام شعرت فجأة بفتور وأغمي علي، ووجد تابعي صعوبة كبيرة في إخراجي من الحمام وحملي إلى فراشي، وجاء في اليوم التالي فارس عجوز اسمه بيير دي بوربون لرؤيتي، وقد أبقيته في خدمتي، وصار كفيلاً لي في المدينة بشأن ما احتجت إليه من باب الملابس والتجهيزات.

وما أن لبست بشكل لائق، وكان ذلك بعد أربعة أيام من وصولنا إلى عكا، ذهبت حتى أرى الملك، فلامني، وقال إنني لم أحسن صنعاً بالتأخر كل هذه المدة الطويلة للقدوم لرؤيته، وقد أمرني — لتقديري لمحبته — بالقدوم لتناول الطعام معه كل يوم، في الصباح وفي المساء، حتى يأتي الوقت الذي يقرر فيه، هل سنعود إلى فرنسا، أم إننا سنبقى في بلاد ماوراء البحر.

وأخبرت الملك بأن بيير دي كورتني مدين لي بأربعمائة ليرة ذهبية من عطائي، وقد رفض دفع هذا المبلغ لي، فأجابني جلالته بأنه هو نفسه سيدفع هذا المال لي، وسيقتطعه مما هو مدان به لبيير دي كورتني، وهذا

ما فعله، وقمت بناء على نصيحة بيير دي بوربون بإبقاء مبلغ أربعين ليرة ذهبية للنفقات الجارية، وأعطينا المتبقي للحفظ لدى قائد قصر الداوية، وعندما أنفقت هذه الأربعين ليرة ذهبية كلها، بعثت الأب جين كايم Caym دي سينت مينيهولد Menehould الذي ألحقته بخدمتي في بلاد ما وراء البحر، ليجلب مبلغاً مماثلاً، فأخبره القائد أن لامال لي عنده، وأنه لايعرفني.

وبناء عليه ذهبت إلى الراهب رينودي فيشيه Vichiers ،الذي ساعده الملك ليكون مقدماً للداوية ، .وذلك تقديراً منه للموقف الذي أبداه الداوية نحوه عندما كان أسيراً، وشكوت إليه قائده، الذي يرفض إعطائي المال الذي أودعته إيّاه، ولدى سماع المقدم لهذا غضب غضباً عظيماً وقال لي:«يامولاي صاحب جوانفيل، إنني معجب بك كثيراً، لكن يمكن أن أؤكد أنك إذا لم تتوقف عن إثارة هذا الادعاء لن أتابع النظر إليك كصديق، لأن الذي تحاول القيام به هو أن تجعل الناس يعتقدون بأن أعضاء طائفتنا هم لصوص»، فقلت له: بمشيئة الرب لن أسحب دعواي.

وعانيت لمدة أربعة أيام كاملة، معاناة إنسان لا بد أن يشعر بها عندما يجد نفسه بلا مال لمواجهة النفقات، ومع نهاية تلك الأيام، جاء إليّ مقدم الداوية وأخبرني بوجه مبتسم بأنه استرد لي مالي، وحول الطريقة التي استرد بها المبلغ، يمكنني أن أقول فقط بأنه نقل قائد القصر إلى قرية الصفورية، وقام الرجل الذي حلّ محله بإعطائي مالي وردّه إليّ.

ومكنني أسقف عكا — الذي بالمناسبة كان من أهل بروفانس — من استخدام بيت، كان يعود بملكيته إلى جين كايم Caym كاهن سينت ميشيل من طائفة سينت مينيهولد Menehould ، الذي خدمني بشكل جيد في السنتين الماضيتين، وكان واحداً ممن احتفظت به في خدمتي، مع عدد كبير من الآخرين.

وحـدث أن كان عند رأس فـراشي غـرفة خلفيـة، يمكن من خـلالها المضي لدخـول الكنيسة، وصـدف أن أصبت بحمى طويلة استبـدت بي وبرجالي، ولهذا التـزمنا جميعاً أسرتنا، وخلال ذلـك الوقت كله لم يوجد في أي يوم أحـد من الناس يقـدم لي المسـاعـدة، أو يسـاعـدني على النهـوض،فضـلاً عن هذا، لم أتطلع إلى شيء سـوى الموت، وذلك من الأصـوات المنذرة التي كـانـت ترن في أذني، ذلك أنه لم يكن يمـر يوم واحـد، دون أن يجلبوا عشرين إنسـاناً ميتـاً أو أكثـر إلى الكنيسة، وكـان بإمكاني أن أسمع وأنـا في فـراشي أنشـودة"Libera me, DoMINE" وكـان كلما حـدث هذا أنفجـر باكيـاً،وأقـدم الشكر للرب، وأخـاطبـه هكذا:«أيها الرب، إنني أعبـدك، وأشكرك، من أجـل هذه الآلام التي بعثتهـا إليّ، ذلك أنني تكبرت كثيراً وتجبرت، وأنـا الآن أتمدد نائماً في فراشي، وأنهض منه في الصباح، وأصلي لك يامولاي حتى تخلصني من هذا المرض».

وحـالما تعـافيت، طلبت جـوليمين تابعي الجديد، ليقـدم لي كشفـاً بحساب المال الذي أنفقـه، وعندما أراني إياه، وجـدت أنه غشني بمبلغ زاد عن عشرة Livres Tournois، وعندمـا طالبتـه بـرد هذا المبلغ، أخبرني أنه سيسـدد هذا المبلغ حـالما يستطيـع، فصرفتـه من خـدمتي، وأخبرته أنني سامحتـه بما هو مدان به إليّ، لأنه بالفعل يستحق أن يحتفظ بهذا المبلغ، وعلمت فيما بعـد من بعض الفـرسـان البيرغنديين، الذي أطلق سراحهم حديثـاً، وهم الذين جلبوا هذا الرجـل معهم إلى بلاد ما وراء البحر، أنه كان من أبرع اللصوص وأحسنهم خلقاً، ولم يوجد مثله قط، لأنه كلما كان هناك فارس بحاجة إلى سكين، أو حزام، أو قفازات، أو مهاميز، أو أي شيء آخـر، كان يمضي ويسرق المطلوب ، ويعطيه إلى الفارس.

وفي الوقت الذي كـان الملك فيـه في عكا، شغل أخـواه نفسيهما في

اللعب بالنرد، وكان كونت بواتييه لاعباً صاحب أخلاق كريمة، فقد كان في بعض المناسبات عندما يربح، كان يفتح أبواب غرفته تماماً، ويدعو أي واحد من السادة أو السيدات، إذا كان هناك أي واحد منهم — أو منهن — في الخارج، إلى الدخول، ثم كان يوزع المال عليهم بملء يديه، من جيبه، وكذلك من المال الذي ربحه باللعب، وعندما كان يخسر، كان يشتري أموال الذين كان يلاعبهم، وذلك بعد تقدير قيمتها، سواء أكانت الأموال أموال أخيه كونت دي أنجو، أو أموال أي إنسان آخر، ثم كان يعطي كل شيء ويبدده سواء أكان ماله أو المال الذي حصل عليه من الآخرين.

وفي يوم من أيام الأحد، أثناء إقامتنا في عكا، بعث الملك واستدعى إليه كل من أخويه، مع كونت دي فلاندرز، ورجال آخرين من ذوي المراتب الذين كانوا هناك، وقال الملك لهم: «سادتي، لقد بعثت إليّ صاحبة السمو الملكي، الملكة الأم رسالة ترجوني فيها بإلحاح شديد، بالعودة إلى فرنسا،لأن مملكتي في خطر عظيم، لأنه حتى الآن لم يبرم بيني وبين ملك إنكلترا لا هدنة ولا سلام، وأخبرني شعب هذه المناطق الذين تشاورت معهم، أنني إذا ما غادرت فإن هذه البلاد سوف تضيع، لأن جميع الرجال الموجودين الآن في عكا، سوف يلحقون بي، وما من أحد سيجرؤ على البقاء، حيث الناس قلة، لذلك أرجوكم أن تفكروا بهذه المسألة تفكيراً جدياً، ولأنها مسألة هامة جداً، سوف أمنحكم الوقت لتقليب أوجه الرأي حولها، ولسوف تعطونني جوابكم، تبعاً لما ترونه صحيحاً، تماماً بعد أسبوع من هذا اليوم».

وفي أثناء الأسبوع جاء إليّ نائب البابا، وقال لي بأنه لم يجد كيف يمكن للملك البقاء في ما وراء البحر، ورجاني بكل إخلاص أن أعود معه إلى فرنسا في سفينته، فأخبرته أنني لا يمكنني فعل ذلك، لأنني لا أمتلك مالاً البتة، ذلك أنني — كما يعرف جيداً — قد خسرت كل

شيء كنت أمتلكه، عندما أخذت أسيراً على سطح الماء.

وحين أجبته على هذه الصورة، فعلت ذلك لا عن كراهية ولا عن عدم رغبة في مرافقته، بل بسبب شيء آخر كان ابن خالتي لورد بوليانكورت Bouliancourt— ربي امنحه الرحمة — قد قاله لي وأنا على وشك الذهاب بالحملة الصليبية، لقد قال لي:« إنك ذاهب إلى بلاد ما وراء البحر، إنتبه كيف ستعود، لأن ما من فارس — سواء أكان غنياً أم فقيراً — يمكنه أن يعود من دون أن يدنس شرفه، إذا ما ترك عبيد الرب المتواضعين، الذين انطلق برفقتهم، تحت رحمة المسلمين»، وغضب النائب البابوي غضباً عظيماً مني، وأخبرني أنه ما كان يجوز لي أن أرفض عرضه.

ومثلنا ثانية في حضرة الملك في يوم الأحد التالي، وقد سأل أخويه، وكونت دي فلاندرز، وبقية البارونات هل يشيرون عليه بالذهاب أم بالبقاء؟ وأجابوه جميعاً بأنهم عهدوا إلى غي موفوزين أن يتولى إعلام جلالته بما رغبوا أن يشيروه عليه، وبناء عليه أمره الملك بأن ينفذ مهمته، وقد تكلم هذا كمايلي وقال:«لقد قام، يا صاحب الجلالة، أخواك وبقية النبلاء الحاضرون هنا بتفحص وضعك، وتوصلوا إلى محصلة أنك لا يمكنك البقاء في هذه البلاد من دون أن تسيء إلى مقامك وكذلك إلى مملكتك، فمن جميع الفرسان الذين جاءوا برفقتك، وعددهم ألفان وثمانمائة ممن أحضرته معك إلى قبرص، يوجد الآن في هذه المدينة ممن تبقى أقل من مائة فارس، ولهذا نشير على جلالتك بالعودة إلى فرنسا، وأن تقوم بتجنيدالرجال، وتحصيل المال، ومن ثم تعود بكل سرعة لتنتقم من أعداء الرب الذين وضعوك بالأسر.

ولم يكن الملك — على كل حال — راضياً بالموافقة على ما قاله موفوزين، وتوجه بالسؤال إلى كونت دي أنجو، وإلى كونت دي بواتييه، وإلى كونت دي فلاندرز وإلى آخرين من ذوي المراتب العليا الذين

جلسوا إلى جانبهم، وقد وافقوا جميعاً على ما قاله غي موفوزين، وسأل النائب البابوي كـونت دي يافا، الذي كان جالساً خلفـه، ما الذي يراه، ورجا الكونت الجماعة إعفاءه مـن الإجابة على هذا السؤال، وقال:«لأن قلعتي قـائمة على الحدود، وإذا مـا نصحت الملك بالبقـاء، سيظن بعض الناس أنني فعلت ذلك لمصلحتي الذاتية ومنافعي» وضغط الملك عليـه بشـدة متناهيـة حتى يقدم رأيه، وبناء عليـه أجـابه الكونت أنه إذا كـان ممكناً لجلالتـه تدبـر تمديد حملتـه لمدة سنة أخـرى، فسينال بـذلك شرفـاً عظيماً، وبناء عليه سأل النائب البـابوي الذين جلسوا إلى جـانب كونت يافا، فوافقوا جميعاً على ما أبداه غي موفوزين.

وكنت جالسـاً في الصف القائم أمام النائب البابوي، على بعـد حوالي أربعة عشر مقعـداً عنه، وسألني ما الذي أراه، فأجبتـه بأنني موافق على ما قالـه كونت يافا، وعندها سألني وهو غاضب جـداً، كيف أتصور أن بإمكان الملك متابعة الحملة، مع العدد الضئيـل من الرجال المتوفر لديه، وشعـرت بغضب شـديد شخصياً، لأنـني اعتقدت أنه مـا قـال هذا إلا ليغضبني فأجبتـه قـائـلاً:«سـوف أخبرك ياسيـدي، طالما أنك طلبت لتعرف، يقول الناس — علماً بأنني لا أعرف فيها إذا كان ذلك صحيحاً — بأن الملك لم يصرف حتى الآن أياً من أمواله، بل صرف من مداخيل الكنيسـة، وبناء عليه لندع الملك ينفق بعضـاً من موارده للحصـول على الفرسـان من المورة ومن أماكن أخـرى من بلاد ما وراء البحـر، فعندما يعرفـون بأنه يدفع بشكل جيد وبكرم، سوف يتدفق الفـرسان علينا من كل مكان، وبذلك سيكون — إنشـاء الرب — قـادراً على الصمـود في الميـدان لمدة سنة، وسـوف يكون، بالوقت نفسـه، ببقائـه هنا قـادراً على تحرير الأسرى المسـاكين، الـذين أخـذوا أسرى، وهـم في خـدمـة الرب وخدمته شخصياً، وهؤلاء طبعاً لن يطلق سراحهم إذا ما سافر وابتعد»، ولم يكن هناك في ذلك المكان أحد لم يكن لديه صـديق قريب في الأسر،

ولذلك ما من أحد انتقدني، بل بدأ الجميع يبكون.

وبعـدما أجبت النـائب البابوي، إلتفت إلى الفـارس الجيـد وليم دي بيمونت، الذي كـان آنذاك مارشال فرنسـا، وسأله عن رأيه، فأجابه بأنه يعتقـد بأنني تكلمت بشكل معقول تمامـاً،وأضاف:«سـوف أخبرك لماذا أعتقد ذلك»، وعلى كل حال في تلك اللحظة، شرع عمه، الفارس الجيد جين دي بيمونت، الذي كان متشوقاً جـداً للعودة إلى فرنسا، بمخاطبته بطريقـة مهينة جـداً، فقـد صرخ قـائـلاً:«أيها الوغـد القـذر، مـا الذي تقصـــده؟ اجلس وأمسك لسـانـك»، وبناء عليـه قـال الملك لجين دي بيمـونت:«أيها السيـد، هذا خطأ عظيم منك، دعـه يقـول الذي يريد أن يقولـه» ورد عليه الفارس قـائلاً:«حقـاً ياسيدي، لن أسمح لـه»، وشعر المارشال بأنه مرغم على الصمت، ولم يقم أحـد بعدذلك بالوقوف معي، باستثناء صاحـب شاتني Chatenay ، وقال الملك أخيراً:«أيها السادة استمعت لما قلتمـوه، ولسـوف أخبركم في حـدود أسبـوع من الزمـان بالذي أنوي القيام به».

ومـا أن غادرنـا الاجتماع حتى بدأ الناس يهزأون بي من كل الجوانب ويقــولون:«لاشك سيكون الملـك بالفعل أحمقـاً، إذا مـا أصغى إليك مفضلاً إياك ورأيك على رأي مستشاري جميع مملكة فرنسا».

وبعـدما نصبت الموائـد، جعلني الملك أجلس إلى جـانبـه أثناء تناول طعام الغـداء، مثلما كان يفعل دوماً عندما يكون أخـواه غياب، ولم يقل لي شيئاً طوال وقت تناول الطعام، وذلك على عكس معتـاد عادته، لأنه اعتاد أن يوليني بعض الاهتمام في أثناء تناول الطعام، فخيّل إليّ بالحقيقة أنه غاضب علي، لأنني قلت بأنه لم ينفق بعد أياً من أمواله، وينبغي عليه إنفاق أمواله بكرم.

وبينما كـان الملك يصغي إلى صـلاة النعمة، مضيت إلى نـافذة مغلقـة

بقضبـان حديد عند رأس فـراشـه،وأمـررت ذراعي من خلال قضبـان النافذة، ووقفت هناك أفكر أنه إذا ما عاد الملك إلى فرنسا، سوف أذهب إلى أمير أنطاكيـة، الذي كان من أقـربائي، وكـان قد طلب مني القـدوم والالتحـاق به، ولسوف أبقى هناك حتـى يحين وقت قدوم حملة أخـرى إلى بلاد مـا وراء البحر، يمكن بوسـاطتها تحرير الأسرى، وذلك توافقـاً مع ما أشار به صاحب بوليانكورت.

وفيما أنا واقف هناك، جـاء الملك إليّ، واتكـأ على كتفي، ووضع يديه على رأسي، فخيل إليّ أنه كـان فيليب دي نيمـور الذي أزعجني في ذلك اليوم كثيراً، بسبب المشـورة التي أبديتها، ولهذا قلت متبرمـاً:«توقف عن مضايقتي يا فيليبي الجيد»، وصـدف أن أدرت رأسي، فانزلقت يد الملك فوق وجهي، وهنـا أدركت يد من كانت من خـلال خاتم حجـره زمرد كـان في إصبعه، وقـال لي :«اهدأ وابقى كما أنت، لأنني أريد أن أسألك كيف يمكن لشاب مثلك أن يكون جـريئاً ليشير عليّ بالبقاء هنا، وذلك ضد نصيحة جميع عظماء عقلاء فرنسا الذين نصحوني بالذهاب» ؟.

فقلت:«ياصـاحب الجلالة، حتى وإن دخلـت هذه الفكرة السيئة إلى عقلي، فإنني لن أنصحك بالـذهاب مطلقـاً»، فسأل:«هل تريد أن تقـول بأنني أقترف خطأ، إذا ما رحلت»؟ فقلت:«نعم ياسيدي، بعون الرب»، ثم إنه قال:«إذا بقيـت هنا، هل ستبقى أنت أيضاً»؟ فأجبتـه :«أكيد، إذا مـا استطعـت، إمـا على حسـابي أو على حسـاب واحـد آخـر»، فقـال:«يمكنك الاطمئنان من هذه الجهـة، لأنني مسرور جـداً منك، للنصيحـة التي قـدمتهـا، لكن لاتتحـدث عن هذا إلى أحـد حتى ينتهي الأسبوع».

وشعـرت براحـة كبيرة لدى سماعي هذا، ودافعت عن نفسي بجـرأة أعظم ضـد الذين هاجموني، وحدث أن الفـلاحين في تلك المنطقة كـانوا يعرفون باسم«كولت Colts »، وكان الأخ بيير دي أفالون Avallon ،

الذي كـان يعيش في صـور قـد سمـع بهذه الأقـاويل، وبـأنني دعيت كـولت(مهر فتى غـرير)، بسبب أنني نصحت الملك بالبقـاء في بلادهم، ولهذا بعث إليّ يخبرني بهذا، وحثني على الـدفـاع عـن نفسي ضـد الذين وصفـوني بذلك، بالقـول بأنني أفضل أن أكـون«كولت» على أن أكـون فرساً هرماً محطماً مثل أي واحد منهم.

وعدنا في يوم الأحـد التالي جميعاً لرؤية الملك، ومـا أن شاهدنا الملك قـد اجتمعنا كلنا حتى رسم عـلامـة الصليب على فمـه قبل القيـام بمخـاطبتنـا، (ويخيل لي أن قيـامـه بذلك فيـه توجيـه للدعـوة للروح القدس،لأنه كما قالت لي أمي العزيزة في إحدى المرات، يتوجب عليّ كل مرة أود أن أقـول فيها شيئاً أن أنشـد العون من الروح القـدس، ورسم علامة الصليب حول فمي).

وقـال الملك:«سادتي، إنني أشكر بـإخلاص جميع الذين أشـاروا عليّ بالعودة إلى فـرنسا، وكذلك أخص بالشكر الذين نصحـوني بالبقاء هنا، ولقـد توصلت إلى رأي أنني إذا مـا بقيـت هنا لن أواجـه خطر فقـدان مملكتي، بسبب أن الملكة الأم لديها مـا يكفي من الرجـال للدفاع عنهـا، وأقمت أيضاً تقديراً لما أخبرني به البـارونات السكان في هذه البلاد، من أنني إذا ما غادرت سوف تضيع مملكة القدس، لأن ما من واحد سوف يتجرأعلى المكوث بعـدما أغادر، وبناء عليه قـررت أنني لن أهجر مملكة القدس مهما كـانت المعطيات، فقـد قدمت أنا إلى هنا لإعـادة الاستيلاء على أراضيها والدفـاع عنها، ولهذا قررت أخيراً وعـزمت على البقاء هنا في الوقت الحاضر، وأقـول لكم الآن جميعـاً، لكل من النبـلاء الذين هم الآن هنا في هذه اللحظة، وإلى جميـع الفـرسـان الآخـريـن الذين يودون البقـاء معي، أقـول تعـالوا وتحدثـوا إلي بجـرأة وصراحـة كما ترغبـون، ولسـوف أمنحكم شروطاً مغـريـة، حتى لا يكون الخطأ خطـأي بل خطأكم إذا لم تختـاروا الإقـامـة»، وقـد امتـلأ عـدد كبير ممن سمع هذه

الكلمات بالدهشة، وبكى كثير ممن كان هناك.

وقد قيل بأن الملك أمر أخويه بالعودة إلى فرنسا، لكن أكان ذلك بناء على رغبتيهما وطلبهما أم بناء على رغبته، فهذا ما لا يمكنني قوله فعلياً، وحدث إعلان الملك عن نيته بالبقاء في بلاد ما وراء البحر في يوم عيد القديس يوحنا، وبعد مضي شهر، أي في يوم عيد القديس جيمس توجهت للحج إلى مزاره، وقد أضفى عليّ منافع عظيمة، وكان الملك قد عاد إلى غرفته إثر الفراغ من سماع القداس، واستدعى إليه الذين بقيوا معه من مستشاريه، وكان هؤلاء: حاجبه بيير، وكان أكثر من رأيته وقابلته في الحاشية الملكية إخلاصاً، وغيوفري دي سارجين، وكان فارساً جيداً وجديراً بالتقدير، وجايل لى برن، الذي كان يساويه قدراً ومكانة، وهو الذي جعل الملك منه القسطلان لفرنسا بعد وفاة إيمبرت دي بيجو الطيب.

وتحدث الملك بلهجة صوت مرتفع، وبطريقة أبدى فيها عدم رضاه ، حيث قال:«ياسادتي، لقد مضى شهر منذ بات معروفاً أنني مقيم هنا، ولم أسمع بعد أنكم استبقيتم أياً من الفرسان في خدمتي»، فأجابوه: «ياصاحب الجلالة، لقد فعلنا كل ما نستطيعه نحوهم، لكنهم جميعاً — لرغبتهم بالعودة إلى بلادهم — طلبوا أسعاراً عالية جداً مقابل خدماتهم، ونحن لم نتجرأ على إعطائهم الذي سألوه»، وسألهم الملك:«وأيهم يمكنكم الحصول عليهم بشكل أرخص كثيراً»؟فأجابوه:«في الحقيقة ياصاحب الجلالة، سيكون ذلك نائب شامبين، لكننا لم نعطه القدر الذي طلبه».

وصدف أن كنت في غرفة الملك في ذلك الوقت وسمعت ما كانوا يقولونه، فقال الملك:«ليأت النائب إلى هنا»، وبناء عليه ذهبت وركعت أمامه، وطلب مني الجلوس وقال لي:«أنت تعلم أيها النائب أنني كنت دوماً محباً لك، غير أن أتباعي أخبروني أنهم يجدون صعوبة في التعامل

معك، لماذا ذلك»؟ فأجبته:«ياصاحب الجلالة، ليس الأمر بيدي، فأنتم تعلمون، أنني عندما أخذت أسيراً فوق الماء، ما من شيء من ممتلكاتي قد ترك معي، بل فقدت كل ما كان لدي»، فسأل عن الذي أطلبه، فأخبرته أنني أحتاج إلى مائتي ألف ليرة ذهبية، فهذا ما يكفيني حتى عيد الفصح، أي أن ذلك سوف يغطي ثلثي السنة.

فقال :«أخبرني الآن،هل حاولت عقد صفقة مع أي من الفرسان»؟فقلت:«نعم،مع بيير دي بونتمولين pontmolain ، وهو واحد من ثلاثة فرسان حملة للأعلام، سوف يكلفني كل واحد منهم أربعمائة ليرة ذهبية حتى عيد الفصح»، ثم قال الملك بعد ما عدّ على أصابعه:«على هذا سوف يكلفك فرسانك الجدد ألفاً ومائتي ليرة ذهبية »،فقلت :«لكن أرجوك يا سيدي أن تقدر أنني لن أتكلف أقل من ثمانمائة ليرة ذهبية للحصول على حصان وعدة وسلاح لي شخصياً، وكذلك للحصول على طعام لفرساني، لأنني — كما أفترض — لن ترغب في أن نتناول أطعمتنا معك»، وهنا قال الملك لمستشاريه:«أنا لا أرى شيئاً مبالغاًفيه في هذه الحالة»، ثم التفت إليّ وقال:«إنني محتفظ بك في خدمتي».

وبعد هذا بأمد قصير أمر أخوا الملك والنبلاء الآخرون في عكا بإعداد سفنهم، وقبل أن يقوم كونت بواتييه بالمغادرة استقرض بعض الجواهر، ممن كان عائداً إلى فرنسا ، ووزعهم بكرم وأريحية على المتبقين منا وغير المغادرين، ورجاني كل من أخوي الملك بحرارة بأن أنتبه للملك وأرعى شؤونه، وأخبراني بأنه لا يوجد واحد من بين جميع الذين بقيوا معه يمكنهما الاعتماد عليه سواي، وعندما رأى كونت دي أنجو أن وقت المغادرة قد اقترب، أظهر حزناً عظيماً أدهش كل إنسان ومع ذلك مضى عائداً إلى فرنسا.

وبعد وقت وجيز من مغادرة أخوي الملك، وصل رسل من عند

امبراطور ألمانيا وجلبوا معهم رسائل ثقة واعتماد لجلالته، وأن سيدهم قد أرسلهم ليعملوا على إطلاق سراحنا، وعرض هؤلاء الرجال على الملك رسالة كتبها الامبراطور، ووجهها إلى السلطان المتوفى — دون أن يعرف أنه مات — يخبره بها أن يعتمد كل ما سيقوله الرسل له، فيما يتعلق بإطلاق سراح الملك، وقال كثير من الناس إنه كان من المفيد لنا أن وجدنا الرسل، وقد تحررنا من الأسر، فقد اعتقدوا بأن الامبراطور، قد أرسل الرسل لمضايقتنا وليس لإطلاق سراحنا، وعلى كل حال لقد وجدنا الرسل محررين، ولذلك ذهبوا عائدين.

وعندما كان الملك في عكا، أرسل إليه سلطان دمشق رسلاً لرؤيته وللشكاية إليه بمرارة ضد الأمراء المصريين الذين قتلوا ابن عمه، وقد وعد الملك أنه إذا ما رغب بمساعدته سوف يقوم من جانبه بتسليمه مملكة القدس، الذي كانت بحوزته في تلك الآونة.

وقرر الملك أن يرسل جواباً إلى سلطان مصر بوساطة رسل من عنده، وبعث معهم الراهب إيف (البريطاني) لى بريتون Yves le Breton، وكان راهباً من طائفة الأخوان المبشرين، وكان يعرف لسان المسلمين.

وبينما هم على طريقهم من أماكن إقامتهم إلى قصر السلطان، أبصر الراهب إيف امرأة عجوزاً تمشي عبر الطريق، ومعها طشتاً مملوءاً بفحم يحترق كانت تحمله في يمناها، وفي يسراها قارورة مليئة بالماء، فسألها:«ما أنت عازمة على العمل بهذين»؟، فأجابته المرأة العجوز، بأنها عازمة على أن تحرق الجنة وتدمرها تماماً بتلك النار، ولسوف تطفىء بالماء جهنم، وبذلك تزول إلى الأبد، فسألها الراهب إيف:«لماذا تريدين فعل ذلك»؟ فقالت:«لأنني لا أريد أي واحد أن يفعل خيراً من أجل الحصول على الجنة، أو خوفاً من النار، بل أن يفعل ذلك حباً لله، الذي يستحق الكثير منا،والذي سوف يعمل لنا من الخيرات بقدر ما

يستطيع».

وفي حوالي الوقت نفسه، ذهب جون الأرمني، الذي كان معلم صناعة أسلحة الملك، إلى دمشق لشراء مادة قرنية وغراء من أجل صناعة القسي العقارة، ورأى وهو هناك رجلاً متقدماً جداً في السن، جالساً في السوق، واستدعاه ذلك الشيخ العجوز وسأله عما إذا كان مسيحياً، وأجابه جون بأنه كذلك، فقال الرجل العجوز له:«لا بد أنكم أيها النصارى تكرهون بعضكم بعضاً كثيراً، لأنني رأيت منذ زمن قديم مضى الملك بلدوين ملك القدس الذي كان مجذوماً، يهزم صلاح الدين، مع أنه كان لديه ثلاثمائة مقاتل، بينما كان مع صلاح الدين ثلاثة آلاف،غير أنكم الآن بسبب ذنوبكم، تدنيتم كثيراً إلى حد أننا بتنا نتناولكم في ميادين القتال وكأنكم من الأنعام.

وبناء عليه أخبره جون أنه سوف يصنع خيراً إذا ما سكت عن ذنوب المسيحيين،التي نرى أنها لاتعد شيئاً أمام ما نراه يقترف من قبل المسلمين، ورد عليه الرجل المسلم بأنه أجابه بحماقة عظمى، وهكذا سأله جون:لماذا؟ فقال له الرجل العجوز: إنه سوف يخبره لماذا، لكنه سيسأله أولاً سؤالاً، وهكذا سأل جون:هل لديك أولاداً؟ فقال جون:نعم لدي ولد، فسأله العجوز:أيها سوف يغضبه أكثر، أن يتلقى ضربة منه،وهو رجل مسلم، أم من ابنه؟ فرد عليه جون، بأن ذلك سوف يكون مغضباً أكثر مع ابنه، لو أنه فعل مثل هذا الشيء، مما لو الفاعل هو المسلم.

وقال الرجل العجوز:«سوف أعطيك جواباً بالطريقة التالية:أنتم أيها المسيحيون تعدون أنفسكم أبناء الرب، وأخذتم كنيتكم من اسم المسيح، وقد أبدى الرب نحوكم الكثير من النعمة، بأن منحكم معلمين. مثقفين، يمكن لكم أن تعرفوا منهم متى تصنعون الصواب، أو متى تقترفون الخطأ، ولهذا نشهد لماذا يغضب هو منكم أكثر بسبب اقترافكم

لبعض الذنوب الصغيرة، مما يغضبه منا لاقتراف بعض الذنوب العظيمة، إنه يفعل ذلك لأننا نحن تماماً جهلة، وكذلك عميان،لأن محمداً(ﷺ) قد أخبرنا أننا سوف ننقذ بالماء لدى موتنا، ونحن نعتقد أننا سوف نتحرر من جميع ذنوبنا إذا ما غسلنا أنفسنا بالماء قبل أن نموت».

وفي إحدى المرات،كنت بعد عودتي من بلاد ما وراء البحر، في طريقي إلى باريس، وكان جون الأرمني بصحبتي، وبينما كنا نتناول الطعام في سرادق كبير، جاء حشد كبير من الناس يستجدون ويطلبون الصدقة من أجل خاطر الرب، وقد أحدثوا جلبة، وقام واحد من رجالنا الذين كانوا حضوراً، باستدعاء أحد الخدم وقال له:«اذهب على الفور، واطرد هؤلاء الناس وأبعدهم»،فقال جون:«أواه، إنه لخطأ عظيم قد اقترفته بقولك ذلك، فلو أن ملك فرنسا قد أرسل رسله مع مائة مارك لكل واحد منا، ما كنا طردناهم وأبعدناهم، ومع ذلك إنكم تطردون هؤلاء الرسل الذي يمنحونكم أعظم ما يمكن أن يُمنح، وبكلمات أخرى إنهم يطلبون منكم أن تعطوهم من أجل خاطر الرب، مما يعني أنكم سوف تعطونهم من بعض ما لديكم،وهم سوف يعطونكم الرب نفسه، لأننا نعلم من كلمات الرب نفسه أن الذين هم في حاجة لديهم القدرة على تقديم مثل هذه العطية، وفضلاً عن هذا لقد أخبرنا القديسون أن الفقراء يمكنهم مساعدتنا على إقامة سلم مع الرب، لأنه مثلما تطفيء الماء النار، تتولى الصدقة إزالة الذنب ومحوه»، ثم قال جون:«ولهذا خذوا حذركم من أن تقوموا بطرد الفقراء وإبعادهم، بل عليكم إعطاءهم والرب يعطيكم».

الفصل الثاني عشر
شيخ الجبل

وصل في أثناء إقامة الملك في عكا رسل بعثوا إليه من قبل شيخ الجبل لرؤيته، وقام بعد عودته من سماع القداس، بالأمر بإحضارهم أمامه، وقد أمر بإجلاسهم بحيث جلس في الأمام أمير ارتدى ثياباً أنيقة جداً، وكان مظهره الخارجي بديعاً، وجلس خلفه شاب من الواضح أنه كان من أسرة جيدة، وهذا ارتدى بدوره ثياباً فائقة، وقد حمل بمقبض يده ثلاثة خناجر، دخلت شفرة كل واحد منها في مقبض الآخر، وكان الغرض من هذه الخناجر تقديمها إلى الملك بمثابة شارة للتحدي، وذلك إذا ما أقدم على رفض مقترحات الأمير، وجلس خلف هذا الشاب شاب آخر، هو الذي لف حول ذراعه قطعة من قماش الكتان،ليقدمها إلى الملك لتكون كفناً إذا ما رفض مطالب شيخ الجبل.

وبعدما سأل الملك هذا الأمير أن يخبره لماذا جاء، قدم هذا الأمير رسائل اعتماده وقال:«لقد بعث بي مولاي ليسألك عما إذا كنت تعرفه»؟ فأجابه الملك بأنه لم يعرفه، لأنه لم يره قط، لكنه غالباً ما سمع الناس يتحدثون عنه، فقال الأمير:«بما أنك سمعت الناس يتحدثون عن مولاي، فأنا مندهش كثيراً لأنك لم ترسل إليه مبلغاً من مالك حتى تستبقيه صديقاً لك، مثلما يفعل امبراطور ألمانيا، وملك هنغاريا، وسلطان القاهرة مع آخرين، سنة إثر سنة، لأنهم يعرفون بشكل مؤكد أنهم يمكنهم البقاء أحياء طالما مولانا راضٍ بذلك»، واستطرد الأمير يقول:«وإذا كان هذا لايوافقك فعله، عندها يتوجب عليك أن ترتب إعفاءه من دفع الجزية التي يؤديها إلى الاسبتارية وإلى الداوية، ووقتها سوف يعدّكم قد أديتم واجبكم».

ويمكنني أن أقـول بأن شيخ الجبل كـان يدفع في ذلك الوقت جـزية لكل من هاتين الطائفتين، لأنه لا الداوية ولا الاسبتارية كـانوا يخشون مطلقاً من الحشيشية، لأن قـائدهم كان يعرف تماماً أنه إذا ما جرى قتل أي من مقدمي الاسبتارية أو الداوية، سيحل محل المقتول واحد بالجودة نفسها، وعلى هذا ما كان ليكسب شيئاً من موتهما، ونتيجة لهذا لم يرغب بالتضحية بحشيشيته في مشروع لن يجلب أية منافع.

وأخبر الملك الأمير بأنه سوف يراه مرة ثانية بعد الظهر، ولدى عودة الرسـول وجد الملك جـالساً، وعلى يمينه قعـد مقدم الاسبتـارية، وعلى يساره مقدم الداوية، وطلب الملك من الأمير أن يعيـد الرسالة التي كان قد قـدمها في ذلك الصباح، فرد عليـه هذا الرجل بأنه لا يمتلك الرغبة بإعادة ما تقدم وقاله،إلاّ بحضور الذين كانوا مع الملك في اللقاء الأول، وبناء عليـه قال لـه المقدمـان:«نحن نأمـرك بإعـادة رسالتك»، وأجـاب الأمير بما أنهما قـد أمـراه بذلـك فهـو سيفعل ذلـك، وبعـد هذا أمــره المقدمـان، باللغة العـربية بأن يأتي للحـديث معهما في مقر الاسبتـارية في اليوم التالي.

وعندمـا جاء الأمير في اليـوم التالي، وأظهـر طاعته لأوامـرهما، قامـا بإخباره، من خلال مترجم، بأن مـولاه قد تصرف بتهور كبير حين تجرأ على إرسال هذه الرسالة الوقحة إلى الملك، وزيادة على هذا أخبراه، لولا أن الأمور مرتبطة بشرف الملك الذي أرسل إليه مع رفيقيه بمثابة رسل، لقـاما بإغـراقهم في بحر عكا القـذر، وذلك على الرغم من شيخ الجبل، ثم قـالا له:«ولهذا نحن نأمرك بأن تذهب إلى مـولاك، وأن تعود خـلال أربعة عشر يومـاً، جالباً معك من عند مولاك رسـالة وجواهر يمكن بها الحصول على رضا الملك، وأن تجعله كريماً في سلوكه معكم».

وقبل مضي أربعة عشر يوماً، عاد رسل شيخ الجبل إلى عكا، وجلبوا معهم قميص مــولاهم إلى الملك، وقـد أخبروه باسـم شيخ الجبل، بأن

ينظر إلى معنى ذلك، أنه كما القميص هو الأقرب إلى الجسد من بقية الملابس، هكذا ينظر مولانا إلى الملك ويقدره على أنه الأقرب إلى نفسه في الحب من أي ملك آخر، كما أنه أرسل إلى الملك خاتمه الشخصي، المصنع من أفضل أنواع الذهب، وقد حفر اسمه عليه، ومع هذا الخاتم رسالة قال فيها أنه ربط بهذا الخاتم بتحالف وثيق مع الملك، راغباً بأن يتحدا منذ ذلك الوقت فصاعداً، وكأنهما قد خطبا إلى بعضهما بعضاً.

وكان بين الهدايا التي بعث بها شيخ الجبل إلى الملك تمثال فيل جميل الصنع، وتمثال حيوان آخر يُدعى الزرافة، وتفاح من مختلف الأنواع، كلهم كانوا من الكرستال، وأرسل مع هذه الأشياء ألواحاً للعب وطواقم شطرنج، وكانت هذه الأشياء مطعمة بورود صغيرة مصنعة من العنبر، وقد ربطت بالكرستال بوساطة خيوط دقيقة من الذهب الممتاز.

ويمكنني أن أضيف،أنه عندما فتح الرسل الصناديق الحاوية لهذه الهدايا، صدرت عنهم رائحة طيبة ملأت الغرفة كلها بالعطر.

وأعاد الملك الرسل ومعهم كمية كبيرة من الجواهر، وقطع من الأقمشة القرمزية،وكؤوس من الذهب، وخيول، وقطع من الفضة، وأوكل أيضاً إلى الراهب إيف(البريطاني) لي بريتون أن يذهب معهم، بحكم أنه كان خبيراً بلغة المسلمين، وقد وجد هذا الراهب أن شيخ الجبل لم يكن من أتباع محمد(ﷺ)، بل كان خاضعاً لشريعة علي(رضي الله عنه)الذي كان(ابن) عم محمد(ﷺ).

وكان علي(رضي الله عنه) هو الذي رفع محمداً(ﷺ) إلى مكانة الشرف التي تبوأها، لكن ما أن تمكن محمد(ﷺ) من تثبيت نفسه بأن أصبح سيداً على الناس حتى بدأ يحتقر (ابن)عمه، وصار بعيداً عنه، ولدى ملاحظة علي(رضي الله عنه) لهذا، جمع أكبر عدد من الناس من حوله استطاع جمعهم، وعلمهم عقيدة تختلف عن عقيدة محمد(ﷺ)،

وهكذا ما زال قائماً حتى الآن أن جميع الذين يأخذون بالشريعة التي أرسى علي قواعدها، يؤكدون أن أتباع محمد(ﷺ) ضالون في إيمانهم، في حين أن الذين يؤمنون بتعاليم محمد(ﷺ) يؤكدون من جانبهم أن أتباع علي إيمانهم غير صحيح.

وهناك نقطة أخرى قررها علي(رضي الله عنه) أنه إذا ما قتل إنسان وهو في طاعة أوامر مولاه، سوف تذهب روحه إلى جسد إنسان آخر أفضل من المتقدم، وهذا هو السبب في أن الحشيشية لايتجنبون التعرض للقتل بأي حال من الأحوال، عندما يأمرهم سيدهم بذلك،لأنهم يعتقدون أنهم سوف يكونون أكثر سعادة بعد الموت منهم وهم أحياء.

وهناك عقيدة أخرى يأخذون بها، وهي أن ما من إنسان يمكن أن يموت قبل اليوم المعين لموته، وهذا الاعتقاد لا يجوز لإنسان أن يتمسك به، ممن يرى أن الرب لديه القدرة على إطالة أعمارنا وتقصيرها حسبما يرغب.

ويتبع البدو علياً(رضي الله عنه) في هذه النقطة، ولهذا السبب يرفضون لبس الدروع قبل الذهاب إلى القتال، لأنهم لو فعلوا ذلك، اعتقدوا أنهم سيتصرفون ضد ما أمرت به شريعتهم، ولهذا عندما يلعنون أولادهم يقولون لأحدهم:«عليك اللعنة مثل فرنجي يلبس الدروع لخوفه من الموت».

ووجد الراهب إيف كتاباً قرب رأس سرير شيخ الجبل، مكتوب فيه أشياء كثيرة مما قاله ربنا إلى القديس بطرس، عندما كان على الأرض، وقد قال الراهب له:«آه يا مولاي، من أجل الرب، اقرأ هذا الكتاب مراراً وتكراراً، لأن هذه كلمات جيدة»، وأجابه شيخ الجبل أنه غالباً ما فعل ذلك، وقال:«لأن القديس بطرس عزيز جداً علي، لأنه في بداية خلق الدنيا دخلت روح هابيل بعد قتله، في جسد نوح(عليه السلام)،

وعادت بعد وفـاة نوح فدخلت في جسد إبراهيم(عليـه السلام) وعندما مات إبراهيم(عليه السلام)انتقلت من جسده إلى جسد القديس بطرس، وذلك في الزمان الذي جاء فيه مولانا إلى الأرض».

ولدى سماع الراهب إيف بهذا بين لشيـخ الجبل أنه قـد أخطأ في هذا المعتقد، وشرح له كثيراً مـن العقيدة الصحيحة، لكن شيـخ الجبل لم يعر ما قاله الاهتمام، ولدى عودة هذا الراهب الجيد روى هذه الأشياء جميعاً إلى الملك.

وكان كلما ركب شيخ الجبل وسـار، مشى أمامـه منادي ، يحمل بيده بلطة دانماركية لها حـد طويل مغلف بالفضـة، وقد ثبت عليهـا عدد من الخناجـر، وكـان الرجـل ينادي طوال سيره:«ابتعـدوا عـن طريق الذي يحمل في يديه موت الملوك».

الفصل الثالث عشر

التتار

لقد نسيت أن أخبركم عن الجواب الذي صنعه الملك لويس إلى سلطان دمشق، وقد بين له أن لانية لديه في التحالف معه حتى يعرف فيما إذا كان الأمراء المصريون سيقدمون له ترضيات عن المعاهدة التي خرقوها، وبناء عليه هو مقبل على مراسلة الأمراء، وإذا ما رفضوا القيام بترضيته، وقتها سيقوم عن طيب خاطر بتقديم العون إلى السلطان من أجل الانتقام لابن عمه، سلطان القاهرة، الذي قتله هؤلاء الرجال.

وأرسل الملك جين دي فالنسيان Valenciennes من عكا إلى مصر مع تعليمات بأن يطلب من الأمراء أن يعوضوا للملك على ما اقترفوه بحقه من مساوىء وأضرار، وقد أجابوه أنهم على استعداد لفعل ذلك، شريطة أن يدخل الملك بتحالف معهم ضد سلطان دمشق.

ووجه جين دي فالنسيان إليهم اللوم بمرارة للإثم العظيم الذي اقترفوه بحق الملك، ونصحهم أيضاً، أنه سوف يكون مفيداً لهم، إذا ما رغبوا في أن يجعلوا جلالته يشعر مشاعر طيبة نحوهم، بأن يرسلوا إليه جميع الفرسان الذين ما زالوا أسرى لديهم، وعمل الأمراء كما نصحهم، وبالإضافة إلى ذلك أرسلوا إليه جميع عظام كونت دي بريين، حتى يمكن دفنهم في بقعة طاهرة.

وبعدما جاء جين دي فالنسيان إلى عكا، وجلب معه مائتي فارس أطلق سراحهم من الأسر إلى جانب رجال من مراتب أدنى، قامت صاحبة صيدا، التي كانت ابنة عم الكونت غوتيير، وأخت غوتيير دي رينلReynl — التي تزوجت أنا من ابنتها بعد عودتي من بلاد ماوراء البحر — فأخذت بقايا الكونت الجيد، وتولت أمر دفنهم في كنيسة

الاسبتارية في عكا، وأجرت القداس بحيث يقوم كل فارس بتقديم شمعة ودرهم فضة، بينما قدم الملك شمعة ودينار ذهبي، وكان كل الذي جرى تقديمه على حسابها الخاص، وعلت الدهشة الناس كثيراً عندما وافق الملك على هذا، لأنه لم يعرف حتى ذلك الحين أنه منح مالاً إلاّ من ماله الخاص، وهو حين فعل ذلك في هذه المناسبة كان صدوراً عن لطفه نحو السيدة.

ووجدت بين الفرسان الذين جلبهم معه جين دي فانسيان أربعين فارساً كانوا من فرسان كونت دي شامبين، وقد أمرت بإعداد قمصان ومعاطف من قماش أخضر لهم ليلبسوها، وأخذتهم إلى الملك، فمثلوا أمامه، ورجوته أن يمنحهم عروضاً جيدة حتى يبقوا في خدمته، وأصغى الملك لما طلبوه، لكنه لم يقل شيئاً جواباً لهم.

وأخبرني واحد من الفرسان من مستشاري الملك أنني لم أتصرف بشكل جيد بتقديمي مثل تلك الاقتراحات، بما أنه كان مداناً بسبعة آلاف ليرة ذهبية، وأخبرته أن عليه أن يكون آسفاً لتعليقه هذا، وأضفت بأننا رجال شامبين قد خسرنا خمساً وثلاثين ألف فارس، كلهم من حملة الأعلام، وذلك من بين الفرسان الذي انتموا إلى بلاطنا، ومضيت أقول:«والملك لن يصنع حميداً إذا ما أصغى إليك، وهو يرى مدى حاجته إلى الفرسان»، وعندما أنهيت كلامي انفجرت باكياً، وبناء عليه طلب الملك مني الهدوء، وبين أنه سوف يعطي هؤلاء الفرسان كل ما سألته، وهكذا استخدمهم الملك حسبما رغبت، وألحقهم بفرقتي.

وأعطى الملك الآن جوابه إلى الرسل الذين قدموا من مصر، وأخبرهم أنه لن يبرم معاهدة مع الأمراء مالم يقوموا أولاً:بإرسال رؤوس جميع المسيحيين التي علقت حول أسوار القاهرة منذ الأيام التي أخذ بها كونت دي بار، وكونت مونتفورت أسيرين، وثانياً: مالم يقوموا بتسليم جميع الأطفال الذي أخذوا وهم صغار السن وقاموا بالتخلي عن

عقيدتهم، وثالثاً : مالم يعفوه من دفع مائتي ألف ليرة ذهبية، مازال مدان بها إليهم.

وأعاد الملك الرسل المصريين إلى بلادهم يرافقهم الرجل الشجاع والحكيم جين دي فالنسيان.

ومع بداية الصوم الكبير استعد الملك مع جميع القوات التي توفرت لديه للذهاب والقيام بتحصين قيسارية، وهي بلدة قائمة على بعد أربعين فرسخاً عن عكا على الطريق إلى القدس، وكان المسلمون قد دمروها، وقد رافق راؤول دي سواسون — الذي كان قد بقي في عكا بسبب مرضه — جلالته في هذه الحملة، ولا أستطيع أن أبين كيف أن المسلمين لم يلحقوا بنا الأذى طوال ذلك العام، ما لم تكن تلك إرادة الرب، وبينما كان الملك مشغولاً في تحصين قيسارية، عاد الرسل الذين كان قد أرسلهم إلى بلاد التتار، وسأروي لكم الآن الأخبار التي جلبوها.

وكنت قد حدثتكم، أنه عندما كان الملك مقيماً في قبرص، قدم إليه رسل من عند التتار وأعطوه شعوراً وفهماً أنهم سوف يساعدونه في الاستيلاء على مملكة القدس، وانتزاعها من المسلمين، وعندما أعاد الرسل إلى الملك بعث معهم، بوساطة رسله، كنيسة صنعت بناء على أوامره من قماش قرمزي، ولكي يجذب التتار إلى عقيدتنا أمر بصنع مجموعة من التماثيل حتى توضع في هذه الكنيسة ممثلة لكل نقطة من ديننا أي: بشارة الملاك، والولادة، واحتفال تعميد الرب، ومراحل الآلام، وقدوم الروح القدس، وأرسل مع الكنيسة أيضاً كؤوساً، وكتباً، وكل ما هو ضروري للاحتفال بالقداس،مع اثنين من الرهبان المبشرين ليقوما بتراتيل القداس أمام التتار.

ووصل رسل الملك إلى ميناء أنطاكية، واحتاجوا من هناك مدة سفر

سنة كاملة، وكانوا يقطعون كل يوم مسافة عشرة فراسخ، وكان هدفهم الوصول إلى ملك التتار العظيم، وقد وجدوا كل البلاد التي مروا خلالها خاضعة لهذا الملك، ورأوا كثيراً من المدن هدمها التتار، وأكواماً من عظام الرجال الموتى.

وقد سألوا كيف استطاع التتار الحصول على مثل هذه السلطة، وقتلوا ودمروا أعداداً كبيرة من البشر، وقد أخبر الرسل الملك بأن التتار تمكنوا من بلوغ ذلك وفق مايلي:

لقد جاء التتار بالأصل من سهل رملي واسع، لاينبت فيه شيء نافع، وكان يوجد في النهاية القصوى لهذا السهل صخوراً ضخمة ومخيفة، وكان ذلك على طرف العالم باتجاه الشرق، وقد أكد التتار أن ما من إنسان تمكن قط من اجتيازهم، وقد قيل إنه في داخل هذه الصخور محبوس عرق العمالقة من يأجوج ومأجوج، الذين سوف يظهرون قبيل قيام القيامة، عندما يأتي المسيح الدجال لتدمير كل شيء.

ولقد عاش شعب التتار على هذا السهل، وكانوا خاضعين لبرسترجون ولشاه فارس(خوارزم شاه) الذي تاخمت بلاده بلاده، وكذلك بلاد عدد من الملوك الكفار، وقد دفعوا (التتار) إلى هؤلاء الجزية، وأدوا لهم خدمات كل سنة مقابل السماح لمواشيهم بالرعي، ولم يكن لديهم وسيلة أخرى للعيش، وازدرى برسترجون، وشاه فارس والملوك الآخرون التتار، حتى أنهم عندما كانوا يجلبون إليهم إيجاراتهم، لم يستقبلوهم قط وجهاً لوجه، بل أداروا ظهورهم لهم.

وكان بين التتار رجل عاقل، ارتحل في جميع أرجاء السهل، وتحدث إلى الرجال الحكماء الذين عاشوا هناك في عدد من المناطق المختلفة، وقد بين لهم حالة العبودية التي كانوا يعانون منها، وحثهم على إيجاد السبل التي يمكنهم بها تحرير أنفسهم من القيود.

ونشط بشكل مؤثر حتى تمكن من حشد التتار كلهم في النهاية القصوى للسهل، وذلك قرب بلاد برسترجون، وشرح القضايا لهم، وطلبوا منه أن يبين لهم ما الذي يريده، وهم سوف يتولون التنفيذ، وأخبرهم الرجل الحكيم أنهم لن ينالوا النجاح ما لم يكن لهم ملك يتولى حكمهم، ثم أوضح لهم كيف يمكنهم العمل على اختيار ملك، وقد وافقوا على الأخذ بنصيحته.

وكانت الطريقة التي تبنوها هي التالية: لقد توجب على كل قبيلة من القبائل الاثنتين والخمسين قبيلة التي تكونت منها أمتهم، جلب سهم كتب عليه اسم القبيلة، ووافق الشعب جميعاً على وضع هذه الأسهم أمام طفل عمره خمس سنوات، والسهم الذي كان الطفل سيلتقطه أولاً، سيعني تعيين القبيلة التي يتوجب اختيار الملك منها، وبعدما التقط الطفل أحد السهام، أمر الرجال الحكماء بقية القبائل بالانسحاب إلى الخلف، وجرى الاتفاق على أن تقوم القبيلة التي سيتم اختيار الملك منها، بانتخاب اثنين وخمسين رجلاً من أفضل رجال القبيلة وأكثرهم حكمة، وبعدما جرى انتخاب هؤلاء الرجال ، أحضر كل واحد منهم سهماً نقش عليه اسمه، ثم تمّ الاتفاق على أن سهم الرجل الذي سوف يلتقطه الطفل ، سوف يتخذ ملكاً.

والتقط الطفل واحداً من الأسهم، وكان السهم هو الذي امتلكه الرجل العاقل الذي تولى إرشاد التتار، وفرح الشعب كله، وأطلق كل واحد منهم لنفسه العنان في التعبير عن بهجته، وطلب الرجل الحكيم منهم جميعاً التزام الصمت، وهنا خاطبهم قائلاً:«أيها السادة، إذا ما رغبتم في أن أكون ملككم، أقسموا لي بالذي صنع الأرض والسماء أنكم ستنفذون دوماً ما آمركم به» وأقسم الناس جميعاً أن يفعلوا كذلك.

وكانت شرائع الرجل العاقل التي أصدرها لهم تستهدف الحفاظ على

السلام بين شعبه، وقد ذهبت إلى: أنه لا يجوز لأحد الاستيلاء على حوائج إنسان آخر، وأن لا يضرب إنساناً آخر أو ابنته، وإذا فعل ذلك تعرض لقطع يده، كما لا يجوز لإنسان معاشرة زوجة إنسان آخر أو ابنته، وإذا فعل ذلك يفقد يده، أو يفقد حتى حياته، كما أصدر شرائع أخرى جيدة، من أجل الحفاظ على السلام بين رعاياه.

وبعدما أرسى قواعد الشريعة والنظام بين التتار قال الملك لهم:«أيها السادة، إن أعظم أعدائنا هو برسترجون، لذلك إنني آمركم جميعاً أن تستعدوا للاقلاع بحملة عسكرية عليه غداً، وإذا حدث وهزمنا — لاسمح الرب بذلك — ليناضل كل إنسان عن نفسه بقدر ما يستطيع، وإذا حدث من جانب آخر وهزمناه، آمر بأن يستمر القتل برجاله لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولا يجوز لأي إنسان خلال تلك الأيام أن يبادر نحو الاستيلاء على أي أسلاب أو وضع يده عليها، بل المتوجب إنشغال كل إنسان بقتل أعدائه، وبعدما نضمن انتصارنا، سوف أوزع الغنائم فيما بينكم بعدل وبإخلاص بحيث يبقى كل واحد فيكم راضياً»، ولاقى هذا الاقتراح قبولاً عاماً.

وهاجم التتار في اليوم التالي أعداءهم، وقضى الرب لهم بهزيمتهم، وأعملوا السيف بكل الذين وجدوهم حاملين للسلاح وقادرين على الدفاع عن أنفسهم وقتلوهم، غير أنهم وفروا حياة الذين وجدوهم يعيشون في البيوت الدينية، والكهنة والرهبان سواء، ووضع الناس الذين هم من بلاد برسترجون، ولم يشاركوا بالحرب، أنفسهم تحت حكم التتار، وصاروا رعايا لهم.

واختفى أمير من القبائل التي قدمت ذكرها لمدة ثلاثة أشهر، وما من أحد سمع أية أخبار عنه، ولدى رجعته لم يشعر لا بالجوع ولا بالعطش، واعتقد أنه مكث بعيداً لمدة لا تزيد عن ليلة واحدة إلى أبعد الحدود، وكانت الأخبار التي جلبها معه أنه مضى إلى قمة رابية عالية جداً،

حيث وصل إلى عـدد كبير جداً من الناس، وكانوا مـن أجمل المخلوقات التي رآها قط، وقد ارتدوا ثياباً ثمينة، وتزينوا بأبهى زينة، ورأى الطرف الأقصى من الرابية ملكاً، وكان رجلاً وسيماً جداً، وأبهى من البقية، وقد ارتدى ثياباً أثمن وأعلى زينة، وجلس هذا الملك فـوق عرش من ذهب، وجلس على يمينه ستة ملوك آخرين، وكلهم ارتدوا تيجاناً تتلألأ بشعاع الأحجار الكريمـة، وجلس عن يساره العـدد نفسه من الملوك، وركعت على مقــربة منه، وقليــلاً باتجاه اليمين، ملكة عــزمت على التــوسل له ليعطف على شعبها، وركع على يساره رجـل متفوق الجمال، له جناحان يتألقان مثل الشمس، ووقف حول الملك جمع من الناس الجميلي الطلعة وكانوا كلهم مجنحين.

واستـدعى الملك الأمير إليه وقـال:«لقـد قدمت من جيش التتـار»؟، فأجـــابه الأمير:«هـذا صحيح، ياصـــاحب الجلالـة»، ثم قـــال الملك له:«عليك أن تذهب إلى ملكـك وأن تخبره كيف رأيتني، أنا الذي مـولى السمـوات والأرض، وعليك أن تخبره أن عليه تقـديم الشكر لي، لأنني منحته النصر على برسترجون وعلى شعبـه، وقل له على لساني، بأنني قد أعطيتـه القدرة على أن يجعل الأرض خـاضعـة له»، وسأل الأمير:«لكن ياصاحب الجلالة، كيف يمكنني أن أجعله يصدقني»؟

فأجـابـه:«سـوف تجعله يصـدقـك بهذه العـلامـات: إنك ستـذهب وستقاتل شاه فارس بوسـاطة ثلاثمائة رجل، بدون زيادة، وبذلك سوف يؤمن ملكك العظيم بـأنني أمتلك القـدرة على فعل كل شيء، فلسـوف أمنحك النصر على هذا الملك، الذي سـوف يزحف ضدك مع أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل، لكن عليك قبل أن تذهب إلى حرب الشاه أن تطلب من ملكك أن يمنحك السلطة على جميع الكهنة والرهبـان الذين أسرهم في المعركـة الأخيرة، ويتوجب عليك وعلى شعبك الإصغـاء إليهم، وأن تتمسكوا بشدة وأن تؤمنوا بما سيعلموكـم إياه»، فقال الأمير:«ياصاحب

الجلالة، لايمكنني أن أجد طريق العودة ما لم تعطيني دليلاً».

والتفت الملك نحو حشد كبير من الفرسان، وكانوا جميعاً مسلحين ومجهزين بشكل رائع، واستدعى واحداً منهم بقوله:«تعال إلى هنا يا جورج»، وتقدم الفارس وركع أمامه، ثم قال الملك له:«انهض، وقد هذا الرجل سليماً ومعافى إلى خيمته»، فنفذ هذا الفارس الأمر في صباح يوم عند انبلاج الفجر.

وما أن رأى شعب الأمير أميرهم حتى شعروا هم وبقية الجيش بالسرور وأظهروا بهجة عظيمة لايمكن وصفها بالكلام، وطلب من الملك العظيم أن يعطيه الكهنة، واستجاب الملك لطلبه، وتأثر هو وشعبه كثيراً بتعاليم الكهنة، حتى أنهم تعمدوا جميعاً، واختار الأمير بعد هذا ثلاثمائة رجل مسلح، وأمرهم بأن يقوموا بالاعتراف، وأن يستعدوا للقتال، ثم مضى وحارب ضد شاه فارس، ولقد هزموه، وطردوه من مملكته، ولهذا هرب، وتابع فراره حتى لجأ إلى القدس(فهذا الشاه نفسه كان الرجل الذي هزم شعبنا، وأسر الكونت غوتيير دي بريين، وذلك حسبما سأخبركم فيما بعد).

وكان تعداد الشعب الذي خضع لحكم هذا الأمير المسيحي كثيراً جداً، فقد أخبرنا الرسل بوجود ثمانمائة بيعة موضوعة فوق عربات في معسكره.

وكانت طريقة التتار بالعيش أنهم لم يأكلوا خبزاً قط، بل كانوا يتقوتون على اللحم والحليب فقط، وكانت أفضل أنواع اللحوم لديهم هي لحوم الخيل التي كانوا ينقعونها بالملح، ثم يدعوها بعد ذلك تجف إلى درجة يمكنهم بها تقطيعها مثلما يقطع الإنسان الخبز الأسود، وكان شرابهم المفضل، وهو بالوقت نفسه الشراب الأقوى، هو حليب إناث الخيل، وجاء في إحدى المناسبات فرس محمل بحمل من الطحين من

مسافة رحلة ثلاثة أشهر، وقد قدم هدية إلى ملك التتار العظيم، وقد أعطى بدوره هذه البضاعة إلى رسل الملك.

وبالإضافة إلى المسيحيين الذين أتيت على ذكرهم، هناك أيضاً أناس يتبعون ديانة أخرى، فهناك بين التتار عدد كبير من الناس المرتبطين بالكنيسة الإغريقية، وكان كلما رغب التتار في شن الحرب ضد المسلمين، كانوا يبعثون بهؤلاء المسيحيين للقتال ضدهم، وكانوا من جانب آخر يستخدمون المسلمين في أي حرب ضد المسيحيين، وكان من عادتهم اصطحاب النساء اللائي بلا أولاد من جميع الطبقات مع الجيش في أثناء الحملات،وكانوا يدفعون لهن الأجر نفسه الذي يدفعونه إلى الرجال، وذلك حسب قواهن وشجاعتهن.

وأخبرنا رسل الملك أن النساء والرجال من الجند كانوا يتناولون وجبات أطعمتهم معاً في محلات قادتهم الذين عملوا تحت خدمتهم، ولم يتجرأ الرجال — طاعة منهم للشريعة التي أصدرها ملكهم الأول — على المغامرة بإقامة اتصالات مع النساء.

وأكل الناس لحوم كل أنواع البهائم التي كانت تموت في معسكرهم، وكانت النسوة اللائي لديهن أطفال يقمن برعاية الأولاد وحفظهم من الأذى، وتجهيز الطعام للرجال الذين يذهبون إلى القتال، وكان الجند يضعون اللحوم غير المطبوخة بين سروج خيولهم وأطراف معاطفهم، وعندما يكون الدم قد خرج تماماً من اللحم يأكلون هذا اللحم كما هو نيئاً، والذي لا يمكنهم أكله في تلك الساعة، كانوا يرمونه في حقائب من الجلد، وعندما كانوا يشعرون بالجوع كانوا يفتحون حقائبهم، ويأكلون القطع الأقدم دوماً، وأنا رأيت شخصياً واحداً من الخوارزمية، وكان من رجال شاه فارس، كان يتولى حراستنا في أثناء أسرنا، رأيته يفتح حقيبته، وعندما كان يفعل ذلك كنا نمسك أنوفنا بأيدينا لنسدها، لأننا كنا غير قادرين على شم رائحة النتن التي صدرت عنها.

ودعوني أعود الآن إلى سياق الرواية التي أنا بصددها، كيف أن ملك التتار العظيم، قام بعدما استقبل سفراء ملكنا، وتلقى هداياه، فجمع عدداً من الحكام الذين لم يكونوا قد دخلوا في طاعته، وذلك بعدما أعطاهم الأمان، وعندما قدموا أمر بنصب البيعة الجديدة ليراها الجميع، وخاطبهم بمايلي:«أيها السادة، لقد بعث ملك فرنسا يلتمس عطفنا، ووضع نفسه تحت طاعتنا، ويمكنكم أن تروا هنا الجزية التي أرسلها لنا، وإذا لم تخضعوا بأنفسكم لنا سوف أرسل إليه ليقوم بتدميركم»، وهنا قام عدد كبير منهم لخوفهم من ملك فرنسا بالخضوع إلى ملك التتار.

وعندما عاد سفراء الملك، جاء بصحبتهم سفراء أخر من عند ملك التتار، وقد جلبوا معهم رسالة إلى ملكنا جاء فيها:«السلام أفضل شيء، لأن أرضاً تعيش بسلام يمكن لمن يدب فيها على الأربعة المضي إلى الحقول للرعي، دون أن يزعجهم أحد، ويمكن في الوقت نفسه للذين يسيرون على اثنتين أن يتولوا فلاحة الأرض — التي تخرج منها جميع الأشياء الجيدة — بأمان كامل، ونحن إذ نخبركم بهذا، نفعل ذلك عن طريق التحذير والإنذار، لأنك لن تعرف السلم ما لم تكن بسلام معنا، فقد ثار برستر جون ضدنا ، وكذلك فعل كذا وكذا من الملوك — وقام هنا بذكر أسماء عدد كبير — وقد جعلناهم جميعاً طعمة للسيف، ولهذا ننصحك بأن تبعث إلينا بكمية كافية من أموالك سنوياً، لتدفع إلينا حتى نبقى أصدقاء لك، وإذا ما رفضت فعل هذا سوف ندمرك، مثلما دمرنا الملوك الذين أتينا على ذكر أسمائهم»، ويمكن أن أؤكد لكم بأن ملكنا قد أسف بمرارة لأنه قام بإرسال رسله إلى ملك التتار العظيم.

الفصل الرابع عشر
إقامة في قيسارية
آذار ١٢٥١ — أيار ١٢٥٢

ولسوف ألتقط الآن المسار الأساسي لروايتي ثانية، ومن ثم أخبركم، أنه عندما كان الملك يقوم بتحصين قيسارية، جاء رجل اسمه ألينارد Alenard، وكان نبيلاً من سننغان Senaingan إلى معسكرنا، وأخبرنا بأنه بنى سفينته في مملكة النروج القائمة في نهاية الدنيا، باتجاه الغرب، وقام في أثناء رحلته من أجل رؤية الملك بالإبحار حول ساحل إسبانيا، ومرّ من خلال مضائق المغرب، وواجه مخاوف عظيمة قبل ان يصل إلى قيسارية، وقد احتفظ به الملك وأدخله في خدمته وذلك مع تسعة من فرسانه، وأخبرنا ألينارد، بأن الليل في بلاد النروج قصير جداً في الصيف إلى حد أنك ترى كل مساء ضوء النهار الراحل يتداخل مع فجر النهار المقبل.

وانطلق هو ورجاله لاصطياد الأسود، وقد أمسكوا عدداً منها بعد ما خاطروا بأنفسهم مخاطرة عظيمة، لأنهم عندما كانوا يتقدمون لرمي هذه الحيوانات، كانوا يهمزون خيولهم لتعدو بأقصى سرعة ممكنة، وما أن يفقدوا نشابهم حتى كانت الأسود تثب عليهم، وتمسك بأحدهم وتفترسه لولا أن يلقي من يده قطعة من القماش البالي، بحيث يقفز الأسد عليها ويمزقها ويلتهمها، ظاناً أنه قد أمسك بانسان، وفيما الأسد يتولى تمزيق قطعة القماش، يقوم صياد آخر بالتقدم نحوه والرماية عليه، وهنا يقوم الأسد بترك عملية تمزيق قطعة القماش، ويمضي ضد عدوه الجديد، ويبادر هذا بدوره إلى إلقاء قطعة أخرى من القماش، فيقوم الأسد بالقفز عليها بدون تأخير، ويتمكنون بهذه الطريقة من قتل

الحيوان بأسهمهم.

وبينما كان الملك لويس مايزال مشغولاً في قيسارية، قدم فيليب دي توسي Toucy للالتحاق به، ودعاه الملك بابن العم، لأنه انحدر من أخت للملك فيليب ملك فرنسا، كانت قد تزوجت من امبراطور القسطنطينية، وقد استبقاه الملك في خدمته لمدة سنة مع تسعة من فرسانه، فقد غادر بعد ذلك وعاد إلى القسطنطينية، التي كان قد جاء منها.

وقد أخبر الملك بأن امبراطور القسطنطينية والنبلاء في تلك المدينة قد تحالفوا مع شعب يعرف باسم الكومان، وذلك لكي ينالوا دعم هذا الشعب ضد فاتاسيز Vataces، امبراطور الاغريق.

ولكي يتوثقوا من أن كل فئة سوف تساعد الفئة الأخرى باخلاص، خضع امبراطور القسطنطينية والنبلاء الذين كانوا برفقته إلى عملية استخراج بعض الدم من كل منهم، ووضعوا دماءهم في طشت كبير من الفضة، وفعل ملك الكومان والنبلاء الذين كانوا معه، بدورهم الشيء نفسه، ومزجوا دماءهم مع دماء شعبنا، وبعد إضافة الماء والنبيذ إلى ذلك المزيج، شرب رجال الفئتان من الطشت، وبناء عليه أعلنوا عن أنفسهم أخوة بالدم، ثم جعلوا كلباً يعدو بين شعبنا وبين الكومان، وانهال الطرفان عليه ضرباً فقطعوه إلى مزق بسيوفهم، وتعهدوا بالوقت نفسه أن الذي سيتخلى عن الطرف الآخر في هذا التحالف، سيمزق إلى مزق بالطريقة نفسها.

وحدثنا فيليب دي توسي أيضاً عن أعجب مشهد رآه عندما كان في معسكر الكومان، فقد توفي فارس من مرتبة عالية جداً بينهم، فأمروا بحفر قبر عميق جداً وواسع في باطن الأرض، ووضعوا في هذا القبر الفارس، وقد ألبسوه ثياباً فاخرة جداً، وأقعدوه على كرسي، ثم أنزلوا

إلى القبر أفضل فرس كـان لديه، وكذلك أحسن سيرجنـدي بين رجاله، وهما أحياء، وكانوا، على كل حال، قبل أن يضعوا السيرجندي في القبر، قـد قام هذا باستئـذان ملك الكومان مع السـادة الآخـرين، وفي الوقت الذي كـان يودعهم، قـام كل واحـد من هؤلاء السـادة بوضع كميـات كبيرة من الذهب والفضـة في ملحفته قـائلاً له: «عندمـا سآتي إلى العـالم الآخر، سـوف ترد لي ما أودعتك إياه الآن»، ويجيبـه السيرجندي: «هذا ماسأفعله بكل سرور».

ثم قـام ملك الكومان الكبير باعطاء السيرجندي رسـالة موجهـة إلى أول ملوكهم، أخبره فيها بأن هذا الرجل الصالح قـد عاش حياة جيدة، وخـدم سيده خـدمة حسنة، وبـذلك استحق عن جدارة المكافأة، وبعـد هذا جـــرى إنزال هذا السيرجنـدي إلى القبر ليكون مع مـــولاه، ومع الفرس الحي، وإثر هذا قـاموا بسدّ فتحـة القبر بإلقاء ألواح من الخشب متـلاصقة فـوقه، وسعى في الوقت نفسـه جميع رجال الجيش للحصـول على الصخـور والأتربة، وقبل ذهابهم إلى النوم في تلك الليلة. كانوا قـد رفعوا فوق القبر رابية كبيرة، لتكون ذكرى لمن دفنوهم كما وصفنا.

وذهبت في أحـد الأيام، عندمـا كان الملك في قيسـارية، إلى رؤيتـه في محلاته، فـوجـدته يتحـدث إلى النـائب البـابوي، ومـا أن رآني أدخل إلى حجـرته حتى قام وأوقفني جـانبـاً ليتحدث إليّ حيث قـال: «إنك تعلم أنني احتفظت بك في خدمتي حتى عيـد الفصح، وبناء عليه أخبرني من فضلك مـا الذي يمكنني دفعه إليك لإبقـائك معي مدة سنة بعـد ذلك التـاريخ»، فأخبرته أنني لاأريد منه أن يعطيني المزيد من مـاله، أكثـر مما دفعه، غير أنني أود أن أبرم معه صفقة أخرى.

فقلت له بعـــد هذا: «بما أنك تغضب عندمـا يوجـــه إليك طلب أي شيء، أريد أن أعقـد إتفـاقـاً معك، أنني إذا مـا تقـدمت لك بأي طلب خلال ذلك العام، لن تظهر أي غضب، وفي الوقت نفسه إذا ما رفضت

طلبي، إنني من جانبي لن أغضب أيضاً».

ولدى سماع الملك لهذا الكلام انفجر ضاحكاً، وقال إنه سيحتفظ بي بخدمته وفقاً لهذه الشروط، ثم أخذني من يدي، واقتادني نحو النائب البابوي، ونحو مستشاريه، وحدثهم عن الصفقة التي أبرمناها، وكانوا مسروين لسماع ذلك، لأنني كنت أعلى الرجال مرتبة في الجيش، وأكثرهم نفوذاً فيه.

ولسوف أخبركم الآن كيف خططت لحياتي ونظمتها أثناء السنوات الأربع التي بقيت فيها في بلاد ماوراء البحر، بعد عودة أخوي الملك إلى فرنسا: فلقد كان لدي قسيسين توليا القراءة لي طوال ساعاتي، فأحدهما كان يقوم بتلاوة القداس لي منذ بزوغ الفجر، وكان الآخر ينتظر حتى يستيقظ فرساني المرتبطين بفرقتي، وكنت بعدما أفرغ من سماع القداس أذهب إلى رؤية الملك، فإذا ما رغب بالخروج راكباً، كنت أرافقه، وحدث في بعض الأحيان وصول رسل لرؤيته، وعلى هذا كانت لدينا أعمال كثيرة لانجازها في أثناء الصباح.

وكان فراشي موضوعاً في سرادقي بطريقة يستحيل فيها على أحد الدخول إليه دون أن يراني أنا متمدد هناك، وقد فعلت ذلك لأحول دون أي انسان بظن السوء بي فيما يتعلق بالنساء، وقمت كل سنة في يوم عيد القديس ريميوس Remigius (١— تشرين أول) بشراء خنازير لملء حظائري، ومواشي أيضاً من أجل حظائري، وكذلك ما يكفي من الطحين والنبيذ لإبقاء محلاتي ممونة طوال الشتاء، وقد فعلت هذا بحكم أن المواصلات تصبح في الشتاء غير مؤكدة وليست مثلها في الصيف، وبذلك تكون المؤن أغلى سعراً وأقل وجوداً.

واعتدت على شراء مائة برميل من النبيذ، وكنا نشرب الأفضل أولاً، وكنت أمزج الخمرة بالماء وأقدمها لخدمي، وأعطي الشيء نفسه إلى

أتباعي، لكن بنسبة أقل من الماء، وكـان يوضع على مائدتي دناً كبيراً من الخمرة وقـارورة ماء، وذلك أمـام كل واحد من الفـرسان حتى يتمكن من مزج شرابه حسبما يرغب.

وأعطاني الملك خمسين فارسـاً للخدمة في فرقتي، وكـان يصاحبني في كل وجبـة طعام عشرة من هؤلاء يجلسـون إلى سماطي وذلك بالاضافـة إلى فرسـاني العشرة، وكانوا يـأكلون تبعاً لعـادات تلك البلاد بمـواجهة بعضهم بعضـاً، بحيث كـانوا يجلسـون على حصر على الأرض، وفي كل مـرة كانت تصـدر فيها الدعـوة إلى السـلاح، كنت أجيب الدعوة فيهـا بارسـال أربعــة وخمسين من فـرسـاني، وكـان هؤلاء يعـرفــون بقـادة العشراوات، لأن كل واحد منهم كان يتولى إمرة عشرة رجال، وكنا كلما خرجنا مسلحين، كنت أقدم وجبة طعام في محلاتي لهؤلاء الفرسان لدى عــودتهم، واعتـدت خــلال جميع الأعيــاد السنوية على دعـوة القــادة الرئيسيين في الجيش لتناول الطعـام معـي، حتى أن الملك كـان في بعض الأحيان يستعير بعضاً من ضيوفي.

ولسـوف أحدثكـم الآن عما شهدته في ميـدان العـدالة وإدارتها وعن اصدار الأحكام في قيسارية، في الوقـت الذي كان الملك مقيماً فيه هناك، وسأذكـر أولاً وقبل كل شيء قضيـة فـارس ألقي القبض عليـه وهو في بيت للعاهرات، وكان أمامه تبعاً لعـادات البلاد واحداً من خيارين: إما أن يقاد في أرجاء المعسكر من قبل العاهرة وهولابس لقميص، ومربوط بشكل مذل بحبل؛ أو أن يسلم فـرسه وسـلاحه حتى يطرد من الجيش، وأعطى الفارس فـرسه وسلاحـه إلى الملك وغادر المعسكر، وذهبت إلى صـاحب الجلالة وسألتـه أن يعطينـي الفـرس ليستخـدمـه تابع فقير في الجيش، فأجــابني بأن هذا ليس طلبــاً منطقيـاً، بما أن الفـرس مــايزال يسـاوي مبلغ ثمانين ليرة ذهبية، فقلت لـه: «الآن خرقت الاتفـاق الذي عقــدته معي، لأنك أبـديت غضبك نحــوي لتقـديمـي هذا الطلب»،

فأجابني وهو يضحك من قلبه: « قل ماتريده، أنا لست غاضباً منك»، ومهما يكن الحال، لم أستطع الحصول على الفرس لإعطائه للتابع الفقير.

وكانت القضية الثانية هي التالية: بينما كان فرسان من فرقتي يقومون بصيد حيوان وحشي اسمه الغزال، انقض بعض الاسبتارية عليهم، ودافعوهم وأبعدوهم، ولهذا شكوت إلى مقدم الاسبتارية، فأجاب بأنه سوف ينصفني، وفقاً لعادات الأرض المقدسة، باصداره الأوامر إلى الاسبتارية الذي اقترفوا هذا الاعتداء، بالأكل وهم جالسين فوق أرديتهم حتى يأتي الوقت الذي يقوم فيه المعتدى عليهم بالطلب بأن يقوموا.

وتصرف المقدم معهم حسبما وعد، وعندما رأينا أنهم أمضوا مدة وهم يأكلون جلوساً على أرديتهم، ذهبت إلى المقدم، فوجدته يتناول الطعام، فرجوته أن يخبر هؤلاء الرجال بالقيام، وعمل الفرسان الذين تعرضوا للعدوان الطلب نفسه، فأجاب المقدم بأنه لن يفعل شيئاً من هذا القبيل، ذلك أنه لن يسمح لأعضاء من طائفته بإساءة السلوك نحو الذين قدموا حجاجاً إلى الأرض المقدسة.

وعندما سمعت هذا جلست على الأرض مع الاسبتارية، وبدأت آكل معهم، وأخبرت المقدم أنني لن أنهض حتى ينهضون، فأخبرني بأنني أرغمه على مالايجب، واستجاب لطلبي، ثم إنه دعاني والفرسان الذين كانوا معي لتناول الطعام على مائدته، في حين ذهب الاسبتارية للالتحاق برفاقهم على مائدة أخرى.

وكان الحكم الثالث الذي رأيت تنفيذه في قيسارية هو هذا: قام واحد من سيرجندية الملك، واسمه لى غولو Goulu بدفع واحد من فرسان فرقتي بيده، فذهبت إلى الملك واشتكيت إليه، فأخبرني أن من المستحسن اهمال المسألة، طالما أن الذي فعله السيرجندي هو مجرد دفع

فـــارسي، فـأخبرت الملك بأنني لن أسحب شكـواي، وإذا لم ينصفني سوف أترك خدمته، مادام سيرجنديته مسموح لهم بدفع فرساني.

وبناء عليـه قام الملك بانصـافي وفقاً لعـادات البلاد، وذلك بالطريقـة التالية: جاء السيرجندي إلى معسكري وهو حافي القدمين يرتدي قميصه وسراويله فقط، وسيفـه مجرد بيـده، وركع أمـام الفـارس الذي اعتـدى عليـه، وأمسك سيفه من ذبابه وقـدمه إلى الفـارس ليأخذه من مقبضـه، وقال: «قـدمت ياسيدي لانصافـك، لأنني دفعتك بيدي، وجلبت إليك هذا السيف حتى تكون قـادراً على قطع يـدي هذه من الرسغ، إذا كـان يرضيك أن تفعل ذلك »، وسألت الفـارس أن يغفر له ذنبـه، وقد وافق على ذلك.

وكانت العقوبة الرابعة التي نفـذت كما يلي: قام مقدم الداوية بإرسال الراهب هوغـودي جـوي Jouy، الذي كـان مـارشـــــال الداوية إلى سلطان دمشق للتباحث حـول اتفاقيـة تتعلق بقطعة كبيرة من الأرض، كانـت بيد الداوية، لكن سلطان دمشق رغب باقتسـامها، بأن يأخـذ هو نصفهـا، ويأخـذ الداوية النصف الآخـر، وأبرمت الاتفـاقيـة وفقـاً لهذه القـاعدة، وبات تنفيـذها متعلقاً بمـوافقة الملك، وجلب الراهب هوغـو معه أميراً أرسله سلطان دمشق، مع وثيقة للتصـديق على أن الاتفاق قد نفذ كما ينبغي.

وعلى كل حال، عندما أخبر مقدم الداوية الملك بماتم صنعه، اندهش جلالته كثيراً، وقال له، بأنه قـد تجاوزه وتخطاه بالتباحـث حول مثل هذه الاتفـاقيــة دون التشـاور معـه أولاً، وأخبره الملك أنه لابـد من القيـام باصـلاح مـــا، وكـانت الاجـراءات التي تمت كما يلي: أمــر الملك برفع أجنحـة ثـلاثة من سرادقـاتـه، وسمح لجميع المراتب الدنيــا من الجيش بالقـدوم لرؤية الذي كـان يحدث، وسار مقـدم الداوية وفـرسانه جميعـاً حفـاة الأقـدام مبـاشرة في قلب المعسكر، لأن محلاتهم كـانت خـارجـه،

وجعل الملك مقدم الداوية، ورسول السلطان يجلسان أمامه، ثم توجه بالخطاب بصوت مرتفع إلى المقدم وقال: «أيها المقدم عليك أن تبلغ رسول السلطان باعتذارك وانسحابك من أي معاهدة أبرمتها مع سيده من دون الرجوع إليّ أولاً، وعليك أن تضيف أنه بما أنك لم تستشرني، فإنك تعد السلطان في حل من الاتفاق الذي عقده معك، وأن تسلمه جميع الوثائق ذات العلاقة وتعيدها إليه»، وبناء عليه تناول مقدم الداوية الوثيقة المكتوبة، وناولها إلى الأمير وهو يقول: « أعيد إليك الاتفاق الذي عقدته معك خطأ، وإنني أعبر عن أسفي لقيامي بذلك».

ثم طلب الملك من المقدم ومن الداوية الآخرين النهوض، وقد نفذوا ذلك، ثم قال جلالته للمقدم: «اركع الآن أمامي وكفر عن ذنبك بالاتصال هكذا بالسلطان ضد إرادتي»، فركع المقدم. وقدم طرف عباءته إلى الملك، مسلماً بذلك كل شيء تمتلكه طائفته، حتى يمكن لجلالته أن يأخذ منه كل تعويض يقرره، وقال الملك: « إنني أعلن أولاً بوجوب نفي الراهب هوغو من مملكة القدس كلها، فهو الذي أبرم هذه الاتفاقية»، ولم يستطع مقدم الداوية (الذي كان مع الملك اشبين كونت دي ألنكون Alencon ، المولود في قلعة الحجاج) ولا حتى الملكة، ولأي انسان آخر أن يفعل شيئاً لصالح الراهب هوغو، أو انقاذه من مغادرة الأرض المقدسة ومملكة القدس.

الفصل الخامس عشر
حملة إلى يافا
أيار ١٢٥٢ — حزيران ١٢٥٣

في الوقت الذي كـان الملك فيه يقـوم بتحصين مـدينة قيسارية، عـاد رسله من مصر، جـالبين معهم معاهدة قـد كتبت وفقاً لشروط جـلالته التي جـرى وصفهـا من قبل، وقضت بين الملـك وبين الأمـراء، أنه سيـذهب في يوم محدد إلى يافا، وفي الـوقت نفسه تعهـدوا أن يكونوا في اليوم نفسـه في غزة، وذلك وفاء للأيمان التـي حلفوها، وذلك من أجل وضع مملكة القـدس بين يديه، وأقسم الملك مع جميع الرجال القيـاديين في جيشـه على مـراعـاة شروط المعـاهدة، حسبما نقلـت إليهم من قبل الرسل، وكـان معنـى هذا أننا كنا ملزمين بمـوجب أيماننـا التي حلفناها على مساعدة الأمراء ضد سلطان دمشق.

ومـا أن علم هذا السلطان بأننـا قـد تحالفنا نحن أنفسنا مع المصريين حتى أرسل قوة حسنة التجهيز مؤلفة من أربعة آلاف مسلم إلى غزة، إلى حيث وصل الجيش مـن مصر، وقـد فعل هذا لأنـه كـان مـدركـاً تمام الادراك أن هذه القوات إذا مـا استطاعت الالتحاق بنا فـذلك قد يعني خسارتـه، ومع هذا لم يلغ الملك خططه بالزحف إلى يافا، وعندمـا سمع كـونت يافا بقـدومـه، انطلق يعمل في سبيل جعل قلعته تبـدو في وضع قادرة فيـه على الصمود في وجـه هجوم مـا، ووضع أمام كل فتحـة من فتحات الشرافـات— وكان هناك منهـا خمسمائة— ترسـاً ورنكاً، وريشة صغيرة، وكـان هذا من أجمل المناظر الـذي تود العيـون أن تراها، لأن رنوكه كانت من الذهب، أو مزينة بصليب مخطط بخطوط صغيرة.

وقـد عسكرنا في الحقـول حـول القلعة، القـائمـة على طرف البحـر،

والممتدة من الطرفين إلى الشاطىء، وبدأ الملك على الفور ببناء تحصينات جديدة حول القلعة القديمة وتمتد باتجاه اليسار وبإتجاه اليمين حتى البحر، وغالباً مارأيت جلالته يحمل زبيلاً مليئاً بالطين من أجل الخنادق، حتى ينال الغفران المرتجى.

وأخفق الأمراء المصريون بالحفاظ على إتفاقيتهم بالالتقاء بنا، ذلك أنهم لم يتجرأوا على القدوم إلى غزة بسبب أن عساكر دمشق كانت هناك، ومن جانب آخر وفوا بعهدهم المقطوع معنا فبعثوا إلينا برؤوس جميع المسيحيين التي كانت معلقة على أسوار قلعة القاهرة منذ أيام أسر كونت دي بار، وكونت دي مونتفورت، ودفن جلالته هؤلاء في أرض طاهرة، كما أرسلوا إلينا الأطفال الذين أخذوهم عندما جرى أسر الملك، وقد فعلوا هذا وهم آسفين، لأن هؤلاء الأطفال كانوا قد تخلوا عن عقيدتهم، وبالإضافة إلى هؤلاء بعثوا إلى جلالته فيلاً، تولى شحنه إلى فرنسا.

وبينما كنا معسكرين في يافا، جاء أمير من جانب سلطان دمشق، ليقوم بحصد القمح في قرية وقعت على مسافة ثلاثة فراسخ عن معسكرنا، وقد توافقنا على المضي لمحاربته، غير أنه ما أن رآنا حتى هرب، وفي أثناء فراره شرع تابع صغير من أسرة جيدة بمطاردته، وقد تمكن من إلقاء اثنين من فرسانه أرضاً دون أن يكسر رمحه، ثم سدد طعنة قوية نحو الأمير نفسه، وقد بلغت من الشدة حداً أن الرمح انكسر في جسد الأمير.

ووصل الآن رسل من الأمراء المصريين للالتماس من الملك أن يعين يوماً يمكن فيه لقادتهم القدوم لرؤيته، وقد وعدوا بالقدوم من دون اخفاق، وقرر الملك أن لايرفض طلبهم، وحدد يوماً لهم، وقد تعهدوا بالأيمان أن يكونوا في ذلك اليوم في غزة.

وعندمـا كنا ننتظر حلول يوم الاجتماع مع الأمـراء المصريين، جـاء الكونت دي إيو Eu الذي كان وقتها بمرتبة تابع، إلى المعسكر، وأحضر معـه الفارس الجيـد أرنول دي غـوين Guines، وأخـويه، وسبعـة أشخاص آخرين ، وقد بقي في خدمة الملك، وقد جرت ترقيته إلى مرتبة فارس من قبل الملك.

وفي حوالي الوقت نفسه عاد أمير أنطاكية إلى المعسكر مع الأميرة أمه، وقـدم الملك له تشريفاً كبيراً، ونصبه فـارساً وسط حفل عظيم، وكـان الأمير آنذاك في السـادسـة عشرة من عمـره، لكنني لم أر قط شـاباً بمثل هذا الذكـاء، وقد طلب من الملك أن يمثل بحضرته ويجتمع به بحضـور أمـه، وعنـدمـا أعطى الملك مـوافقتـه تحدث كما يلي وقـال: «تعلمـون ياصـاحب الجلالة بدون شـك حقيقـة أن أمي سـوف تبقى الوصي الشرعي عليّ لمدة أربعة أعوام مقبلة، وعلى كـل حال، لايحق لها ياسيدي أن تدع بلادي للإهمال وللضيـاع، وأقول هـذا لك ياسيدي لأن مـدينة أنطاكيـة قد خـربت على يديها، ولهذا أتوسل إلى جـلالتك لتطلب منهـا إعطائـي المال والرجـال حتى يمكنني الـذهاب لحماية شعبـي في تلك المدينة، ولكي أقـدم لهم العـون الذي هم بحـاجـة إليـه، وفي الحقيقـة ياسيدي هذا هـو السبيل الصحيح الذي عليها الالتزام بـه، لأنني إذا ما بقيت في طرابلس ستكون هناك حـاجة لنفقات عظيمـة، ولسوف يكون ذلك الانفاق لا لشيء وبدون جدوى.

وأصغى الملك بتعاطف إلى مطلب الشـاب، وبذل جهد طاقته لاقناع أمه لتعطي ابنهـا القدر الذي يمكن استخـراجه منها، وفـور تركه الملك ذهب الأمير إلى انطاكيـة حيث رحب بقـدومـه خير ترحيب، وقـام بموافقة من الملك فوضع رنوكه التي كانت مذهبة مع رنوك فرنسا، لأن الملك قد نصبه فارساً.

وقـدم مع الأمير مـن أرمينيـا العظمى ثلاثة مغنين، وكـانوا أخـوة،

وكـانوا ذاهبين إلى القدس للحج، وكـان معهم ثلاثة أبواق قـد صنعت بطريقـة أن الصوت كـان يصدر من نـاحية وجـوههم، وعندما شرعـوا يلعبون بهم، كـان بامكانك القول بأن الصـوت صوت بجعات خـارجة من بركة، وقد قـدموا موسيقى جميلة ولطيفة وكـانت رائعة أن تسمعها، وقـام هؤلاء الرجال الثـلاثة بحركـات قفـز بالفضاء مـدهشة، وعندمـا وضعت حصيرة تحت أقدامهم نفذوا قفزات بهلوانية من وضعهم القائم وانتهـوا وأقدامهم مـرة أخـرى فوق الحصير، وكـان بامكان اثنان منهم القيـام بقفـزات بهلوانيـة في الفضـاء نحـو الخلف، وفعل المسن بينهم الشيء نفسه أيضـاً، وعندما كان يطلب منه الدوران بالفضـاء ورأسه إلى الأمـام، كان يرسم عـلامة الصليـب على نفسه لأنه كـان خائفـاً من أن تندق عنقه وهو يدور.

والآن بما أنه عمل طيب أن لاتنسى ذكـر غوتيير كـونت دي بريين، وكـذلك كونـت يافا، سـوف أتحدث عنه هاهنا، فهـو قـد ولي أمر يافـا لسنوات عـديدة، ودافع عنهـا بشجاعـة وبأعمال نشيطة، وعـاش معظم وقته على ماكان يربحه من المسلمين ومن أعداء الدين الآخرين، وهكذا حدث مـرة أنه هزم جمعاً غفيراً من المسلمين كـانوا ينقلون كميات هائلة من الحرير ومن الثيـاب المذهبـة، واستولى على جميع بضـائعهم، ثم قـام بعـدما جلب الأسـلاب الى يافا بتـوزيع كل شيء بين فرسـانه، ولم يترك لنفسه شيئاً، وكان من عادته، أن يقوم بعد توديعه لفرسانه، بحصر نفسه في بيعته، وإمضاء وقت طويل بالصـلاة هناك قبل الذهاب ليلاً إلى النوم مع زوجته، وكـانت سيدة حكيمـة جداً وفاضلة، كما كـانت أخت ملك قبرص.

وبعدما كان شاه فارس، الذي كان اسمه بركة خان، قد هزم من قبل واحد من أمراء التتـار، حسبما أخبرتكم، زحف مع جيشه كله إلى مملكة القدس، واستولى هناك على قلعة طبرية، التي كان يودس دي مونتبليارد

قد حصنها، وكان هذا هو القسطلان، وصاحب طبرية من خلال زوجته، وأنزل شاه فارس بنا ضرراً عظيماً، لأنه عاث فساداً بالبلاد، ودمر كل شيء أمكنه أن يجده، خارج قلعة تل الصافية، وخارج عكا وصفد، وحول يافا أيضاً، وبعد ما أوقع كل هذه الأضرار انعطف باتجاه غزة لينضم بقواته إلى سلطان القاهرة، الذي كان قادماً لالحاق كل ما يمكنه من أذى بشعبنا.

وقرر بارونات البلاد، مع بطريرك القدس الخروج ومهاجمة الشاه قبل وصول سلطان القاهرة، ولكي ينالوا بعض المساندة بعثوا خلف سلطان حمص، وكان واحداً من أفضل الفرسان بين المسلمين، وقد أظهروا نحوه تشريفاً عظيماً في عكا إلى حد أنهم غطوا الشوراع التي كان سيمر بها بالسجاد، وزينوها بأقمشة مذهبة وأقمشة حريرية، ثم زحفوا جميعاً إلى يافا، وأخذوا سلطان حمص معهم.

وأصدر بطريرك القدس قراراً بحرمان الكونت غوتيير كنسياً، لأنه لم يسلم برجاً كان بيده، كان يعرف باسم برج البطريرك، وتوسل شعبنا إلى الكونت ليذهب معهم، ويحارب ضد الشاه، وأجاب بأنه سيفعل ذلك عن طيب خاطر، شريطة أن يحلله البطريرك حتى عودتهم، ورفض البطريرك فعل أي شيء من هذا القبيل، ومع ذلك أجرى الكونت غوتيير استعداداته، وذهب مع الجيش.

وكانت قواتنا مشكلة من ثلاث فرق، كانت احداهن تحت قيادة الكونت غوتيير، وكانت الثانية بقيادة سلطان حمص، في حين شكل البطريرك وشعب البلاد الفرقة الثالثة، وكان الاسبتارية في فرقة الكونت غوتيير، ومضوا جميعاً على ظهور خيولهم حتى باتوا على مرأى من الأعداء، وما أن رآهم رجال شعبنا حتى توقفوا، وقسم العدو قواته إلى ثلاث فرق أيضاً، وبينما كان الخوارزميون يعبئون رجالهم، التفت الكونت غوتيير نحو رجالنا وصرخ: «أيها السادة، من أجل الرب دعونا

نمضي ونقـاتلهم، لأننا نعطيهم وقتـاً مادمنا واقفين»، لكن مـا من أحـد أصغى إليه.

ولدى مـلاحظة الكونت لذلك، مضـى إلى البطريركِ وسأله التخليل وفق الشروط التي كـان قـد اقترحهـا، ورفض البطـريرك— على كل حـال— رفضاً قـاطعـاً منحـه التحليل، وكـان يوجد في فـرقـة الكونت غـوتيير رجـل دين شجـاع، كـان هـو أسقف الرملة، وكـان قـد حقق انجـازات كثيرة برفقـة الكونت، فقـال للكونـت: «لاتشغلن نفسك، لرفـض البطريـرك منحك التحليـل، لأنه هـو المخطىء وأنـت المصيب، وإنني شخصياً أحللك باسم الآب، والابن والروح القدس، ودعنا الآن نحمل عليهم».

وهكذا غمزوا خيولهم، وهاجموا إحدى فرق شاه فارس، وهي الفرقة التي شكلت السـاقـة، وسقـط عـدد كبير من القتلى على الطرفين، ووقع كونت غوتيير بالأسر أثناء القتال، لأن شعبنا هرب بفوضى معيبة، حتى أن عدداً كبيرا منهم أغرقوا أنفسهم بالبحـر لشدة خوفهم، وكان السبب في يأسهم ورعبهم إلى هـذا الحد أن إحـدى فـرق شـاه فـارس هاجمت العساكـر الذين قادها سلطان حمص، وقد فقـد هذا السلطان عدداً كبيراً من رجـاله في الدفاع عن مـوقفـه، حتى أن الذي بقي من الألفين الذين قـادهم في المعركـة، كان فقط مـائتين وثمانين، فهذا كـان عددهم عندمـا غادر ميدان المعركة.

واعتقـد الشـاه أنه لن يكون بـامكان سلطان حمص الصمـود طويلاً، بعـدمـا فقد هذا العـدد الكبير من رجـاله، لذلك قـرر الذهاب والقيـام بمحـاصرته في قلعتـه بحمص، وعندمـا رآه السلطان قادمـاً، خـرج إلى رجال شعبـه وأخبرهم أنه عازم على الخروج ومواجهـة العدو، ذلك أنه إذا مـا ترك نفسـه ليحـاصر، فسيخسر ويضيع، وقـامت خطة عمله على ارسـال رجـاله المسلحين بشكل فقير عبر واد خفي، وكـان عليهم لحظة

سماعهم لقرع طبول السلطان مهاجمة معسكر الشاه من الخلف، ومن ثم الشروع بقتل النساء والأطفال.

وخرج الشاه إلى السهل المفتوح لمحاربة عساكر السلطان التي رآها مصطفة أمامه، غير أنه ما أن سمع صراخ شعبه من المعسكر حتى نكص على عقبيه وعاد باتجاه المعسكر لانقاذ النساء والأطفال، فألقى رجال السلطان على الفور بأنفسهم على الشاه وعلى جيشه، وقاتلوهم بنجاح كبير، إلى حد أنه من الخمسة والعشرين ألف فارسي كانوا موجودين لم يبق رجل واحد أو امرأة، فجميعهم قد قتلوا في المعركة أو هلكوا بحد السيف.

وكان الشاه قبل أن يذهب إلى حصار حمص، قد حمل كونت غوتيير إلى أمام أسوار يافا، وقام الفرس بتعليقه من ذراعيه على عمود ذي شعب، وأخبروه أنهم لن ينزلوه حتى تكون قلعة يافا في حوزتهم، وبينما كان معلقاً على هذه الصورة صرخ بأعلى صوته إلى رجاله في القلعة بأن لايسلموا القلعة بسبب أي عذاب قد ينزله به العدو، وقال بأنهم إذا ما استسلموا فسوف يقتلهم بيديه.

وما أن علم الشاه بهذا حتى بعث بكونت غوتيير إلى القاهرة بمثابة هدية إلى السلطان في تلك المدينة، وذلك مع مقدم الداوية وعدد كبير آخر ممن أخذوا أسرى، وكان عدد الذين حملوا الكونت إلى مصر حوالي الثلاثمائة رجل ، وهؤلاء هم الذين لم يقتلوا عندما واجه الشاه منيته عند حمص، وهؤلاء أيضاً هم الثلاثمائة رجل من الخوارزمية الذين كانوا بين من هاجمنا فيما بعد في يوم الجمعة، عندما كنا مشاه، ولقد حملوا أعلاماً حمراء مشرشرة حتى أسنة رماحهم، التي ثبتوا على رؤوسها رؤوساً صنعت من الشعر، وقد بدت تشبه رؤوس الشياطين.

ورفع عدد من التجار في القاهرة شكاوى إلى السلطان حتى ينصفهم

من كونت غـوتيير، بسبب الخسائر العظيمة التي عـانوا منها على يديه، وأذن لهم السلطان بالانتقـام من الكـونت، وبناء عليـه ذهبـوا وقتلوه بالسجن، فهناك مـات في سبيـل العقيـدة، وبهذا الشأن يمكننا الاعتقـاد بشكل مؤكد أنه الآن في الجنة مع كوكبة الشهداء.

ونعود الآن إلى سياق حكايتنا، فقد حشد سلطان دمشق رجاله الذين كـانوا في غـزة ودخل إلى مصر، وخـرج الأمـراء وقـاتلوا ضـده وضـد جيـوشه، وهـزمت الفرقـة التي قـادها السلطان الأمـراء الذين اشتبكوا معها، لكن الفرقة المصرية الأخرى هزمت ساقة قوات السلطان، وذهب سلطان دمشق بعد القتال عائـداً إلى غزة، وهو مجروح في رأسه وفي يده، وقبل أن يغادر ذلك المكان بعث الأمـراء المصريون إليه برسلهم لإقـامة سـلام معه، وبذلك عجـزوا عن المحـافظة على أي من الاتفاقيـات التي عقدوها معنا، ولم يعـد منذ ذلك الوقت فصاعـداً لاهدنة ولاسلام بيننا وبين أهل دمشق، أو بيننا وبين أهل القاهرة، ويمكنني القـول، أن العدد الأقصى لقـواتنـا، التي توفـرت لدينا في هذه الآونـة، لم يتجـاوز الألف والأربعمائة.

وبينما كان الملك أمام يافا، قام مقدم رهبان القديس لعازر بالتجسس قرب الرملة— وهي بلدة تبعد مسافـة ثلاثة فراسخ— فشاهد عدداً من القطعـان وأشيـاء متنوعة أخـرى، فخيل إليـه أن بامكانه الحصـول على غنيمة ثمينة، وبما أنـه لم يكن رجلاً له مكانته في الجيـش، لهذا كان يعمل تمامـا مـا يروق له، فـانطلـق نحـو ذلك المكان دون أن يقـول كلمـة إلى الملك، وكـان بعـدما جمع أسـلابه هاجمه المسلمـون، والحقـوا به هزيمـة ساحقة، إلى حد أنه لم ينج من جميع الرجـال الذين كانوا برفقته أكثر من أربعة.

ومـا أن عـاد إلى المعسكر حتى رفع صـوته بالدعـوة إلى السـلاح، ومضيت وسلحـت نفسي ورجـوت الملك أن يسمح لي بالـذهاب إلى

ذلك المكان، وقد سمح لي بالذهاب، وأمرني أن أصطحب معي فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية، وعندما وصلنا إلى هناك، وجدنا بعض المسلمين، قد جاءوا من المناطق المجاورة ونزلوا إلى قلب الوادي حيث هزم مقدم فرسان القديس لعازر، وبينما كان هؤلاء الرجال ينظرون إلى الموتى، هاجمهم قائد رماة جروخ الملك بشكل مفاجىء، وقبل أن يصل جنودنا، كان قد هزمهم، وقتل عدداً منهم.

وحدث أن واحداً من سيرجندية الملك، وواحداً من المسلمين قد صرع أحدهما الآخر بطعنة من رمحيهما، ورأى واحد من رجال الملك هذا الحدث، فقام بقيادة فرسيهما وأراد الابتعاد بهما كي يسرقهما، ولكي لايراه أحد، أخفى نفسه وراء أسوار مدينة الرملة، وعندما كان يجر الفرسين خارج صهريج قديم، أراد العبور فوقه، فانهار تحته، فسقط هو والخيول الثلاثة، وبعدما أخبرت بأنهم سقطوا إلى القعر، ذهبت لأنظر إلى المكان، فرأيت الصهريج مابرح ينهار فوق رؤوسهم، وكانوا تقريباً قد تغطوا تماماً، وهكذا رجعت إلى المعسكر بدون خسائر، وذلك باستثناء ما خسره مقدم فرسان القديس لعازر.

وبعدما أبرم سلطان دمشق الصلح مع الأمراء المصريين، بعث هذا السلطان واستدعى إليه رجاله الذين كانوا في غزة، وعبرت هذه القوات على مسافة أدنى من فرسخين بعيداً عن معسكرنا، غير أنها لم تغامر أبداً بالهجوم علينا، مع أن عدد جنودهم بلغ ثلاثة آلاف من المسلمين وعشرة آلاف من البدو، وكان قبل أن يقتربوا منا قد قام مقدم رماة الزنبورك لدى الملك وفرقته، بالاحتراز والتيقظ ومراقبة تحركاتهم لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي ليحول بينهم وبين القيام بهجوم مفاجىء على معسكرنا.

وذهب الملك بعد عيد القديس يوحنا الانجيلي، الذي حل مباشرة بعد عيد الفصح، لسماع قداس، وبينما كان الواعظ مايزال يتكلم، دخل

سيرجندي من فرقة قائد قوات رماة الزنبورك، إلى بيعة الملك، وهو شاكي السلاح، وأخبره بأن المسلمين قد طوقوا قائدهم، وطلبت من الملك أن يأذن لي بالذهاب، وتقديم العون له، فأذن لي، وأخبرني بأن أصطحب معي أربعمائة أو خمسمائة من الرجال المسلحين، وذكرلي أسماء من رغب إليّ باصطحابهم، وما أن خرجنا زاحفين من المعسكر، حتى قام المسلمون الذين كانوا متمركزين بين قائد رماة الزنبورك والمعسكر،بمغادرة مكانهم للالتحاق بأمير كان فوق رابية أمام قائد رماة الزنبورك، ومعه ألف رجل مسلح.

ثم بدأ القتال بين المسلمين وبين سيرجندية قائد رماة الزنبورك، وكانوا جميعاً حوالي مائة وثمانين، وفي احدى اللحظات عندما رأى الأمير بأن رجاله قد ضغط عليهم بشدة، بعث إليهم بنجدة، وكان عدد أفرادها كبيراً إلى حد أنهم تمكنوا من دفع سيرجنديتنا نحو الخلف حتى موقف عساكر قائد الرماة، وما أن رأى قائد الرماة بأن رجالنا قد تعرضوا بدورهم إلى ضغط شديد، حتى بادر إلى ارسال نجدة لهم مكونة من مائة أو مائة وعشرين رجلاً مسلحاً، فتمكنوا من صد المهاجمين، وردوهم نحو فرقة الأمير.

وعندما كنا هناك، قام النائب البابوي، وبارونات بلاد ما وراء البحر، الذين كانوا قد بقيوا هناك مع الملك، بإخبار الملك بأنه أخطأ خطأ جسيماً بتعريضي لمثل هذا الخطر، وأرسل الملك، بناء على نصيحتهم، فاستدعاني مع قائد رماة الزنبورك، وعلى كل حال انسحب المسلمون في هذه الساعة، وعدنا جميعاً إلى المعسكر، وتعجب كثير من الناس، كيف أنهم لم يأتوا لمهاجمتنا، وقال بعضنا بأنهم لم يفعلوا ذلك، لأنهم كانوا يعانون مع خيولهم من الجوع في غزة، حيث أمضوا هناك حوالي السنة.

وبعدما انسحب هؤلاء المسلمون من معسكرهم خارج يافا، استقروا أمام عكا، وأرسلوا إلى صاحب أرسوف، الذي كان قسطلان

مملكة القـدس، يخبرونه بأنهم سـوف يدمرون حـدائق المدينة مـالم يرسل إليهم خمسين بيزنتة،فبعث إليهم يخبرهم بأنه سوف لن يعطيهم ولابيزنتة واحدة، ولهذا زحفـوا بقواتهم، وتمركزوا على طـول رمال عكا، وبذلك اقتربوا كثيراً من المدينة حتى باتت على مسـافة رميـة قوس عقـار منهم، وزحف صـاحب أرسـوف إلى خـارج عكـا وتمركـز على جبل القـديس يوحنا، حيث تقوم مقبرة القـديس نيقولا، وكـان مقصده حماية الحدائق، وخـرج سيرجنديتنا المشاة من المدينة أيضـاً، وشرعوا بمناوشـة المسلمين بقسيهم وبجروخهم.

واستـدعى صـاحب أرسـوف فارسـاً جنويا اسمـه جيـانون -Gian none، وأمره بالذهاب باستـدعاء العساكـر الرجالة الذين خـرجوا من عكا، حتى لايتعرضـوا للمخاطر، وبينما كان يتولى ارجـاعهم وقيادتهم، شرع واحد من الأعـداء يدعوه باللسان العربي بأنه يود المبـارزة معه إذا ما رغـب بذلك، وقال السيرجيـانون بأنه يود ذلك بكل سرور،لكن فيما هو ذاهب باتجاه المسلم، أبصر على يسـاره مجموعـة صغيرة من المسلمين تعدادهـا حوالي الثمانية، قـد وقفت لتشهـد المبارزة، ولهذا حرف طـريقه عن التوجـه نحو المسلم، وانطلق نحـو الفئة المسلمة، التي كـانت واقفة بكل هدوء لكي تشهد المبارزة، وطعن واحداً منها برمحه فجندله قتيلاً.

وعندمـا رأى رجال الفئة المسلمة ذلـك، اندفعوا نحو السيرجيـانون، وهو عـائد لـلالتحاق برجـالنا، ووجـه إليه أحـدهم ضربة شـديدة على خوذته الفولاذية بوساطة دبوس، وبينما كـان هذا المسلم يمر من أمامه، ضربة جيانون بسيفـه على عمامته التي كان يلفها حـول رأسه، فأطاح بها إلى الأرض (كان من عادة المسلمين ارتداء هذه العمائم أثناء الذهاب إلى القتـال، فبوسـاطتها كـان بإمكانهم تحمل ضربات شـديدة من السيف)، وجـاء مسلم آخـر يعدو بـه فرسـه باتجاه هذا الفـارس، وهو عـازم على طعنه برمحه بين كتفيـه، لكن جيانون رأى الـرمح قادم نحـوه، فانحـرف

جـانبا، ثم مـرّ المسلم به، فسـدد إليه ضربة خلفيـة بسيفـه نحو ذراعـة، وبذلك سقط الرمح من يده على الأرض.

وعاد إثر هـذا جيانون، وأعاد عسكـره الرجّالة إلى عكا، ولقـد سدد ضرباته الثـلاثة هذه على مشهد من صـاحب أرسوف، ولقـد رآها أيضاً أعيان السكان في عكا، مع جميع النساء اللائي تجمعن فوق أسوار المدينة لمشاهدة القتال.

وكما تعلمون لم يتجرأ الحشد الاسلامي الكبير الذي احتشد أمام عكا على الاشتباك معنا ولا القتال ضد رجـال عكا، لكن عندما سمع رجاله خبراً صادقاً، بأن الملك قد بعث بمجـرد فئة صغيرة من الرجال الجيدين للقيام بتحصين مدينة صيدا، زحفوا بذلك الاتجاه، وما أن سمع سمعان دي مـونتبليـارد— الذي كـان رئيـس رمـاة القسي العقـارة العـائـدين للملك، وقـائد قـوات جـلالته في تلك المدينة— بأن المسلمين يزحفـون ضـد صيدا، حتـى انسحب إلى حصن صيدا، الذي كـان حصيناً جـداً، ومحاطاً بالبحر من كل جوانبه، وقد فعل هذا لإدراكه تماماً بأنه لايمتلك القـدرة على مقـاومـة العـدو، وتحصن بالقلعـة مع أكبر عـدد من الناس استطاع جمعـه، لكن مع ذلك كـان هؤلاء عددهـم قليل، لأن المساحـة هناك كانت محدودة جداً.

وتدفق المسلمـون على صيـدا، ولم يلقوا مقـاومـة، لأن المدينة لم تكن محاطة تماماً بالأسوار، وقـد قتلوا مايزيد على ألفين من شعبنا، ثم غادروا المدينة وهم يحملون الأسـلاب التي حصلوا عليها من المدينة، وتوجهـوا إلى دمشق.

وعندمـا وصلت أخبـار مـا حـدث إلى الملك، غضب غضبـاً عظيماً (أواه، لو أنه استطاع فقط أن يعـوض الخسـائـر)، وعلى كل حـال، عـدّ البـارونات مـا حدث واقعـة سعيـدة جـداً، لأن الملك كان عـازمـا على

الذهاب، وتحصين قطعـة أرض مرتفعـة على الطريق بين يافا والقـدس، حيث كـانت توجد قلعـة قديمـة منذ أيام المكابيين، لكن ما حـدث غير خططه.

فقـد رأى بارونات ماوراء البحـر أنه ليس مفيـداً القيام بإعـادة بناء أسـوار هذه القلعـة القديمـة، لأنها ابتعـدت خمسة فـراسخ عن البحـر، لذلك كـان من غير الممكن ارسـال المؤن والعتـاد من الموانىء إليهـا من دون تعرضهـا لمخاطر الوقـوع في أيدي المسلمين، الذين كانـوا أقوى مما كنا، ولهذا عندمـا وصلت أخبار تهديـم صيدا إلى المعسكر، جـاء هؤلاء البارونات إلى الملك وأخبروه أنه سوف يكون مفيداً أكثر لصالح سمعته القيـام بإعـادة تحصين تلك البلدة، بدلاً مـن بناء حصن جـديد، ووافق الملك على الأخذ بنصيحتهم.

وفي الوقت الذي كان فيه الملك في يافا، بلغه أن سلطان دمشق سوف يرحب بذهابه إلى القـدس، وسيمنحه أماناً مـؤكداً، وعقـد الملك مؤتمراً عاماً، لتفحص المسألة، وبالنتيجة ما من واحد أشار عليه بالذهاب، لأنه في النهاية سوف يترك المدينة المقدسة في أيدي المسلمين.

وفي أثناء المناقشـات استشهـد مستشارو الملك بما حـدث في مناسبـة متقدمـة، عندما رأى الملك العظيم فيليب أنه يتوجب عليـه مغادرة عكا ليعود إلى فرنسـا، وقد سمح وقتها لجميع أتباعـه بالبقاء في الجيش تحت قيـادة الدوق هيـوج دي بيرغندي، الذي كـان جـد الدوق الذي توفي مؤخـراً، وبينما كان الدوق مايـزال في عكا، والملك رتشارد ملك انكلترا معه، وصلتهما أخبار، أنهما إذا ما رغبـا، فبإمكانهما الاستيلاء على القدس في اليوم التـالي، بما أن جميع قوات سلطان دمشـق، بما فيهم فرسانـه، قد غادروا للالتحاق به في مكان آخر، وذلك بسبب حرب كانت قائمة بينه وبين سلطان آخر، وبناء عليه جمع الملكـان قواتهما، وشكلت قوات ملك انكلترا الفـرقـة الأولى، بينما كـان دوق دي بيرغندي، مع رجـال ملك

فرنسا في الفرقة الثانية.

وبينما كانوا على طريقهم، مع فرصة طيبة بالاستيلاء على المدينة المقدسة، وصلت رسالة من معسكر الدوق إلى ملك انكلترا، يخبره فيها بعدم متابعة الزحف، لأن الدوق نفسه قد شرع بالتراجع، وكان ذلك لا لسبب غير أنه لم يرغب في أن يقال بأن الانكليز قد استولوا على القدس، وبينما كان الملك رتشارد وأتباعه يتحادثون حول هذا الموضوع، صرخ واحد من فرسانه قائلاً: «مولاي، مولاي، تعال إلى هنا، ولسوف أريك القدس»، ولدى سماع الملك بهذا، ألقى بسترته الحربية فوق عينيه، وبكى بحرقة، وصرخ إلى مخلصنا قائلاً: «أيها المولى العزيز، أتوجه إليك بالدعاء أن تجنبني رؤية مدينتك المقدسة، بما أنني لاأستطيع تخليصها من أيدي أعدائك».

واستشهد المستشارون بهذه الحادثة أمام الملك، لأنهم شعروا أنه— وهو الأعظم بين ملوك المسيحية— إذا ذهب ليحج إلى القدس، دون أن يتمكن من تخليصها من أعداء الرب، فعندها سوف يجلس جميع الملوك والحجاج الذين سوف يقدمون من بعده راضين قانعين دون أن يفعلوا أكثر مما فعله، ولن يبدو أدنى اهتمام من أجل تحرير تلك المدينة المقدسة.

وأصبح الملك رتشارد مشهوراً جداً بسبب أعماله الجريئة عندما كان في بلاد ماوراء البحر، إلى حد أن أي فرس عاد إلى مسلم جفل في شعراء، كان صاحبه يقول له: «هل تظنن أن ذاك ملك انكلترا»؟، وعندما كان أبناء النسوة المسلمات يبكون، كانت أمهاتهم يقلن لهم: «توقفوا، اسكتوا، أو سنذهب سنجلب الملك رتشارد، وهو سيقتلكم».

وكان دوق دي بيرغندي، الذي ذكرته للتو، فارساً جيداً بالنسبة لما يتعلق ببلاده، لكن لم يعدّ قط حكيماً، لافي علاقاته مع الرب، أو في سلوكه وتصرفاته في الأعمال الدنيوية، وهذا من الممكن فهمه بسهولة مما

أخبرتكم حـوله، ولهذا السبب عندمـا سمع فيليـب الملك العظيم، بأن كونت دي شالون قد رزق ولداً، فسماه هيوج، على اسم دوق بيرغندي، عبر على الفـور عن أمله في أن يجلعه الرب رجـلاً شجاعـاً مثل الدوق، ولما سألوه لماذا لم يقل: رجلاً عاقلاً وفطنـاً؟ قال الملك: « لأن هناك فرقاً عظيماً بين الرجل الشجاع، والرجل العاقل والفطن، ذلك أن هناك عدداً كبيراً من الفـرسان الشجعـان في كل من اراضي المسيحيـة وفي الأراضي الاسلاميـة، ممن لايؤمن بربنا ولا بأمـه» ثم أضاف يقـول: «ولهذا أقول بأن الرب قـد أعطى أعطية عظيمـة، ونعمة خـاصة جـداً، إلى الفارس المسيحي، الذي منحـه شجـاعـة جسـدية، وقـدرة في الوقت نفسـه على الاستمرار في خدمته بحماية نفسه من اقتراف إثم عظيم، والفارس الذي يتحكم هكذا بنفسه جدير بأن يدعى حقـاً عاقلاً وفطناً، لأن قدرته على القيـام بأعمال صالحة، آتيـة من عند الرب، والذين ذكرتهم أعـلاه يمكن دعـوتهم فقط شجعان، لأنهم مع امتـلاكهم لشجـاعـه جسدية عظيمـة، إنهم لايخشون الرب، ولايخافون من الإثم».

ولن أحـاول إعطاءكم تقديـراً صحيحاً عن المبلغ الكبير الذي أنفقـه الملك في تحصين يافـا، لأنه كـان بالفعل مبلغـاً عظيماً جـداً وأكبر من أن يحصى، فقـد حصن البلدة حتى البحـر من على الطرفين، وهكذا توفـر أربعـة وعشرون بـرجـاً، وباتت الخنـادق خـاليـة من الطين في الداخل والخارج، كما ووجدت ثلاثة أبواب، بني واحد منها على حساب النائب البابوي، مع جزء من السور.

ولكي أعطيكم فكـرة مـا عما أنفقـه الملك، سأخبركم بأنني سألت النائب البابوي كم كلفـه العمل في الباب وفي جـزء من السور، فسألني كم هو تقديري، فقلت: لقـد قدرت تكلفة الباب بخمسمائـة ليرة ذهبية، وكلفـة حصتـه من السـور بثلاثمائـة، فأخبرني— والرب شـاهد على مـا قال— بأن كلفة الباب مع السور بلغت ثلاثين ألف ليرة ذهبية.

الفصل السادس عشر
حملة إلى صيدا
حزيران ١٢٥٣ — شباط ١٢٥٤

وما أن اكتملت أعمال تحصين يافا حتى قرر الملك الذهاب إلى صيدا، وإعادة بناء دفاعاتها، وانطلق في يوم عيد الرسولين: القديس بولص، والقديس بطرس، وعسكر لإمضاء الليل مع جيشه خارج قلعة أرسوف، التي كانت محصنة تحصيناً جيداً، واستدعى في تلك الليلة أتباعه وجمعهم وسألهم فيما إذا كانوا يوافقون على ذهابه للاستيلاء على المدينة الإسلامية التي تدعى الآن نابلس، لكنها كانت تعرف باسم(شكيم) السامرة في الكتابات المقدسة.

وأجابه الداوية والاسبتارية وبارونات ما وراء البحر جميعاً بأن الخطة كما يرونها خطة جيدة في محاولة الاستيلاء على تلك المدينة، لكنهم ارتأوا أيضاً أن الملك لا يجوز أن يذهب إلى هناك شخصياً، لأنه لو حدث حادث له، فكل الأراضي المقدسة سوف تفقد، فقال الملك بأنه لن يدعهم يذهبون ما لم يذهب معهم، ولهذا بقيت الخطة معطلة لأن البارونات لم يوافقوا على أن يرافقهم.

وبعد الزحف لأيام عدة وصلنا إلى رمال عكا، حيث عسكر الملك مع جيشه، وعندما كنا هناك جاءت مجموعة كبيرة من الناس من أرمينيا العظمى لرؤيتي، وكان أفرادها ذاهبون إلى الحج إلى القدس، وذلك بعد دفعهم مبلغاً كبيراً جزية إلى المسلمين، الذين كانوا يتولون قيادتهم إلى هناك، ورجوني بوساطة مترجم عرف لغتهم ولغتنا أن أريهم ملكنا القديس، وذهبت إليه، فوجدته جالساً في سرادقه، ومستنداً على العمود المركزي، وكان جالساً على الرمل دون زربية تحته، أو دون أي شيءآخر،

فقلت:«هناك ياسيدي عساكر كثيرة من أرمينيا العظمى في الخارج، هم في طريقهم إلى القدس، وقد رجوني بأن يُسمح لهم برؤية ملكنا القديس غير أنني لم أرغب بعد في تقبيل عظامك»، فانفجر الملك ضاحكاً، وطلب مني الذهاب لإحضارهم، الأمر الذي نفذته، وعندما رأوه دعوا الرب له بالحفظ، ورد هو لهم تبريكاتهم.

وفي اليوم التالي أمضى الجيش الليلة في مكان عرف باسم«مخاضة المهار»، حيث كان الماء جيد جداً، ويستخدم الناس هنا الماء لسقاية المزروعات التي تنتج السكر، وعندما كنا هناك، جاء واحد من فرساني إليّ وقال:« لقد وجدت يا مولاي محلات لك للعسكرة أحسن بكثير من البقعة التي كنا فيها بالأمس، وقام فارس آخر، كان هو الذي اختار أرض عسكرتي السالفة، وهو غاضب جداً، وصرخ:«إنها حماقة كبيرة منك أن تتعجل هكذا، وتتحدث على هذه الشاكلة عن أي شيء أنا صنعته»، ثم إنه قفز نحو الرجل الآخر، وأمسكه من شعره، وقفزت نحوه بدوري، وضربته بمقبضي بين كتفيه حتى يطلق سراحه، وقلت:«اخرج فوراً من معسكري، وإذا ما أعانني الرب، لن تكون ثانية واحداً من رجالي».

وابتعد الفارس، وهو يبدو حزيناً جداً، وآثار الأسى عليه، لكنه ما لبث أن عاد برفقة جايل لى برن، قسطلان فرنسا، الذي رأى الفارس حقاً آسف لعمله الأحمق، فرجاني بإلحاح بقدر ما استطاع حتى أعيده إلى معسكري، فأجبته بأنني لن أعيده ما لم يحللني النائب البابوي من يميني، وبناء عليه ذهبا إلى النائب البابوي، وأخبراه بالذي حدث، فأجاب بأنه لا يمتلك السلطة على تحليلي، لأن اليمين كان صحيحاً، بما أن الفارس جدير حقاً بعقوبته، وإنني إذ أحدثكم عن هذه الواقعة حتى تتمنعوا عن حلف أي يمين من دون مسوغ معقول، لأنه كما يقول الرجل الحكيم:«من يقسم متعجلاً جداً، يكون أعجل في الحنث بيمينه».

وعسكر الملك في اليوم التالي أمام صور، التي كانت تعرف بالكتاب المقدس باسم Tyre ، وهناك استدعى للاجتماع أعيان الرجال من جيشه، وسألهم هل سيكون عملاً جيداً بالنسبة له للذهاب للاستيلاء على مدينة بانياس قبل أن يذهب إلى صيدا، ورأينا جميعاً أنها ستكون خطة جيدة أن يرسل الملك عساكره إلى هناك، لكن ما من أخذ رأى أن من الحكمة له أن يذهب شخصياً إلى هناك، وبعد صعوبات جمة اقتنع بالتخلي عن تلك الفكرة، وتقرر أخيراً أن يذهب كونت دي إيو، وأن يكون برفقته فيليب دي مونتفورت، وجايل لى برن، قسطلان فرنسا، وبيير حاجب الملك، ومقدم الداوية مع أفراد طائفته، ومقدم الاسبتارية مع رجال من طائفته أيضاً.

وقد سلحنا أنفسنا عند حلول الليل، ووصلنا قبيل بزوغ الفجر إلى سهل خارج المدينة التي اسمها الآن بانياس، لكنها عرفت بالكتابات المقدسة باسم قيسارية فيليب، وينبع في هذه المدينة نبع اسمه«أر»، وينبع بالسهل خارج المدينة نبع آخر جميل جداً يدعى«دان»، والذي يحدث الآن هو أنه عندما يلتقي هذين النهرين الصغيرين الصادرين من هذين النبعين يصبحان نهراً يدعى«الأردن»،وهو الذي تعمد مولانا في مياهه.

وتقرر بالوفاق بين الداوية وبين الكونت دي إيو، والاسبتارية، وبارونات البلاد الذين كانوا موجودين هناك، بأن تتخذ فرقة الملك — وهي الفرقة التي كنت أنا فيها،لأن الملك وضع تحت خدمته الفرسان الأربعين الذين كانوا من فرساني — موقفاً لها بين المدينة وبين القلعة، مدعومة بالعساكر الذين كانوا تحت إمرة الفارس الجيد غيوفري دي سارجين، وكان على بارونات البلاد، الدخول إلى المدينة من جهة اليسار، وأن يدخل الاسبتارية من جهة اليمين، في حين توجب على الداوية المضي على طول الطريق الذي جئنا عليه، لفتح ممر من ذلك الاتجاه.

وزحفنا نحـو الأمام حتى اقتربنا تماماً من بانيـاس، فوجـدنا فقط أن المسلمين الذين كانوا في داخلها، قد هزموا سيرجندية الملك، وطردوهم من المدينة،وفور معـرفتي بذلك مضيت إلى القادة المسـؤولين عن قوات الكونت إيو، وقلت لهم:«أيها السـادة، إنكم ما لم تذهبوا إلى حيـث أمرنا نحن أن نذهب، وتتمركـزوا بين المدينة والقلعة، سـوف يقتل المسلمون جميع الذين دخلـوا إلى بانيـاس»، وكـان الـذهاب إلى هناك عمل خطير جـداً، لأن الطريق الذي تـوجب علينا ركـوبه كـان مليئاً بالمخـاطر، والأرض وعرة وشـديدة الانزلاق، وبصعوبـة بالغة كان يمكـن لفرس الاحتفاظ بحـوافره على الأرض دون السقـوط، في حين كانت الجوانب الأخرى من الرابيـة المنخفضة التي توجب علينا الوصول إليها، غـاصة بعساكر المسلمين على ظهور خيولهم.

وبينها كنت أتحدث إلى الكونت إيو وإلى فـرسـانه، رأيت سيرجنديتنا الرجالة يخترقون الأسوار، وما أن لاحظت ذلك حتى قلت للذين كنت أتحدث إليهم، بأن الأوامـر قـد صـدرت إلى كتيبـة الملـك بالذهاب إلى المكان الذي كان الجند المسلمون يحتلونه، وبسبب صدور هذا الأمر،علي الذهاب، وعندمـا انعطفت مع اثنين من فـرسـاني وأخـذت اتجاه الذين كانوا يهدمـون السور، رأيت واحـداً من السير جندية الخيالـة، قد سقط فـرسـه عليـه، وهو يحاول الـوثوب فـوق السـور، ولدى رؤيتي ذلك ترجلت، وأخذت فرسي من مقـوده، وبإرادة من الرب، حدث على كل حال، أن الجند المسلمين مـا أن رأونا قادمين حتى تخلوا عن الموقع الذي أردنا احتـلاله، وكـان هناك جـرف صخري امتـد نازلاً بشكل حـاد إلى المدينة.

وعندمـا وصلنا إلى المكان الذي كـان الجند المسلمـون قـد تخلوا عنه، تخلى المسلمون الذين كانوا في داخل بانيـاس عن القتال، وهجروا المدينة إلى رجـالنا بدون إبداء أية مقـاومـة، وعنـدمـا كنت فـوق الرابيـة سمع

مارشال الداوية بأنني كنت في خطر، فجاء متسلقاً للمنحدر باتجاهي، وجاء الألمان، الذين كانوا في فرقة الكونت دي إيو، في الوقت نفسه خلفي، وعندما رأوا الخيالة المسلمين مغذين الخطى بفرارهم نحو القلعة، تحركوا للقيام بمطاردتهم، فناديتهم:«أيها السادة إنكم تبتعدون عن الصواب بما تقومون به، فنحن في موقع أمرنا باحتلاله، وأنتم تتجاوزون الآن أوامركم».

وتدعى القلعة التي تشرف على المدينة باسم«الصبيبة»، وهي على ارتفاع نصف فرسخ تماماً في أعلى جبال لبنان، وتتناثر على المنحدر الذي يقود صعوداً إلى القلعة، الصخور الكبيرة، التي يبلغ حجم بعضها حجم عدة صناديق كبيرة، وعندما أدرك الألمان بأنهم أقلعوا بعملية مطاردة بلا فائدة قفلوا عائدين، وعندما رآهم المسلمون يفعلون ذلك تحلقوا حولهم، وهاجموهم وهم على الأقدام، وسددوا نحوهم ضربات شديدة من أعالي الصخور بحرابهم، وأخذوا يسحبون التجافيف عن ظهور خيولهم.

ولدى رؤية السيرجندية الذين كانوا معنا الأضرار التي لحقت بالألمان،بدأوا يشعرون بالخوف، وتنهار عزائمهم، وبناء عليه أخبرتهم أنهم إذا ما تزحزحوا عن مواقفهم سوف أطردهم طرداً نهائياً من خدمة الملك، فقالوا:«كفتينا يا مولاي غير متساويتين، لأنك أنت على ظهر فرس، ويمكنك النجاة بسهولة، بينما نحن على الأقدام، ولسوف يقتلنا المسلمون،»، فقلت لهم:«بالنسبة لذلك، أقسم لكم أنني لن أفر، بل سأبقى معكم مترجلاً على الأقدام»، وهكذا ترجلت، وبعثت بفرسي إلى الخلف إلى الداوية، الذين كانوا على رمية قوس عقار إلى الخلف منا.

وبينما كان الألمان يتراجعون، جاءت نشابة رماها أحد المسلمين فأصابت واحداً من فرساني، واسمه جين دي بوسي، في حلقومه، فسقط ميتاً قرب قدمي، وقال لي عمه هوغو دي اسكوت Escot ، الذي

برهن على شجـاعتـه الكبيرة في الأرض المقـدسـة:« تعـال يـامـولاي وسـاعـدنا، لنحمل ابن أخي وننزله عبر المنزلـق»، فقلت:«أتمنى أعظم السـوء لكل واحـد سـوف يسـاعـدك، لأنك ذهبت إلى هناك من دون أوامـري، وإذا مـا حاق بـك شر، فأنت تستحق ذلك، احمله بنفسك إلى كومة الفضلات، لأنني لن أتحرك من هنا حتى يُرسل خلفي».

وعندمـا سمع جين دي فـالنسيـان بالخطر الذي نحن فيـه، ذهب إلى أولفر دي تيرم Termes والرجال القياديين الآخرين للانجدوك Lan-guedoc وقال لهم:«أرجـوكم يا سادتي وآمركم باسم الملك أن تقـوموا بإنقـاذ النائب»، وعندما كـان يعبّر عن اهتمامـه، جاء وليم دي بيمـونت إليـه وقال:«إنك تتعب نفسك وتشغلهـا بلا فائـدة فالنائب ميت»، فـرد عليـه مـولاي جين:«لا أبالي إن كـان حيـاً أم ميتـاً، إنني سـوف أذهب وأحصل على أخبـاره من أجل الملك»، وهكذا انطلق وجـاء إلى المكان الذي ذهبنا إليه فـوق الجبل، وما أن اقترب منا حتى صرخ إليّ للذهاب نحوه والحديث معه، وهذا ما فعلته.

وبين أولفـر دي تيرم بأننا كنا في وضع خطير جـداً، وإذا نزلنا عبر الطريق الذي صعـدنا عليـه، من الممكن أن لا نفعل ذلك دون خسـائـر كبيرة، لأن الجرف منحدر جداً ومنزلق، ويمكن للمسلمين الهبوط علينا من الأعلى، ثم أضـاف يقـول:«إذا أصغيتم إلي، سـوف أسـاعـدكم على النجاة من دون خسـائر»، فطلبت منه أن يبين مـا الذي يريدنا أن نفعل، وسوف أعمل على التنفيذ.

فقـال:«أقـول لكم، إننا إذا مـا ذهبنا مبـاشرة على طول هذا الجرف، وكـأننا نـريد قصـد دمشق، فـإن المسلمين الذيـن تراهـم في الأعلى سيعتقـدون بأننـا ننوي مهـاجمتهم من الخلف، ومـا أن نصبح بالأسفل فوق السهول، فسوف نعدو بخيولنا ونمضي حول المدينة، ولسوف نعبر النهـر قبل تمكنهم من الوصـول إلينـا، وبالإضـافـة إلى هذا سنلحق بهم

أضراراً عظيمة، بأن نلقي النار في بيادر القمح الموجودة هناك فوق الحقول».

واتبعنا توجيهاته، وجعلنا نجمع بعضاً من القصب الذي يستخدم لصنع المزامير، وشحناها بفحم يحترق، ورميناها بين بيادر القمح، وهكذا —شكراً لنصيحة أولفر دي تيرم الحكيمة — أعادنا الرب سالمين، وعلى كل حال لا بد من أن أخبركم، أننا عندما عدنا إلى المعسكر، حيث كان رجال شعبنا، وجدناهم جميعاً قد خلعوا أسلحتهم لأن ما من واحد هناك أولانا الاهتمام.

وعدنا في اليوم التالي إلى صيدا، حيث كان الملك مقيماً، ووجدناه شخصياً مشغولاً، بالإشراف على دفن أجساد جميع المسيحيين الذين قتلهم المسلمون عندما هدموا المدينة، وقد حمل بذاته بعض الجثث المهترئة وذات الرائحة النتنة إلى الحفر الكبيرة لدفنها، وذلك من دون أن يغلق أنفه كما فعل الآخرون، وبعث وجلب العمال من جميع المنطقة المجاورة، وشرع بإعادة تحصين المدينة بأسوار عالية وبأبراج، وعندما عدنا إلى المعسكر وجدناه قد تولى شخصياً قياس المواقع التي كنا سننصب خيامنا فوقها، وقد منحني مكاناً إلى جوار الكونت دي إيو، لأنه عرف بأن هذا الفارس الشاب كان يؤثر صحبتي كثيراً.

ولا بد لي من أن أحدثكم هنا عن بعض المداعبات المدهشة التي لعبها كونت دي إيو معنا، فقد اصطنعت لنفسي نوعاً من أنواع البيوت اعتدت أنا وفرساني على استخدامه لتناول الطعام، وكنا نجلس للحصول على الضوء من الباب، الذي حدث أنه واجه محلات كونت دي إيو، وصنع كونت دي إيو، الذي كان رجلاً ذكياً جداً، آلة رمي بدائية صغيرة، كان بإمكانه أن يرمي بها بحجارة إلى داخل خيمتي ، وكان يتولى مراقبتنا عندما كنا نتناول طعامنا، فيجهز آلته لتطول برماياتها مائدتنا، ثم يأخذ بالرمي فيكسر جرارنا وكؤوسنا، وفي إحدى

المناسبات عندما جلبت ميرة من الفراخ والديكة، وصدف أن أعطى إنسان أو آخر دباً إلى الكونت، فما كان منه إلاّ أن أفلت الحيوان بين طيوري، وقد قتل دزينة منهم قبل أن يتمكن أحد من الوصول إلى هناك، وقد ضربت المرأة التي كانت ترعى طيوري الدب بمغزلها.

وعندما كان الملك يقوم بتحصين صيدا، وصل بعض التجار إلى المعسكر، وأخبرونا كيف أن ملك التتار قد استولى على بغداد، وأسر القائد الديني للمسلمين، الذي كان يحكم تلك المدينة، وكان يعرف باسم خليفة بغداد،وقد أخبرونا كيف حصل الاستيلاء على المدينة، والقبض على صاحبها، الأمر الذي حدث كمايلي: أرسل ملك التتار، بعدما ألقى الحصار على بغداد، إلى الخليفة يقول بأنه يرحب كثيراً بترتيب زواج بين أولادهما، وأشار مستشارو الخليفة عليه بقبول هذا الاقتراح، وبناء عليه طلب ملك التتار من الخليفة أن يرسل ما يبلغ تعداده أربعين من مستشاريه ليقسموا على الزواج، وفعل الخليفة هذا ونفذه، وبعد هذا بعث الملك يطلب منه إرسال أربعين رجلاً آخرين من بين أغنى وأعظم أعيان سكان مدينته، وفعل الخليفة هذا أيضاً، ثم بعث الملك للمرة الثالثة يطلب أربعين رجلاً آخر من أفضل رجال بلاطه،ومجدداً استجاب الخليفة ونفذ المطلوب، والآن وقد بات أعيان رجال المدينة بين يديه وتحت سلطانه، شعر ملك التتار أن أهالي بغداد المتواضعين لن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم بدون قادة، ولهذا أمر بقطع رؤوس هؤلاء المائة والعشرين رجلاً، ثم أمر بالهجوم على بغداد، واستولى على المدينة، وقبض على خليفتها.

ولكي يغطي على خيانته ويلقي باللوم من أجل الاستيلاء على المدينة على الخليفة، أمر بحمل الخليفة وبوضعه داخل قفص حديدي، ثم أبقاه مزوداً بقليل من الطعام يكفي للحيلولة دون موت الرجل جوعاً، ثم سأل الملك الخليفة عما إذا كان جائعاً، وقال الخليفة أنه بالفعل كذلك،

وهو أمر لم يكن مدهشاً أبداً، وبناء عليه أمر الملك بطشت كبير من الذهب، مليء بالمجوهرات وبالأحجار الكريمة، ووضعه أمام الخليفة وسأله:«هل تعرف هذه الجواهر»، فأجابه الخليفة:«نعم كانت هذه ملكاً لي»، وسأله ملك التتار عما إذا كان يثمنهم كثيراً، وأجابه الخليفة أنهم ذوي قيمة عظيمة لديه، فقال له الملك:« بما أنك تقدرهم تقديراً عالياً، خذ من هذه الجواهر التي تراها هنا ما تريده وكل منها»، وردّ عليه الخليفة بأنه لايمكنه ذلك،« بما أنهم ليسوا طعاماً من الممكن أكله»، وبناء عليه قال قال له الملك:«يمكنك أن ترى الآن ما الذي كانت عليه وسائل دفاعك، لأنك لو قمت بتوزيع ثرواتك — التي لا فائدة منها الآن لك — بين رجالك المسلحين، لكان بإمكانك بالانفاق لها هكذا، القيام بالدفاع عن نفسك بنجاح ضدنا، وها هي الآن ثروتك تتخلى عنك في ساعة حاجتك الماسة».

وعندما كان الملك يقوم بتحصين صيدا، ذهبت في صباح أحد الأيام عند إشراق الشمس لأراه، فوجدته في القداس، وطلب مني انتظاره، لأنه كان يرغب بالركوب للتنزه، وهذا ما فعلته، وبينما كنا نتجول في الحقول في الخارج، مررنا أمام كنيسة صغيرة، ورأينا ونحن نعبر من أمامها، كاهناً في داخلها، يرتل قداساً، وأخبرني الملك بأن هذه الكنيسة قدبنيت تعظيماً لذكرى معجزة قام بها مولانا عندما طرد الشيطان من جسد ابنة الأرملة، وقال لي إذا كنت أرغب، فسيقف لسماع القداس الذي بدأه الكاهن للتو، فأخبرته بأن هذا سيكون شيئاً جيداً القيام به.

ولما حل وقت تسليمنا لوحة«السلام»(لتقبيلها)، لاحظت أن القس الذي كان يتولى المساعدة أثناء القداس، كان طويلاً، وداكن البشرة، وكثيف الشعر، فخفت أن يكون واحداً من الحشيشية الأشرار، وأنه عندما سيقدم لوحة السلام إلى الملك، قد يتولى قتله، ولهذا نهضت وأخذت لوحة السلام وجلبتها إلى الملك بنفسي.

وعندما انتهى القداس، وكنا ثانية على ظهور خيولنا مررنا بالنائب البابوي في الحقول، واتجه الملك نحوه، وبعدما دعاني إلى القدوم قال له:«عليّ أن أشكو لك من نائبي، الذي جلب إليّ لوح السلام، ولم يدع القس المسكين يجلبه»، فأخبرت النائب البابوي بالسبب الذي حداني إلى فعل ذلك، فقال بأنني تصرفت بشكل صحيح، فقال الملك:«لا بالحقيقة إنه لم يفعل ذلك»، وهنا بدأ نقاش كبير بينهما، أما بالنسبة لي شخصياً فقد التزمت بالصمت، وأنا الآن حين أخبركم بهذه الحكاية، فقط لأوضح عظيم إنسانية الملك وتواضعه.

أما بالنسبة للمعجزة التي قام بها مولانا لابنة الأرملة، فقد وردت روايتها في الانجيل، الذي ذكر أنه عندما قام بهذه المعجزة كانت المنطقة تعرف باسم منطقة Tyre ، وكانت المدينة التي أشرت إليها في هذا الكتاب باسم صيدا تعرف باسم صيدون.

وعندما كان الملك مشغولاً في تحصين صيدا، جاء إليه رسل من عند نبيل عظيم كان موجوداً في عمق بلاد الإغريق، وكان يدعو نفسه«عظيم آل كومنوس»، وصاحب طرابزون، وجلب هؤلاء الرجال هدية إلى الملك مؤلفة من مختلف الجواهر، وكان بين أشياء كثيرة قسي(زنبورك) مصنوعة من أعواد خاصة، وكانت الفتحات من أجل رؤوس السهام مثبتة في القسي، حتى إذا ما أطلقت رؤوس السهام، كان بإمكانك أن ترى أنها كانت حادة جداً، وجيدة الصنع.

وطلب هؤلاء الرسل من الملك إرسال فتاة غير متزوجة من بين سيدات بلاطه لتكون زوجة لسيدهم، فأجابهم بأنه لم يجلب معه أياً من مثل هؤلاء السيدات من بلاده، وقام على كل حال بنصيحة الرسل بالذهاب إلى القسطنطينية، للطلب من ابن عمه الامبراطور إعطاءهم زوجة لسيدهم ، تكون سيدة قريبة له شخصياً وقريبة للامبراطور، وأعطاهم الملك هذه النصيحة لعل امبراطور القسطنطينية يدخل

بتحالف مع هذا النبيل العظيم والثري ضد فاتاسز، الذي كان آنذاك امبراطور الإغريق.

ووصلت الملكة، التي نقهت مؤخراً بعدما ولدت السيدة بلانشي في يافا، إلى صيدا بوساطة البحر، وما أن سمعت أنها باتت هناك، حتى نهضت من مكاني الذي كنت جالساً فيه إلى جانب الملك، وذهبت لمقابلتها، ومرافقتها حتى تعود إلى القلعة، وعندما عدت إلى الملك، الذي وجدته في بيعته، سألني عما إذا كانت زوجته والأولاد بخير، وعندما أخبرته بالإيجاب علق قائلاً:«عندما نهضت وتركتني عرفت يقيناً أنك ذاهب لمقابلة الملكة، ولهذا طلبت منهم تأجيل القداس حتى عودتك»، وأنا مخبركم بهذا، بسبب أنني لم أسمع الملك مرة واحدة خلال السنوات الخمس التي أمضيتها معه يتحدث إليّ عن زوجته وعن الأولاد، ولم يفعل ذلك مع أي إنسان آخر، في حدود ما أعرفه، والذي أراه، يبدو أنه ليس من اللائق، وغير الصحيح بالنسبة للرجل أن يكون هكذا بعيداًعن أسرته الخاصة.

ودعوت في يوم عيد جميع القديسين جميع أعيان الرجال في المعسكر إلى محلاتي، التي كانت مجاورة للبحر، وعندما كنا نتناول طعام الغداء، وصل في سفينة فارس فقير ومعه زوجته، وأولادهما الأربعة، فقدمت لهم وجبة طعام في محلاتي، وبعدما انتهينا من تناول الطعام، جمعت كل ضيوفي المهمين وقلت لهم:«دعونا نقوم بعمل إحسان، فنفرج عن هذا الرجل الفقير وعن أولاده، بأن يقوم كل واحد منهم فيتعهد واحداً، واختصموا فيما بينهم حول من سيأخذ من، ولدى رؤية الفارس الفقير هذا شرع مع زوجته بالبكاء فرحاً.

وحدث وقتذاك أن الكونت دي إيو، كان عائداً من تناول الطعام مع الملك فتوقف لينظر إلى الرجال الذين كانوا معي، وأخذ الطفل الذي اخترته، وكان في حوالي الثانية عشرة من عمره، وخدم هذا الفتى

الكونت بشكل جيد وبإخلاص، لذلك قام سيده بعد العودة إلى فرنسا بترتيب زواج له، وعمله فارساً، وكان في كل مرة صدف وكنت فيها في المكان نفسه مثل الكونت، كان هذا الفارس نادراً ما يفارقني واعتاد مراراً أن يقول لي:«أثابك الرب يا مولاي، لأنني مدان بكل هذا الشرف الذي أتمتع به، لك»، أما بالنسبة إلى أخوته الثلاثة فلا أدري ماذا حدث لهم.

وطلبت من الملك أن يأذن لي بالذهاب للحج إلى كنيسة سيدتنا في طرطوس، وكان مقامها مكان مقصود جداً من قبل الحجاج، لأنه هناك جرى بناء أول مذبح على الأرض تعظيماً لأم مولانا، وصنعت مولاتنا هناك كثيراً من المعجزات العظيمة، منها أسوق خبر المعجزة التالية مثلاً، فقد كان هناك رجل مخبول تماماً، مسكون من قبل الشيطان، وبينما كان رفاقه الذين جلبوه إلى هذا المقام يصلون إلى أم مولانا من أجل إعادته إلى العافية، صرخ العدو من داخل جسده قائلاً لهم:«سيدتنا ليست هنا، إنها في مصر تقدم العون إلى ملك فرنسا وإلى المسيحيين، الذين ينزلون هذا اليوم بالذات إلى اليابسة، ويقاتلون على الأقدام ضد قوات الخيالة العائدة للمسلمين»، وكتب تاريخ هذه الواقعة على وثيقة جلبت إلى النائب البابوي، الذي حدثني عنها شخصياً، ويمكنني أن أؤكد لكم بأن سيدتنا قد ساعدتنا بالفعل في ذلك اليوم، وكانت ستساعد أكثر لولا أننا أغضبناها وابنها، كما تقدم لي وأخبرتكم.

وسمح لي الملك بالذهاب إلى طرطوس، وأخبرني — بناء على نصيحة مستشاريه — أن أشتري مائة قطعة قماش من وبر الجمل، من مختلف الألوان، لصالحه، حتى يعطيها إلى الرهبان الفرنسيسكان عندما يعود إلى فرنسا، وجعلني هذا أشعر بكثير من الراحة،لأنه بدا لي في ذلك إيماءة بأنه لن يبقى طويلاً في بلاد ما وراء البحر.

وعندما قدمنا إلى طرابلس سألني فرساني عما أنا عازم على صنعه

بكل هـذه القطع القماشيـــة من وبـر الجمل، ورجـــوني أن أخبرهم، فقلت:«إنني ربما قـد استـوليت عليهـم لبيعهم للحصـول عل الفـائـدة الشخصية»، وقام أمير طرابلس — منحـه الرب النعمة — بالاحتفاء بنا بشكل نبيل، ومنحنـا كل التشريف المستطاع، وكـــان سيعطيني ويعطي فـرساني هدايا ثمينة جـداً، لو أبدينا الاستعداد لقبـولهم، غير أننا رفضنا أخـذ أي شيء باستثناء بعض الآثار المقـدسـة، التي أخـذت بعضهـا إلى الملك، مع أقمشة وبر الجمل التي ابتعتها له.

وأرسلت أيضـاً أربع قطع مـن قماش وبر الجمل إلى صـاحبـة الجلالة الملكة، وكان الفارس الذي توجه لتقديمهم، قد حملهم بعد لفهم بقطعة من الكتـان الأبيض، وعندمـا رأتهم الملكة يدخلون إلى غـرفتهـا ركعت أمـام الفـارس، وركـع هو بدوره أمـامهـا، فقـالت الملكة له:«انهض يا فـارسي الجيد، ليس من اللائق لك الركـوع عندما تكون حـامـلاً لآثار مقدسـة»، فرد الفـارس قائـلاً:«سيدتي، هؤلاء ليسـوا آثاراً مقدسـة، بل قطعـاً من قماش وبر الجمل أرسلهـم لك مـولاي»، ولدى سماعهـا بهذا بدأت الملكة والسيـدات الـلائي كن عندها بالضحـك، وقـالت الملكة لفارسي:«أخبر سيدك بأنني أتمنى له أسوأ حظ، بما أنه جعلني أركع أمام أقمشته من وبر الجمل».

وفي أثناء إقـامـة الملك في صيـدا، جلب له أحـد الناس حجـراً كـان يتفتت إلى شظايا، وكـان أروع حجر في العـالم،لأنك عندما كنت تنتـزع إحدى شظاياه، تجد شكل سمكة بحرية بين قطعتين من الحجر، وكانت هذه السمكة من الحجر كليـاً، ولم يكن فيها شيئاً ناقصاً في شكلهـا، وقد أعطاني الملك واحـدة من هذه الأحجـار، فـوجـدت في داخلهـا سمكة شبوط، وكان لونها بني، وكانت بكل تفاصيلها تماماً مثل سمكة شبوط.

وعندمـا كنا في صيـدا تلقى الملك أخبـاراً عن مـوت أمـه(مـاتت في تشرين ثاني ١٢٥٢)، فتمـدد حـزينـاً لمدة يومين كـاملين دون أن يتجـرأ

أحـد على التكلم إليه، وبعث بعـد هذا واحـداً من خدمـه من حاشيتـه لاستدعائي، وعندما مثلت بحضرته، ووجدته جـالساً لوحده في غرفته، مـدّ إلى ذراعيـه عندما رآني وقـال:«أواه، أيها النائب لقـد فقـدت أمي»، فقلت له:«ياسيـدي لم تدهشنـي هذه الأخبـار، ذلك أنها مـاتت، لكنني مندهـش منك، في أن تبـــدي، وأنت الرجل العـــاقل مثـل هذا الحزن والأسى بهذه المناسبـة،لأنه كما تعلم، قال أحـد الفـلاسفة العقـلاء: مهما كان الأسى الذي يشعر به الانسـان في قلبه، ينبغي أن لا يظهر أي شيء منه على وجهه، لأنه بإظهاره لأساه يعطي لأعدائه سبباً للبهجة، ويجلب الحزن لأصدقائه»، وقـام الملك بخدمات دينية كثيرة للملكة الأم في بلاد ما وراء البحـر، كما وبعث إلى فرنسا بصندوق مليء بالرسـائل وجهه إلى جميع الكنائس، يسألهم فيه الصلاة من أجل روحها.

وجاءت السيدة مريم دي فيرتُس Vertus ، وكانت سيدة فاضلة وتقيـة، لتخبرني بأن الملكة غـارقـة بالأحـــزان، وسألتني الذهاب إليهـا ومواساتها، وعندما وصلت إلى هناك، وجدتها تبكي، ولهذا قلت لها: إن الرجل الذي قال ما من إنسان يمكنه قط أن يخبر ما الذي يمكن للمرأة أن تفعله، قال الصدق، ثم قلت:«لأن المرأة التي كرهتك كراهية عظيمة قد ماتت، وها أنت تبـدين لأجلها مثل هذا الأسف»، فأخبرتني بأنها لم تكن تبكي من أجل الملكة بلانشي، بل بسبب الحزن الذي أظهـره الملك بنحيبه على الميتة، وبسبب ابنتها — ملكة نافار فيما بعد — والتي تُركت الآن لتعيش في ظل رعاية الرجال فقط.

وقد عاملت الملكة بلانشي، الملكة مرغـريت بقسوة شديدة، وبقدر ما أوتيت من قدرة، حيث أنها لم تسمح لابنها أن يكون بصحبة زوجته إلاّ عندما كان يذهب للنوم معهـا أثناء الليل، وكان القصر الذي آثر الملك الشاب أن يعيش به هو قصر بونتوي Pontoise ، لأن هناك كانت غـرفة الملك في طـابق علوي، وغرفـة الملكة تحتـه مبـاشرة، وقد نظمـوا

الأمور بحيث تمكنوا من الالتقاء والحديث معاً فوق سلم دائري يقود من غرفة إلى الأخرى، وكذلك رتبوا أنه عندما كان الحجاب يرون الملكة بلانشي تقترب من غرفة ابنها، كانوا يقرعون على الباب بعصيهم، فكان الملك يبادر مسرعاً إلى غرفته وبذلك تجده الملكة هناك، وفعل الشيء نفسه حجّاب غرفة نوم الملكة مرغريت، عندما كانت الملكة بلانشي تكون ذاهبة إلى غرفة كنتها، حتى تجد الملكة الشابة جالسة لوحدها فيها.

وكان الملك مرة إلى جانب زوجته، عندما كانت عرضة لخطر الموت بسبب جروح عانت منها أثناء ولادتها لولد، ودخلت الملكة بلانشي إلى غرفتها، وأخذت الملك من يده وسحبته جانباً وقالت له:«ابتعد عن ها هنا، فمالك من عمل جيد تؤديه هنا»، وعندما رأت الملكة مرغريت الملكة الأم تأخذ الملك وتبعده صرخت قائلة:«واأسفاه، لن تدعيني أرى زوجي سواء أكنت في الحياة أم في الممات»! ثم أغمي عليها، واعتقد الجميع بأنها قد ماتت ورجع الملك الذي تصور أنها كانت تموت، وبصعوبة بالغة أعادوها إلى وعيها.

الفصل السابع عشر
عودة إلى فرنسا
شباط — كانون أول ١٢٥٤

ولدى اقتراب الانتهاء من تحصين صيدا، أمر الملك بالقيام بعدة مسيرات في أرجاء المعسكر، وحث النائب البابوي الناس لدى انتهاء كل مسيرة على الصلاة للرب لكي تسير شؤون الملك حسب إرادته، وأن يتمكن من القيام بكل ما هو عظيم الرضاء في نظره، سواء أرجع إلى فرنسا أم بقي في بلاد ما وراء البحر.

وبعد انتهاء جميع المسيرات، استدعاني الملك من حيث كنت جالساً مع نبلاء بلاد ما وراء البحر، واقتادني إلى إحدى الساحات، حيث جعلني أقف وظهري متجه نحوهم، ثم قال النائب البابوي لي:«أيها النائب، الملك مسرور جداً من خدماتك، وسوف يبتهج في رؤية هذه الخدمات وهي تجلب المنفعة والشرف، ولكي يجلب الطمأنينة لك طلب مني أن أخبرك، بأنه قرر العودة إلى فرنسا في الفصح المقبل»، فأجبته:«يا رب أعنه على تنفيذ رغباته».

ونهض النائب البابوي، وأخبرني أن أرافقه إلى محلاته، الأمر الذي فعلته، واقتادني إلى غرفة خاصة، حيث لم يكن من أحد معنا، وأغلق الباب، ثم وضع يدي في يديه وشرع يبكي بحرقة، وما أن تمكن من الكلام حتى قال لي :«أنا مسرور إلى أبعد الحدود، أيها النائب، وأقدم شكري للرب، أن الملك، وأنت، وبقية الحجاج، قد نجوا من المخاطر العظيمة التي تعرضتم لها هنا، غير أنني حزين في قرارة نفسي إذ توجب عليّ أن أتخلى عن صحبة مثل هؤلاء الرجال المستقيمين، مثلك أنت، والعودة إلى بلاط روما، إلى بين الناس الخونة هناك، وعلى كل حال

سـوف أخبرك بما أقترح القيام به، إنني عـازم على أن أجعل من الممكن لي البقـاء لمدة سنة بعــد مغـادرتكم، وأن أنفق كـل مـا لدي في تحصين أحـواز عكا، وبهذه الطريقة سـوف أري الناس في روما، أن من المؤكـد أنني لم أجلب أي مـــال معي، وأن يدي فـارغتين، لذلـك سـوف لن يسعون راكضين خلفي».

ومـا أن أخبرت النائب البـابوي عن ذنبين اقترفهما واحـد من الكهنة المرتبطين بي، حتى قـال:«مـا من أحـد يعـرف، مثلما أعـرف أنا الذنوب المنحطة والـدنيئة التي اقترفـت في عكا، ولهذا ســوف ينـزل الرب بهم انتقاماً، تتطهر به عكا بدمـاء سكانها، ولسوف يأتي قوم آخرون للسكنى في مكانهم»، وقـد تنبـأ هذا الرجل بما وقع جـزئيــاً، لأن من المؤكـد أن المدينة غسلت تماماً بدماء سكانها، غير أن الذين سوف يعيشون هناك، لم يقــدمـوا بعــد، جعل الرب الذين ســوف يرسلهم إلى هناك، رجــالاً صالحين، تكون أعمالهم وفق مشيئته.

وبعد بعض الوقت بعث الملـك خلفي، وأمرني بتسليح نفسي، ولدى سؤاله لماذا؟ أخبرني بأن ذلك لمرافقة الملكة وأولادها إلى صور، على بعد سبعة فـراسخ، ولم أقل كلمة واحـدة جواباً له، مع أنه كـان باعثاً بي في مهمـة خطرة جـداً، لأنه لم يكن في ذلك الوقـت لاصلح ولا هدنة بيننا وبين المسلمين في مصر أو في دمشق، وشكـراً للرب، لقـــد وصلنا إلى صور خلال الليل سـالمين تماماً، مع أننا ترجلنا مرتين، وأشعلنا النار من أجل طبخ طعــامنـا، ولإعطاء الأطفــال شيئاً يأكلـوه، أو لنمكنهم من الرضاعة.

وقبل أن يغادر الملك صيدا — التي حصنها بـأسوار عالية، وبأبراج، وبخنادق واسعــة نظفهـا من الطين من الداخل ومـن الخارج — جـاء البطريرك مع بـارونات البـلاد إليــه، وخـاطبـوه كمايلي:«لقــد قمت يا صـاحب الجلالة بتحصين مـدينة صيدا، ومـدينة قيسـارية، وبلدة يافـا،

ولهذا كله منافع واسعة للأرض المقدسة، كما قمت أيضاً بتقوية الدفاعات عن عكا بالأسوار وبالأبراج التي بنيتها من حولها، ولقد تداولنا حول الأمور بين أنفسنا، ولم نر وجه فائدة لمملكة القدس ببقائك هنا لمدة أطول أخرى، ولهذا ندعوك بإلحاح بأن تذهب إلى عكا أثناء الصوم الكبير المقبل، وإعداد نفسك للسفر إلى الوطن، حتى يكون باستطاعتك العودة إلى فرنسا بعد الفصح»، وأخذاً بنصيحة البطريرك والبارونات غادر الملك صيدا، وذهب إلى صور، حيث كانت الملكة مقيمة، ومضينا من هناك إلى عكا، إلى حيث وصلنا مع بداية الصوم الكبير.

واهتم الملك في أثناء الصوم الكبير في إعداد السفن للعودة إلى فرنسا، وكان عدد الموجود من السفن ثلاث عشرة فقط، بما في ذلك الغلايين والسفن، وباتت هذه المراكب جاهزة في الوقت المحدد ليركبها الملك والملكة في عشية عيد القديس مرقص بعد الفصح، وكانت الريح لطيفة للابحار، وأخبرني الملك في يوم عيد القديس مرقص، بأن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلاده، ورددت عليه أن بإمكانه أن يقول في المستقبل بأنه قد ولد مجدداً في ذلك اليوم، لأنه من المؤكد أنه دخل في حياة جديدة عندما نجا من تلك البلاد المرعبة.

وأصبحنا في يوم السبت على مرأى من قبرص، والجبل القائم في تلك الجزيرة واسمه جبل الصليب، وتصاعد في ذلك اليوم ضباب من الأرض وانتشر في البحر، فلهذا خيّل لملاحينا، الذين رأوا قمة الجبل فقط فوق الضباب، أننا كنا أبعد عن قبرص مما كنا عليه بالفعل، ولهذا تقدموا مبحرين بجرأة حتى حدث واصطدمت سفينتنا بشاطىء الرمل تحت الماء، ولولا أننا حظظنا واصطدمنا بذلك الشاطىء الصغير من الرمل، لاصطدمنا بكتلة كبيرة من الصخور المغرقة، ولتحطمت سفينتنا إلى قطع، ولسقطنا جميعاً ولغرقنا.

وعندما اصطدمت سفينتنا، ارتفعت صرخةعالية على ظهر السفينة، وكان كل واحد يصرخ وهو مصاب باليأس، وعصر الملاحون وبقية الناس أيديهم خوفاً من الغرق، وما أن سمعت الصراخ حتى نهضت من فراشي حيث كنت مستلقياً. وذهبت إلى ظهر السفينة للالتحاق بالبحارة في برج السفينة، وعندما وصلت إلى هناك قال الراهب ريموند — وكان داوياً وآمراً للملاحين — لواحدمن رجاله:«ارم الرصاص»، وما أن فعل ذلك حتى صرخ:«الرحمة لنا، نحن فوق الأرض» ولدى سماع الراهب ريموند بهذا، شد ملابسه وشمرها حتى حزامه، وشرع بنتف لحيته، وأخذ بالوقت نفسه يصرخ:«لقد ضعنا، لقد ضعنا».

وقام في تلك اللحظة واحد من فرساني، واسمه جين دي مونسون Monson — وكان والد وليم راعي دير القديس ميخائيل — بتقديم خدمة عظيمة لي، بأن جلب لي رداء مبطناً من أرديتي، وألقاه على ظهري دون التفوه بكلمة، لأنني كنت مرتدياً قميصي فقط، فقلت بصوت مرتفع له:«مافائدة هذا الرداء الذي جلبته لي، ونحن نغرق»؟ فأجابني:«نفسي لك الفداء، إنني أفضل أن أرانا جميعاً نغرق على أن أراك تصاب بمرض ما من البحر وأن تموت بسببه».

ونادى بحارتنا:« أنتم، أيها الذين في الغلايين، تعالواوخذوا الملك»، لكن من بين أربعة غلايين كانت للملك هناك، لم يقترب أي منها منا، وبفعلهم هذا تصرفوا بحكمة كبيرة، لأنه كان على ظهر سفينتنا ثمانمائة إنسان، وكان هؤلاء سيقفزون إلى الغلايين لإنقاذ حياتهم، وبذلك كانوا سيسببون غرقها.

وقام الرجل الذي لديه الرصاص برميه ثانية، ثم جاء إلى الراهب ريموند ليخبره بأن السفينة لم تعد جانحة فوق الأرض، وذهب الراهب ريموند ليخبر الملك، فوجده متمدداً فوق السطح أمام تمثال جسد مولانا الموجود فوق المذبح، وقد مدّ ذراعيه على شكل صليب، وكان

عـاري القدمين في قميصـه فقط، وشعـره مشعث مثله مثل إنسان كـان يتوقع الغرق بلا شك.

وما أن جاء نور الصباح حتى رأينا أمامنا الصخرة التي كنا سنصطدم بها، لولا أن سفينتنـا جنحت فـــوق شـــاطىء الرمـل، وجمع الملك في الصبـاح جميع مقـدمي بحـارة السفن، فبعثـوا أربعـة غـواصين إلى قـاع البحـر، وبعـد عـــودتهم من الغـوص، استمع إليهـم الملك مـع مقـدمي البحارة كل على انفـراد، واحداً بعد الآخر، وبذلك لم يعـرف غواص ما قاله الغواص الآخر، وعلى كل حـال عرف مما قاله الأربعة، أنه في أثناء الجنوح فوق الرمل والاحتكاك به زال أكثر من عشرين قـدماً من القعر الذي بنيت عليه سفينتنا.

وجمع الملك مقـدمي الملاحين، وسألهم مـا الذي يشيرون به في ضـوء الدمـار الذي لحق بالسفينة، وبعـــدمـا تبـادلوا الرأي فيها بينهم، أخبروا الملك بأنهم ينصحـونه بمغادرة السفينة وأن يصعـد ظهر سفينة أخـرى، وقـالـوا:«نحن نخبرك أن تفعل هذا، لأننا نعتقـــد بشكل يقيني أن جميع خشب سفينتك قـد تفكك، ونخشى أنها عندما تصبح في أعـالي البحار، لن تكون قادرة على الصمـود في وجه ضربات الأمـواج، وسوف تتفتت إلى قطع، ولأنكم تعلمـون، أننا عندمـا كنا قادمين مـن فرنسـا، أصيبت إحدى سفنكـم بمثل الإصابة نفسهـا، ولدى مواجهتهـا للمياه العـاتية، تحطمت، وهلك كل واحد كان على ظهرها باستثناء امرأة واحدة وابنها، فقـد عـامت بسلام على قطعـة من السفينة،(أنا يمكنني شخصياً تأكيـد ذلك، وأنهم كـانوا يقـولون الصـدق، لأنني رأيت المرأة وولدها في بيت الكونت دي جويني Joigny ، حيث أعطاها مأوى، محبة بالرب).

وتشـــاور الملك مـع اللورد بيير الحاجب، وجـــايـل لى برن قسطلان فرنسا، وجيرفيه دي اسكرين Escraines رئيس طباخي البيت الملكي، ورئيس شمامسـة نيقـوسيـا، المسؤول عن ختم الملك، وهو الذي صـار

كاردينالاً فيما بعد، وأخيراً أنا شخصياً، وسألنا عن الـذين نشير بصنعه في هذه الحالة، وأجبناه على الإنسـان في جميع القضـايا الدنيوية الاقتـداء بالذين لديهم أفضل الخبرة والمعلومـات، وقلنا:«وبناء عليـه، نخبرك من جهتنا أن تفعل ما يخبرك به هؤلاء البحارة».

والتفت الملك إلى مقدمي البحارة وقال:«أستحلفكم بشرفكم، فيما إذا كـانت السفينة سفينتكم، ومحملة ببضـائعكم، هل كنتم ستهجـرونها»؟، وأجـابوه معـاً أنهم مـا كـانوا سيقـومـون بـذلك، وأنهم كـانوا يؤثرون تعريض أنفسهـم لخطر الغرق على أن يقومـوا بدفن سفينةكلفتهـا أربعة آلاف ليرة ذهبيــة أو أكثــر،وهنا قــال الملك:«لماذا، إذن تشيرون عليّ بمغادرة السفينة»؟ فـأجابوه:«لأن المقارنة غير صحيحـة، لأنه لا قيمتك شخصيـاً، ولا قيمة زوجتك، ولا قيمـة أولادك، ولا قيمـة الذين معك على ظهـر السفينة يمكن تقويمهـا بالذهب و الفضـة ولهذا السبب نشير عليك أن لا تخاطر بحياتك أو حياتهم».

فقال الملك:«سـادتي الطيبين، لقد سمعت ما ترونه، ومـا يراه أتباعي، وسـوف أخبركم الآن بالذي أراه، وهو مـايلي: إذا مـا غـادرت أنا هذه السفينة، فهناك خمسمائة إنسان أوأكثر على ظهـرها، سيقومون بالنزول في قبرص خشيـة الخطر على أنفسهم — لأن ما من واحـد منهم إلاّ ويحب حيـاته مثلما أحب أنا حياتي — وربما لن يعـود هؤلاء إلى بلدانهم، ولهذا سأضع نفسي وزوجتـي وأولادي في أيدي الرب، ولن أسبـب مثل هذا الأذى العظيم لمثل هذا العدد من الناس الذين هم هنا».

وكــان الضرر الذي سيسببـه الملـك إلى الناس من الممكن رؤيتــه مما حدث لأولفـر دي تيرم، الذي كـان في سفينة جلالتـه، فقد كـان واحداً من أجرأ الناس الذين رأيتهـم قط، وقد ميز نفسـه فوق بقية أتبـاعه في الأرض المقـدسـة، ومع ذلك لم يتجـرأ على البقـاء معنا خشيـة الغـرق، وهكذا بقي في قبرص، ووجـد هنا عـوائق كثيرة في طريقـه، حتى أنه لم

يتمكن من الإلتحاق بالملك إلاّ بعد مضي سنة ونصف السنة مع أنه كان رجلاً ثرياً وله مكانتـه، وكـان من الممكن له أن يدفع بسهـولة نفقـات عبـوره، ففكروا كيف كـان يمكن لأناس من مرتبـة أدنى، من دون مـا يكفي من المال، كـان بإمكانهم أن يدفعـوه لنفقـات رحلتهم إلى الوطن، وكيف كانوا سيتـدبرون الأمر، وقد رأينا إنساناً مثل هذا في مكانتـه وقد أعيق إلى هذا الحد العظيم.

ومـا أن نجـونـا من هذا الخطر، الذي نجـانا الـرب منه، حتى وقعنا بخطر آخـر، ذلك أن الريح التي سـاقتنا إلى ساحل قبرص، حيث كـان من الممكن أن نغـرق بكل سهولة، بدأت الآن تهب بشـدة كبيرة وبعنف أرغمتنا به على العـودة ثانيـة إلى الجزيـرة، وألقى البحـارة بمـراسيهم لمواجهـة الريـح، لكنهم لم يتمكنوا من إيقـاف السفينـة حتى أنهم ألقـوا بخمسـة مراسي، ولقـد بات من الضروري إزالة جـوانب حجـرة الملك التي كانـت واقعة فوق السطح العلوي للسفينـة، فما من واحد تجرأ على البقاء هناك خشيـة أن تجرفه الريح إلى البحـر، وحدث في ذلك الحين أن كنت أنا وجايل لى برن متمـددين في غرفـة الملك، ففتحت الملكة الباب، معتقـدة أنها سـوف تجد زوجهـا في الداخل، فسـألتهـا عن الذي تبحث عنه، فأخبرتني أنها جـاءت للتحـدث إلى الملك، ولتطلب منه أن يعمل نذراً إلى الرب، أو إلى قـديسيـه، في أن يذهب في حج مـا حتى يمكن للرب أن ينجينا من الخطرالذي كنا فيـه، لأن البحـارة قـالوا بأننا جميعـاً عرضـة لخطر الغرق، فقلت لها:«سيـدتي تعهدي بالقيـام برحلة إلى مزار القديس نيقولا في فـرنجفايل Varangiville ، وأنا أضمن لك عنه بأن الرب سـوف يعيـدك إلى فـرنسـا مع الملك وأولادك»، فـأجـابتني قائلة:«سوف أفعل ذلك عن طيبـة خاطر أيها النائب لكن الملك له طباع خاصـة غريبة، حيث أنه إذا ما عـرف بأنني عملت هذا التعهد من دون معرفته، لن يدعني أذهب».

فقلت:« في جميع الأحوال، هناك شيء واحد يمكنك القيام به: يمكنك الوعد، إذا ما أعادك الرب سالمة إلى فرنسا، تقديم سفينة من الفضة، قيمتها خمسة ماركات، عن الملك وعنك، وعن أولادك الثلاثة، ووقتها أنا أضمن أن الرب سوف يعيدك إلى فرنسا، لأنني شخصياً نذرت إلى القديس نيقولا أنه إذا ما أنقذنا من الخطر الذي كنا فيه في الليلة الماضية، سوف أذهب من جوانفيل، مشياً على الأقدام غير منتعل، لزيارة مزاره في فرنجفايل»، وأجابت الملكة أنه بالنسبة للسفينة الفضية التي قيمتها خمسة ماركات، فإنها تعد بها إلى القديس نيقولا، وأن أتولى الضمانة والشهادة لديه، وأخبرتها بأنني سأفعل ذلك بكل سرور، ثم إنها ذهبت، لكنها لم تبق بعيدة لمدة طويلة، فقد عادت فوراً وقالت لي:«لقد أنقذنا القديس نيقولا من خطرنا الحالي، لأن الريح قد هدأت».

وعندما عادت الملكة إلى فرنسا — منحها الرب الرحمة — أمرت بصنع سفينة فضية لها في باريس، وكان فيها تماثيل تمثلها، وتمثل الملك، وتمثل أولادها الثلاثة، وكانوا جميعاً من الفضة، واستخدم المعدن نفسه لتمثيل البحارة، والسارية، والعلم، والدفة، أما الأشرعة فقد خيطوا بخيوط فضية، وأخبرتني الملكة أن صنعها كلف مائة ليرة ذهبية، وعندما باتت جاهزة، أرسلت السفينة لي إلى جوانفيل، حتى أتدبر نقلها إلى بيعة القديس نيقولا، وقد فعلت ذلك، وقد رأيتها مازالت في بيعته عندما كنا نصطحب أخت الملك الحالي إلى هاغونو Haguenau للزواج من ابن امبراطور ألمانيا.

ودعونا الآن نعود إلى موضوعنا الأساسي، ولنتابع حكايتنا، فبعدما نجونا من هذين الخطرين، جلس الملك على حافة السفينة العليا، وطلب مني الجلوس عند قدميه وقال لي:«تعلم أيها النائب أن الرب قد أظهر قدرته بوضوح كامل لنا، بواحد من رياحه الصغيرة — وليس بواحد من رياحه الأربعة الرئيسية — وكاد أن يغرق ملك فرنسا، وزوجته

وأولاده، وكل من كـان برفقتـه، ولهذا يتـوجب علينا إظهـار امتناننا وتقديم شكرنا لإنقاذنا من مثل هذا الخطر».

ثم أضـاف:«ولقـد أخبرنا القـديسـون أنه عندمـا تلم البـلايا بالناس ويبـاتون عـرضة لمعـاناة مثل هذه المحن، أو الإصـابة ببعض الأمـراض الخطيرة، أو الخضوع لعذاب شـديد، عليهم عدّ ذلك بمثابة إنذارات أو تهديدات من مـولانا ومخلصنا، لأنه كما قـال للذين شفيـوا من بعض الأمـراض الخطيرة: انظروا كيف كـان بإمكاني إمـاتتكم لو أنني أردت، بإمكانه أن يقول لنا الآن: انظروا كيف كان بإمكاني إغراقكم لو شئتكم أن تموتوا».

ومضى الملك بحديثه يقـول:«لهذا علينا أن ننظر في أنفسنا ونتفحصها لنرى إذا مـا كـان هناك أي شيء فينا لا يرضي مـولانا، وبسببـه قـام بإرعـابنا، وإذا مـا وجـدنـا شيئاً في أنفسنا يغضبـه، علينا على الفـور أن نتخلص منه، لأننا إذا ما فعلنا عكس ذلك بعد هذا الإنذار الذي أعطانا إياه، سـوف يعـاقبنا بالموت، أو بمصيبـة أخـرى عظيمـة، سـوف تؤذي أجسادنا وأرواحنا».

ثم أضاف الملك وتابع يقول:«قـال القديس أيها النائب: مولانا الرب لماذا هددتنا؟ لأنك لو دمرتنا جميعاً، فـذلك لن يجعلك أفقر، كما أنك لن تكون أغنـى لو حفظتنـا، وقـال القـديس: ومـن هذا نـرى أن هذه الانذارات التي بعثها لنا، لم يبعثهـا ليزيد مرابحـه، ولا ليحمي نفسه من الخسـارة، بل أرسلهـم فقط صـدوراً عن حبـه العظيم، ليـوقظنا، لكي نمتلك شعـوراً نظيفـاً بشأن مستقبلنا، وأن نطهـر قلوبنا من كل مـا لا يرضيه».

وبعـدمـا زودنا سفينتنا بما يلزم من مـاء الشرب، وأشيـاء أخـرى كنا نحتـاجهـا، غادرنـا جزيرة قبرص، وأبحـرنا إلى جـزيرة أخـرى اسمهـا

لامبـدوسـا Lampdusa حيث أمسكنا عـــدداً كبيراً من الأرانب، ووجـدنا هناك ناسكاً عجـوزاً بين الصخـور، مع حـديقة كـان النسـاك الذين عاشوا هناك منذ مدة طويلة قد زرعوها، وكانت مزروعة بأشجار الزيتـون، وأشجار التين، والكرمة وأشجـار أخرى ونبـاتات من مختلف الأنواع، وكـان هناك نهر صغير يجري خـلال الحديقـة مـن نبع هناك، وذهب الملك مع بقيتنـا إلى قلب البستـان، حيث وجـدنا في أول كهف وصلناو إليـه كنيسة صغيرة، جـدرانها مطلية بلون أبيض، وهي تحتـوي على صليب من الطين الجاف، ولدى دخـولنا إلى الكهف الثـاني وجـدنا جســدين لرجلين ميتين، اهترأت جلودهما، ومــا تزال أطرافهما فــوق بعضهـا، وعظام أيديهما فـوق صـدريهما، وكـان جسـديهما ممددين باتجاه الشرق، حسب الطريقة نفسها التي يدفن بها الناس تحت الأرض.

وعندما عـدنا إلى سفينتنا وجدنا واحداً من بحارتنا مفقـوداً، واعتقد مقـدم البحارة أنه لابد بقي في الجزيرة ليكون ناسكاً، ولهذا ترك نيقـولا دي سوسي Soisi ، الذي كان مقدم سيرجندية الملك ثلاثة حقائب من البقسماط، علّ ذلك الرجل يجد شيئاً يقتات به.

وبعدما غادرنا لامبـدوسا وصلنا إلى مرأى من جزيرة كبيرة في وسط البحر، وكانت تعرف باسم بانتالاريا Pantalaria (قوصرة)، وكانت مسكونة من قبل المسلمين الـذين كـانوا خـاضعين لملك صقليـة وملك تونس، وترجت الملكة الملـك أن يرسل إلى هناك ثلاثة غـلايين ليجلبـوا فواكه لأولادها، وقـد وافق الملك، وبعث بمقدمي الغلايين للذهاب إلى هناك، وأمـرهـم أن يكونوا جـاهزين لـلالتحـاق به فـور مـروره أمـام الجزيرة، وأخـذت الغلايين طريقهـا إلى هناك، ودخلت إلى ميناء صغير، لكن الذي حـدث أنه عندما مـرت سفينة الملك من أمـام الميناء، لم تكن هناك علامة على وجودهم.

وبدأ البحـارة يتمتمون فيما بينهم، وبناء عليـه أمر الملك بمثـول جميع

البحارة أمامه، وسألهم عن الذي يعتقدون أنه قد حدث، فقالوا بأنه يبدو لهم أن المسلمين قد أسروا رجال الملك وغلايينهم، وقالوا: «ونحن ننصح جلالتك بشدة أن لاتنتظرهم، لأنك الآن بين مملكتي صقلية وتونس، وما من واحدة منهماتمتلك مشاعر الحب نحوك، وإذا ما تركتنا نتابع ابحارنا، فسوف نخرجك من هذا الخطر قبل الصباح، لأننا نكون في ذلك الوقت قد مررنا خلال المضيق».

وقال الملك: «الحق أقول، ليس لدي نية بالأخذ بنصيحتكم، وأن أترك رجالي في أيدي المسلمين، دون بذل غاية جهدي لإنقاذهم، ولهذا آمركم بإدارة أشرعتكم حتى يكون بإمكاننا مهاجمة الأعداء»، وعندما سمعت الملكة بهذا، بدأت تبدي عظيم جزعها وقالت: «واحزناه، هذا كله من صنعي».

وبينما كنا نجهز أشرعة سفينة الملك والسفن الأخرى حتى نكون في مجرى الريح نحو الساحل، رأينا الغلايين تغادر الجزيرة، وما أن اقتربوا من الملك، حتى سأل الملاحين لماذا تأخروا كل هذه المدة، فأجابوه بأن ذلك لم يكن تقصيراً منهم بل فوق طاقتهم، ومرد الخطأ إلى بعض أبناء برجاسية باريس، الذين كان عددهم ستة، فقد تأخر هؤلاء في الحدائق، وهم يأكلون الفواكه، ولقد كان من غير الممكن إحضارهم، ولم يرغبوا في تركهم خلفهم، وأمر الملك بوضع المجرمين الستة في القارب الطويل، وهنا بدأوا يصرخون ويعولون، وقالوا: «من أجل الرب، خذ ياصاحب الجلالة كل ما نملكه فدية لنا، ولاتلقنا بين القتلة واللصوص، لأن ذلك سيكون عاراً أبدياً لنا».

وبذلت الملكة وجميعنا كل ما نستطيعه حتى يغيّر الملك قراره، غير أنه لم يصغ إلى أي واحد منا، وهكذا وضع الستة جميعاً في القارب الطويل، ومكثوا هناك حتى وصلنا إلى اليابسة، وكانوا في وضع خطر كبير، وضيق شديد، حتى أنه عندما كان البحر يثور، كانت الأمواج العالية

تتـدفق فـوق رؤوسهم، وتوجب عليهم البقـاء جـالسين طوال الوقت، خـوفـاً من أن تجرفهم الريح إلى الماء، وكـان هذا العقـاب رادعـاً لهم واستحقوه، بسبب الأذى الـذي ألحقه جشعهم بنا، فقد تـأخرت رحلتنا اسبـوعـاً عما كـانت ستحتـاجـه، لأن الملك جعل السفن تغيّر مسـارها، وتعود إلى الخلف.

وقبل أن نصل إلى اليابسة واجهنا مخاطرة أخرى في البحر، فقد قامت إحدى الراهبـات العلمانيات، وكـانت تتولى خـدمة الملكة، بأخـذ منشفة الملكة التي كـانت ترتديها حـول رأسهـا، عندمـا وضعـت سيـدتها في الفراش، وألقت بها بدون انتبـاه قرب الموقد المعـدني، الذي كانت فـوقه شمعـة الملكة تحترق، وبعدمـا مضت هذه الانسـانة البسيطة إلى النوم في الحجـرة المخصصـة لنوم النسـاء، تحت فـراش الملكة، تـابعت الشمعـة احتراقهـا، حتى بات لهبهـا منخفضـاً بما فيه الكفـاية لاشعـال المنشفـة، وانتقلت النار من هناك إلى الأقمشة التي كانت تغطي الملكة بها لباسها.

وأفاقت الملكة لتجـد حجرتها وهي تحترق، فقفزت من فـراشها وهي عارية تماماً، والتقطت المنشفة، ورمتها وهي تحترق في البحر، ثم أطفأت النار التي كانت فـوق ثيابها، وصرخ الرجال الـذين كانوا خلف السفينة في القـارب الطويل بهدوء «النار، النـار» فـرفعت رأسي فـرأيت المنشفـة وهي ماتزال تلتهب بقـوة فوق سطح البحـر الهادىء، فارتديت قميصي بأقصى سرعة ممكنة، وذهبت فجلست مع البحارة.

وبينما أنا هناك، جـــاء تابعي، الذي كـان نائماً عنـد أسفل فـراشي، وأخبرني بأن الملك قـد استيقظ وسأل عن مكان وجـودي، وقال: «لقـد أخبرته أنك في حجـــرتك، فقـــال الملك لي: انـك تكذب»، وفيما نحن نتحدث جاء قسيس الملك الأخ غيوفـري بشكل مفاجىء إلينا وقال لي: «لاتخشى شيئاً، كل شيء على ما يرام» فقلت : «الأخ غيوفري إذهب إلى الملكة وأخبرها بأن الملـك مستيقظ، واطلب منهـا أن تذهب إليــه لكي

يطمئن باله».

وفي اليوم التـالي قال قسطلان فـرنسا، وبيير حـاجب الملك، وجيرفيه رئيس طبـاخي الملك، للملك: «مـا الذي حـدث في الليل، لأننا سمعنا كلمة نار»؟ ، أمـا أنا من جانبي فقـد احتفظت بالصمت، لكن الملك رد قائلاً: «إنه مجرد حادث عرضي، يبدو لي أن النائب يعرف عنه أكثر مني، وعلى كل حـال سوف أخبركم كيف أنه صـدف أن نجونا بصعـوبة من الاحتراق في الليلة الفائتة»، وهكذا أخبرهم بالذي حدث وقال لي: «أيها النائب إنني آمـرك من الآن فصـاعـــداً بأن لاتذهب إلى الفـراش، حتى تكون قـد أشرفـت على إطفـاء جميع النيران، باستثناء النـار الرئيسيـة في مخزن السفينة، وليكن معلوماً لديك أنني لن أذهب إلى فراشي حتى تأتي إليّ وتخبرني بأن ذلك قد صنع»، وقد نفذت هذا الواجب طوال وجودنا في البحر، ولم يذهب الملك إلى فراشه قط حتى عدت إليه.

وحدث حادث آخر في أثناء رحلتنا، فقد كان اللورد دراغونت Dra-gonet، وهو سيد من بروفـانس، نائماً في صباح أحـد الأيام في سفينته، التي تبعـد متقـدمـة حوالي الفـرسخ أمـام سفننا، ولدى استيقـاظه دعـا واحداً من أتباعه وقـال له: «خذ شيئاً ما وغط تلك الفتحة لأن الشمس تضرب وجهي»، ووجد التابع نفســه غير قادر على تغطية الفتحة إلاّ من الخارج، فصعـد جانب السفينة، وعندمـا كان مشغـولاً في وضع الغطاء انزلقت قـدمـه، وسقط في الماء، وبما أن السفينة كـانت سفينة صغيرة، لم يكن لديها قـارب طويل للنجـاة مـربوط بها، وهكذا خلفت التـابع على مسافة بعيـدة منها، ورآه الذين كانوا في سفينة الملك، لكن بما أن الرجل في الماء لم يبذل أي جهد لمساعدة نفسه، ظننا أنه حزمة ما، أو برميلاً.

وقـام واحـد من غـلايين الملك بـانتشـاله، وجلبـه إلى سفينتنا، حيث أخبرنا كيف وقع الحادث، وسألتــه لماذا لم يحاول مسـاعـدة نفســه، إمـا بالسباحة أو بأي طريقة أخـرى، فأجابني أنه لم تكن هناك حاجة لذلك،

أو ضرورة بالتفكير بالقيام بذلك، لأنه عندما بدأ بالسقوط أوكل نفسه إلى سيدتنا سيدة فوفيرت Vauvert وقد أمسكتـــه هي من كتفيه من وقت سقوطه حتى انتشله غليون الملك، وتشريفاً لهذه المعجزة، تدبرت أمر رسمها على جدران بيعتي في جوانفيل، وكذلك فوق الزجاج الملون للنوافذ في بليكورت.

وبعدما أمضينا عشرة أسابيع في البحر وصلنا إلى ميناء وقع على قرابة الفرسخين من قلعة هير Hyeres ، التي عادت بملكيتها إلى كونت دي بروفانس، الذي أصبح فيما بعد ملكاً على صقلية، ووافقت الملكة ومعها جميع المستشارين على وجوب نزول الملك هناك، لأن البلاد كانت تابعة إلى أخيه، وردّ الملك، أنه في جميع الأحوال لن يغادر سفينته حتى نصل إلى أيغو— مورت Aigues- Mortes، التي كانت في أراضيه، وتمسك بهذا الرأي ضدنا طوال يومي الأربعاء والخميس ، ولم نستطع اجباره على تغيير رأيه.

وامتلكت جميع السفن التي بنيت في مرسيليا سكانين ارتبط كل واحد منها بذراع دفة بطريقة رائعة تمكنك من إدارة السفينة إلى اليمين أو إلى اليسار بسهولة مثلما يمكنك إدارة الحصان أثناء الفلاحة، وفي يوم الجمعة كان الملك جالساً على واحد من هذين الذراعين، وقد استدعاني إليه وقال: «ما هو رأيك أيها النائب حول هذه المسألة»؟ فقلت: «إنك سوف تستحق ما سيجري لك إذا ما واجهت منيتك بشكل ما، مثلما حدث لمدام بوربون، التي رفضت النزول في هذا الميناء، بل مضت ثانية إلى ايغو— مورت، وبقيت في البحر لمدة ستة أسابيع كاملة».

واستدعى الملك مستشاريه للاجتماع به، وبعدما أخبرهم بالذي قلته سألهم عن الذي يشيرون به، وقد رأوا جميعاً أن عليه النزول هناك، وبالتالي سيكون تصرفاً غير منطقي من جانبه، الآن وقد باتوا خارج الخطر، تعريض نفسه، وزوجته وأولاده لمزيد من المخاطر في البحر،

وقبل الملك هذه النصيحة التي أسديناها له، وبعث قراره بهجة عظيمة في نفس الملكة.

وبالنتيجة نزل الملك مع أسرته قرب قلعة هير، وفي الوقت الذي كان ينتظر فيه هناك للحصول على خيول لرحلته عائداً إلى جزيرة فرنسا، أهداه راعى دير كلوني— الذي صار فيما بعد أسقفاً لأولف Olive — مهرين، تساوي قيمتهما خمسمائة ليرة ذهبية في هذه الأيام، وكانا مهر للملك شخصياً والآخر إلى الملكة، وبعدما أهداه إياهما قال راعي الدير للملك: «سوف أعود غداً، لأتحدث إلى جلالتكم حول مسائل شخصية»، وعاد راعي الدير في اليوم التالي، وأصغى الملك مطولاً وبعناية كبيرة لما قاله، وعندما ذهب مضيت إلى الملك وقلت له: «أود أن أسالك إذا ما سمحت لي، عما إذا كنت أوليت راعي يركلوني العناية وأصغيت إليه باهتمام، بسبب المهرين اللذين أعطاكهما البارحة»؟ وفكر الملك مليا ولوقت طويل، ومن ثم قال: «تريد أن أخبرك الصدق، لقد فعلت».

فقلت: «ياصاحب الجلالة هل تعرف لماذا سألتك هذا السؤال»؟ فقال: «لماذا فعلت ذلك »؟ فأجبته: «بسبب أنني أشير بإخلاص على جلالتك، أنك عندما تعود إلى مملكتك أن تحظر على مستشاريك الذي أقسموا على إدارة أعمال العدالة، قبول أي شيء من الذين لديهم أية قضية لعرضها أمامك، وكن متأكداً، أنهم إذا ما قبلوا أية هدية، سوف يصغون برضا أعظم، وبعناية أكبر إلى الذين أعطوهم شيئاً ما، مثلما فعلت جلالتك في قضية راعي دير كلوني»، واستدعى الملك على الفور مستشاريه إليه، وأخبرهم بالذي قلته، فأخبروه بأن الذي أشرته عليه جيداً.

وسمع الملك تقارير عن راهب فرنسيسكاني اسمه الأخ هوغو، وبسبب سمعة هذا الراهب العظيمة استدعاه إليه، حتى يتمكن من

رؤيته ويستمع إلى عظته، وفي اليوم الذي كان الراهب هوغو قادما فيه إلى هير، تشوفنا على طول الطريق الذي كان قادماً عليه، ورأينا حشداً عظيماً من الرجال والنساء يسيرون خلفه على أقدامهم، وطلب الملك منه أن يعظ، وقد بدأ قداسه بتعليقات على الذين كانوا في التنظيمات الرهبانية، وقال: «سادتي، لقد رأيت عدداً كبيراً من الرهبان في بلاط الملك، وفي صحبته»، ثم أضاف: «في المقام الأول، أنا شخصياً واحد من عدد كبير جداً هنا، وأقول هذا لأن الرهبان هنا في وضع لايمكن انقاذهم فيه، ما لم تكن الكتابات المقدسة تكذب علينا، وهذا غير ممكن، لأن هذه الكتابات المقدسة تخبرنا أن الراهب لايجوز أن يعيش خارج ديره، أكثر من الوقت الذي يمكن لسمكة أن تعيشه خارج الماء، وهنا إذا كان هؤلاء الرهبان يقولون بأن البلاط هو دير، يمكنني أن أقول لهم إنه أوسع دير رأيته قط، لأنه يمتد من شاطىء البحر هذا إلى الشاطىء الآخر، وإذا ما أعلنوا أنهم يمارسون في دير من هذا الطراز حياة قاسية في سبيل خلاص أرواحهم، إنني لا أصدقهم، لأنني أخبركم أنني وأنا موجود معهم هنا لقد أكلت كثيراً من مختلف أنواع اللحوم، وشربت كثيراً من الخمور القوية واللطيفة من أفضل الأنواع، ومن هنا أؤكد لكم بثقة أنهم لو كانوا يعيشون في ديرتهم لما عاشوا مثل هذه الحياة السهلة والرغدة، التي يعيشونها الآن مع الملك».

وأخبر الراهب أثناء عظته الملك كيف ينبغي أن يحكم لصالح شعبه، وأنهى خطابه بقوله بأنه قرأ الكتاب المقدس وكثيراً من الكتابات التي تساعد على شرحه، غير أنه لم يرقط في الكتابات المسيحية أو غير المسيحية، أن أي مملكة أو دولة ضاعت أو انتقلت من حاكم إلى آخر، ما لم يكن تقدم ذلك تجاهل لمطالب الحق والعدالة، وقال: «ولهذا، على الملك العائد الآن إلى مملكته، أن يأخذ بالحسبان حكم شعبه بالعدل والمساواة، فبذلك يكون جديراً بحب الرب، ولن ينتزع الرب مملكته منه

مادام حياً».

وقد قلت للملك يتوجب عليه الاحتفاظ بالراهب هوغو بصحبته بقدر ما يمكنه من الوقت، فأخبرني بأنه قد تولى رجاء الراهب للبقاء معه، لكن لهذا كله رفض، ثم أخذني الملك من يدي وقال: «دعنا نذهب كلانا ونترجاه معا»، وذهبنا لرؤيته، وقد قلت له: «أرجوك ياسيدي استجب لما طلبه منك الملك، وامكث معه طالما هو في بروفانس»، وقد أجابني بغضب عظيم قائلاً: «في الحقيقة ياسيدي إنني لن أفعل مثل هذا الشيء، ولسوف أذهب إلى حيث يرى الرب أنه أفضل من البقاء مع الملك وبرفقته»، وقد بقي يوماً واحداً معنا، وغادر في الصباح التالي، وسمعت فيما بعد أنه مات ودفن في مدينة مرسيليا، وقد صنع هناك عدداً من المعجزات.

ومضى الملك في اليوم الذي غادر فيه هير نازلاً من القلعة سيراً على الأقدام لأن الرابية كانت شديدة الانحدار، ولقد ابتعد في سيره كثيراً إلى حد أنه لم يستطع العودة إلى مهره، وهكذا توجب عليه امتطاء مهري، وعندما أحضر مهره إليه التفت مغضباً كثيراً نحو خادمه بونس Ponce، وبعدما وجه إلى هذا الانسان المسكين توبيخاً كبيراً، قلت للملك: «يتوجب عليك ياصاحب الجلالة أن تغفر لبونس الخادم كثيراً، لأنه خدم جدك، وأباك، وأنت»، فرد علي: «أيها النائب، إنه لم يخدمنا، بل نحن الذين خدمناه، بالسماح له بالبقاء معنا على الرغم من مواصفاته السيئة، لأن جدي الملك فيليب، أخبرني مرة أن علينا مكافأة خدمنا، بعضهم أكثر، وبعضهم أقل، وذلك تبعاً للطريقة التي أدوا بها واجباتهم، كما أنه اعتاد أن يقول لايمكن لانسان أن يحكم بلاداً بشكل جيد ما لم يعرف كيف يرفض بقسوة وبثبات مثلما يعرف كيف يعطي»، وأضاف يقول: « وإنني إذ أخبرك بهذه الأشياء، لأن العالم جشعون جداً بمطالبهم، إلى حد أن عدداً قليلاً من الناس هم الذين يفكرون بإنقاذ

نفـوسهم، أو يسعـون في سبيـل شرفهم الشخصي، دون أن يكون ذلك على حساب الاستيـلاء على ممتلكات الآخريـن سواء أكان ذلـك حقاً أم باطلاً».

ومـرّ الملك في طريقه عبر مقـاطعة بروفـانس، بمدينة واقعـة في تلك الأرجاء اسمها اكس Aix ، فيها يرقـد جسد مريم المجدلية مـدفوناً، ومضينا للنظر إلى كهف مرتفع كثيراً في منطقة صخرية قيل بأن القديسة قد عاشت فيـه عيشة التنسك لمدة سبع عشرة سنة، وعندما وصل الملك إلى بوكير Beaucaire، ورأيتـه قـد صـار في أراضيـه داخل ممتلكاته، ودعتـه وذهبت لأقـوم بزيـارة ابنة أخي دوفين دي فينا Daufine de Vinne ، ثم زيارة عمي كونت دي شالون Chalon ، وابنه كونت بيرغندي.

وبعـد الاقـامـة لبعض الوقت في جـوانفيل، حيث تـوليت العناية بمصالحي الخاصة، ذهبت للالتحاق بالملـك، الذي وجدته في سواسون، وقد رحـب بي بسرور عارم، إلى حد أن جميع الـذين كانوا معـه تعجبوا من ذلك، ووجدت الكونت جين دي بريتاني هناك مع زوجته ابنة الملك ثيبوت الأول ملك نافـار، وقد قدمـت لتقدم الولاء للملك، بشأن جميع الحقـوق التي يمكن أن تنالها في شـامبين، وعلى كل أجّـل الملك النظر بالقضيـة، وأحالها، وكذلـك أحال الملك ثيبـوت الثاني إلى مـؤتمر سوف يعقد في باريس، حيث يمكن سماع قضيتهما، ولكي تأخذ العدالة مجراها لصالح الفريقين.

وجاء ملك نافـار مع مستشاريه إلى هذا المؤتمر، وكـذلك فعل كونت دي بريتـاني، وفي أثنـاء الاجـراءات طلب الملك ثيبـوت يد ابنة الملك، السيـدة ايزابل، وذلك من أجل الزواج، ولقد قـررت الذهاب إلى الملك للحـديث معه حـول هذا التحـالف، وذلك دون أن أعبأ بالأشيـاء التي قـالها أبناء بلدي من شـامبين، من وراء ظهـري، وذلك حسـداً منهم لي

إزاء الحب الذي رأوا الملك يبديه نحـوي في سواسـون، وقال الملك لي: «اذهب إلى كـونت دي بريتاني واحمله على القبـول، ووقتها سـوف ننجز الزواج»، وأخبرته أن عليه عدم إعطاء مثـل هذه الاعتبارات أهمية تجعله يتخلى عن فكرة الزواج، فأجـابني بأنه لن يوافق بأي حال مـن الأحوال على حـدوث الزواج حتى يتم الوصول إلى اتفـاق، لأنه لاينبغي أبدا أن يقول أحد من الناس أنه حتى يزوج أولاده حرم باروناته من ميراثهم.

ورويت هذا الحديث إلى الملكة مرغريت أوف نافار، وكذلك إلى ابنها الملك ثيبـوت، وإلى مستشـاريهم، وما أن سمعـوا مـا قـاله الملك لويس حتى بادروا مسرعين للوصـول إلى اتفـاق، وعنـدمـا توصلت الأطراف جميعاً إلى اتفـاق، جرى الاحتفـال بالزواج في ميلون Melun ، بأبهة كـاملة وحفل عظيم، وذهب الملك ثيبـوت بعـد ذلك إلى بروفنز Pro-vins مع عـروسه، حيث جـرى الترحيب بدخـولهما من قبل جمع كثيف من البارونات.

الفصل الثامن عشر
إدارة الملك لمملكته

بعد عـودة الملك من بلاد ماوراء البحر، عـاش دون إكتراث بمباهج الحياة الدنيا، حتى أنه لم يلبس ثوباً من فـراء السمور والسنجاب، أو من الأقمشة القرمزية، كما أن ركائبه ومهاميزه لم تكن مذهبة، وصنعت ثيابه إما من وبر الجمـل أو من الأقمشة الصوفيـة الرمادية، وكـان الفراء على هذه الملابس وعلى أغطيـة فـراشـه إمـا من جلود الغـزلان أو من جلود الأرانب، أو جلود الخرفان.

وكـان شديد التقشف في تذوقـه للطعـام إلى حد أنه لم يأمـر قط بأي طعـام خاص لنفسـه، بل كـان يتناول أي شيء أعده الطبـاخ، وأكل أي شيء وضع أمـامه، وكـان يمـزج الماء بالخمـرة ويشربها من قدح عـادي بيـده، عندمـا يقـوم الخدم بتحضير الخمرة خلف مـائـدته، واهتم دومـا بإطعام الفقراء، وبعد تناولهم للطعام، كان يرسل مالاً لتوزيعه بينهم.

وعندمـا كان يأتي بعض المغنين العـاملين في خدمة بعض النبـلاء مع آلاتهم للترفيه عنه بعـد الغداء، كان الملك دومـا ينتظر حتى الانتهاء من الغناء، وذلك قبل ترتيـل الشكر، ثم كـان يقف، ويقف كهنتــه أمـامـه لترتيل الشكر، وفي المناسبـات التي كنا نزوره فيها زيارات غير رسميـة، كان يجلس عند قدمي فراشـه، وإذا صدف وقام بعض الرهبان المبشرين أو الفرنسيسكان الذين كانوا معه بالحديث عن كتاب، رغبوا في أن يقرأ على مسامع الملك، كان يقول: «لاتقرأوه لي، ليس هناك من كتاب يعدل بالجودة بعد الطعـام حديث مفتوح بين الأصـدقاء، وذلك عندمـا يقول كل واحـد ما يرضيـه قـوله، وفي كل مـرة كان بعض الغـرباء من ذوي المكانة يأتون لتناول الطعام مع الملك، كانوا دوماً يجدونه أفضل أنيس.

وسوف أحـدثكم الآن عن حكمته، فقد جاءت أوقـات عندما سمع الناس يعلنون في الحقيقـة أنه لم يكن بين مستشـاريه من كـان مثل الملك بحكمتـه، وكـان بذلك واضح مـن حقيقـة أنه عندمـا كـان أي انسـان يستشيره حول مسألة مـا، لم يكن يقول له: « سـوف أستشير حول هذه القضية»، بل كان إذا ما رأى الحل الصحيح واضحـاً وأبلجاً، كان يقدم الجواب بدون الإشارة إلى مستشاريه، وكان يفعل ذلك على الفور، فهذا مـا سمعته عندمـا أجاب جميع أسـاقفة مملكتـه في مسألة الإلتماس الذي قدموه مرة إليه.

ففي هذه المناسبـة خـاطبـة أسقف أو كسير Auxerre باسم جميع الأسـاقفـة من أصحـابه بقـوله: « ياصـاحب الجلالـة، كلفني رؤسـاء الأسـاقفة والأسـاقفـة الحضـور في أن خبرك بأن شرف المسيحية آخـذ بالإنحـدار على يديك،ولسـوف ينحـدر أكثـر مـا لم تعط المسألة بعض التفكير والتقدير، لأن ما من انسان يخاف من التعرض للحرمان الكنسي في هذه الأيام، ولهذا نطلب منك ياصاحب الجلالة أن تأمر نوابك وبقية المسؤولين عن الشريعة بالقيام بإرغام جميع الناس الذين هم تحت عقوبة الحرمـان الكنسي أن يقـومـوا خـلال سنة ويوم على إقـامـة السـلام مع الكنيسة»، ورد الملك بدون أخذ أية نصيحـة بأنه سوف يلبي طلبهم عن طيب خاطر، ويأمر نوابه وبقية موظفيه بارغام مثل هؤلاء الناس حسب الطريقة المرغوب بها، شريطة إعطائه معـرفة كاملة عن الحكم الصادر في كل قضية، حتى يمكنه أن يحكم فيها إذا كان القرار عادلاً أم لا.

وبعـدمـا تشـاور الأسـاقفـة فيها بينهم أخبروا الملك أنهم سـوف لن يزودوه بمثل هذه المعلومـات، لأن هذه قضيـة من اختصـاص المحـاكم اللاهوتية فقط، وأجـابهم الملك أنه بدوره لن يقدم لهم المعلومـات حول القضايا الواقعة في إطار اختصاصاته القضائية، وكذلك لن يأمر موظفيه بالقيـام بارغـام جميـع الأشخـاص المحـرومين كنسيـا للحصـول على

التحليل، دون أخذ بالاعتبار سواء أكان قرار الحرمان قد صدر بشكل عادل أو ظالم، وأضاف «لأنني إذا ما فعلت كما تريدون، سأكون سالكاً لسبيل معاكس لشريعة الرب ولمبادىء العدالة، وسوف أضرب لكم مثلاً بالقضية التالية: وضع أساقفة هذه المقاطعة كونت بريتاني تحت حكم الحرمان الكنسي لمدة سبع سنوات، حصل في نهايتها على التحليل من محكمة روما، والآن لو كنت فرضت الإرغام عليه في نهاية السنة الأولى، لكنت قد أخطأت بحقه وظلمته».

وحدث بعد عودته من بلاد ما وراء البحر أن قام رهبان دير القديس أوربين Urbain بانتخاب راعيين، فأقدم الأسقف بيير دي شالون— منح الرب الرحمة إلى روحه— على طردهما وأعطى عصا الرعاية مع المباركة إلى جين دي ميمري Mymeri ، الذي عينه لتولي هذا المنصب، ولم أعترف شخصيا بهذا الرجل راعياً، لأنه آذى الراعي غيوفري، الذي اشتكى ضده، ورفع قضية وأخذها إلى محكمة روما، ولقد أبقيت الرعاية بين يدي حتى ربح غيوفري العصا، والرجل الذي أعطاه الأسقف إياها لم يحصل عليها بعد ذلك مطلقاً، لكن طوال عرض القضية واستمرار الخلاف أبقائي الأسقف تحت عقوبة الحرمان الكنسي، ولهذا السبب تخاصمت بعنف مع الأسقف بيير دي شالون، أثناء المؤتمر الذيس عقد في باريس، مثلما فعلت الكونتسه مرغريت دي فلاندرز مع رئيس أساقفة الرايمز، الذي اتهمته بأنه كان لايقول الصدق.

وفي أثناء المؤتمر الذي عقد بعد ذلك بوقت قصير، إلتمس الأساقفة جميعاً من الملك القدوم للتحدث معهم على انفراد، ولدى عودته من المقابلة مع هؤلاء الأعيان عاد جلالته إلينا، نحن الذين كنا ننتظره في قاعة المحكمة، وأخبرنا ، وهو يضحك من قلبه، عن الاضطراب الذي واجهه مع الأساقفة، فقد قال له رئيس أساقفة الرايمز في البداية: « ياصاحب الجلالة ما الذي سوف تعطيني إياه عوضاً عن الاشراف على

دير القديس ريمي أوف رايمز، الذي سوف تأخذه مني؟ لأنني أقسم بحق الآثار المقدسة التي هي أمامنا، أنني لا أنوي المعصية واقتراف الذنب، مثلما تنوي أنت بالنسبة لجميع مملكة فرنسا»، فأجابه الملك: « أقسم بحق الآثار المقدسة التي هنا أمامنا، أنك بأخلاقك الجشعة سوف تقترف الذنوب من أجل كومبين Compigne وحدها، وعلى هذا واحد منا نحن الاثنين حانث بيمينه وكاذب بدعواه».

ثم قال الملك: «وبعد ذلك طلب مني أسقف تشارترز وجوب أن أعيد إليه كل ما يخصه، وهو الآن بين يدي، فأخبرته أنني لن أفعل ذلك حتى الوقت الذي سيدفع فيه جميع ما أستحقه، وفضلاً عن هذا بينت له أنه على الرغم من تقديمه الولاء لي ويديه بيدي، هو لم يتعامل معي لابشكل صحيح ولا بإخلاص في محاولته حرماني من حقوق قد ورثتها».

واستطرد الملك يقول: «وقال أسقف شالون الآن لي: ما الذي تفكر جلالتك بصنعه فيما يتعلق بمولاي صاحب جوانفيل، وبخصوص ذلك الراهب المسكين الذي انتزع منه دير القديس أوربين» فأجابه الملك قائلاً: «سيدي الأسقف، لقد أقررت أنت وأصحابك الأساقفة بناء على اتفاق بينكم عدم عرض قضية رجل محروم كنسياً في محكمة مدنية، واستخلصت من رسالة مختومة بإثنين وثلاثين ختماً أنك خاضع لهذا النوع من الحرمان، ولهذا لن أستمع إليك حتى تتمكن من تحليل نفسك»، وانني إذ أخبركم بهذا كله، أستهدف فقط أن أريكم بكل وضوح كيف كان بإمكان الملك معالجة أية مشكلات توجب عليه فضها شخصياً، وذلك من دون الاستعانة بغير عقله الجيد.

وبعدما هيأت الأمور كلها لصالح الراعي غيوفري راعي دير القديس أوربين ردّ لي الاحسان بالإساءة، بتقديم شكوى ضدي، حيث أعطى الملك القديس الانطباع أن ديره كان تحت الرعاية الملكية، وطلبت

من الملك البحث في هذه المسألة، حتى يتبين له بدون أدنى شك هل الدير تحت وصايته أم تحت وصايتي، فقال راعي الدير له: « بمشيئة الرب، لن تفعل شيئاً من هذا القبيل ياصاحب الجلالة، بل بالحري رتب لعرض المسألة المختلف عليها فيما بيننا على التحكيم في المحكمة القانونية، ذلك أنه بالنسبة لنا نحن الذين نتمي إلى هذا الدير بحكم الوراثة نؤثر أن يكون الاشراف عليه من نصيبك وليس من نصيبه، وقال الملك لي: «هل يقولون الصدق عندما ذكروا أن الدير تحت وصايتي»؟ فقلت: «من المؤكد لا ياصاحب الجلالة، إنه ملكي أنا».

ثم قال الملك للراعي: «قد يكون الدير هو ديرك بالوراثة، لكن هذا لايعني أنك تمتلك الحق في المطالبة بوضعه تحت تصرفك وحدك، وفي الحقيقة تبين لي مما قلته ومما أخبرني به النائب أن قضية الوصاية هي مسألة بيني وبينه لوحدنا، وبناء عليه، إنه على الرغم من كل ما قلته، إنني لن أتمنع عن اتخاذ خطوات للوصول إلى الحقيقة بشأن هذه المسألة شخصياً، لأنني لو أرغمت اللورد جوانفيل على الالتجاء إلى القانون، سوف أكون مخطئاً بحقه، وهو واحد من أتباعي، حين أضع حقه تحت رحمة المحكمة العامة، في حين أنه يمنحني الآن— لأني سيده— فرصة كاملة للوصول إلى الحقيقة»، وبناء عليه أمر الملك شخصياً بالبحث في القضية، وما أن تبينت له الحقيقة حتى أعطاني وصاية كاملة على الدير، مع وثائق مختومة تؤكد حقي.

وعمل ملكنا القديس بشكل متواصل وفعال، حتى استطاع اقناع ملك انكلترا بالقدوم إلى فرنسا مع زوجته وأولاده، للتباحث حول السلام بين بلديهما، وكان أعضاء المجلس الاستشاري للملك مضادين بشدة لإقامة مثل هذا السلام، وقالوا له: «نحن مندهشون جداً أن نجدك ياصاحب الجلالة جاهزاً لإعطاء ملك انكلترا شطراً واسعاً من أراضيك التي ربحتها أنت وأجدادك منه، والتي خسرها بسبب سوء

تصرفه، وإذا كنت تعتقد الآن أنه ليس لديك الحق بهذه الأرض، فإنك لاتكون قد قمت بكامل الارجاع القانوني، ما لم تعد إليه جميع ما استوليت عليه أنت وأجدادك، ومن جهة أخرى إذا كنت ترى أن لك الحق في هذه الأرض، يبدو لنا أنك مهما أعدت أصغيرا كان أم كبيراً هو خسارة لك شخصياً».

وردّ الملك القديس على هذا بقوله: «أنا مقتنع ياسادتي أن أجداد ملك انكلترا قد حرموا بشكل عادل من جميع البلاد التي هي بيدي بحق الاستيلاء، إنما بالنسبة للأرض التي أنا معطيها له، أنا لاأعدها شيئاً أنا مرغم على تسليمه له أو لورثته، بل إن الذي أفعله ما هو إلاّ وسيلة لإقامة رابط للحب بين أولادي وأولاده، الذين هم أبناء خالة، فضلاً عن هذا الذي أعطيه إياه له غاية جيدة، لأنه لم يكن حتى الآن واحداً من أتباعي، وهو الآن سوف يقدم الولاء لي، بحكم أنني مولاه».

وما من انسان في العالم عمل باخلاص أكثر من ملكنا، لإقرار السلام بين رعاياه، خاصة بين النبلاء الكبار الذين كانوا أمراء المملكة وجيرانها، كما فعل — على سبيل المثال— في قضية كونت دي شالون— عم صاحب جوانفيل— وابنه كونت بيرغندي، اللذان كانا منشبان للحرب بينهما، عندما عدنا من بلاد ماوراء البحر، ولكي يقيم السلم بينهما، بعث الملك بعضاً من أعضاء مجلس مستشاريه إلى بيرغندي على حسابه، وبفضل جهوده الحثيثة، أمكن إقامة السلام بين الأب والابن.

وبعد أمد قصير نشب قتال عنيف بين الملك ثيبوت الثاني، صاحب شامبين، وبين كونت دي شالون وابنه كونت بيرغندي حول الخلاف بشأن من سيتملك دير لوكسيل Luxeuil ، ولكي يزيل هذا الخلاف بعث جلالته جيرفيه دي اسكرين Escraines Gervais de ، عندما كان رئيس المطابخ الملكية الذي تدخل في سبيل إقامة صلح بين الفرقاء.

وبعدما وضع الملك حداً لهذه الحروب، نشب خلاف آخر بين كونت ثيبوت دي بار، وبين زوج أخته كونت هنري صاحب لوكسمبورغ، ونتيجة لهذا قاتلا بعضهما بعضاً قرب برني Perny، حيث أخذ الكونت ثيبوت زوج أخته أسيراً، واستولى بعد ذلك على قلعة ليني Ligny ، التابعة لكونت لوكسمبورغ عن طريق زوجته، ولكي ينهي الملك هذا النزاع ويضع حداً للحرب، بعث حاجبه بيير، الذي وثق به اكثر من أي انسان آخر في العالم، وهكذا أمكنه إقامة السلام بين المتخاصمين.

وفي القضايا التي أسهم الملك فيها بفض الخلافات بين الناس خارج مملكته، كان بعض أعضاء مجلس مستشاريه يقولون كان الأفضل لو تركهم يتابعون الاقتتال، لأنه لو تركهم يفقرون أنفسهم، كانوا سيقاتلونه باستعداد أقل مما لو كان خلفهم الكثير من المال، وأجاب الملك منتقديه بشأن هذه المسألة قائلاً، بأنهم كانوا يتحدثون بلا حكمة، ثم قال: «لأنني لو تركت الأمراء الجيران يحتربون فيما بينهم، ورأوا ذلك وأدركوه، من الممكن أن يتحدوا ويقول أحدهم للآخر: الملك يشجع هذا الصراع فيما بيننا صدوراً عن نية شريرة، وهكذا قد تدفعهم كراهيتهم لي للتكتل ومحاربتي، مما قد يسبب خسارة كبيرة لي، هذا دون القول أي شيء عن حقيقة أن ذلك يعني استجلابي لغضب مولانا الرب الذي قال: طوبى لصانعي السلام».

ونتيجة لجهود الملك المتواصلة لإقامة السلام، أحبه الشعب في بيرغندي واللورين، لأنه أقام الصلح بينهم، وأطاعه الناس هناك، حتى أنهم عندما كانوا يختلفون في بعض المناسبات، كانوا يأتون لفض مشاكلهم بعرض قضياهم على محاكمه في الرايمز، وباريس، وأورلين.

وامتلك الملك حباً عميقاً جداً لربنا ولأمه الحنون، حتى أنه عاقب بشدة متناهية جميع الذين أدينوا بالحديث عنهما بقلة احترام، أو

لاستخـدامهم لاسميهما في بعض الأيمان الشريرة، وهكذا رأيته يأمـر في قيسـارية بربط صـائغ ذهب، إلى سلم مع أمعـاء خنزير وأحشاء أخـرى لفت حوله حتى بلغت إلى أنفـه، وقد سمعت بعدما عـدت من بلاد ما وراء البحـر، أنه أمر بكي شفتي وأنف واحـد من أهل باريس لاقترافـه مثل هذا الذنب، لكن هذا لم أره بنفسي.

واعتـاد الملك القـــديس أن يقـول: «إنني على استعـــداد بالسماح عن طيب خاطر بـأن أكوى بحديدة محّماة، شرط أن يكون ذلك مقـابل نفي جميع الأيمان الكاذبـة من مملكتي»، ولقـــد أمضيت مـــايـزيد على اثنتين وعشرين سنة في صحبته دون أن أسمعه قط يقسم بالرب أو بأم الرب، أو بقـديسيـه، وعندمـا كـان يود التشـديد على أي مقـولة كـان يقـول: «بالفعل كانت كذلك» أو «بالفعل هي كذلك».

ولم أسمعـه قط يذكـر اسم الشيطان، مـا لم يكن الاسم قـد ظهـر في كتـاب ما، حيـث توجب ذكره، مثـل عندما تكون حيـاة القـديسين هي الموضـوع المطروق، وإنه لعيب عظيم بالنسبـة لمملكة فـرنسـا، وللملك الذي يسمح الآن بذلك، فنادراً ما يتمكن انسان في هذه الأيام أن يتكلم دون أن يقول: «فليأخذه الشيطان»، فضـلاً عن هذا إنه لسوء استخدام يسبب الذنب أن ننسب إلى الشيطان رجـلاً أو أمـرأة بعـدمـا أعطيـا إلى الرب منذ وقت تعميدهما، والمعتمد في قلعتي في جوانفيل أنه إذا ما قال أي واحد مثل هذه الأشيـاء كان يضرب فـوق أذنيه، أو يصفع من أجل ذلك، واللغة السيئة غير موجودة إلى أبعد الحدود هنا.

وسألني الملك مـرة عما إذا كنت قـد غسلت أقـــدام الفقـراء في يوم الخميس المقدس، فأجبته بأنني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل، لأنني أعتقد أن ذلك عملا ممجوجـاً، فأخبرني بأن عليّ عدم التمنع عن أداء مثل هذا العمل، مادام مولانا قـد قام بمثله، وقال: «إنني أفترض أنك لن ترغب مطلقاً في حذو مثل ملك انكلترا، الذي غسل أقدام مجذومين، وقبلهم».

وكـان الملك قبل أن يأوي إلى فـراشه قـد اعتـاد على أن يبعث خلف أولاده، ويحدثهم عـن أعمال الملوك الجيـــدين والأبـاطرة، ويبين لهم في الوقت نفسه أن عليهم اتخاذ مثل هـؤلاء مثلا يحتذى بالنسبـة لهم، وكان يحدثهم أيضـاً عن أعمال الأمــراء الأشرار، الذين جلبـوا الدمــار إلى ممالكهم عن طريق حياتهم الجشعة، ولفسـوقهم وشرورهـم، وكان يقول لهم: «إنني ألفت انتبــاهكم إلى مثل هذه الأشيــاء، حتـى تتجنبــوها، ولاتجعلوا الرب يغضب عليكم».

وجعلهم يتعلمون سـاعات صلوات سيـدتنا، وجعلهم يكررون على مســامعــه صلوات كل يوم، حتـى يعـودهـم على سماع هذه الصلوات بشكل متواصل عندما يصبحون حكاماً لبلدانهم.

وكان الملك كريماً جداً في تقديم الصدقات، حتى أنه كان حيثما ذهب في مملكته يقـوم بتوزيع الأمـوال على الكنائس ذات الموارد القليلة، وعلى بيوت المجـذومين، وعلى بيوت الاحسـان، وعلى المشافي، وعلى الـرجال والنساء من منبـت أصيل الذين يعانون من الضـائقة، وقـدم الطعام كل يوم إلى عـدد كبير من فقـراء الناس، وذلك بالاضـافـة إلى الذين كـانوا يأكلون في قاعتـه، وغالباً ما رأيته يقطع الخبـز إلى هؤلاء بنفسه ويناولهم شرابهم.

ولقـد بني في عهـده كثير من الديرة، من ذلك على سبيل المثـال: دير رويومونت Royaumont ودير القديس أنطوني قـرب باريس، ودير ليس Lys، ودير موبيسون Maubuisson ، وكثير من البيوت الدينية الأخرى للاخوان المبشرين وللرهبـان الفرنسيسكان، وقد بنى مشفى في بونتي Pontoise، ومشفى في فيرنـون، وملجأ للعميـان في بــاريس، وديراً للراهبـات الفـرنسيسكان في سينـت— كلود، وهو الذي أسستـه

أخته السيدة ايزابل بتأييد منه.

وعندما كان يقع بين عطاياه أية منحة عائدة إلى الكنيسة المقدسة، كان الملك يقدم دوماً على استشارة الناس الأفاضل، الذين يمكنه أن يعتمد على حسن أخلاقهم، وذلك قبل منح إدارة الأعطية، وبعد التشاور معهم كان يقدم الأعطية مخلصاً، وبضمير مستريح، دون مراعاة لغير رضا الرب، ولم يعط قط أي رجل دين مسؤولية إدارة منحه من المنح مالم يقم أولاً بالتخلي عن جميع الوظائف التي بيده، وكان كلما ذهب للمرة الأولى لزيارة بلدة في مملكته، كان يمضي أولاً إلى الأخوان المبشرين أو إلى الفرنسيسكان الذين هم هناك ويسألهم الدعاء.

وبعد عودة الملك لويس إلى فرنسا من بلاد ماوراء البحر كرس نفسه تكريساً كاملاً لعبادة مخلصنا، وكان عادلاً جداً في تعامله مع رعيته، ولهذا السبب قرر أنه سيكون عملاً مفيداً جداً، ونبيلاً، إذا ما تولى اصلاح مملكته الفرنسية، وكانت أول خطوة اتخذها في هذا الاتجاه هي إصدار مرسوم عام لجميع رعاياه في جميع أرجاء المملكة، كانت صورته كما يلي:

«نحن لويس، بنعمة الرب ملك فرنسا، نأمر نوابنا، وعمالنا، ورؤساء الكنيسة والمديرين لدينا، وجميع الآخرين، في كل الظروف، وفي كل المناصب التي يشغلونها، أن يقسموا، على إقامة العدل للجميع، ماداموا في مناصبهم، وذلك دون مراعاة للأشخاص، أو تفريق بين فقير وغني، وكذلك إلى الناس الذين هم من بلاد أخرى، بحيث يكونوا مثلهم مثل أبناء البلاد، وأن يراعوا الممارسات والعادات الطيبة والمعترف بها.

وإذا حدث أن قام النواب، أو العمال، أو غيرهم من الرسميين مثل السير جندية أو نظار الغابات، بعمل أي شيء معاكس لأيمانهم، وقد أدينوا بفعل ذلك، سوف نعاقبهم بمصادرة أملاكهم أو باعتقالهم

شخصياً، وإلينا سيوكل معاقبة النواب، ومعاقبة الآخرين من قبل النواب.

زيادة على هذا، سوف يؤدي اليمين جميع رؤساء الكنائس، والنواب والسيرجندية أنهم سيكونون مخلصين في حماية مواردنا والمحافظة على حقوقنا، ولن يسببوا انتزاع حقوقنا منا، أو إضاعتها، أو زوالها، وعليهم أن يقسموا في الوقت ذاته على أن لا يأخذوا أو يتسلموا، بأنفسهم أو بوساطة آخرين ذهباً أو فضة أو أية منافع غير مباشرة، أو أية أشياء مهما كان نوعها، باستثناء الفواكه فقط، أو الخبز أو الخمرة، أو الهدايا الأخرى، التي لاتتجاوز قيمتها عشرة سوسات Sous، ولايجوز تجاوز هذا المبلغ مطلقاً.

وعليهم أيضاً أن يقسموا أن لايأخذوا، أو يكونوا السبب في أخذ أية هدية، مهما كان نوعها، من خلال وساطة زوجاتهم، أو أولادهم، أو أخوانهم،. أو أخواتهم، أو أي شخص مرتبط بهم، وفور معرفتهم بتسلم مثل هذا النوع من الهدايا، يتوجب عليهم إعادتها في أول لحظة مناسبة، وبالإضافة إلى هذا، عليهم أن يقسموا على عدم استلام أية هدية، مهما كان نوعها، من أي انسان، عائد إلى وكالتهم، ولا من أي واحد آخر له قضية أو دعوى معروضة أمامهم.

وزيادة على ما تقدم عليهم أن يقسموا على عدم إرسال أية هدية إلى أي واحد من أعضاء مجلسنا الاستشاري، أو إلى زوجاتهم أو أولادهم، أو إلى أي انسان يمت إليهم بصلة، ولا إلى أي واحد جرى تعيينه لتسليم حساباتهم لصالحنا، ولا إلى أي شخص قد نرسله إلى نياباتهم أو مناطقهم حيث يشغلون وظائفهم، وذلك من أجل البحث حول الكيفية التي يؤدون بها واجباتهم، ومع هذا عليهم أن يحلفوا على عدم أخذ أي ربح على أي بيع قد يتم، أو من أية إيجارات عائدة لنا، أو من نياباتهم، أو من أماكن ضرب نقودنا، أو أي شيء آخر عائد إلينا.

فضلاً عـن هذا عليهم أن يقسموا ويتعهـدوا أنهم إذا ما عـرفوا أن أي مـوظف أو سيرجندي، أو مـديـر ممن يعمل تحت إمـرتهم قـد أهمل واجبه، أو تولى السرقة أو الاغتصاب، أو اقترف أية ذنوب، يستحق من أجلهـا الطرد من خـدمتنا، عليهم عـدم الإبقـاء عليـه والاحتفـاظ به بالوظيفة مقابل أية هدية، أو وعد ، أو أية قرابة أو مودة، أو لأي سبب آخر مهما كان نوعه، بل عليهم مخلصين القيام بطرده والحكم عليه.

وزيادة على هذا يتوجب على المديرين والعمال، ورؤساء القرى وجميع الموظفين الآخرين لدينا من المشـاة والخيالة، أن يقسمـوا أنهم سوف لن يقـدموا أية هديـة إلى رؤسائهم، ولا إلى زوجـاتهم أو أولادهم، ولا إلى أي واحد من أتباعهم.

ولما كنا نرغب في تأكيد هذه الأيمان دون أي ريب، نأمر بأدائها كاملة أمـــام جميع الناس، من قبـل رجــال الـدين والمدنيين، والفـرســان، والسيرجندية، دون اعتبار لقيـام بعضهـم بالإقسام أمـامنا من قبل وذلك بهدف أن يتمنع الذين أقسموا مثل هذه الأيمان عن اقتراف ذنب الحنث باليمين، ليس خوفـاً من الرب ومنا فقط، بل خشية أن يوصمـوا بالعار أمام الناس جميعاً.

ونحن نرسم ونأمـر بأنه يتـوجب على جميع المديرين لدينا وعلى جميع نوابنا، الامتناع عن قول أي شيء يمكن أن يفسر على أنه معاندة للرب أو لسيـدتنا، أو للقـديسين، وأن يكفـوا كذلـك عن اللعب بأي نوع من أنواع الميسر، وعن غشيـان الحانات، ونحن نـرسم أيضـاً بالتـوقف عن صنع النرد في جميع أرجاء مملكتنا، وبطرد كل النساء اللائي يمارسن حياة الدعـارة من كل بيت، وزيادة على هذا نقضي أن كل إنسـان يؤجـر بيتـاً لنساء من هذا القبيل أن يدفع إيجار بيت لمدة سنة تعـويضاً إلى النائب أو إلى المدير.

وفضلاً عن هذا نمنع نوابنا، ما داموا في خدمتنا، من شراء، أو التسبب بشراء، بوسائل مخادعة، لأي من الممتلكات أو الأراضي، يمكن أن تكون في نيابتهم أو في غيرها، من دون إذن أو تصريح منا، وإذا ما كان مثل هذا الشراء قد تمّ، نحكم ببقاء ما شري في أيدينا.

ونمنع أيضاً نوابنا، ماداموا في خدمتنا، من الزواج هم أو أولادهم أو بناتهم أو أي شخص ينتمي إليهم، إلى أي إنسان موجود في نيابتهم، من دون موافقتنا الشخصية و بالإضافة إلى هذا، نحن نمنعهم من وضع أي إنسان من هؤلاء في البيوت الدينية، الموجودة في نيابتهم، أو تعيينهم للإشراف على أي منحة عائدة إلى الكنيسة المقدسة، أو إعطائهم أي ممتلكات أخرى، ونمنع — زيادة على هذا — نوابنا من الحصول على أية ميرة من أي من البيوت الدينية، أو الحصول على مسكن هناك، أو بجوارها، على حساب الطائفة صاحبة البيت الديني، وعلى كل حال نحن لا نرغب في أن يشمل هذا الحظر المتعلق بالزواج أو الحصول على الممتلكات، حسبما تقدم الذكر: المديرين، ورؤساء القرى، أو الآخرين الذين يشغلون مناصب صغيرة.

ونأمر أن لا يقوم أي نائب، أو مدير، أو أي موظف من موظفي التاج، باستخدام عدد كبير من السيرجندية، أو الشمامسة، خشية أن يشكل ذلك حملاً ثقيلاً جداً على شعبنا، ولسوف يكون تعيين الشمامَسة بالموافقة، وإلاّ فإن تعيينهم سيكون غير شرعي، وعندما يُرسل السيرجندية في مهمة ما خارج منطقتهم، أو خارج ممالكنا، نحكم بعدم اعتمادهم ما لم يكونوا مزودين برسائل من رؤسائهم.

ونأمر في أن لا يقوم أي نائب أو مدير في خدمتنا بممارسة أعمال العدالة بطريقة يخرق بها القانون الذي يشمل الناس، إلاّ إذا كان ذلك ضرورياً وعادلاً، كما لا يجوز وضع واحد من رعايانا في السجن إلاّ إذا كان مداناً بدين مستحق لنا نحن أنفسنا.

ونأمـر أن لا يقوم أي نائـب من نوابنا بفرض غـرامـة لدين مستحق لدينا على أي واحد مـن رعايانا، أو فرض غـرامة مقـابل أية مخالفة، إلاّ إذا تقرر ذلك في محكمـة عامـة كاملة، حيث يمكن تحديد مبلغ الغـرامة وضبطه وتقـديره بناء على نصيحـة أناس مقتـدرين وذوي كفـاءة، حتى ولو كـانت الغرامـة قـد دفعت، وإذا حدث أن المتهـم لن ينتظر صـدور الحكم من محكمتنا عليـه، بل عـرض مبلغـاً من المال مقـابل الغـرامـة، حسب مـا يدفع بالعادة في حـالات مثل هذه المخالفـة، نحكم بأن تقبل المحكمـة مثل هذا المبلغ إذا كان معقـولاً ومـوائماً، وإذا كان الأمـر غير ذلك، نقضي بتحديد المبلغ كما قيل أعـلاه، حتى ولو سلم المعتدي نفسه إلى المحكمة، وفضلاً عن هذا نحظـر على جميع النواب، ورؤساء القرى، أو المديرين، القيـام بإرغام أي واحـد من رعـايانا، سواء بالتهـديد، أو بالإرهاب، أو بأية وسيلة من وسائل التـلاعب لكي يدفع غرامة بالسر، وعليهم عدم توجيه التهمة إلى أي إنسان من دون سبب معقول.

وزيادة على ما تقدم نأمـر الذين يشغلون مناصب إدارة المقاطعات أو المديرين، أو أي وظيفة من وظائف التاج، بعدم بيع مناصبهم إلى آخرين من دون مـوافقتنا، وإذا مـا ابتـاع عـدد مـن الأفـراد متحـدين المناصب المذكورة، نحكم بقيام واحد من الشراة بممارسة مهام وواجبات المنصب لصالح البقية، ووحـده يتمتع بامتيازات المنصب فيما يتعلق بالرحلات، والضرائب والنفقات العامة، كما هي العادة بالنسبة لمثل ذلك المنصب، ونحرم على مـوظفي التاج بيع مناصبهم إلى أخـوانهم، أو أبناء أخوتهم، أو أبناء عمومتهـم، بعدما اشتروهم منـا، أو المطالبة بأي مـال قد يكون حقاً لهم أنفسهم، باستثناء الديون العـائدة لهم بحكم وظائفهم الرسمية، وفيما يتعلق بديـونهم الشخصيـة، فإنهم يستردونها بوســاطة سلطات النائب، كما لو كانوا لا يعملون في خدمتنا.

ونحظر على نوابنا القيام بمحـاكمة أي مدعي من رعايانا قـدم دعواه

أمامهم، عن طريق نقل مكان المحاكمة من مكان إلى مكان، بل يتوجب عليهم الاستماع إلى الدعـوى المقـدمـة لهم حيث اعتـادوا على سماع الدعاوى، وبذلك لن يرغموا رعايانا على التخلي عن حقوقهم المشروعة خوفاً من المشاق والنفقات.

زيادة على هذا نأمـر نوابنـا ومـديرينا بعـدم حـرمـان أي إنسـان مما يمتلكه من دون فحص تام، أو بناء على أمر خـاص منا، وكذلك نحظر عليهم فـرض أي مكوس جـديدة، أو ضرائب، أو جمارك، على شعبنا، وعدم استـدعاء أي إنسـان للمشاركة في حملة عسكريـة، من أجل ابتزاز المال منه، ولهذا نأمر بعـدم استدعاء أي شخـص مكلف أمامنا، إلى مثل هذه الخدمـة، أو الالتحـاق بالجيش دونها سبب كـافي، وأن الذين يمكن أن يرغبـوا بالانخـراط في الجيش بنـاء على إرادتهم، لا يجوز لأحـد إرغامهم على شراء الإعفاء من مثل هذه الخدمة بدفع المال.

فضـلاً عن هذا نحظـر على نوابنا ومـديرينا القيـام بمنع إخـراج أي قمح، أو خمر، أو أية بضـائع للبيع، والحيلولة دون تصديرها إلى خـارج مملكتنا، بدون سبب معلل، وعندمـا تستـدعي الظروف مثل هذا الحظر، فإن ذلك يصدر بمثابة أمر عام إلى الناس جميعاً، وذلك بناء على نصيحة أشخـاص أكفـاء، من أجل إزالة كـل الشبهـات بالغش أو التعـامل المزدوج.

ونقضي لسبب مماثـل، أنه لدى خلو منصب مـن المناصب، يتـوجب على النواب جميعاً، وعلى رؤساء المقـاطعات، وعلى رؤساء القرى، وعلى المديرين البقـاء في المنصب الذي سيشغـر، سـواء شخصياً أو بوسـاطة وكيل لمدة أربعين يوماً في المنطقة التي مارسوا فيها أعمالهم، بغية الإجابة على أية استفسار يقـوم به الموظف الجديد، فيما يتعلق بأي خطأ ارتكب، أو بشكاية رفعت ضد أحدهم».

وحقق الملك بوساطة هذه الأوامر كثيراً من تحسين مملكته.

وجرت العادة في ذلك الوقت على بيع ولاية باريس إلى واحد من برجاسية المدينة، أو إلى أي إنسان آخر يتمكن من شرائها، والذي حدث أن الذين تولوا شراء هذا المنصب قاموا بتغطية جميع المخالفات الذي اقترفت من قبل أبنائهم أو أبناء أخوتهم، وهكذا اعتاد هؤلاء الشباب المفسدون على الاعتماد على الذين شغلوا وظيفة الولاية، ونتيجة لهذا سحق الناس الذين كانوا من الطبقات الدنيا سحقاً شديداً، ولم يعد بإمكانهم الحصول على العدالة ضد الأغنياء، بسبب الهدايا العظيمة والأعطيات التي قدمها هؤلاء إلى الولاة.

وكان يحدث في ذلك الوقت أنه إذا ما تكلم أي إنسان الحقيقة أمام الوالي، وأصر على التمسك بيمينه برفضه التراجع فيما يتعلق بأي دين أو قضية توجب عليه تقديم الشهادة فيها، اعتاد الوالي على معاقبته بالحكم عليه بأداء غرامة، وزيادة على هذا، وبسبب الظلم العظيم الذي مارسه الولاة، أو بسبب السرقات التي اقترفت أثناء ولايتهم، لم يعد فقراء الناس يتجرأون على البقاء في ممتلكات الملك، بل ذهبوا إلى أجزاء أخرى أديرت من قبل ولاة آخرين، وحُكمت من قبل حكام آخرين، وفي الحقيقة باتت ولايات الملك مهجورة إلى حد أنه عندما كان أحد الولاة يعقد بلاطه لم يحضره أكثر من عشرة إلى اثني عشر إنساناً.

ومع هذا كله كان هناك عدد كبير جداً من المجرمين واللصوص في باريس والمنطقة المجاورة لها إلى حد أن البلاد كلها كانت مليئة بهم، أما الملك الذي جعل مسؤوليته الرئيسية التعرف على كيفية كان العامة من الناس يحكمون، مع كيفية حماية حقوقهم ومصالحهم، فما لبث أن بات عارفاً بالحقيقة، ونتيجة لذلك حظر بيع منصب الولاية في باريس، ووضع الترتيبات لدفع عطاء جيد وسخي للذين سوف يتولون هذا المنصب في المستقبل، وألغى أيضاً جميع الضرائب والمكوس الذي سببت

فـرض مضـايقــات لا ضرورة لها على الناس، وطلب البحث في جميع أرجـاء مملكته عن رجـال يتـولون الحكم وينفـذون العدالة بشكل جيـد ودقيق، ولا يميزون الغني ولا يقدرونه فوق الفقير.

وكــان واحــداً من الـرجــال الذين ذكــروا له اسمـــه ايتين بويلو Etienne Boileau حيث تسلم منصب الولاية، ومـارس عمله بشكل جيــد، حتى أن مـا مـن مفسـد، أو لص أو قــاتل تجرأ على البقــاء في باريس،لأن جميع الذين اقترفـوا الموبقـات شنقوا أو أزيلوا من الوجـود، ولم ينقذهم لا النسب، ولا النبالة، ولا الذهب ولا الفضة، وهكذا باتت الأوضاع في ولايات الملك تتحسن، وشرع النـاس بالعودة للعيش هناك بسبب العدل الذي ساد، وازداد تعـداد السكان كثيراً، وصارت الأشياء والأحـوال أفضل بكثير مما مضى، حتـى أن البضـائع اوالممتلكات وكل شيء آخر بيع بضعف الثمن، ومقارنة بها كان الملك يتسلمه من قبل.

وأصدر الملك مرسومـاً آخر، أفاد كثيراً، في تحسين الأوضاع في مملكة فـرنسـا، وذلك بشهادة عـدد كبير من الأشخـاص الحكماء والمحترمين، وجاء نص هذا المرسوم كمايلي:

«إنه بالنسبــة لجميع المسائل التي أمــرنا بها لصـالح منافع رعــايانا ومملكتنا، نحتفظ لأنفسنا بحق التفسير، والتقـويم، والضبط أو التأجيل، حسبما نقرر».

وامتلك الملك لويس من أيـام طفولتـه مشـاعـر الرحمة نحـو الفقـراء والمنكوبين، ولقد اعتاد حيثما ذهب على استضافـة مائة وعشرين شخصاً فقيراً كل يوم في بيته، وإطعامهم الخبز والخمرة واللحم أو السمك، وفي أيام الصـوم الكبير، وقبيل الميـلاد كان عـدد الفقـراء يزداد، وغـالباً مـا حـدث أن قـام الملك بخـدمتهم شخصيــاً، حيث كـان يضع أطعمتهم أمامهم، ويقطع لهم اللحم، ويعطيهم المال بيديه عندما كانوا يغادرون.

وفي أمسيات الأعياد الهامـة والكبيرة، كان الملك يتولى خـدمة الفقراء بجميع هذه الأشيـاء التي ذكـرتها من قبـل، ويفعل ذلك قبل أن يتناول شخصيـاً أية طعام أو يشرب أيـة شراب، وبالإضافـة إلى هذا كـان لديه عـدداً من الشيوخ والرجـال المعوقين، يدعـوهم لتناول طعام الغـداء أو العشـاء كل يوم إلى جـانب منضـدته الخاصـة، وكـان يأمـر لهم بتقـديم الطعام نفسه الذي كـان يقدم إليه، وبعد تناولهم للطعـام كان يعطي كل واحد منهـم مبلغاً من المال ليأخذه معه.

وبالإضافة إلى هذا، اعتاد الملك أن يعطي كل يوم صدقات سخية إلى فقــراء الرهبـان والراهبـات، وإلى المشــافي ذوات الدخل القليل، وإلى الأشخاص الفقـراء من المرضى، وإلى الطوائف الدينية التي لديها القليل من المال، وكـان مثل هذا كـريماً في عطاياه إلى الرجـال والنساء الفقـراء من ذوي الأصل الرفيـع، وإلى بيـوت النسـاء السـاقطات، وإلى فقـراء الأرامل، وإلى النساء العـاملات، وإلى رجـال الحرف من الفقراء، الذين ما عـاد بإمكانهم ممارسة عملهـم بسبب تقدم السن أو نتيجـة للمرض، وكـان الذين ينتفعـون منه في الحقيقـة كثـرة كثيرة حتى أنه من الصعب تعـدادهم،وعلى هذا يمكننا القـول بأن الملـك لويس كـان رجـلاً أعظم سعادة من الامبراطور تيتـوس، الذي تحدثنا عنه الكتابات القـديمة بأنه كان يشعر بالحزن والأسى في أي يوم لم يكن فيه قادراً على تقديم بعض المنافع.

ومن اللحظة التي تولى فيهـا شـؤون المملكة، وأدرك فيها مـا يمتلكه من قــدرات، بدأ الملك لويـس في بناء الكنائس والكثير مـن البيــوت الدينية، التي كان منهـا دير رويومونت Royaumont ، الذي لا مثيل له بالجمال والعظمـة، وبنى مشـافي في عـدة أمـاكن، من ذلك على سبيل المثال في باريس، وبونتواز Pontois ، وشامبين، وفيرنون، وقد منح الجميع منحاً ثرية، وأسس دير القديس ماثيو في روان Rouen ، لإقامة

الراهبات من طائفة الأخـوان المبشرين، وكذلك دير لونغشامب Long-champ ، من أجل الـراهبـات من طائفـــة المينورست Minorsits ، وعين لكل طائفة موارد فائضة من أجل نفقات عيشها.

وسمح الملك لأمـه بإقـامة دير مـوبوسـون Maubuisson قرب بونتواز، وقـد منحها موارد كبيرة جـداً، وبنى مأوى للعميان في أطراف باريس، وبيتـاً لفقراء سكان المدينـة من العجزة، وألحق به بيعـة يمكنهم فيهـا حضـور القـداسـات، وبنى الملك الجيـد أيضـاً ديراً لرهبـان الكارثوشيـان Carthusians في فـوفيرت Vauvert خـارج باريس، ومنح إلى عبيد ربنا هؤلاء دخلاً كافياً للانفاق عليه.

وبنى بعـد ذلك بوقت قصير مؤسسـة أخـرى خارج باريس عـرفت ببيت بنات الرب، ووضع في هذه المؤسسة عـدداً كبيراً جداً من النساء، اللائي أرغمهن الفقر على ممارسـة العهر، وأعطاهن أربعمائـة ليرة ذهبية سنوياً من أجل الانفاق على أنفسهن، وأقام في عدد كبير من الأماكن في مملكته بيـوتاً للتائبـات، وخصص لهذه البيوت دخـلاً سنوياً يمكنهم من العيش، واشترط للسكن، أن تكون النسـاء اللائي يرغبن بالإقـامـة ممن أردن العيش بطهارة.

وحدث في بعض الأحيان أن بعضاً ممن كانوا من خواصه قد اعتقدوا أن من الخطأ إقـدام الملك على الانفـاق بهذا الشكل، وقـد بدا ذلك لهم إسرافـاً في الاحسـان،وكـان في مثـل هذه المناسبـات يرد على منتقـديه بقـوله:«إني أوثر إنفـاق المبالـغ الزائدة صـدقـات من أجل محبـة الرب، وأفضل ذلك على الصرف في سبيل الأبهة والزينة الفارغتين لهذا العالم».

وعلى الرغم — مـع ذلك — من الانفـاق الزائـد للملك في سبيل الصدقـات، إنه لم يتمنع أبداً عن صرف مبالغ ضخمـة من المال كل يوم من أجل الانفاق على مؤسسـاته الذاتية، فقد كان كـريم اليدين وسمحاً

في تعامله مع الفرسان والبارونات الذين كانوا يحضرون اجتماعاته ومؤتمراته، وكذلك عامل الناس من حاشيته وأهل بيته بتقدير عظيم، حيث وفّر لهم جميع الاحتياجات، ولم يقتصد في تأمين المؤن لهم وكذلك في الحفاظ على بلاطه على مستوى أعلى كرماً مما كان البلاط عليه من قبل في أيام أجداده.

وأحب الملك لويس جميع الناس الذين كرسوا حياتهم لخدمة الرب، بارتدائهم ثياباً دينية، وما من واحد من هؤلاء جاء إليه وذهب من دون أن يعطيه الذي احتاجه من أجل العيش، فقد اشترى للأخوان الكرمليين أرضاً على نهر السين، قرب شارنتون Charenton ، حيث بنى لهم هناك ديراً، ثم زودوه على حسابه الخاص بالملابس والأواني، والأشياء الأخرى الضرورية من أجل عبادة مخلصنا، وبعد هذا تفحص حاجات أتباع القديس أوغسطين، ولم يكتف بأن اشترى لهم ضيعة كانت ملكاً لواحد من أهل باريس وذلك مع جميع مرافقها وملاحقها، بل بنى كنيسة خارج باب مونتمارتير Mont Martre .

أما بالنسبة لرهبان طريقة البنيتنس Penitence (الصوفية)، الذين يعرفون أيضاً باسم الـ «Sack s »، فقد زودهم عن طريق المنحة بموقع على نهر السين، باتجاه سينت جرمين — دي — بري Germain - des - Pres ، حيث أقاموا هناك، لكنهم لم يقيموا لمدة طويلة، لأن طائفتهم قمعت فيما بعد، وبعد استقرار الـ «Sacks »، توصل رهبان طريقة أخرى عرفت باسم طريقة رهبان«الأردية البيضاء»، ورجوه تقديم المساعدة لهم حتى يتمكنوا من البقاء في باريس، وقد اشترى لهم بيتاً، وبعض الأبنية القديمة القائمة من حوله، حتى يمكنهم الاستقرار قرب الباب القديم للهيكل في باري، وذلك بجوار شارع التيسيراندير Tisserandrie(الغزالين)، وقد قمع رهبان الأردية البيضاء هؤلاء من قبل مجمع ليون، الذي عقده البابا

-٣٠٠٥-

غريغوري العاشر.

وجاء إليه بعد هؤلاء طائفة رهبان أخرى، أطلقوا على أنفسهم اسم:«رهبان الصليب المقدس»، وكانوا يرتدون صلباناً فوق صدورهم، وقد التمس هؤلاء من الملك مساعدتهم، فاستجاب عن طيب خاطر، وأعطاهم بيتاً في الشارع الذي كان يعرف من قبل باسم:«Carrefour du Temple»، لكنه يعرف الآن باسم شارع الصليب المقدس.

وهكذا أحاط الملك لويس الجيد مدينة باريس بأناس كرسوا حياتهم لخدمة الدين.

الفصل التاسع عشر
الحملة الصليبية القاتلة
١٢٦٧ — ١٢٧٠

وحـــدث في أحـد أيام الصـــوم الكبير (لعـام ١٢٦٧)، وبعـــد مضي الأحداث التي أتيت على ذكرها، أن استدعى الملك لويس جميع باروناته للاجتماع به في باريس، وقـد اعتذرت شخصيـاً عن الذهاب بسبب حمى رباعية كنت أعاني منها منذ بعض الـوقت، وترجوت جلالته أن يعفيني من هذه الرحلة، غير أنه على كل حـال أرسل لي رسـالة أصر فيهـا على حضوري، لأنه كان يـوجد في باريس أطباء جيدين يعـرفون جيداً كيف يعالجون مثل هذه العلة.

وهكذا ذهبت إلى باريس، لكنني عندما وصلت إلى هناك عشيـة عيد سيـدتنا في آذار، لم أجـد أحـداً، ولا الملكـة، ولا أي واحـد آخـر، كـان بإمكانه إخبـاري عن السبب الذي استـدعاني الملك من أجله، وحـدث بإرادة من الرب، أن نمت أثناء الفجر، وخيل وأنا نائم أنني رأيت الملك وهو راكع على ركبتيـه أمام المذبح، وخيل لي أيضـاً أنه كان هناك عـدداً من الأساقفة وهم في حللهم التي يرتدونها للقـداس، وقد كانوا يتولون إلباسه حلة كنائسية حمراء من قماش الرايمز الصوفي الخشن.

وبعدمـا رأيت هذا الحلم استدعيت قسيسي وليـم، الذي كان حكيماً جداً، وأخبرته بما حلمت فقال لي: «سوف ترى يامولاي الملك غدا وهو يتناول الصليب»، فسألته عما دفعه لاعتقـاد ذلك، فقال لي: بسبب الحلم الذي رأيتـه، لأن الحلة الكنائسيـة الحمـراء تشير إلى الصليب، الذي هو أحمر اللون بسبب الدم الـذي سـال من جنب ربنا، ومن قـــدميـه، ومن يديه، وأضاف يقول: «ولأن الحلة من صوف الرايمز الخشن، فهذا يعني

أن الحملة الصليبية سوف تكون ذات منافع قليلة، كما سوف ترى إذا منحك الرب الحياة حتى ذلك الحين».

وبعد سماعي للقداس في كنيسة المجدلية في باريس، توجهت إلى بيعة الملك، وقد وجدته هناك، وقد صعد إلى السدة حيث جرى حفظ الآثار المقدسة، وقد أمرنا بانزال قطعة الصليب الحقيقي إليه، وبينما كان نازلاً ثانية، شرع فارسان كانا أعضاءً في مجلسه الاستشاري بالحديث إلى بعضهما بعضاً، وقال واحد منهما للآخر: «لاتصدقني ثانية إذا لم يقم الملك بحمل الصليب هنا في هذه الكنيسة » فردّ الآخر عليه قائلاً: « ذلك سوف يكون أعظم الأيام حزناً بين ما شهدته فرنسا، لأننا إذا لم نتناول الصليب ونأخذه نحن أنفسنا سوف نفقد حظوة الملك ورضاه، وإذا ما أخذناه سوف نفقد عطف الرب ورضاه، لأننا وقتها سوف نأخذه لا من أجل الرب، بل خوفاً من غضب الملك وعدم رضاه».

وكان الذي حدث هو قيام الملك في اليوم التالي لحمل الصليب، ومعه أولاده الثلاثة، وكانت محصلة الحملة الصليبية قليلة المنافع، كما تنبأ لي قسيسي.

وضغط مللك فرنسا عليّ مع ملك نافار، بكل شدة وعاطفة لحمل الصليب، ورددت على هذا بأنني عندما كنت في بلاد ماوراء البحر في خدمة الرب، والملك، ومنذ أن عدت إلى الوطن، تولى سيرجندية الملك وملك نافار تدمير شعبي وافقاره، حتى أنه لم يكن هناك وقت كانوا فيه— أو يمكن أن يكونوا فيه— في وضع أسوأ، وأخبرتهما أنه إذا توجب علي القيام بفعل مايرضي الرب، فذلك ينبغي أن يكون بالبقاء هنا لمساعدة شعبي والدفاع عنه في مقاطعاتي، لأنني وأنا أرى بوضوح تام المدى الذي سوف يتضرر شعبي منه، إذا ما وضعت حياتي عرضة للخطر بالمغامرة بالذهاب في هذا الحج من أجل الصليب، وقتها سوف أغضب ربنا الذي قدم حياته فداءً لإنقاذ شعبه.

وعـددت جميع الذين أشاروا على الملك بالذهاب في هذه الحملة، قـد اقترفوا ذنباً عظيماً، لأن أحوال البلاد كانت آنذاك في وضع آمن ومستقر في جميع أرجـاء المملكة، وكـذلك كـانت العـلاقـات بين فـرنسـا وبين جيرانها، في حين أنه منذ رحيل الملك، لم يحدث لأحـوال المملكة سـوى المضي من سيء إلى أسوأ.

وبالإضـافـة إلى هذا كـان الذنـب الذي اقترفـه الذين نصحـوا الملك بالذهاب ذنبـاً عظيماً من جانبهم، بعـد رؤيتهم أنه كان ضعيفـاً جداً من الناحيـة الجسـديـة، إلى حـد أنه لم يكن بامكانه تحمـل وضعـه في عـربة مجرورة، أو أمتطاء فـرس، وفي الحقيقـة كان ضعيفـاً إلى حـد أنه تركني أحمله بين ذراعي مـن بيت كـونت دي أوكسير Auxerre ، إلى حيث ذهبت إلى وداعه، إلى دير الفرنسيسكان، وصحيـح أنه كان ضعيفاً، لكنه لو بقي في فـــرنســا لكان من الممكـن له العيش بعض الـوقت أطول، ولفعل الكثير من الأعمال الجيدة، ولنفذ العديد من المشاريع الممتازة.

ولن أحـــاول وصف رحلة الملك إلى تونس، ولا اخبـــاركم أي شيء حدث هناك، لأنني — حمداً للرب— لم أشـارك فيها، وليس لدي رغبة في أن أضع في كتابي شيئـاً لست متأكداً منه تمامـاً، وهكذا سوف أتحدث فقط عن ملكنا القديس، وأخبركم كيف أنه بعدما نزل عند تونس، أمام قلعة قـرطاج سقط ضحية حمى تيفيـة، وتمدد ابنه الأكبر فيليب بسبب حمى رباعيـة، كما أنه اشتكى مما اشتكى منه والده، ولازم الملك فراشـه، وشعر أنه لابد سيغادر هذا العالم إلى العالم الآخر بعد وقت قصير.

وبعث واستدعى ابنه الأمير فيليب وأمـره— كما لو أنه كان يدلي إليه بوصيتـه— بمراعـاة جميع التعليمات التي سيتركهـا له، ويمكنك أن تجد هذه التعليمات وقد كتبت بالفرنسية، ويقال إنها كتبت بيد القديس نفسه وجاء فيها:

«ولدي العــزيز، إن أول شيء أود أن ألقنك إياه هـو أن تجعل قلبك محباً للرب، لأنه بدون ذلك لايمكن لأحـد نيل النجـاة، وجنب نفسك اقتراف أي شيء لايكون مـرضيـاً للـرب، أي الامتناع عن اقتراف أي ذنب عظيم، وخير لك أن تكون مستعـداً لمكابدة كل صنف من صنوف العذاب، على أن تقترف جناية عظمى.

وإذا مـا بعث الرب إليك مصيبة مـا، تقبلها بصبر، وقـدم الشكر من أجلهـا إلى مخلصنا، واعـدد نفسك مستحقاً لها، وكن آمـلاً أنه سيحـولها لصـالحك، وعلى العكس إذا ما بعث الرب إليك سعـادة، اشكره عندها بتـواضع، حتى لايفسـدك الغـرور، أو أي سبب آخـر، في الوقت الذي ينبغي فيـه لمثل هذه المبـاركـة أن تجعلـك أفضل، لأنه يتـوجب علينا أن لانستخدم عطايا الرب للقتال ضده.

امض دومـاً لتأدية الاعتراف، واختر لتلقى اعترافك رجـلاً مستقيماً وعـاقـلاً، يعـرف كيف يعلملك مـاينبغـي ومـا لاينبغي لك أن تفعل، وتصرف دوماً بذاتك بطريقة تجعل فيهـا المعترف إليه مع أصدقائك غير هيـابين لنقـدك عندمـا تقترف خطيئة ما، وأصـغ إلى قداسـات الكنيسـة المقـدسة باحترام وتقـوى، وبدون تمتمـة، ووجه دعـواتك إلى الرب من قلبك مثلما توجههـا من لسـانك، وخـاصـة أثناء القـداس في لحظة التكريس، واجعل قلبك عطوفاً، ومليئاً بالشفقة نحو الفقراء، والتعساء، والمكنوبين، وواسهم وساعدهم بقدر ما تمتلك من قوة.

وحافظ على التقاليـد الجيدة لمملكتك، وأزل العادات السيئة، ولاتكن جشعـاً في مطالبك من شعبـك، ولاتفـرض عليـه ضرائب ثقيلة، إلاّ في حالات الطوارىء.

وإذا شعرت بعبء ثقيل على قلبـك، تحدث عنه إلى الذي تعترف إليه أوإلى رجل عـاقل ومستقيم، غير مهـذار بلسانه، وبهذه الطـريقة سـوف

تكون متاعبك أسهل على الحمل.

احـرص على أن يكون من حولك— سـواء من بين رجـال الدين أو العلمانيين— من هو عاقل ومستقيم، ومخلص، وبريء من الجشع، وأكثر من محادثتهم، وابتعـد عن، وتجنب معاشرة الأشرار، واستمع برغبـة إلى كلمة الرب، واحفظها في قلبك، وكن متشوقاً للصلاة وللعبادة، وأحبب كل ما هو جيد ونافع، واكره ما هو شر، أينما وجدته.

ولاتدع انسـاناً يتجرأ على التفـوه بحضرتك بأي شيء يمكن أن يثير، أو يدفع الناس نحـو الإثم، ولاتدع أحـداً يقترف ما هو ضـار، مثل أن يغتـاب واحـد الآخـر حتى يقلل من شـأنه، ولاتسمح أن يقـال في حضرتك أية كلمـة فيها امتهـان للرب ولقـديسيه، وقـدم الشكر للرب بشكل دائم من أجل جميع الأشياء الجيـدة التي أعطاها لك، لكي تكون جديراً في تسلم المزيد من المنافع.

ولكي تتعـامل بعــدل واستقـامـة مع رعـايـاك، كن مستقيماً وثابتـاً، ولاتنحرف لاذات اليمين ولاذات الشمال، بل اتبع دوما ما هو صحيح، واحـرص على مصلحـة الفقير حتى تتضح الحقيقـة، وإذا مـا رفع أحـد دعوى ضـدك، قم باستقصاء كامـل حتى تعرف الحقيقة، فـوقتها يمكن لمستشاريك— وقـد صارت الحقائق أمامهم— اصـدار الحكم بثقة أكبر سواء أكان ذلك لك أم عليك.

وإذا حدث من خـلال عملك، أو عمل أسلافك أن تملكت أي شيء ينبغي أن يعود إلى انسان آخر، وتبرهن على حقه بدون أدنى شك، أعده له بدون تأخير، ومن جهـة أخرى إذا وجد بعض الشك حـول المسألة، اطلب البحث فيهـا، فـوراً، وبكل دقـة، وذلك مـن قبل رجـال حكماء وذوي معرفة.

وينبغي عليك الانتبـاه إلى أن رعاياك يعيشـون بسـلام وباستقامـة في

ظل حكمك، وحـافظ فوق كل شيء على مدنك الجيـدة، وعلى طوائف مملكتك، واحرص على أن يكونوا في الحالة نفسها، مع الامتيازات ذاتها، التي تمتعـوا بها في ظـل أسـلافك، وإذا كـان هنـاك أي شيء يحتـاج إلى الاصـلاح، افعل مـا هو ضروري لجعله مستقيماً، وأبقهم دومـاً في إطار رعايتك وحبك، لأنه بسبب ثراء وقوة مـدنك العظيمة، لن يتجرأ ليس فقط رعـاياك، وخـاصـة لورداتك الكبـار وبـاروناتك، بل أيضـاً شعب البلدان الأخرى، على القيام بأي عمل ضدك.

وامنح الحب والاحترام لكل الناس العـاملين في خـدمـة الكنيسـة المقدسـة، واحرص على أن لايتـولى أحد حـرمانهم أو اغتصـاب العطايا والهبات التي منحت إليهم من قبل أسلافك.

ويحكى عن جدي الملك فيليب، أن واحداً من مستشـاريه قال له مرة بأن العـاملين في الكنيسـة المقـدسـة يسببـون له الضرر والأذى، بحيث يتولون حـرمانه من حقـوقه ويتطاولون على سلطاته، وإنـه لمدهش جداً بسماحه لهم بفعل ذلك، وأجابه الملك الجيد، بأن هذا ربما كان صحيحاً، لكن بعـد تقـديره للمنافع التـي أضفـاها الرب عليـه، والعطف العظيم الذي أغدقه عليه، ارتأى أنه من الأفضل غض النظر عن بعض حقوقه، بدلاً من انشاب نزاع مع رجال الكنيسة المقدسة.

احترم أباك وأمك وبجلهما، وأطع أوامرهما، واعهد بمصالح الكنيسة المقـدسـة إلى أشخـاص مستقيمين في أخـلاقهـم وطاهرين في حيـاتهم، وافعل هذا بناء على نصحية الرجال الأفاضل والشرفاء.

واحـــذر من مبـاشرة الحرب ضـــد أي أمير مسيحـي من دون تمعن عميق، وإذا كـان لابـد من مبـاشرتها، خـذ حـذرك مـن ايذاء الكنيسـة المقـــدســـة، أو جلب الضرر إلى أي انســـان لم يسبب لك الضرر، وفي حـالات الحرب وإثارة الفتنة بين رعـاياك، أقم السلم فيما بين المتنازعين

بأقصى ما يمكنك من سرعة.

وابذل قصارى عنايتك في أن تعين نوابا صالحين وعمالاً مستقيمين، وافحص دوما شؤونهم وتعرف إلى أخبارهم، وانتبه أيضاً إلى الناس المرتبطين ببيتك، واعرف كيفية سلوكهم، وفيما إذا كان أياً منهم منصرفاً إلى شرور الجشع المفرط، أو الكذب، أو السلوك المخادع، واسع إلى أن تطرد من بلادك جميع الممارسات المجحوجة وغير المستقيمة، وابذل بشكل خاص كل ما أوتيته من قوة لاجتثاث الأيمان الشريرة، والهرطقة، واحرص على إبقاء نفقات بيتك في الحدود المعقولة.

وأخيراً أرجوك ياولدي العزيز على قلبي أن تأمر بترتيل القداسات على روحي، وإقامة الصلوات في جميع أرجاء مملكتك، وأعطني حصة كاملة وخاصة في كل عمل صالح تعمله، وأعطيك ياولدي العزيز كل التبريكات الجيدة التي يمكن لأب أن يعطيها لابنه، ليحفظك الثالوث المقدس مع جميع القديسين، وليدافعوا عنك ويحموك من كل شر، وليمنحك الرب النعمة حتى تنفذ إرادته دوماً، وليكن الرب موقراً من خلالك، وأن نكون أنا وأنت، بعد انتهاء هذه الحياة الفانية، معه معا، وأن نتحد في حمده إلى أبد الآبدين. آمين».

وعندما أكمل الصالح إعطاء هذه التعليمات إلى ابنه، بدأ المرض الذي كان يعاني منه يزداد قوة في الاستبداد به، وقد طلب قرابين الكنيسة المقدسة، وتلقاهم بذهن واضح، وبتملك كامل لسماته وقدراته، ووضح هذا من حقيقة أنه بينما كان الكهنة يمسحونه بالزيت، ويرتلون سبعة مزامير خاصة، ردد بدوره كل بيت شعر خلفهم.

وسمعت ابنه كونت دي ألنكون Alencon ، يقول أنه عندما اقترب الملك من الموت دعا القديسين لمساعدته وحمايته، وخص بالدعاء القديس جيمس، وكان يتلو وهو يدعوه دعاء الرسول الذي يبدأ بـ:

«Esto Domine» الخ، أي أن تقـول: «أيها المولى كـن مقـدسـاً لشعبك وحـامياً»، ثم نشـد العون مـن القديس دنس، القـديس الراعي لفـرنسا، وتلا أدعيتـه التي تقول: « امنحنا أيها المولى الرب القـدرة التي نتمكن فيهـا من ازدراء متع هذه الدنيـا، حتى نتمكن من الوقـوف دون خوف من المصائب».

وسمعت أيضاً كـونت دي ألنكون— عليه الرحمة من الرب— يحكي كيف أن أباه بعدما توجه بالدعاء إلى القديسة جنيفيف، طلب هذا الملك القـديس أن يمدد فـوق فراش مغطى بـالرماد، حيث صلب يديه فـوق صدره، ونظر نحو السماء، وسلم روحه إلى خالقنا، وكان هذا في الساعة نفسهـا من اليـوم الذي مـات فيـه ابن الرب على الصليـب من أجل خلاص العالم.

وإنه لواجب مقـدس، وعمل موائم أن يبكي الانسـان من أجل هذا الملك القديس، الذي حكم مملكتـه وحافظ عليها باستقامـة وباخلاص، والذي كـان كـريما في إعطاء الصدقـات هناك، والذي أقـام هناك عـدداً كبيراً من المؤسسات الخيرية، ومثلما يزين الناسـخ، عندما ينسخ مخطوطة كتـابه، بالذهب واللازورد، كـذلك زين ملكنا مملكتـه بكثير من الأديرة الجميلة التي بناها فيها، وبعـدد من المشافي والبيـوت للاخوان المبشرين، والفـرنسيسكان، وللطوائف الدينية الأخـرى، التي حدثتكم عنهـا، وفي غداة عيد القديس بارثلميـو الرسول، وفي سنة ١٢٧٠ لتجسيد مولانا، انتقل الملك الصالح لويس من هذا العـالم، وقد وضعت عظامه في نعش وحملت إلى فـرنسـا، حيث دفنت في كنيسـة القـديس دنس، وهو المكان الذي اختـاره لدفنه، ومنذ ذلك الحين، أظهر الرب كثيراً من المعجـزات الرائعة، تمجيداً له، وبسبب صلاحه.

الفصل العشرون
تطويب القديس لويس
١٢٨٢ — ١٢٩٨

بعـد مضي بضع سنوات على وفـاة الملك لويـس، وبناء على طلب مستعجل من الملك الذي كان يحكم فرنسـا، وعلى أمر البابا، جاء رئيس أساقفة روان والراهـب جين دي سامو Samois — الذي أصبح بعد ذلك أسقفاً — إلى كنيسـة القديس دنس في جـزيرة فرنسـا، وبقيا هناك ردحـاً طويلاً من الـزمن للقيـام بالبحث والتقصي في حيـاة، وفي أعمال، وفي معجزات هذا الملك القديس، وقـد دعيت لمقابلتهما، وقد احتفظا بي هناك لمدة يومين، وبعـدما سألوني وسألواآخـرين، بعثا بها وجـداه وتيقنا منه إلى بلاط رومـا، وقام البابا والكرادلة بتفحـص البينات ووضعوه في عداد المؤمنين المعترفين.

وعم لذلك سرور عـام — وكـان هذا جـديراً أن يحدث — في جميع أرجاء مملكة فرنسـا، وزيادة على هذا، كان ذلك تشريفاً عظيماً للذين هم من نسل الملك ويفعلون مثله الأعمال الصـالحة، وبالوقت نفسه وصمـة عـار للمنحـدرين منه ممن لن يسيروا على نهجـه في الأعمال الصـالحة، وأكـرر وصمة عـار عظيمة إلى الذين من نسله واختـاروا اقتراف الشر، ذلك أن الناس سـوف يشيرون بالإصبع إليهم، ويقـولون كـان الملك القديس — الذي انحدروا منه — سيأنف من العمل بمثل هذا السوء.

وبعد وصـول الأخبار الطيبـة من روما، أمـر ملك فرنسـا، بالقيام في غـداة يوم عيـد القـديس بارثلميـو(٢٥ — آب ١٢٩٨) بـرفع الجسـد المقـدس من قبره، وبعد تنفيـذ ذلك، كـان أول من حمله رئيس أساقفـة الرايمـز آنذاك — عليـه الرحمة من الـرب — مع ابن أخي، الذي كـان

وقتذاك رئيس أساقفة ليـون، وتمّ حمله بعد ذلك من قبل عدد كبير من رؤسـاء الأساقفـة الآخرين والأسـاقفـة، وكانوا أكثـر من أن أتمكن من تسميتهم، ورفعوه أخيراً إلى سدة بنيت خصيصاً لذلك.

وفي أثناء القداس تولى الراهب جين دي سامو تقديم الموعظة، ولدى تعداده للأعمال النبيلة التي قام بها ملكنا القديس، أتى على ذكر عدد من الأفعـال البــاهرة التي شهـدت على صحتهـا بأداء اليمين، والتي كنت حاضراً لدى حدوثها، وقد قال:«وهكذا يمكنكم أن تروا أن الملك كان الأعظم إخلاصـاً، والرجل الأكثراستقامة في أيامـه، وسوف أخبركم أنه كان رجلاً حافظ على كلمتـه، ووفى باتفاقية عقدها مع المسلمين، مع أنه عقدها بكلمة تفوه بها فقط، ولو أنه لم يحافظ على وعده ونكث به، لكان وفّـر على نفسـه عشرة آلاف ليرة ذهبيـة أو أكثـر»، ثم روى لهم القصـة كاملة التي سلف وحكيتها في جزء متقدم من هذا الكتاب، وبعدما فرغ من الحكاية أضــاف قـائـلاً:«لا تظنوا أنني أكــذب عليكم، لأنني أرى أمامي الرجل الذي شهد هذه الواقعة، وقد أكد شهادته باليمين».

وبعـد انتهـاء القـداس، قـام الملك وأخـوته بحمل جسـد القـديس، وأعادوه إلى الكنيسة بمساعـدة آخرين من أسرتهم، الذين كانوا جديرين بهذا التشريف، وفي الحقيقـة لقد شرفـوا تشريفـاً عظيماً، لو أنهم برهنوا فقط أنهم بأنفسهم جـديريـن بذلك، حسبما قلت أعـلاه، ودعـونا نصلي الآن إلى الملك القديس، وندعو الرب أن يعطينا ما نحتاجه إلى أرواحنا، وأجسادنا، آمين.

ولسوف أحـدثكم عن بعض الأمور لصـالح تشريف ملكنا القديس، من ذلك على سبيل المثال مـا رأيته مرة وأنا نائم في الفـراش، فقد خيّل إليّ في منامي أنني رأيت الملك واقفـاً أمام بيعتي في جوانفيل، وقـد كان — كما أعتقـد — مبتهجـاً بشكل رائـع، ومسروراً من قلبـه، وكنت أنا مسروراً جداً لرؤيته في قلعتي،وقلت له:«عندما تذهب من هنا يا مولاي

سوف أقيم مكاناً لك في بيت أنا أمتلكه في قرية ملكي اسمها شيفيلون Chevillon، فأجابني وهو يضحك:«مولاي صاحب جوانفيل ليس لدي رغبة بالرحيل من هذا المكان سريعاً».

وعندما استيقظت بدأت بالتفكير، وقد بدا لي أنه سيكون مرضياً للرب وللملك إذا ما أسكنته في بيعتي، وهذا ما فعلته، لأنني بنيت مذبحاً من أجله، تمجيداً للرب، وتمجيداً له أيضاً، ولسوف تقام هناك القداسات تكريماً لذكراه على الدوام، ولقد أوجدت وقفاً دائماً حتى يمكن فعل ذلك باستمرار، وأخبرت بهذا كله مولاي الملك لويس(ملك نافار) الذي ورث اسمه، ويبدو لي أنه سوف يفعل ما يرضي كل من الرب وملكنا القديس لويس، إذا ما اشترى بعض الآثار المقدسة الأصيلة من الجسد المقدس، وبعث بها إلى البيعة المتقدمة الذكر، أي بيعة القديس لورانت Laurent في جوانفيل، وبذلك يتمكن الذين سوف يأتون إلى مذبح الملك القديس، من التعبد هناك بإيمان أعظم.

وبودي أن يعلم الجميع أنني شخصياً رأيت بالفعل وسمعت شطراً كبيراً مما حدثتكم به هنا، فيما يتعلق بملكنا القديس، وهناك جزء كبير منه تأسس على ما وجدته في أحد الكتب، الذي دون بالفرنسية، والذي قمت بدمجه في هذا التاريخ، وألفت هنا انتباهكم إلى هذا، حتى يضع الذين يسمعون هذا الكتاب أو يقرأونه كامل الثقة في صدق ما قلت أنني رأيته وسمعته، أما بالنسبة للأشياء الأخرى المدونة هنا، لا يمكنني كفالة صدقها، لأنني لم أشهدها شخصياً.

وكان الفراغ من هذا الكتاب في شهر تشرين الأول من سنة ١٣٠٩ لتجسيد ربنا.

٢
التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني

مدخل

منذ نشوء الأبجدية المصروبية Mesrobia ، تعلق الشطر الأكبر من الأدب الأرمني بالأحداث التاريخية، وذلك لأن الأرمن أخذوا أوضاع بلادهم بعين التقدير، ولقد كان مردّ ذلك إلى التأثير الخارجي.

وكان الأرمن — والحق يقال — أشبه بالصخرة، ارتطمت بها أمواج الفاتحين من الفرس والعرب، والترك، وهكذا عرف الشعب الأرمني أوضاعاً ما كان ليحسد عليها، لكن نظرة إلى الموضوع من زاوية أخرى ترينا حالة الأرمن حالة متميزة جداً، لأنهم كانوا الشهود على قيام كبريات امبراطوريات الشرق التي أطلت على البحر المتوسط، وأيضاً على انهيارها، ومنذ أن اعتنق الأرمن المسيحية، ظلت بلادهم جزيرة مسيحية، على الرغم من جميع التغيرات والتحركات المذهلة التي شهدتها شعوب المنطقة، ولهذا حافظت أرمينيا على ثقافتها، مع أنها تعرفت بشكل مباشر في غالب الأحيان على الشعوب التي وطئت أقدامها المنطقة، ولعل هذا الوضع الحساس للشعب الأرمني، كان السبب الرئيسي في ظهور مؤرخين مشاهير من أمثال: الياس، الذي احتوت مؤلفاته على أخبار الحروب الساسانية، وليون الذي كتب عن الفتح العربي، وأرستاك لاستيفركي، الذي تولى التأريخ للسلاجقة، وتولى متى الرهاوي تدوين أخبار الآثار التي نتجت عن الغزو الصليبي لأرمينيا، خاصة ردات الفعل الأرمنية تجاه هذه الحروب، التي عدّت لمصلحتهم في القرن الثاني عشر م، وجاء غريغوري لى بريتري بعد الرهاوي وأكمل عمله، وكانت أعداد كبيرة من الأرمن هاجرت من بلادها إلى كليكية، وأرض الشام ومصر، وتمكن الأرمن من السيطرة على كليكية، وأقاموا فيها دويلة، شغلت دوراً هاماً في حياة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها مع المسلمين ولا سيما في حلب، وتهتم الدراسات

الحديثة بتاريخ هذه الدويلـة، ولاسيما من قبل الأوساط الإسرائيلية التي لها عـلاقـة بها، لأنها قـامت في وسط غير صـديـق من جميع الجوانب، فسكان كليكية العرب كانوا ضد الأرمن الذين تسلطوا عليهم، ولم تكن عـلاقـة هذه الدولة جيـدة لا مع البيـزنطيين، ولا مع الصليبيين ولا مع المسلمين، لكن استطاع بعـض الحكام شغل دور استغـلال التـوازنات بشكل بارع، ويظـل من أهم جـوانب تاريـخ دولة أرمينيـا الصغـرى علاقـاتها مع أنطاكية ثم تحالفهـا فيما بعد مع المغـول، لدى قدوم هؤلاء للسيطرة على بلاد الشام، ولقـد ظلت معلـومـاتنا عن هذا الجانب غير كافيـة حتى تم العثور على تاريخ نسب إلى القائد سمبـاط، الذي عاصر جوانفيل.

ورأينا المدى الكبير الذي اهتم به جـوانفيل بالموضـوع المغـولي، وهو الموضوع الذي سنوليه المزيد من الاهتمام بنشر مصادره الأساسية.

وأثارت مسألة نسبـة الكتـاب إلى سمباط عـدداً من المشـاكل، وبداية يلاحظ أن الكتب عن المصـادر الأرمنيـة، فيهـا إشـارة إلى تاريخ صنفـه سمبـاط، وخير مثال على ذلك تـم العثور على ثبت فيـه أسماء المؤرخين الأرمن، وتاريخ هذا الثبت هو ١٧٩٠ — ١٧٨٩ ، وقـد ورد فيه ذكـر كتـاب اسمـه«تاريخ ملكيـة روبين» قام بـوضعه سمبـاط، وكـان الأب ميخـائيل تكمتشين قد تحدث عن سمبـاط في كتاب«تاريخ أرمينيـا»،(ط ١٧٨٦ — ج٣ ص ٣٣٥) ، وجاء ذلك في معـرض حديث هذا الأب عن بعض المؤرخين الأرمن الذين فقـدت كتبهم، وكـان علينا أن ننتظر حلول القـرن التاسع عشر كي نحصل على مـا هو منسوب إلى سمبـاط دون أدنى ريب.

وجـــاء العثـــور الأول على تـاريخ سمبـــاط، لـدى زيارة المستشرق الفـرنسي م.ف.بروسي للمكتبة التـي امتلكها دي ايجيمشين، حيث عثـر على نسختين من تاريخ منســـوب إلى سمبـاط، ثم تطـورت هذه المسألة

وتقدمت بالعثور على العديد من النسخ، كان من بينها اثنتين من مكتبة القديس لعازر في البندقية، ومع تزايد الاهتمام بهذا الموضوع جرى التعرف على مخطوط أرمني في المتحف البريطاني(رقم ٥٤٥٨) تشابه بمضمونه إلى حد كبير مع الذي عثر عليه عند ايجيمشين، والذي اختلف به مخطوطا ايجيمشين هو أنهما احتويا على بعض الأناشيد الدينية والقصائد.

وقام في سنة ١٨٥٦ الروسي جورجيان يوهانسنك بنشر التاريخ المنسوب إلى سمباط اعتماداً على إحدى مخطوطتي ايجيمشين، وقام في سنة ١٨٥٩ كرابات فاردابت شاهنزاريان بإعادة نشر التاريخ المنسوب إلى سمباط، ولم تختلف طبعته كثيراً على ما كان قدمه أوسكان إلاّ بوجود قصيدة نظمها غريغوري العينزربي على شرف الملك أوسيم، لكن والحق يقال إن نص كرابات أكثر دقة مما جعل منه قاعدة لأعمال الترجمة المقبلة، وفي الوقت نفسه لوحظ أن نص مخطوطتي ايجيمشين ليس فيه لغة عامية أرمنية.

ونسب علماء القرن التاسعَ عشر نص ايجيمشين إلى القائد سمباط، وكان من هؤلاء الأب أليكان في كتابه عن أرمينيا الصغرى في كليكية، وجاءت معرفته بهذا الكتاب عن طريق أخيه سيروف مارجر أليكان، فهو قد عثر في ١٨٧٦ على مخطوط في القسطنطينية، وقدمه إلى أخيه الأب أليكان، ويرجح أن هذا الأب قد قدم هذا المخطوط إلى مكتبة Mekhitaristtes في البندقية، وهناك منح هذا المخطوط رقم / ١٣٠٨ / ، وسجل تحت عنوان«تاريخ متى الرهاوي وأخبار الكليكيين لسمباط».

واقتبس الأب أليكان في كتابه عدة مقاطع من هذا المخطوط، وكان كتابه هذا قد نشر سنة ١٨٨٥ ، وإثر ذلك عملت دور النشر الفرنسية على ترجمته هذا الكتاب، وكتاب آخر له عن ليون العظيم، وكان كذلك

قـد اعتمـد فيـه على تـاريخ سمبـاط، ثم قـام هذ الأب بمـزيد من الاقتباسـات من هذا التاريخ في كتـاب عن هيتوم، نُشر في البندقيـة سنة ١٩٠١ — ١٩٠٢ ، وبعـد هذا بسنوات قـام المستشرق الفـرنسي كلود كاهين بإعداد أطروحته للدكتوراه عن سورية الشمالية في عصر الحروب الصليبيـة (باريس ١٩٤٠)، وهنا أعـرب عن أهميـة الكتـاب المعـزو إلى سمباط.

ولاقى هذا الكتـاب المزيد من الاهتمام في فرنسـا وإنكلترا والولايات المتحـدة، وقـام في سنـة ١٩٥٦ سيروب أكليـان، بقـراءة نصـوص المخطوطات المتوفـرة قراءة واعيـة، وإعادة صياغتهـا، وسهل هذا ترجمة الكتاب إلى بعض اللغات الأوربية،وتسهيل التعامل مع مواده، ومع هذا لوحظ أن نص مخطوط البندقية قد كتب بعـامية أرمنية، فيه كلمات كثيرة مستعـارة واصطـلاحـات صعبـة التفسير، وقـد أثار هذا مسألـة نسبـة الكتـاب، لأن الذي عرف عن سمبـاط علو الثقافـة وصحة اللغـة. وفي مناقشـات مسألة نسبـة الكتاب إلى سمبـاط أو نفي ذلك لم تتـوفـر أدلة قاطعـة على صحة النسبة، لكن الذي تـأكد هو صحة نسبـة الأخبار له، إنما قـد يكون مجهول قـام بإعـادة صيـاغة الكتـاب، ومن ثم أقحم فيـه بعض المواد من مصادر أخرى لا سيما مما جاء لدى متى الرهاوي.

وخلصت الأبحـاث التي تناولت نصـوص المخطوطات، إلى التسليم بأن الأصل الـذي تم الاعتماد عليـه صنف في القـرن الثـالث عشر، وصـاحبه مـن الأسرة الملكية الهيتـوميـة الأرمنية، ومـواده عن أحـداث الحروب الصليبية المبكرة مختصرة ومتوفرة في مصـادر أخرى أفضل، أما عن كليكية مع المتأخر من أحداث الوجود الفرنجي في المشرق وتداخله مع قدوم المغـول، فهذا هام ويكاد يكون أساسياً، وسيظل كذلك حتى تتهيأ فرصة سعيدة يعثر بها على نسخة صحيحة من تاريخ سمباط.

التاريخ المعزو
إلى
القائد سمباط

١ — دخول مانويل كومينوس إلى أنطاكية

قـررملك القدس، وأمير أنطاكيـة، وطوروس، والداوية والاسبتـارية إمداد الصليبيين الذين أتوا وخيمـوا أمام أنطاكيـة، وبعث ملك القدس من جهة أخـرى مع بقية القـادة يحثون الامبراطور الاغـريقي(البيزنطي) على القـدوم لمسـاعـدة المناطـق الصليبيـة، ووافق الامبراطور على ذلك، ووعد بالقدوم إلى أنطاكية، لكن وعـوده لم تكن خالصة، ولانيته حسنة، فقد كـان يخطط بالفعل للدخول إلى أنطاكيـة، ليس لانجاز عمل مهم ، ولكن لرغبة جـامحة كانت تدفع به نحو النساء، فقـد كان يفكر بالزواج بواحـدة من بنات بوهيمـوند أمير أنطاكيـة، وقد جـاء ليرى إن كـانت الفتاة تناسب ذوقه، ولم يكن قد أخبر أحداً بما هو عازم عليه .

وقام مـانويل في تلك الأيام بإعطاء بلدوين ملك القـدس — الذي كان رجـلاً له بنية عمـلاقة — هدايا ثمينة، وتوّجـه بتاج ملكي، وخلع عليه ثياباً لها قيمـة عالية، كما منحه سرادقاً ملكيـاً، ملأه بالأواني الفضية والذهبية، وجميع أنواع الأثاث، حسبما جـرت العادة، وأهدى كذلك إلى القـادة التابعين له هدايا ثمينة، وخـص واحداً منهم اسمـه فيليب، ومع هذا توجـه هذا إليـه بخطاب كلماته لا يمكن أن تمحى من الذاكـرة، فعندمـا بعث إليـه الامبراطور بثلاثـة رؤوس من الخيل، محملة بالذهب وبالملابس الثمينة، وقف وقدم شكره له، وبعدها كلف رسوله أن يقول لسيده:«نحـن لم نأت إلى لقائك هنا من أجل كنوز ومـلابس، ولكن من أجل سـلام المسيحيين، وإذا كان هذا مـا ترمي إليه، فسـوف نضع تحت تصرفك رجالنا، وكل فرقنا، وجميع مـا نملك، وحيثما كان القتال سوف ترى أي مقـاتلين لديك، وكـذلك أعط ذهبك إلى الفقـراء، ولكن إذا لم تتصرف كما طلبنا منك، ووعدتنا به بانقـاذ المسيحيين، فإنه ليس لذهبك أدنى قيمة بنظرنا».

وشرعوا بعد ذلك بـالإعداد لدخول أنطاكية حسب الطريقـة التالية:

فقد زينوا أبواب المدينة والأسوار، ورفعوا العلم الامبراطوري فوق الأسوار، ومركزوا جنوداً على أبواب المدينة تحت أوامر قادتهم، وكذلك في الأزقة، وهناك تمركز بعض القادة أيضاً، وأغلقوا داخل أنطاكية بكتائبهم، وزعقت بعد ذلك الأبواق، ودخل الامبراطور مرتدياً الثياب الامبراطورية، والتاج على رأسه، حيث تشع الأحجار الكريمة مثل نجوم ساطعة، وتقدم على حصانه الملجم بلجام ذهبي، وقد اصطفت العساكر على الطرفين: عن يمينه وعن يساره، وسار بخطى صغيرة، وكان يسير أمامه ملك القدس متوجاً بإكليل، وممتطياً حصاناً، وأمير أنطاكية، ولكن سيراً على الأقدام، دليلاً على الذل والإهانة.

وفق هذه الطريقة دخل الامبراطور الاغريقي مانويل إلى أنطاكية مع ملك القدس بلدوين، وبعدما سار حتى وسط المدينة، قصد كنيسة القسيان(القديس بطرس) ومقر الكرسي البطريركي، وهناك قدم نفسه، ثم عاد أدراجه.

٢ — *مراسلة مانويل لنور الدين*

وعندما علم نور الدين بن زنكي بأخبار هذا الحشد الكبير، وكان آنذاك كبير أمراء حلب، استولى عليه الرعب، وخاف من هذا التجمع الكبير للقادة المسيحيين، فاستنفر قلاعه كلها، واستعد للحرب، ونشر القوى والقادة في جميع الأماكن المناسبة، ونقل ذخائره إلى الجانب الآخر من الفرات.

وبعد بضعة أيام بعث الامبراطور رسولاً إلى نور الدين، مع رسالة طالبه فيها بإعادة جميع أراضي أنطاكية، وكذلك بالرها وأراضيها، التي نظفها من الصليبيين، وأمر بإعادة الأسرى المأخوذين من جميع الأمم المسيحية، والذين كانوا يعانون في السجون لديه.

وعندما رأى سلطان حلب، أي نور الدين الرسول، وقرأ الرسالة

التي حملها، ارتاح من الهموم وزالت مخاوفه التي كانت تراوده، وبما أنه كان ماكراً، فقد استطاع أن يقدر مدى قوة الجيوش المحتشدة، بما أن المطالب لم تأت بالسيف والرمح، وإنما بالورق والمداد، وبناء عليه أجاب الامبراطور بعدم الطاعة، ورفض مطالبه كلياً، ولدى سماع الامبراطور بجواب نور الدين دعا إلى اجتماع لجميع القادة لإقرار الجواب الذي يتوجب إرساله إلى نور الدين.

٣ — *تراجع مانويل بدون قتال*

ووقع ملك القدس وأمير أنطاكية وباقي السادة على قدمي مانويل الامبراطور الاغريقي قائلين:«يا مولانا لا تغير فرحتنا الكبيرة إلى حزن، ذلك أن اتحادنا يوهن أعداء المسيح، ويغرقهم باليأس، وإذا ما وقع اختيارك على إقامة السلام معهم عوضاً عن القتال، فلسوف يزيلون بضربة واحدة اسم المسيحيين من على وجه الأرض، ولسوف يحتقرون المسيحيين ويأسرونهم بدون وجل، لأننا سوف نكون موضع سخريتهم».

ولكن مانويل لم يهتم بهذا، وأصر على العودة، واحتج بتوفر بعض الأسباب الطارئة وقال:«تلقيت معلومات من العاصمة ولهذا أريد استعجال العودة» وهكذا تعلل كذباً، ثم زاد من كذبه من أجل العودة، عندما رجاه الجميع وهم يشعرون بحزن عميق، لعدة مرات، بعدم العودة مباشرة، وتخصيص ثلاثة أيام فقط لحملة ضد حلب، وبعدها يعقد السلام مع المسلمين، إذا كان ذلك ما يريده، ويمليه عليه قلبه.

غير أن مانويل لم يعر توسلاتهم أدنى اهتمام، ولم يرد خدمة مصالح المسيحيين، لذلك بعث برسول إلى نور الدين، فعقد معه الصلح، واندهش المسلمون لما حدث لدى سماعهم الأخبار، لأن ذلك لم يكن متوقعاً لديهم، فقد كانوا ينتظرون رؤية الهزيمة.

وأدركـوا أنهم نجوا بدون سفك للدمـاء، ولا حرب مخيفـة وقاسيـة، ذلك أنهم كـانوا يحسبـون السفراء جـواسيس، لكنهم تأكـدوا الآن من الحقيقـة منهم، ومع هذا لعظيم فـرحتهم لم يصـدقوا، ولم يقنعـوا أن مـا حدث كـان صحيحاً، ولهذا احتاروا أي جواب يعطون، وبعـدما تيقنوا من صـورة الحال بعثـوا إلى الامبراطور أمـوالاً كثيرة وهدايـا نفيسـة، وجياداً أصيلة، وبغـالاً جميلة، وبعثوا مع هذا كله بخمسين من الأسرى المسيحيين.

وعندما عاد مانويل، الامبراطـور الاغريقي الشجاع، الذي قدم كنسر قـوي، ورجع كثعلب ضعيف، وابتعـد كجبـان، على الـرغم من جميع الفرسـان الذين كـانوا لديه، وتابع سيره حتى وصل إلى بلدان السلطان قلج أرسـلان، ووقتهـا انقض عليـه التركمان والأوج، وهاجموا سـاقـة جيشه، وقتلوا اثني عشر ألف رجل من أتباعه، مما نجم عنه عداوة حادة بين الامبراطور والسلطان، أمـا فيما يتعلق بطوروس فقـد تـدبر أمـر انسحابه بسلام.

(الـوقـائع من ١١٦٠ حتـى ١١٧٥ ، مماثلـة لما ورد في مخطوطـة ايجيمشين).

٤ — *اغتيال ستيفاني من قبل الاغريق*

في سنة ٦١٤(٨ شباط ١١٦٥ — ٧ شبـاط ١١٦٦) قتل ستيفاني بن ليون، وأخو طوروس أمام هاموس في كليكية، وجاء ذلك نتيجة مؤامرة دبرها دوق الإغريق،فقد استدعـاه المسيحيون المحليون باسم الصداقة، وعندما انفـرد وا به، أزالوه من هذا العالم بمـوت بشع، حيث سلقوه في قدر، دون أن يبالوا بجندي مثله،وقد ترك ولدين هما:روبن، وليون، أما فيما يتعلق بأخـويه طوروس ومليـح فقـد عبرا عن انتقـامهما بطريقـة خيـانيـة، حيث صبا انتقـامهما على ألف إغـريقي بريء سفكا دمـاءهم،

وهم لا علاقة لهم بها تحمل الدوق مسؤوليته.

٥ — *انتصار الجيورجيين*

وزحف في السنة نفسها جورجي ملك الجورجيين مع جيشه ضد دوين، وقد خرج المدافعون عنها لصده وقتاله، لكن جورجي هزمهم وأرغمهم على الفرار والاعتصام داخل المدينة، وطاردهم جنود الملك، ولم يرفعوا سيوفهم عنهم حتى أبادوهم، وألقوا النار في المدينة، وبعدما حولوها إلى خراب انسحبوا.

٦ — *مؤامرة مليح ضد طوروس*

وتصرف في هذه الآونة طوروس المنتصر، ابن ليون بحذر، وأمّن الدفاع عن المناطق الجبلية في جبال طوروس، التي كان هو حاكمها، أما أخوه مليح فكان رجلاً شريراً وقاسي القلب وبلا رحمة، حيث خطط لقتل أخيه، ورسم خطته وقرر تنفيذها مع أشخاص آخرين، وفي أحد الأيام بينما كانوا يصطادون فيما بين المصيصة وأذنة، قرر مليح قتل أخاه هناك في ذلك المكان، غير أن طوروس الذي كان ينتظر مثل هذا العمل اعتقل أخاه، لأنه كان متيقظاً، واستجوبه أمام الجيش مع كبار القادة عن الأسباب التي دفعته لاقتراف مثل هذا العمل، ووبخ مليح بحضورهم توبيخاً قاسي اللهجة، وأعطاه بعد ذلك جياداً وبغالاً ومالاً وسلاحاً وبعض الرجال وطرده إلى خارج البلاد، دون أن يعاقبه أكثر على فعلته، واتجه مليح إلى صاحب حلب، نور الدين، ودخل في خدمته، فأقطعه قورس وأراضيها.

٧ — *الأسرة الهيتومية*

كانت زوجة ستيفاني ابنة للبارون سمباط صاحب بابيروان(١)، أخو أوشين صاحب لامبرون(٢)، كما كانت أختاً لباكوران، الذي حكم بابيروان بعد مقتل أبيه سمباط من قبل جيوش طوروس على أبواب

المصيصة، وحسبما ذكرنا من قبل، قد قامت هذه الأميرة بالاعتصام في بابيروان بجوار أخيها باكوران، واستقرت هناك، وربت أولادها، وكانت هذه اسمها ريتا، وكانت عاقلة تقية، وتخاف السيدة، وكان لدى باكوران أخ اسمه كاساك، وكان هذا صاحب قلعتي أسكوراس(٣)، ولاماوس(٤) وأراضيهما، وكان باكوران صاحب بابيروان رجلاً طيباً وكريماً، وحريصاً على الجميع ومحبوباً من الرب ومن الرجال، فليبارك الرب ذكراه، وكان لكل من باكوران وكاساك أخ آخر اسمه هلكم، هذا وكان كاساك والد أول البارونات.

٨ — *تكريس الجاثليق نرسيس الرابع*

في سنة ٦١٦(٨ شباط ١١٦٧ — ٧ شباط ١١٦٨) وجدتير غريغوري نفسه قد تقدمت به السن، ذلك أنه كان قد أمضى أربعاً وخمسين سنة جاثليقاً، بمشيئة الرب، عندها جمع بتحذير من الروح القدس، حشداً من رؤساء الأساقفة والأساقفة والرهبان، وشخصيات دينية أخرى مقدسة، وخص أخاه رئيس الأساقفة نرسيس ضياء الدين، بعرش الجاثليق الأرمني، وذلك بعدما ترجاه كثيراً، إذ أن نرسيس هذا أراد رفض هذا التشريف، لحسبانه أنه كان غير قادر على الاستجابة للنداء الرباني، وقد نظم نرسيس هذا عدة أغاني روحية للكنيسة، وقاد الكرسي البطريركي حسب مشيئة الرب، وكان رجلاً سليماً، بجمال جسماني، وكان منظماً، مليئاً بكل العلوم مع رحمة الروح القدس، وكان متدفقاً كتدفق النهر الغزير الجريان، وكان والحق يقال لا مثيل له بين البطاركة الذين تقدموه والذين تلوه إلى عصرنا هذا، وقد انتشر صيته وذاع حتى وصل إلى القسطنطينية، لا بل حتى امبراطور الإغريق كير — مانويل، الذي طلب منه رسالة إيمانية باسم الكنيسة الأرمنية، وكتب نرسيس الرسالة، وبعدما قرأها أمام الامبراطور، قام البطريرك مع جميع العلماء الاغريق بالاعتراف بالإجماع بأرثوذكسية الإيمان الأرمني.

وعندها أرسل الامبراطور هورومكلي Horomklay الفيلسوف إلى هذا اللاهوتي، وقد أجرى معه محادثات دامت عدة أيام، وعندما عاد إلى الامبراطور أخبره أن علم القديس نرسيس لا يعدله علم بدقتـه، وكرمه لا يعـدله كرم، وأحب الامبراطور القـديس البطريرك، وبادر إلى البعث لإحضاره إليه مرة أخرى، ليعقد الصداقة والاتحاد بين شعبين كانا حتى الآن مفترقين أحـدهما عن الآخـر، ولم ير هذا الامبراطور الماكـر محصلة جهوده، بسبب وفاة البطريرك نرسيس.

٩ — *وفاة طوروس الثاني*

في سنة ٦١٧(٨ شبـاط ١١٦٨ — ٦ شبــاط ١١٦٩) توفي طوروس الأكبر، ابن لاون بن قسطنطين بن روبين الذي احتل المناطق الجبليـة في جبال طوروس،وكـان قد حقق عدة إنجازات في أماكـن أخرى متعددة، وحقق انتصارات في معارك كثيرة، بفضل مهارته، فليرحمه الرب.

واختـار الملك طوروس في ساعـاته الأخيرة وليـاً لعهده تومـاس ابن الأمير روبين، وقد تولى هذا حكم بلاد طوروس لمدة سنة واحدة.

١٠ — *اغتصاب مليح للسلطة*

في سنة ٦١٨(٧ شباط ١١٦٩ — ٦ شبـاط ١١٧٠) تلقى مليح أخو طوروس، تعـزيزات من عند نور الدين صـاحب حلب، وقـد دخل إلى كليكيـة مع الكثير من الترك، واستـولى على إمـارة أخيـه، وحصل الترك على الكثير من الأسلاب،وذلك لدى بحثه عن أعدائه لينتقم منهـم، فقد قهـرهـم، وسلبهم ممتلكاتهم، ثم ألقـاهم بالسجن، وكبلهم بالسـلاسل، وكـان يستـوقف الناس، ويقلع لهم أسنانهم، وذلك حيث شك بوجـود الذهب أو الفضة بالفم، فهـو لم يوفر شيئاً إلاّ وسلبه، فبالطريقـة نفسها سبى النسـاء المحتشمات، واغتصبهن بوسـائـل معيبـة، وكـدس الذهب والفضة، وأشبع نهمه باغتصاب أرزاق الأثرياء، فقد كان رجلاً متوحشاً

وشريراً، وبلا رحمة، وكـان الجميع يكرهونه ويتمنون الفـرار منه، لكنهم لم يجدوا آنذاك ملاذاً يمضون إليه .

في سنة ٦١٩(٧ شبـاط ١١٧٠ — ٦ شبــاط ١١٧١) ضرب في يوم ٢٩ حزيران زلزال قوي المنطقة، وهدم أسوار أنطاكية وحلب، وانهارت أيضاً الكنيسـة المكرسة على اسم أم الرب، وخلّف هذا الزلـزال ضحايا كثيرة.

١١ — صراع مليح ضد الهيتوميين

وبعدما صار مليح سيداً لإمارة أخيه، التجأ توماس إلى أنطاكية، وقد بعث ابن طوروس إلى المقر البطريـركي في هورومكلي، لحصار البطريرك هناك، وقـد توفي الجاثليق في تلك الأثناء، وقام هيتـوم بن أوشين، الذي كان قـد تزوج من ابنة طوروس — كما ذكرنا — ولم يستطـع بعد ذلك هجرهـا والابتعاد عنها في حيـاة طوروس، لعدم قـدرته على فعل ذلك، قام الآن بعد وفاة أبيها بالابتعاد عنها وتطليقها.

وغضب مليح لما حدث، فـذهب لحصار لامبرون، ومعه قـواته، وقد ألحق خسـائر جسيمـة بالسكان، وفي الحقيقـة كـان هناك من قبل صراع مستمر بين الروبنيين وبين الهيتـوميين، وجاء هذا الطلاق ليـؤجج ذلك، ولقد عذبهم مليح كثيراً وآذاهم بالحرب، وبالمجاعة.

١٢ — تكريس الجاثليق غريغوري الرابع طلاي

في سنة ٦٢٢(٦ شباط ١١٧٣ — ٥ شباط ١١٧٤) استدعي القديس المنير البطريرك نرسيس إلى جنب المسيح يوم ١٣ — آب، وبذلك أغرق الكنيسة الأرمنية في حزن عميق، وكان قد كتب في وصيته أمراً بإجلاس ابن أخيـه الأكبر باسيل على عـرشـه، أي رئيس الأسـاقفة تيرغـريغـور الملقب بطلاي، وبناء عليه تمّ العمل وفقـاً لأوامره، ووفقاً لما رآه مجلس ضم عدداً كبيراً من رجال الدين، وجـاء الآن ترتيب تيرغريغور الحادي

عشر في سلسلة الذين تسلموا منصب الجاثليق لدى الأرمن.

وكان رجلاً ضخماً، وصاحب مظهر جدي، له وجه بشوش، وقلب كريم مليء بالحكمة، وبالعلم وبالروح الطيبة، وقد حبي بالمرونةفي الكلام، مع موهبة التلاعب بالجمل والمقاطع المقتبسة من العهد القديم، وكذلك من العهد الجديد، وقد زين القديس غريغور الكرسي المقدس ببناء الكنيسة الرائعة، والتي زاد في جمالها ورونقها بالأواني الثمينة من الذهب والفضة، ومن الملابس المذهبة، ولكثرة ما أغنى به هذا المعبد المقدس لم يتمكن الذين تولوا أمره من بعد من تقليص عدد الأشياء التي كانت فيه مع أن كل واحد منهم كان يتولى صهر الذهب والفضة التي فيه.

وكان قد أمر أيضاً بصنع ثلاثة قبور في أقبية الكنيسة، وقد أودع فيها ما تبقى من جثث القديسين البطاركة أي: نرسيس وغريغوري ومتقدمهما غريغوري الخامس كياسير، وكان قد أحضرها من منطقة كيسوم، من دير كرميروانك(٥)، وقد عاش حياة ملكية، حيث كان يمنح الهدايا الثمينة، والعطايا العظيمة، واحتفظ بمائدة عامرة.

وتوفي في هذه السنة صاحب حلب نور الدين، وقد خلفه ابنه الملك الصالح.

١٣ — *الأعيان يولون روبين الثالث الحكم*

بعدما أمضى مليح خمس سنوات في الحكم، اتفق أعيان الأرمن في سنة ٦٢٤(٦ شباط ١١٧٥ — ٥ شباط ١١٧٦) والشخصيات التي كانت محيطة به على قتله في مدينة سيس، بسبب عاداته السيئة، والسلوك الفاسد، فبعثوا إلى بابيروان وأحضروا الابن الأكبر لستيفاني، الذي اسمه روبين، وذلك بهدف إجلاسه على عرش أجداده، وقد تركه خاله باكوروان يذهب من دون تأخير، وأعطاه وفرة من الذهب والفضة،

وعندما وصل روبين، وضع نفسه في خدمة بلد آبائه والأمراء الأرمن الذين أطاعوه عن طيب خاطر، وقد كان رجلاً حريصاً وكريماً، وبهيّ الطلعة، وكان عمره آنذاك ثلاثين سنة، وقد اتسم بالشجاعة في القتال والمهارة بالرمي بالقوس.

وشرع يوزع الهدايا على الجميع بكرم زائد، وأعطى جميع الكنوز التي جمعها مليح كما أنه ملك قلوب الجميع وعقولهم بالمآدب والاحتفالات التي كان يقيمها، وتمكن إلى حيث ذهب مع رجاله من هزيمة الأعداء بكل شجاعة، وهكذا استطاع احتلال طرسوس، وأذنة والمصيصة، وكان في بداية حكمه قد أغرق الأعيان بشكره الكبير، لما أسدوه له من خدمات حين اقتلعوا عمه وأجلسوه على عرش أجداده، ومع هذا وعد بجوائز أفضل وأعطيات أعظم للذين قتلوا عمه، إذا ما عرف الأيدي التي قامت بذلك.

وتقدم إليه رجلان، أغرتهما الفتنة، وقالا له:«نحن اللذان قتلناه بأيدينا حباً فيك»، وشكرهما روبين، وتظاهر بسروره بذلك، ثم أمر باعتقالهما، وبوضع حجر في عنق كل واحد منهما، ورماهما في النهر سراً، وكان اسم أحدهما ياهان Yahan، واسم الآخر — وكان خصياً — ألب الأريب Alpllarip .

وعندما رأى روبين أن قوته قد ازدادت، قرر مهاجمة لامبرون التي مكث فيها ثلاث سنوات، وسبب بذلك الرعب لسكانها، والذي دفعه إلى مهاجمتها ما كان يسود بين الطرفين من نزاع قديم، ومع هذا لم يتمكن من الاستيلاء عليها.

١٤ — *مصاعب البيزنطيين*

في سنة ٦٢٥(٦ — شباط ١١٧٦ — ٤ شباط ١١٧٧) قطع قلج أرسلان، سلطان قونية الطريق على الامبراطور الإغريقي، بعد مدينة

قونية، مقابل أطلال قلعة ملطية، وبعدما أسره، أطلق سراحه، لكن بعد أن عقد معه معاهدة تحالف مختومة وموثقة.

وفي سنة ٦٢٦(٥ شباط١١٧٧ — ٤ شباط ١١٧٨) توفي كير مانويل، امبراطور الإغريق، واعتلى العرش من بعده ابنه ألكسيوس.

وفي سنة ٦٢٧(٥ شباط١١٧٨ — ٤ شباط ١١٧٩) ثار أندرونيكوس على ألكسيوس وقتله، وحل محله في حكم الامبراطورية.

وفي سنة ٦٢٩(٥ شباط١١٨٠ — ٣ شباط ١١٨١) قُتل أندرونيكوس، وتسلمت آن الحكم .

١٥ — *نشوب سوء تفاهم بين روبين وأخيه ليون*

في سنة ٦٣٠(٤ شباط١١٨١ — ٣ شباط ١١٨٢)، ذهب البارون روبين إلى القدس مع وفد كبير، وتزوج من ابنة صاحب الكرك وعاد، وكان أخوه ليون خائفاً منه، لأن الناس كانوا يتهمونه بشدة، ويقولون لروبين بأن أخاه ليون يخطط للثورة عليه، فما كان منه إلاّ أن التجأ إلى طرسوس، ومن ثم سافر من هناك بحراً إلى القسطنطينية، حيث حمته العناية الربانية، وحيث لقي حفاوة كبيرة ، واستقبل باحترام من قبل عدة من رجال الامبراطور.

وفي سنة٦٣١(٤ — شباط١١٨٢ — ٣ شباط ١١٨٣) رجع ليون من القسطنطينية، والتحق بأخيه، الذي أحسن استقباله، وعامله بمودة، وأعطاه قلعة كابان Kapan .

١٦ — *اعتقال روبين في أنطاكية*

كانت لدى روبين مشاريع توسعية، وقد ذهب إلى أنطاكية، وهناك اعتقله أميرها، وألقاه في السجن، أما الأعيان الين كانوا معه فقد هربوا ونجوا سالمين وعادوا إلى بيوتهم، وقد حدث هذا في سنة ٦٣٤(٣

شباط١١٨٥ — ٢ شباط ١١٨٦).

وأرسل بعدها روبين إلى خاله باكـوروان، ليبعث إليه برهائن يعطيهم إلى الأمير بدلاً عنه، حتى ينال حـريتـه لكي يجمع فـديتـه، وبناء عليـه أرسل باكـوروان أخته أم روبين وبعض الأقـارب، وتنازل روبين لأمير أنطاكيـة كفـدية عن: سـاروانديكار(٧) Sarvandikar ، وتل حمدون، وشكر Cker (٨) ، ووعده بدفع ألف«دهكان Dahkans»، وبعدمـا أطلق سراحــه، عـاد إلى بلده، ثم أعطى أمير أنطـاكيـة مـا وعــده به، وحصل مقابل ذلك على حرية الرهائن.

١٧ — *وصول ليون الثاني إلى الحكم*

في سنة ٦٣٦(٣ شبـاط١١٨٧ — ٢ شبـــاط ١١٨٨) توفي روبين، فـانتقل الحكم إلى أخيه ليـون، الذي كان رجـلاً عظيماً، لم يبحث في أي مناسبة من المناسبات عن الانتقـام من أي كان، بل كان على العكس من ذلك، وقد سلم أموره للرب حتى يدبرها له.

وكان أميراً ذكياً ومقتدراً، وفارساً بارعاً، وشجاعاً في أعمال الحروب، ونبيـلاً في تحقيق الأعمال الإنسانيـة، أو الربانية، و متـواضعاً، وصـاحب وجه واضح التقاسيم.

١٨ — *بدايات ظهور أمر صلاح الدين*

كـان في هذه الآونة يوسف بن أيـوب، المسمى صـلاح الدين يحكم: حلب، ودمشق، ومصر،وكان هو وأخوه العادل (٩) بالأصل من منطقة دوين، وكـان أبوهما فـلاح كـردي اسمـه أيوب ، وكـان صـلاح الدين وأخوه قد تركا بلدهما ليشربا الخمرة، فجاءا ودخلا في خدمة نور الدين صـاحب حلب، وقـد أشفق نـور الدين عليهما، وتصـدق عليهما في كل مناسبة، فصارا خادمين وفيين له، وترقيا بالمناصب وامتلكا يوماً بعد يوم بعض السلطة، وبالمال الـذي كسباه أكـلا وشربا مع الجميـع، وهذا مـا

أكسبها صداقة الناس جميعاً، ومكنها من حكم بلاد كثيرة، ولما رأى صلاح الدين ازدياد أهميته وقوته، صار رجلاً فظاً، وأخذ يهدد المسيحيين، وتعاظمت قوته يوماً إثر يوم، واستغل كل مصادر طاقته لضرب المسيحيين، فدمر بضربة واحدة قوتهم في جميع مناطق حكمهم.

١٩ — *فاجعة حطين*

وزحف صلاح الدين في السنة نفسها ضد ملك القدس، فقام الملك، وفرنجة الساحل، والرهبان الذين يرتدون ثياباً تحمل شارة الصليب(من الداوية والاسبتارية)، بالاحتشاد، وذهبوا وعسكروا على مرأى من صلاح الدين، وكان جيش الفرنجة قد عسكر فوق تلة، ولذلك كان يشكو من قلة الماء.

وعندها تنكر صاحب طرابلس لدينه، بعث إلى صلاح الدين يقول:«ماذا تعطيني إذا أزلت معسكر المسيحيين من مكانه، وأخذتهم إلى مكان لا ماء فيه، ويمكنك في الوقت نفسه أنت وفرقك العسكرية إقامة معسكركم إلى جانب الماء»؟ فوعده صلاح الدين بجزيل العطايا، والأموال الكثيرة، ووثق ذلك بعقد مكتوب.

وإثر هذا قرر صاحب طرابلس الخائن أن يقدم إلى الملك والقادة النصائح التالية بقوله:«ليس في صالحنا البقاء هنا، هيا فلنذهب من هنا ولنعسكر على التلة، وبذلك نغطي ساقة قواتنا ونقوي الدفاع عن أنفسنا»، ولقد تمكن من إقناع الجميع، وجعلهم يصدقون كلماته المسمومة، وعندما رحل المسيحيون عن مكانهم، جاء السلطان، وأقام معسكره إلى جنب الماء، وهنا لم يعد بإمكان المسيحيين شرب الماء، ووجدوا أنفسهم في خيبة أمل وحيرة عظيمة، وصعب عليهم إيجاد مخرج لوضعهم.

وعندها استسلموا في يأسهم للموت، ومضوا إلى القتال، وهرب

الحاكم الخائن لطرابلس، وآذى المسيحيين، وسبب خسارتهم، وهزيمتهم، ودخل الذين قرروا الموت إلى الحرب، وقد طال أمد القتال، وكان معظم المسيحيين بالأسفل، وخارت قوى الرجال والبهائم، وانهاروا بسبب العطش، فقد كان هناك حر شديد، وريح حارقة، وضاعف الأعداء ضرباتهم حتى تمكنوا من سحق الجسيع.

٢٠ — *استسلام غي لوزغنان إلى صلاح الدين*

وكان الملك قد التجأ مع ثلاثة من المحاربين إلى قمة تلة هناك، فبعث إلى السلطان وطلب منه قبول استسلامه، فأرسل له السلطان قوة لحمايته ومرافقته حتى يلتحق به.

ولدى وصول الملك خرج السلطان إلى استقباله، ووقف أمامه باحترام وصافحه بقوة وقبله، ثم أخذه من يده، وأدخله إلى خيمته، وأجلسه على وسادة إلى جانبه، وذلك حيث جلس بكل احترام وقال له:«أيها الملك المبجل مرحباً بك وألف مرحباً في بيت أخيك، ولا تحزن أبداً من مصير الحرب، فتارة نريد أن نكون الرابحين، وإذا بنا من الخاسرين، وأنت ملك جدير بالتقدير، وعادل تحترم وعودك، وهذا يروق لي، ولهذا لن تنقص شعرة واحدة من رأسك، ولأجلك سوف أعفو عن كثيرين، وذلك تقديراً لك، ولسوف أعيد الحرية إلى العديدين».

٢١ — *النهاية المشؤومة لرينودي شاتيون(أرناط)*

وفيما كانا يتحادثان هكذا، أحضر رينو أمير طرابلس(١٠) إلى أمام صلاح الدين، ولدى رؤيته وقف الملك، فوقف السلطان من أجل وقوف الملك، فقال السلطان لرينو أمير طرابلس، الذي كان قد سلم الملك وخانه من أجل الهدايا:«إعلم أيها الخائن أنني لم أقف من أجلك، بل من أجل ملكك»، فأجابه الكونت قائلاً:«وأنا لا أتوجه إليك

بالشكر، بل أشكر ملكي»، وهنا طلب الملك بعض الماء ليشربه، فأمر السلطان بإحضار كأس من الذهب فيه ماء محلى ومثلج وممزوج بماء الزهر، وتناول السلطان الكأس وشرب منه قليلاً للتذوق، ثم أعطاها إلى الملك، فشرب نصفها وأعطاها إلى أمير طرابلس الذي شرب بدوره، وهناك قال السلطان للأمير:«لم أعط الماء لك، ولكنني أعطيته إلى الملك»، فأجاب الأمير السلطان قائلاً:«وأنا لن أقول لك شكراً بل لملكي»، فقال السلطان للأمير:«أيها الخائن كم من المرات وعدتني وأخلفت الميعاد، وأمنتني وخنت الأمانة، فخرقاً منك لما وعدتني به أسرت وسجنت وقتلت عدداً من الناس، واستوليت على أموالي على طريق دمشق وغير ذلك، وكنت السبب في إراقة الدماء في سيرسيم Sersim ، دون أن تتذكر وعودك، فما الذي عندك لتجيبني به»؟ فأجابه الأمير بالكلمات التالية،ورد على السلطان صلاح الدين بقوله:«لاتنبح عالياً، وافعل ما يطيب لك، لقد مضى عليّ أربعون سنة وأنا أخاطر بدمي ضد المسلمين، والآن إنني لا أبالي مطلقاً بالموت»، وهنا أشار السلطان إلى خدمه، فأمسكوا بالأمير من رجليه ويديه، وبطحوه أمام السلطان، الذي أشهر سيفه وضربه على وسطه، ثم قام الخدم بالإجهاز عليه، ولدى رؤية الملك ما حدث انبهر وارتعب، فقال له السلطان:«لا تأبه لموت من خانك».

٢٢ — *مقتل الداوية صبراً*

ثم جرى إحضار الداوية مع مقدمهم، وأوقفوا أمام السلطان الذي قال للمقدم:«أيها المقدم المحترم للداوية، مهما كانت الأفاعيل التي أوقعتموها بجيشنا، فأنا أحترمكم، وفيما يخصني، ومن أجل شجاعتكم، إذا ما قمتم بالتخلي عن دينكم، ومن ثم الدخول بدين الإسلام، فإنني سوف أمنحكم العطايا وأشرفكم، وأقدمكم في جميع أرجاء ملكي الشاسعة، خاصة لك»، فأجابه المقدم بالكلمات التالية:«أيها السلطان

العظيم، إنه فيما يخصني فأنا موافق، ولكن إذا سمحيت لي وأذنت بالتشاور مع أخوتي حتى أقنعهم بالقبول والطاعة»،فسمع صلاح الدين يقول:«الذي ينفذ أمري يعيش، والذي يرفضه سوف يموت بحد السيف»، وجمع المقدم رجاله من الداوية وخاطبهم قائلاً:«أيها الأخوة، ها قد حلت أيام قوة أرواحنا وصمودها الذي سيخولنا دخول الجنة، إنني أتوسل إليكم أن تظلوا صامدين ومتماسكين في حب المسيح،وسوف نمزج اليوم دمنا مع دمه، ونحن لانخاف من الذين يقتلون الأجساد، ولكن من الذي له سلطة على الروح وعلى الجسم، ولن نعبأ بمتاع هذه الحياة العابرة»، كما قال لهم أقوالاً كثيرة، وأسمعهم مقاطع من الكتاب المقدس، وشجعهم على الموت في سبيل إيمانهم، وبعدما عاد إلى السلطان قال له:«هناك من أبدى الاستعداد للطاعة إليكم، وهناك من اعترض، لذلك أرجو الأمر بإحضارهم أمامكم».

وعندما أحضروا بدأ السلطان يسألهم واحداً تلو الآخر، وحيث أنهم رفضوا الاستجابة لعرضه، أمر بقتلهم، ثم قال بعد ذلك للمقدم:«وأنت كيف تنوي النظر إلى ديننا»؟، ولم يجبه المقدم بل جمع لعابه بفمه وبصقه على وجه السلطان، كي يزداد غضبه ويأمر بقتله على الفور، فبذلك يكون قد أرسله للالتحاق بأخوانه الروحيين، وليكون بجوارهم، ثم أضاف يقول إلى السلطان:«إنني أنا الذي أمرتهم بالموت حتى يتوصلوا إلى الحياة السامية، إذ كيف لي الانصياع إلى أوامرك»؟، فأمر السلطان بقتله أيضاً، وعندما قتلوه، انتشر نور عمّ السماء فوق الأموات، ودام لمدة ثلاثة أيام،وكان ذلك عاراً للخونة وانتصاراً للأوفياء الأمناء، وبعد الفراغ من كل شيء أطلق السلطان سراح الملك ومنحه الهدايا له ولحاشيته.

٢٣ — *فتح القدس*

ثم أمر صلاح الدين أنه يتوجب على كل واحد من سكان القدس

دفع فدية قدرها داهكان مصري واحد، وبإمكانه أن يأخذ معه ما يريده من منزله، ومـن ثم يذهب بسـلام، أمـا الذين يودون البقـاء فعلى كل واحد منهم دفع جزية سنـوية مقدارها داهكان أحمر(١١)، وارتحل عدد كبير كما بقي الكثيرون، وبهذا تمكن صـلاح الـدين من الاستيـلاء على القدس وعلى المناطق التـابعة لها شيئاً فشيئاً، ولقد استـولى على كل بقعة من البـلاد حتى منطقة أنطاكيـة، وكان المسيحيـون جميعاً يرتجفـون رعباً أمامه.

٢٤ — احتلال رستم لكليكيا

وجمع في هذه السنة نفسهـا تركماني اسمـه رستم حشـداً من التركمان، ودخل إلى بلد الكليكيين، وعمـل جـاهداً على إيقـاف استمـرار اسم المسيحيين، وزحف متقـدمـاً حتى غـايـة سيس، وقـد عسكر أمـام هذه المدينة، على محاذاة راوين Rawin، وارتفـاعها، وقـد اجتـاحوا البـلاد وغطوها بكثـرة عـددهم، لكن ليـون القـوي بالحماية الربانيـة حـاربهم وانتصر عليهم، وقتل قـائدهم، مع أنـه لم يكن معه أكثـر من ثلاثين من الرجـال، ولدى فـرارهم طاردهم ليـون وأنزل بهم الخسـائـر وبددهم وصولاً حتى سروانديكار Sarwandikar، وانتشرت إشاعة بين الناس تحدثت عن نزول جنديين قويين من قلعة سيس، وقيامهما بسحق العدو، وكانا هما: القديس جرجس، والقِديس تيودور.

٢٥ — احتلال براكانا من قبل ليون الثاني

في سنة ٦٤٧(٤ شباط ١١٨٨ — ٢ شباط ١١٨٩) قتل القائد السير بلدوين أمام قلعة براكانا(١٢) Prakana ، ذلك أنه حاول احتلالها على حين غـرة، هذا وتمكن ليـون من الاستيـلاء على هذه القلعـة بعـد مضي شهـرين، ووضعها تحت سيطـرته بعدمـا قتل شحنة القلعـة الذي اسمـه الأمير تبلي Tipli مع مائتين من التركمان، والأمير تبلي هذا هو

الذي كان قتل بلدوين.

٢٦ — أحلاف زواجية بين أسرتي أنطاكية وساسون

وكـــان في هـذه الأثناء أبناء كـــورتـونيل Cortuanel صاحب ساسون Sasun والذين كانت أمهم أخت تيرغريغور جاثليق الأرمن، يعيشـون مع ليـون، وكانوا رجـالاً ذوي مظهـر جميل، وكـان ليون قـد أعطى زوجة إلى هيتـوم وهو الأكبر، الابنة الكبرى لأخيه روبين، المسماة أليس، ومنحه معها مدينة المصيصة، وحصل بالوقت نفسه شاهنشاه على سلوقية، أمـا فيما يتعلق ببنت روبين المسماة فيليبا، فقد أقـامت بجوار أم ليون، وبالنسبة إلى ليون نفسه، فقد اتخذ زوجة له من أنطاكية ابنة أخ(أو أخت)زوجـة الأمير، وقد قبلت بزواجـه بكل حـرارة، وشعر ليـون من جانبه بسرور عارم لأنه كان يخاف من أمير أنطاكية، الذي خشيه الأرمن دومـاً، وقد قـدر ليون أن زوجـة الأمير، بحكم قرابتهـا بزوجته سـوف تشفع له عند الأمير، وتدرأ المخاطر عنه، وهذا ما حصل بالفعل.

٢٧ — صليبية فردريك بربروسا

في سنة ٦٣٨(٣ شبـاط ١١٨٩ — ٤ شبـاط ١١٩٠)انطلق امبراطور الألمان على رأس جيش عظيم، وزحف حتى وصل إلى القسطنطينية، ثم سار حتى قونية فتمكن من احتـلالها وإلحاق الهزيمة بقلج أرسلان، وقد أودعه قلج أرسـلان ثلاثين رهينة من أعيان رجاله، ودفع له مـائة ألف داهكان، وعقد هدنة معه وصلحاً، ثم زحف الامبراطور حتى سلوقية، وبما أن الفصل كان حاراً جداً في ذلك الصيف، فقد نزل الامبراطور إلى النهر ليستحم ، فجرفه التيار، ولم يستطع المقاومة، لأنه كان رجلاً كهلاً، فغرق ومـات، ويحكى أنه قيل له بأنه سيمـوت غرقـاً في الماء، وهذا ما دفعه إلى الارتحال براً، وقام بهذه الرحلة الطويلة براً.

ووصل ابنه بعد وفاته إلى عكا، ثم توفي هناك بعد ستة أشهر، فتشتت

قواته ثم عاد معظم الذين بقيوا منها.

٢٨ — *حصار عكا من قبل الفرنجة*

في سنة ٦٤٠١(٢ شبــاط ١١٩١ — ١ شبــاط ١١٩٢) وصل ملك الفـرنجة بالسفينـة إلى عكا مع قوات كثيرة، وحط رحـاله أمـام المدينة، وكـانت المدينة ملكاً لصـلاح الـدين ولهذا بادر مسرعـاً إلى هناك وأقـام مخيمـه أمـام مخيم الفـرنجة، وحفـر الفـرنجـة ثلاثة خنادق من حـولهم، وحصنوا مــوقعهم تحصيناً عظيماً، ونشروا الكمائن من حــولهم، وبذلك وضعـوا المدينة في خطـر شـديد، وحـالوا بين السلطان وبين مسـاعـدة سكانها، وقـدم وقتـذاك ملـك الانكليـز، ووصل إلى قبرص أولاً حيث استـولى عليها، وانتـزعها من أيدي الإغـريق، واعتقل دوقها الذي كـان من آل كـومينوس، وحمله معـه إلى عكـا، وهناك وحّـد الملكان قـواتهما، وقاتلا معاً ضد السلطان، وضد سكان المدينة، وعندهابعث السلطان إلى الملوك يقـول:«خذوا مـدينتكم وبيعـوني الرجـال بوزنهم ذهباً وفضـة»، فأجــابوه يقـولون:«كــان يجب علينا أن نفعل مـا طلبتــه ونستجيب لما رجـوته، وذلـك احترامـاً لشخصك، ولكن بما أنه تقــدم وأقسمنا بحق الضريح المقـدس، بأن نستعـرض النـاس جميعـاً بسيفنا، لايمكن لنا أن نحنث بقسمنا»، ثـم استولوا على المدينة، وقتلوا ستة وثلاثين ألف رجل، في حين لاذ صلاح الدين بالفرار.

٢٩ — *مجاعة في أنطاكية*

في سنة ٦٤١١(٢ شبـاط ١١٩٢ — ٣١ كانون الثاني ١١٩٣) كـانت هناك مجاعـة مــروعـة في أنطاكيـة، وكـانت من القســوة بمكان أنه من الصعب إعطاء فكرة مكتوبة عنهـا، وقد مـات عدد كبير من الناس، إلى حد أنه بات من المتعذر دفن الموتى، ولقسوة الأوضاع، رأىٰ الأحياء أن الذين مـاتوا قد ارتاحـوا، وعندمـا جاء الربيع أكل الناس الأعشـاب في

الحقـول، وفعلوا مثلما ترعى الأغنـام، ولما كـانوا غير معتـادين على هذا النوع من الأطعمة، سقطوا موتى جميعاً.

وتوفي في السنة نفسها قلج أرسـلان، سلطان قونية، ومن جانبـه أخذ صـــلاح الديـن يشن بعض الهجمات الصغيرة على أنطـاكيـــة في سبيل الاستيـلاء عليها، لكن المنجمين قـالوا له:«لايمكنك الاستيلاء عليهـا»، فأقلع عن خطته وتخلى عن فكرته.

وظلت أنطاكيـة تشكو من المجـاعـة، وتعـاني منهـا، لأنه خـوفـاً من السلطان لم يدخل إليهـا أي طعام، وعند ذلك قـال السكان للأمير:«إننا نمـوت الآن جـوعاً، مـاذا سنفعل»؟، فأجـابهم بقـوله:«امنحـوني مهلة خمسة عشر يوماً، ووقتها سوف أعطيكم الجواب».

وانطلق الأمير إثر ذلك مع خمسين من الفـرسـان، للاجتماع بصـلاح الدين، الذي كان ما يزال مخيماً أمام عكا، وعندما وصل إلى غايته، وقف على باب خيمة صـلاح الدين، وقال للحـراس:«قولوا للسلطان إن أمير أنطاكية بالباب يسأل مقابلتـه»، وعندما سمع صلاح الدين بذلك خرج مسرعاً لتلقي الأمير، وقـد صافحه، ثـم أدخله إلى داخل خيمته، وطلب منه الجلوس، وهنا قـال الأمير:«لي عندك حـاجـة، ولن أجلس حتى تقضيها لي»، فأجابه صلاح الدين بقوله:«ما تطلبه مجاب، قل ما تريده»، فقـال الأمير:«إهدائي أنطاكيـة»، فقال السلطان:«طلبك مجاب، وفضـلاً على ذلك ســوف أعطيك أنـت ومـدينتـك طعـامـاً يكفي لمدة ثلاث سنوات»، وبعد هـذا أبرم اتفاق بين صلاح الـدين والأمير، وعاد الأمير إثر ذلك إلى مدينة أنطاكية، التي توفرت فيها الأطعمة بكثرة.

٣٠ — *كمين عند بغراس*

في سنة ٦٤٢(١ — شبـاط ١١٩٣ — ٣١ كـانون الثـاني ١١٩٤)، عندمـا رجع الأمير من عند صـلاح الـدين قـرر أسر ليـون واعتقـاله

بمساعدة زوجته، غير أن هذه الأميرة قالت له:«لاتقترف هذه الحماقة لأنه صهري، وقد جاء في كل الأوقات وساعدك، وكان ثانيك في حملاتك الحربية»، لكن الأمير لم يتخل عن أفكاره السوداء، فوجه الدعوة إلى ليون للقدوم إلى عنده، وفي طريقه وقف في بغراس، وهناك أخبرته زوجة الأمير سراً بشأن الخطة المبيتة ضده، وهنا بادر ليون إلى توجيه الدعوة إلى الأمير وإلى زوجته للحضور إلى بغراس، كي يقدم لهما شرف الضيافة، ويذهب بعد ذلك برفقتهما إلى أنطاكية، فحضرا طوعاً، وخرج ليون لاستقبالهما، ورافقهما بأبهة وبحفاوة عظيمة إلى بغراس، وهناك انفرد بالأمير واعتقله، ثم نقله من هناك وسجنه في قلعة سيس، حيث بقي هناك مسجوناً.

٣١ — *تهديد الأيوبيين باحتلال كليكية*

وفي هذه السنة نفسها بعث السلطان صلاح الدين إلى ليون يطلب منه إعادة كليكية إلى المسلمين والتخلي عنها، حيث بإمكانه الذهاب إلى حيث شاء، وهنا تساءل ليون عما يمكن أن يفعله وتملكته الحيرة، فتضرع إلى الرب، وإليه التجأ، ومن ثم قال لرسول السلطان:«قل للسلطان: ليس لدي أرضاً أعطيها له، لكنه إذا قدم إلى بلدي فسوف أسقيه مرّ طعم السيف مثلما حدث لمتقدمه رستم»، وغضب صلاح الدين لدى سماعه هذه الإجابة، وزأر وزمجر مثل الأسد، وجهز عساكره للدخول إلى كليكية لإبادة أتباع المسيح.

وزحف حتى وصل إلى النهر المسمى نهر صو، وعندها داهمه مرض، كما أودى المرض بحياة ابنه وولي عهده«الملك الظاهر»(١٣).

٣٢ — *اعتقال غريغور الخامس كراويز*

وفي يوم ١٦ — أيار من السنة نفسها، استدعي إلى ربه جاثليق الأرمن تيرغريغور، وحدث ذلك في بلاد الكليكيين، وقد دفن في

درازارك(١٤) Drazark ، فخلفه في منصبــه ابن أخته بهرام الذي حمل الآن لقب تيرغريغور، وكان طفلاً غريراً.

وتوفي في هذه السنة بعض الأمـراء من فئة الأعيان، وكـان منهم ابني أخت الجاثليق، ويتقدمهم هيتوم، صهر ليـون من خلال زواجه من ابنته أليس وكذلك شاهنشاه، وحدثـت وفاتهما في الشهر نفسه الذي توفي فيه خـالهما، ويحكى بأن ليـون كـان سبـب وفـاتهما، ولكن الله وحـده يعلم الحقيقة.

وعندمـا دخل الجاثليق غـريغــور بالخدمـة، ضـاق به الحال ولم يعـد يحتمل تلقي الأوامـر من الجميع، وكأنـه مأمـور وليس بآمـر، ففعل كما فعل خاله مـن قبل بالاهتمام بشؤون الكاتدرائية فقـط،وهنا جرى إبلاغ ليون بأن هذا الرجل لا يمتلك الحكمة الكافية لإدارة شؤون الكاتدرائية حسب تعاليم وظيفتـه، وحرضوا ليون عليـه حتى استجاب لهم، فبعث به إلى قلعة هورومكلي Horomklay إلى رئيس الأساقفة تير يوهانس، ليتصرف معه حسبما تمليه عليه عقيدته، وبعـدما وصل الجاثليق إلى هذه القلعـة التقى بتيريوهانس، الذي استقبله كضيف وقـريب، لكن عندمـا اجتمعا حول المائـدة لتناول طعام الغداء، أشار رئيس الأسـاقفة بيده إلى رجـال الخدمـة مـن حـوله، فبـادروا إلى إغـلاق أبـواب القلعـة، وعـلا الضجيج لبعض الوقت وسـادت الفـوضى، فـاعترت الجاثليق الدهشـة فسأل تيريوهانس: مـا هذا الضجيج الذي أسمعـه؟ فأجـابه بكل برود: أنت سجين، وهكذا جـرى اعتقـال الجاثليـق وألقي به في السجن تحت حراسة فائقة ومشددة.

وعندمـا انتشر الخبر في خـــارج القلعـة، وفي داخل القــرية، احتشـد الجميع وزحفــوا يحملون السـلاح بنيــة الهجـوم على القلعــة، وإنقـاذ الجاثليق، وحاصروا القلعة لمدة ثلاثة أيام، ورموا نحوها بالنشاب، لكن بدون جدوى.

وحمل تيريوهانس الجاثليق إلى ليون، فقام هذا بوضعه في قلعة كوبيتارKopitar ، وجعله هناك تحت الحراسة لبعض الوقت، لكن سكان هورومكلي الممزقة قلوبهم حزناً لاعتقال الجاثليق، ولعدّهم ذلك ظلماً، راسلوا الجاثليق سراً، يقولون له: إذا ما وجد طريقة للهروب من القلعة، فسوف يحضرون له حصاناً ليعيدونه إلى هورومكلي حيث سيسترد منصبه، وأخذ هذا الجاثليق بكلامهم وتصرف تصرف الطفل الغرير، حيث أخذ غطاء فراشه، وربطه وتعلق به وتدلى ليلاً للفرار من القلعة، لكن الحلقة التي ربط بها الغطاء انقطعت فهوى الجاثليق، وسقط على الأرض، فمات لساعته.

وحمل — بعد هذا — جثمانه إلى درازارك Drazark ، حيث دفن قرب قبر خاله، وكان ذلك سنة ٦٤٥ بالتقويم الأرمني(١ شباط ١١٩٤ — ٣١ كانون الثاني ١١٩٥).

واختير في السنة نفسها تير غريغور جاثليقاً جديداً، بلقب أبيرات Apirat ، وكان ابناً للقائد، وأخاً لكل من الجاثليق تيرغريغور، وتير نرسيس، وكان رجل حكمة وعلم، يباشر مسؤولياته اليومية، ووصل إلى الشيخوخة بعدما أتم عمله على أكمل وجه.

٣٣ — *تحالف ليون الثاني مع البيت الأنطاكي*

وبعدما اعتقل ليون أمير أنطاكية، أبقاه في السجن بعض الوقت، حتى حضر أمير من الأسرة المالكة من عكا، وكان هذا هو الكونت هنري، وقد طلب هنري من ليون إحضار الأمير، فوافق على ذلك، وهنا عقد هنري بينهما صداقة ووصاية، وبموجب ذلك سمح لابن الأمير ريموند بالزواج من ابنة أخيه روبين، التي كان اسمها أليس، وكانت قدتزوجت من قبل بهيتوم أخو شاهنشاه، شرط أنه إذا ما أنجب ولداً ذكراً، يصبح وريثاً لليون وبعد وفاة أبيه ريموند تدخل أنطاكية في

ظل حكمه، وقد اتفقوا على هذا، وتعاهدوا عليه كتابة وبموجب القسم.

وعاش ابن الأمير مع ليون وصاحبه ولم يفارقه في حله وترحاله، لكنه توفي بعد وقت قصير، وخلف زوجته حاملاً، وعندما حان الوقت، وضعت هذه السيدة مولوداً ذكراً، مليئاً بالحياة، وجميلاً، وبهي الطلعة، ولما كان ليون لا يمتلك ولداً يحق له وراثة الحكم من بعده، فقد عمّد المولود الجديد تحت اسم روبن، وربّاه بعناية فائقة.

٣٤ — تتويج ليون الثاني

في سنة ٦٤٥(١ شباط ١١٩٦ — ٣٠ كانون الثاني ١١٩٧)، بعث امبراطور الإغريق إلى ليون تاجاً رائعاً، معبراً بذلك عن التحالف والصداقة، فتقبله ليون بكل فرح.

وفي سنة ٦٤٦(٣١ كانون الثاني ٩٧ — ٣٠ كانون الثاني ١١٩٨) بعث ليون إلى القسطنطينية برئيس الأساقفة تير نرسيس ابن دي أوشين، والأمير النبيل هلكم ابن باكوران، وخال ليون، لطمأنة الإغريق بشأن حسن نواياه نحوهم، وصدقها تجاههم، وبما أن تير نرسيس كان رجل علم وحكمة، فقد تحلق من حوله العلماء الإغريق، وتحدثوا لأيام عدة حول الإيمان والنظام اللاهوتي، وقد تمكن تير نرسيس من إقناعهم.

وفي السنة نفسها أقاموا أعياد الفصح في موعد خاطىء، وفي السنة نفسها أيضاً أرسل ليون إلى عكا رئيس أساقفة مدينة سيس، تيريوهانس، للمطالبة بالتاج الذي كان امبراطور الألمان قد بعث به عن طريق العساكر الذين وصلوا إلى تلك المدينة، وكان البابا قد بعث إلى تلك المدينة برئيس أساقفة نائباً عنه.

وفي سنة ٦٤٧(٣١ كانون الثاني — ٣٠ كانون الثاني ١١٩٩)، وفي يوم العيد من شهر كانون الثاني ويوم العيد هو يوم الاحتفال الرئيسي

بعيد ختان المسيح، جرى تتويج ليون ملكاً على الأرمن، في ظل سيادة الكنيسة الرومانية والامبراطور الألماني، ولقد كانت فرحة الشعب الأرمني كبيرة جداً بتتويج هذه الشخصية التقية الطيبة، وأعني بذلك الملك ليون.

وفي السنة نفسها التحق تيرنرسيس بن أوشين، وأخو قسطنطين صاحب لامبرون بالمسيح.

٣٥ — *أمراء كليكية في حقبة التتويج وأعيانها*

ويتوجب علينا الآن الحديث عن بعض ما تمتع به الشعب الأرمني في عهد ليون، ذلك أن الملك ليون كان رجلاً عاقلاً وماهراً، وجميل الوجه، له قلب كريم إزاء الجميع سواء أكانوا من رجال الكنيسة أم من العلمانيين، وكذلك كان مع الفقراء والضعفاء، وفي أماكن الحج والأديرة، وكان أيضاً يمنح الهدايا التي تدل على طيبته وكرم نفسه، وكان يقيم في عيد الفصح مأدبة كبيرة، يدعو إليها جميع الشخصيات المعروفة، وذلك من جميع الأماكن، أي من كل مكان عرف بوجود شخص نابغ فيه في حقل ما، فقد كان يرسل في طلبه ويعده بالوعود الجميلة، وفعلاً كان ينفذ وعوده ويقدم الهبات السخية.

وهكذا توفر في كليكية عدد كبير من الشخصيات الكنسية، ومن الأمراء ذوي السلطان، وفيما يلي سأورد أسماءهم واحداً تلو الآخر:

— تير داويت Dawit ، رئيس أساقفة المصيصة، وراعي دير أركأكلين(١٥).

— تير غريغور رئيس أساقفة كابان، وراعي دير أريغ (١٦) Areg.

— يوهانس رئيس أساقفة سيس، وراعي دير درازارك Drazark .

— تير يوسيب Yusep، رئيس أســـاقفــة أنطاكيـــة، وراعي دير يسوانك Yisuank .

— تير كوستـاندين، رئيس أساقفة عين زربة، وراعي دير كـاستالون Kastalawn.

— تير فـاردان رئيس أسـاقفـــة لامبرون، وراعي دير سكيـورا(١٧) Skewra .

— تير ستيفانوس، رئيس أساقفـة طرسوس، وراعي دير مليك(١٨) Mlic .

— تير طوروس، أسقف سلوقية .

— تير أستوأكتور Astuactur أسقف مكار Meckar .

— تير يوهانس أسقف سافيلانك Savilank .

— تير جورج أسقف أندرياسانك Anddriasank .

— تير كوستادين أسقف يوهنانك Yohnank .

— تير غريغور، أسقف فيليبوسينك P`ilipposeank .

— تير ستيفانوس، أسقف بيردوس Berdus .

— تير مكسيتار أسقف عين كوزوت Enkuzut .

— آدم، أمير بغراس.

— هوستيوس Hostius ، أمير كير Cker .

— آريوغون Arewgoyn ، أمير هاموس Hamus .

— سمباط أمير سروند ديكآر Sarvandik`ar .

— ليون، أمير الهارونية.

— سيروهي(١٩) Sruhi أمير سيمانيكلي Simanaklay .

— هنري أمير آني.

— القائد أبلاريب (٢٠)Aplla rip ، أمير كوتاف Kqtaf .

— بلدوين أمير عين كوزوت En kuzut .

— استيف Esteve أمير تورنيكا T`ornika .

— ليون وغريغور أميرا بيردوس Berdus .

— آشوت(٢١) أمير كنك Kanc .

— أبلا ريب(٢٢)، أمير فاورناوس Fawrnaws .

— تانكرد، أمير كابان.

— كوستاندين(٢٣)، أمير كانكي Canci .

— غريغوري (٢٤)، أمير سولاكان Sola Kan .

— سيمون(٢٥)، أمير مازوت اكساك Mazot Xac .

— روبرت، أمير تل(حمدون).

— طوروس، أمير تلساب(٢٦).

— القائد فازيل(٢٧)، أمير وانر vaner .

— جورج، أمير برجربيرد(٢٨) Barjrberd .

— كوستاندين، أمير كوبيتار Kopitar .

— آزاروسAzaros، أمير مولوفون(٢٩) Mawlovon .

— سمباط، أمير كوكلاك(٣٠) Kuklak .

— هيتوم، أمير لامبرون.

— شاهنشاه، أمير لؤلؤة.

— باكوران، أمير بابروان Paperawn .

— فاساك، أمير أسكوراس Askuras .

— هيتوم، أمير ماناش Manas .

— مكسيل، أمير برداك Berdak.

— تيغران Tigran، أمير براكانا.

— أوشين، أمير سيويل(٣١) Siwil.

— سيمون، أمير كيوريكوس Kiwrikos.

— كونستانس، أمير سلوقية وبونار Punar.

— رومانوس أمير سنت Sinit وكوفاس Kuvas .

— نيكيفاوي Nikifawi ، أمير فيت Vet وفيريسك Veresk .

— اكسرساوفاور Xrsawfawr أمير لافزات Lavzat وتيمتوبولس Timitupawlis .

— هلكم(٣٢)، أمير مانياون Maniawn ، ولماوس Lamaws ، وزرمانيك Zermanik ، وأنامور Anamur .

— القائد هنري، أمير نوربيرد Norberd ، وكوماردياس Ko-mardias

— بلدوين ، أمير أنداوشك Andawsc وكوبا Kupa

— كيرســـاك، أمير ملوا Malva وسيك Sik ، وبالاباول Pal-opawl

— ميكسال(٣٣)، أمير مانوفلات Manovlat ، وألار Alar .

— كوستاندين ونيكيفاور، أميرا لكراون Lakrawen .

— كيرفـارد Kervard ، أمير كـلاوناوراوز Kalawnawraws ، وأيزوتاب Ayzutap ، وسينت — صوفيا، ونلاّون Nallawn .

وخضعت قلعـة المصيصة لبعض الوقت لسلطة الملك ليـون، ثم آلت إلى السلطان.

وكان بعد وفاة الأمير بوهيموند أن انضوى العديد من العساكر تحت لواء الملك ليـون وخـدموه، وكـذلك فعل اللوردات التـاليـة أسماؤهـم: أولفـرلى شـامبلين، وروجر دي مـونت جـوارت Juart ، وتوماس ماسلبرن Maslebrun ، وباين لى بوتلير Bouteiller ، ووليم دي آيل l`Isle، وذلك مع أمـراء آخرين وعسـاكـر شجعان، وبوسـاطة هؤلاء تمكن ليون من دفع الأعداء.

هذا وتجاوز أبناء قلج أرسـلان الذين كـانوا يحكمـون بلاد الروم كل الحدود، وانصرفوا نحـو انتزاع القـلاع، وتدمير البلاد وإنـزالها إلى حال العبودية، وقـد تصدى ليون لهم بشجـاعة فائقـة، وألقى بنفسه في وسط قوات الأعداء، وكـان مسلحاً من قدمه إلى رأسـه، وبذلك كان بطلاً لا يقهر.

٣٦ — محاولات ردع هيتوم — هلي صاحب لامبرون

وعلم ليـون بإسـاءات سكان لامبرون، الذين شرعـوا بالقتـال ضـد نصارى كليكيـة، وضد أسرة روبين، وقـام الكونت يادس أوشين Ja-dis Awsin ، والد هيتـــوم بالحاق الهزيمـــة بالأتراك، وهاجـم أذنة،

واستولى عليها بعد قتال عنيف جداً، ويقال بأنه أسر خمسمائة فتاة عذراء، وذلك بصرف النظر عن الأعداد التي لا يمكن حصرها من الأسرى الآخرين، وفكر ليون ملياً بما حدث، وقام بكل حصافة، وهو واثق من نفسه، باستدعاء هيتوم ابن صاحب أوشين، وفي نيته قتل غروره، وقد خطط لذلك ورسم عدة اقتراحات، فعندما لقيه قال له: لدي نية في عقد روابط للصداقة والتحالف بيني وبينك، وأن أزوجك فيليبا ابنة أخي روبين.

وقبل هيتوم كلام ليون بفرح، وجرى إثر ذلك الاحتفال بالعرس، وقدمت الأطعمة الشهية، واستغل ليون الفرصة، فرصة وجود هيتوم مع أسرته وجميع أمتعته، فاعتقلهم جميعاً، وأرسل عساكره ضد لامبرون، فاستولوا عليها لصالحه بكل سهولة وبدون مشقة، وإثر ذلك ألقى بهيتوم في السجن، ثم أخرجه بعد وقت قصير، ومنحه عدة قرى وردّ إليه اعتباره.

وخدمه هيتوم — الذي كان حكيماً وحصيفاً — بكل استقامة لأنه كان رجلاً عاقلاً مدبراً، يمتلك ذهناً عميقاً، وثقافة عالية، ومع هذا ما لبث ليون أن اعتقله،وألقاه مجدداً في السجن، وهنا لبس هيتوم مسوح الرهبان، وعندما زاره الملك في السجن في واهكي Vahkay ، التمس منه العفو، فاستجاب الملك لذلك، ومنحه حريته، ومن ثم صار قديساً في دير درازارك، حيث بقي هناك حتى يوم وفاته .

٣٧— *احتلال كرين من قبل السلاجقة*

في سنة ٦٥٠ (٣٠ كانون الثاني ١٢٠١— ٢٩ كانون الثاني ١٢٠٢) زحف السلطان ركن الدين باتجاه الشرق مع جيش لايحصى لكثرته، واحتل مدينة ثيودوثيوبولس التي تعرف باسم كرين Karin ، وجاء احتلاله لها سلماً لاحرباً، ثم زحف ضد منازكرد، وهاجم قلعتها،

واعترض طريقه جيش الكرج، فهزمه، كما وهزم بهرام شاه صاحب ارزنكا Erzanka ، وألحق به خسائر كبيرة، وأقام السلطان حاكما على كرين أخاه طغرل شاه، ثم عاد إلى بلاده، وكان طغرل شاه رجلاً رحيماً، ربطته بالملك ليون روابط صداقة ومحبة، كما أنه كان محباً للنصارى، وهكذا مالبث أخو السلطان هذا أن عاد إلى بلاده.

٣٨— تكريس الجاثليق يوهانس السابع

في سنة ٦٥٢ (٣٠— كانون الثاني ١٢٠٣— ٢٩ كانون الثاني ١٢٠٤) تحدث الجاثليق تيرغويغور صاحب هورومكلي إلى الملك ليون حول موضوع ابن أخته هيتوم الذي كان مايزال في السجن، أي سجنه الثاني، وأطلق الملك سراحه، كما ذكرنا من قبل، وإثر ذلك التحق تير غريغور بالمسيح في دير القديس أركأكلين Ark'akalin .

وفي هذه السنةنفسها عقد الملك ليون مجمعاً دينيا للأساقفة، وقد تولى هذا المجمع اختيار تيريوهانس، رئيس أساقفة سيس، جاثليقاً للأرمن، وكان هذا الجاثليق صاحب معارف عميقة، مليئا بالنشاط، وطبيباً ملكياً، ومتواضع النفس، وبسيطاً اهتم بالمسائل الروحية، وأحب البناء وعرف كيف ينظم الكنيسة بما هو ضروري للأمور اللاهوتية، وقد تولى تدعيم حصن هورو مكلي، كما حطم بعض الاشياء المتعلقة بالطقوس، مع العديد من الأواني الذهبية والفضية، ثم إنه قد عامل بتواضع ولطف كل من جاء ليراه، هذا وكان هذا الجاثليق من أسرة الهيتوميين، وهو ابن لقسطنطين أخو صاحب أوشين.

٣٩— مشاكل الخلافة بين السلاجقة

في سنة ٦٥٣ (٣٠ كانون ثاني ١٢٠٤— ٢٨ كانون ثاني ١٢٠٥) مات ركن الدين تاركاً السلطة من بعده لابنه سليمان شاه.

وزحف في سنة ٦٥٤ الملك ليون ضد مدينة ألبستاي (٣٤)

(ألبستان) لاحتلالها، غير أنه أخفق وعجز عن احتلالها، ووصل في هذه السنة أيضاً خسرو شاه بن قلج أرسلان، من القسطنطينية، وأراد الاستيلاء على بلاد آبائه.

٤٠— طلاق ايزابل الأنطاكية من قبل ليون الثاني

وذهب في هذا الوقت الجاثليق تير — يوهانس الى الملك ليون، الذي كان ينتظره للبت في موضوع أميرة أنطاكية، التي كان الملك قد تزوجها، وسرت إشاعات بأن الملك الذي كان ميالاً للثأر، قد أمر بقتل عدد كبير من الأشخاص الذين كانوا محيطين بالملكة، وضرب زوجته بعنف، ووضعها بين يديه يريد قتلها في تلك اللحظة، لكن كوستاندين ابن خاله فاساك تمكن من انتزاعها من يديه، وهي نصف ميتة، ولهذا أرسله الملك إلى السجن في واهكي، ورزق ليون منها بابنة سماها ريتا، وقد تولت أمه تربيتها له.

٤١— اغتصاب بوهيموند الأعور لأنطاكية

في عام ٦٥٥(٢٩ كانون ثاني ١٢٠٦ — ٢٨ كانون ثاني ١٢٠٧) مات أمير أنطاكية المدعو بوهيموند، وحل محله ابنه الذي(كان كونت طرابلس، وكان أعور) وبعث له الملك ليون رسولاً أخبره بأن أباه قد عقد ولاية العهد إلى ابنه البكر، حسبما ذكرنا من قبل، ولم يعجب هذا الكونت ذلك، ولم يرد أن يكون لأخيه الحق، و قد أرسل من جديد رسالة إلى بطريرك أنطاكية فيها وثيقة تعيينه من قبل أبيه، وقد برهن على حقوقه، غير أن البطريرك لم يوافق عليها، وأعطى الشرعية إلى أخيه دون أن يهتم بالكونت، واستولى الكونت على أنطاكية وهنا حرم البطريرك أنطاكية، وأمر بأن لا تدق الأجراس في أنطاكية، وقضى بتوقف القداسات ودفن الأموات، وذلك قبل عودة الكونت إلى الصواب، وأقدم هذا الكونت، رداً على ذلك، وتجرأ على اعتقال البطريرك، وزجه

في السجن، حيث تعرض إلى إساءات شتى، وذلك إضافة إلى الجوع والعطش، وقال له:«ثق بأن مصلحتي أن أكون أنا حاكم أنطاكية الشرعي، وبرضاك سوف تمتلك الحرية والحياة والخلاص، لكن البطريرك فضل الموت في السجن جوعاً وعطشاً على اقتراف الكذب، هذا ونشبت منذ ذلك الحين صراعات عنيفة بين الملك والأمير.

٤٢ — سجن كوماردياس وزدة فعل الجاثليق

في عام ٦٥٦(٢٩ كانون الثاني ١٢٠٧ — ٢٨ كانون الثاني ١٢٠٨)قدم دوج البندقية وكونت فلاندرز إلى القسطنطينية، حيث هاجماها، وقتلا عدداً كبيراً من الإغريق، واستوليا عليها، وحكماها، واستولى الملك ليون في السنة نفسها على أملاك هنري وأولاده: كوستاند — كوماردياس Kumardias ، وجوسلين وبلدوين، مدعياً حقه بذلك، وقد كبلهم بالسلاسل وألقاهم بالسجن،وكان هنري صهر تير يوهانس جاثليق الأرمن، ونشبت منذ هذه الساعة خلافات حادة بين الملك ليون والجاثليق تير — يوهانس، وكثيراً ما تدهورت الأوضاع بينهما وازدادت سوءاً، وقام مؤيدو الجاثليق من الأعيان وأمراء سيس بخلع الملك، ووضعوا مكانه الجاثليق الأرمني تير — يوهانس الذي كان وقتذاك منفياً في هورومكلي، وقد استفاد من حصانتها وأقام عدداً من التحالفات السرية ضد الملك ليون، وقام من جانبه خسرو شاه بن قلج أرسلان، الذي انفرد بحكم بلاد الروم بالاستعداد لحرب ضد الملك ليون، وقد حرضه على ذلك تير — يوهانس، وشاركه، وهكذا زحف على رأس قوات كبيرة ضد بيردوس Berdus ، واستولى عليها بقوة السلاح والعتاد، وحصل على الغنائم، وصار بذلك سيداً للمكان، وحل هكذا محل غريغور بن ليون، ومع مرور الأيام خرجت بيردوس من تحت سلطان الأرمن، وحدث هذا في مطلع سنة ٦٥٧ حسب التقويم الأرمني(٢٩ كانون الثاني ١٢٠٨ — ٢٧ كانون الثاني ١٢٠٩).

٤٣ — انتصارات تيودور لاسكارس

بعدما احتلت القسطنطينية من قبل اللاتين، كان عدد من الأمراء الإغريق قد هربوا ونجوا، ثم ما لبثوا أن وسعوا نفوذهم وسلطانهم، ومدّوه باتجاه القسطنطينية، واستولوا على نيقية، وسميرنا Smyrne ، مع جميع القلاع والحصون المتعلقة بها.

وقد حكم ملكاً على هذه المناطق، أميراً اسمه لاسكارس، ووجد هذا الرجل الشجاع والمحب للحرب نفسه متاخماً للسلطان خسروشاه، ونتيجة للخلافات بينهما تحاربا في منطقة قونية، وقد قتل السلطان من قبل جنود لاسكارس، وإثر ذلك حل عز الدين كيكاوس محله، وكان ذلك في مطلع سنة ٦٥٨ حسب التقويم الأرمني(٢٨ كانون الثاني ١٢٠٩ — ٢٧ كانون الثاني ١٢١٠).

٤٤ — خلافة روبين لليون

وأنهكت الشيخوخة الملك ليون، وضعف جسمه بسبب إصابته بمرض امتد إلى رجليه وإلى يديه، وكان الملك ليون يعرف بالملك السيء الحظ، فمن سوء حظه أنه لم ينجب أطفالاً ذكوراً، ولذلك وجد نفسه في كثير من المناسبات، وفي مراحل مختلفة مضطراً لاستخلاف روبين، وهذا ما فعله في نهاية حياته حيث أوصى بالعرش لصالحه، وقد تجاوز بذلك الأمير جورج، الذي كان ابناً طبيعياً لمليح، وكان قد فقأ عينه، وفي الحقيقة كان جورج رجلاً شجاعاً، ومقداماً في القتال، وجريئاً يتحدث بكل اعتداد، وأحاط به جماعة من الناس، كان حظي بمحبتهم، وكان جورج هذا يشعر بأن الملك يخشاه بشأن الملك من بعده، وأنه لهذا السبب كان يوجه الاتهامات الكاذبة إلى بعض حاشيته، هذا وتراكمت على عرش ليون تناقضات كثيرة، ومع هذا استطاع في العام نفسه أن يتخلص من قوى المعارضة القوية في أنطاكية، ووضع كل القوى تحت

نفوذه وسيطرتـه، ورجالاً مع الممتلكات والحقـول، واستمر يمارس نهج الضغط لسنوات عـديدة، حتـى جـرى الإعـلان بشكل رسمي، وبقـوة السـلاح عن الوصاية على الشـاب روبين وإعداده لاستـلام السلطة من بعده، ومع هذا عارضت أنطاكية وقد هاجمها وضغط عليها طوال العام بلا انقطاع.

وعند حلول عام ٦٥٩(٢٨ كانون الثـاني ١٢١٠ — ٢٧ كانون الثاني ١٢١١)، أرسل الملك ليون هيتوم صـاحب لامبرون رسولاً إلى البابا في روما، وإلى امبراطـور الألمان، وكان هيتوم هـذا يعرف بهلي Heli ، وقد أصبح فيما بعـد راعياً لدير درازارك، وكـانت مهمة سفـارته الطلب من البابا ومن الامبراطور إضفاء الرعـاية على روبين، الذي عدّه الملك ليون بمثـابة ابن لـه، وأدى الرسـول الملكي مهمتـه بنجـاح وعــاد بالموافقـة والتشريف والرعايـة، وفي تلك الأثناء قام الملك ليون بـزيارة إلى جزيرة قبرص، حيـث تمكن مـن تزويـج روبين من أخـت ملك قبرص، التـي اسمها سيبل Sibylle، وكانت أخت الملك من أمــه، وقد امتازت بأنها كـانت امـرأة عاقلة، ومـوزونة، وكـانت متفـانية في طاعـة الملك ليـون، وهكذا نجح ليـون في اختيـاره بكل دقة زوجـة للشـاب روبين، لتكون ملكة في المستقبل، وقـــد اصطحبهـــا معـه إلى مقـــره من أجـل إقــامـــة الاحتفالات، ومظاهر الفرح بالمناسبة.

٤٥ — *المصالحة بين ليون والأسقف يوهانس الخامس و الحملة ضد قيصري*

في العام ٦٦٠(٢٨ كانون الثـاني ١٢١١ — ٢٧ كانون الثاني ١٢١٢) خلد الجاثليـق تير — يوهـانس إلى النـوم والتحق بـالمسيح، وذهـب في العام نفســه هيتوم راعي دير درازارك إلى هورومكلي للاجتماع بالجاثليق تير — يوهانس والتباحث معه، حول المصالحة، وقد تمكن من استمالته، ثم استطاع بعد ذلك أن يحقق المصـالحة بين الجاثليق والملك، وبناء عليه

قـرر الملك إطلاق سراح ولـدي هنري: جـوسلين وبلدوين، وإعـادة الاعتبار إليهما، ذلك أن الثالث كان قد مات.

وزحف في العام نفسه صاحب كارين Karin ، طغرل شاه على رأس ثلاثة جيـوش ضـد قيصري، وذلك بناء على توجيهـات ونصـائح الملك ليون، الذي حضر شخصياً لتقديم الدعم والامـداد، والنجدة العملياتية للحرب ضد كيكاوس ابن أخي طغرل شـاه، وبعد عدة أيام من القتال، خاب أملهما، وأخفقـا في تحقيق أي انتصار، ولم يتمكنا من السيطرة على المدينة، فعاد كل منهما إلى بلده.

وتوفي في العام نفسه الأمير الكبير زكـريا، صاحب آني، وأخو«ايواني» وقـريب تأمـار T`amar ملكة الجورجيين، وكـانت هذه الملكة ابنة للملك جـورجي، وقـد حكمت الشعب الجورجي في الأيام التي حكم فيها ليون، وماتت عن عمر متقدم، وإثر ذلك تسلم السلطة ابنها المدعو لاشا Lasa ، وهو في الحقيقـة كان قد تسلـم العرش في أواخر أيـامها، وحكم البلاد.

ولدى حلول عـام ٦٦١ حسب التقـويـم الأرمني(٢٨ كـانون الثـاني ١٢١٢ — ٢٦ كـانون الثـاني ١٢١٣) عقـدت اتفـاقيـة وئـام، جـرى تطبيقهـا، فيما بين الملك ليـون، وبين تير يوهانس، وقـد أعـاد الملك بموجبهـا إلى الجاثليق كل الممتلكات، والقلاع التي أخـذت منه، وهكذا عاش الموالون للملك والمعارضون له أجواء الفرح والحبور.

٤٦ — *زواج ريتا من جون دي بريين*

في سنة ٦٦٣(٢٧ كانون الثـاني ١٢١٤ — ٢٦ كانون الثاني ١٢١٥) زوج الملك ليـون ابنتـه ريتا إلى حـاكم القـدس الملك جـون دي بريين، الذي امتـاز برجـولتـه وصـلابتـه، وبكرمـه أيضـاً، فضـلاً عن أنه كـان شجاعـاً، وقد برهن على ذلك في مختلـف الوقائع والمعـارك الحربية التي

خاضها، ووصل بهذه المناسبة مقـدم الاسبتارية، قادماً من عكا على متن سفينة، وقـد رسـا عند نهاية نهر طرسـوس، وكـان الملك قد حـدد معـه شروط الزواج، وحمل العروس بعد ذلك إلى عكا، حيث جرى استكمال الزواج.

٤٧ — *سيطرة ليون الثاني على أنطاكية — ولادة ايزابل*

في سنة ٦٦٥(٢٧ كـانون الثاني ١٢١٦ — ٢٥ كانـون الثاني ١٢١٧) وفي يوم ١٤ شباط وهو يوم الطهـارة، في هذا اليوم استـولى الملك ليون على أنطاكية، وتمكن من التحكم منها، وذلك بفضل دهائه ومرونته، من دون أن تعترضه مصاعب، ومن دون خوض معـارك ضارية، وقد تمكن من الوصـول إلى أهدافه من خـلال عـدد من الأثرياء والأعيان، وكـان بينهم عدد من الأمراء، فهؤلاء قد تعاونوا معه، وفتحوا له أبواب المدينة في أثناء الليل، وقـد تسلل إلى داخلهـا محاطاً بوحـدات مـن جيشـه من الفرسان والرجـالة، واستطاع أن يسيطر على جميع المواقع الحصينة، وملأ الطرقات بعـدد غفير من الجنود، وتمّ له مـا أراد دون أن يعرف السكان شيئاً، واستيقظ السكان في الصباح البـاكر على وقع الموسيقى العسكرية، واستـولت الدهشـة على الجميع، وفـوجئوا بسقـوط مـدينتهم في أيدي قوات غـازية، ويلاحظ أن هذه القوات لم تمارس أية ممارسـة خاطئة، أو استفـزازية ضـد السكان، ومن جهـة أخـرى استقبل البطريرك وكبـار السـادة الملك ليون وروبين، واصطحبـوهما إلى كنيسة القـديس بطرس، وهناك منح البطريرك الأمير روبين لقب أمير أنطاكية، وقدم له الحضور الولاء.

وأقام الذين كـانوا حضوراً في كنيسـة أنطاكية، والذين قـدموا الولاء لأمير أنطاكيـة، أيامـاً قليلة، ثم غـادروا إلى مواطنهم، وكـان ذلك بعـد تسلم روبين لمهـامه، وكـان الملك ليون آنذاك في منتهى السعـادة، لكونه أدرك أهدافـه بأسلوب وفر عليـه الكثير من الخسـائر والتبعـات، وبات

مسروراً للنصر الذي منحه الـرب إيّاه، وفي المقابل كان الأرمـن ضحايا تلك المرحلة، حيث خضعـوا لسيطرة الملك، أمـا بالنسبـة لروبين، فقـد فـرح الملك بما تحقق لهذا الرجل المنحـدر من أصل طيب، وكـان روبين يعبر بسلوكـه عن مستـوى تـواضعـه الأميري، حيث كـان يظهـر عـادة بمظهر الأصل الجيد.

وفي تلك المرحلة ولد للملك ليون ابنة أطلق عليها اسم ايزابيل، وقد دفع ميـلادها الملك إلى التخطيط بشأن صيرورة العـرش والمملكة إليهـا بعد وفاته، وقد أشار عليه بهذا التوجه معظم الأمراء بقولهم:«في الوقت الذي منحك الـرب فيـه ابنـة من صلبك، فهــو قـد أعطـاك من يتسلم المملكة، ومنحك الوارث الطبيعي لعــرشك، ومن سـوف نبـايعـه مثلما بايعنـا روبين، وهكذا اجعلنا على صلة بـابنتك وبعهــدهـا، ونحن على استعداد لخدمتهـا كما لو كانت ولداً ذكـراً، علماً بأنك قد قـدمت الكثير لروبين، عندما رفعت منزلته».

وحقيقـة الأمــر أن الملك هو الذي حـرض الأمــراء، وقـد نجح في دفعهم إلى التصريح بهذا الموقف من أجل الإعداد لما بعد إمارته.

٤٨ — *حصار دمياط من قبل الحملة الصليبية الخامسة*

وصل في هذه الآونة إلى عكا على متن سفينة دوق الألمان في النمسـا، وكان برفقتـه أعداد كبيرة من عساكـر جيوشه، كما كـان بصحبته أندريه ملك المجر مع أعـداد من عساكـره وقواته، وقد احتشـدت قوات دوق النمسا مع قوات جـون ملك القدس، والبارونات، بالإضـافة إلى قوات الداوية والاسبتـاريـة، وكـان مع الجميع نائب البــابا الرومـاني ، وأجمع هؤلاء على التوجـه إلى مصر، ولدى وصولهم إلى دمياط، واجهـوا برجاً حصيناً، كـان قد بنـي في الميناء، وقد جـرى ربطه بسلسلة حـديدية غير قـابلة للقطع، الأمـر الذي حــال دون تقـدمهم إلى داخل المدينة، وقـد

أعيقـوا لمدة أيام، أمضـوها في بنـاء الأبراج والسـلالم فـوق سفنهم، وبواسطة هذه الوسائل تمكنوا من الوصـول إلى رصيف الميناء، وأحاطوا إثر ذلك بالبرج، واستـولوا عليه، بعـد قتل كثير من الناس، ثم انتشروا في المنطقـةالمحيطة بالميناء، وشرعـوا في إقـامـة جسر فـوق النهـر، تمكنوا بوساطتـه من العبور إلى الضفـة الأخرى للنهر، ووقتهـا بدأوا في فرض حصارهم على دمياط من مختلف الجهات.

أما سلطان مصر الملـك العادل وهو أخو صـلاح الدين فقد قـام هو وولديه(الكامل والأشرف) بنصـب الخيـام قبـالة الذين هاجموا دميـاط، لكن دون أن يقدموا أي عـون إلى المدينة المحاصرة، ودون إلحاق الضرر بالمسيحيين(٣٥).

٤٩ — *تحالف ليون مع أندريه الثاني ملك المجر*

بعـد أمد قصير من مغـادرة قـوات الصليبيين عكا، بقصد الاستيـلاء على مصر، عـاد ملك المجر أدراجـه نحو مـوطنه، ثم توجه إلى كليكيـة، وهناك استقبله الملك ليـون بحفـاوة كبيرة، واصطحبـه إلى طرسـوس، وقـدم له الكثير من المودة وعبارات المحبـة، وقد نتج عن هذه الأجـواء حلف صـداقـة، تضمن الأواصر الأسريـة، والتي بمـوجبهـا قـدم ملك المجر ابنه إلى الملك ليون ليكون بمثابة صهر له، ولكي يكون أيضاً وارثاً للعـرش، وقد تم تأكيـد هذا في عقد مبرم، مـدوّن وموثق، وفي غضـون ذلك أرسل الملك ليون صاحـب تل حمدون صحبة ملك المجر، للبحث عن ابنه، وكان الملك ليـون تطْرف أيضاً مثل هذا، فأقـام روابط أخرى مع الامبراطور لاسكارس، حيث زوجه ابنة أخيه المسماة فيليبا.

٥٠ — *انضمام سلطان الروم*

وعندما استولى ليون على أنطاكية، انضم إليه سلطان قونية كيكاوس، وانطلق معـه على رأس جيش كبير ضـد كـابـان، ولم يكن هذا الأخير

يمتلك القوة الكافية للتصدي، ولم يمكنه فعل أي شيء، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفضل في تحقيق الانتصار السريع لغزارة المعلومات التي حصل عليها ليون وحليفه من الخونة والعملاء، الذين كانوا مزروعين داخل بطانة كابان، أما بالنسبة لكوستاندين ابن خال الملك ليون وكوستاندين بن هيتوم، وكذلك كيرساك صاحب ملوا، وعدد كبير آخر من الأمراء والسادة فقد عادوا إلى ديارهم وبيوتهم.

٥١ — وفاة الملك ليون واعتلاء ايزابل العرش

في العام ٦٦٨(٢٦ كانون الثاني ١٢١٩ — ٢٥ كانون الثاني ١٢٢٠) قدم الملك ليون حصني لؤلؤة واللوزات إلى الأميرين اللذين أفرج عنهما بعدما أمضيا مدة في الاعتقال، وجاء في العام نفسه الجاثليق تير — يوهانس للاجتماع بالملك ليون، ووضع هورومكلي بين يديه، وذكر أنه تعرض للمضايقة من قبل المسلمين ومقابل ذلك أعطاه الملك درازارك، لأن هلي كان قد توفي.

وازدادت في هذه السنة آلام المرض على الملك، وأدى ذلك إلى وفاته، وعندما كان مايزال حياً قدم الأعيان إلى زيارته، مع الجاثليق تير — يوهانس وعندما شعر الملك ليون أنه مغادر لهذه الدنيا، أمر بأن يحملوه إلى خارج سيس عبر الطريق إلى دير أكنير Akner الذي كان قد بناه، حتى إذا مات يكون على هذا الطريق، وفي أثناء سيرهم ناداهم واحداً واحداً، وأمرهم أن يظلوا محبين للبلاد، وحريصين في الدفاع عنها، وأن يحافظوا على ولاء كامل لا مثيل له لابنته إيزابل، التي تركها وريثة لسلطته، وقد ترك وصياً على ابنته الأمير الكبير السير آدم، الذي كان يمتلك كثيراً من القلاع والولايات في المنطقة الممتدة من سلوقية إلى كالاوناوراوز Kalawnawraws ، والتي ما برحت تسمى حتى يومنا هذا باسم بلد السير آدم، وكان هذا الرجل مليئاً بالحيوية وبالمروءة الأرمنية، وإليه عهد الملك بالوصاية على ابنته، وجعلها أمانة بين يديه،

وعهد بالشيء نفسه وبالوكالة إلى السيد البطريرك تير — يوهانس وإلى كل الأمراء، فبعدما وجه عبارات الشكر إليهم أوصاهم بابنته، وعندما وصل إلى قرية مرفان Mrvan توقف لأن جسده بات مثقلاً بالآلام، وكان القسيس غريغور المسمى أيضاً سكيورين Skewrien موجوداً أيضاً، لسماع الاعتراف منه ولإعطائه القداس والمباركة.

وفيما يتعلق، فيما سلف وذكرناه، بالنسبة لموضوع ابن ملك المجر، الذي رشح ليكون صهراً للملك ليون، أعطى الملك ليون إلى أمرائه باحترام شروط العقد المبرم والقاضي بزواج ابنته ايزابل من ابن ملك المجر، وذلك عندما يحضر هذا الابن، ومن ثم استكمال الرابطة دونما تأخير، فبعد ذلك يستطيع الملك أن يطمئن في خروجه من الحياة الدنيا، وينصرف وقتها للاهتمام بالحاجات الروحية، بما يكفي ويكون موائماً لراحة جسده في المكان المقدس في دير أكنير، ثم قام الملك باستدعاء القسيس غريغور، وكان رجلاً قديساً، وشرع يعترف أمامه بأخطائه، وفعل ذلك بنية أورثوذكسية، ثم أمسك بيدي القديس القسيس متمنياً من الرب الرحمة والغفران.

وكان ذلك في الأول من أيار، وحصل عندئذ خلاف حول المكان الذي سيدفن فيه جثمان الملك ليون، ففي حين رأى الجاثليق تير — يوهانس أن يؤخذ إلى درازارك، اقترح الأعيان نقله إلى دير أكنير، وذلك بناء على رغبة الملك الشخصية ثم حمل إلى مكان ولادته، وتقرر بعد جدال طويل نقله إلى سيس عبر أكنير، وأن يدفن داخل الكنيسة في تابوت هناك، تغمده الرب برحمته وغفر له ذنوبه.

٥٢ — *وصاية كوستادين وعصيان النبلاء*

في سنة ٦٦٩(٢٦ كانون الثاني ١٢٢٠ — ٢٤ كانون الثاني ١٢٢١) ثار جميع الأمراء الذين كانوا في كليكية من الأرمن والإغريق، والبارون

بهرام، إضافة إلى الأمراء الأصيلين في طرسوس، ضد الوكيل المتسلط على الأرمن باسم الملك،وهو البارون كوستادين، وحين ثاروا عليه حشدوا قرابة الخمسة آلاف مقاتل، وكان كوستاندين موجوداً في سيس، لكن في وضع ضعيف، وقام من جانبه بإبداء مقاومة هزيلة، حيث أنه عندما علم بحركة العصيان، ووصول خصومه إلى المصيصة، تحرك للتصدي لهم على رأس ثلاثمائة رجل فقط، ولدى وصوله إلى المصيصة ومشاهدته لحجم قوات خصومه، أيقن أنه لا إمكانية لديه بالعودة، فمال نحو طريق أذنة، وفي منتصف الطريق بين أذنة والمصيصة تأكد من الحجم الهائل لقوات خصومه، فشرع في تشجيع رجاله ورفع معنوياتهم، وحثهم على الصمود في وجه الخصوم، وتوجه بعد ذلك إلى مكان فيه جسر صغير، وقرر هناك هو ورجاله الانقضاض على خصومهم دون الاهتمام بفارق الحجم، وقد تمكن البارون كوستاندين من إلحاق الهزيمة بخصومه، وظل يلاحق فلولهم ويتعقب آثارهم حتى وصل إلى أبواب طرسوس، ووفر فرار خصومه على أنفسهم سقوط الضحايا بينهم، حيث لم يمت أحد منهم، واكتفى البارون بمصادرة أسلحتهم وملابسهم وتموينهم، وتحرير الذين كانوا في أسرهم.

أما أمراء طرسوس، فقد ولوا الأدبار قبل أن يختل ميزان القوى لصالح البارون، وفروا إلى ما وراء أسوار المدينة، حيث قاموا بإغلاق الأبواب بإحكام، واستعدوا لمقاتلة مطارديهم من خلف الأسوار، لكن واحداً من سكان المدينة كان اسمه باسيل اتصل بكوستاندين، وتعامل معه ببراعة وذكاء، وتعهد له بتحقيق مآربه مقابل خدمات معينة، وقام هذا الرجل بفتح الأبواب خلال الليل، وسهل بذلك عملية تسلل الوكيل الملكي، ومن معه من الرجال إلى داخل المدينة، وهنا جرى نهب أملاك الإغريق، أما الأمراء الفارون، فقد قرروا الصعود إلى الأماكن الحصينة في المدينة، غير أن دهاء كوستاندين الوكيل الملكي للأرمن،

واستطاعتــه التعـامل المرن مع خصــومـه من الأمــراء جعله ينجح في إقناعهم بالتسليم إليـه،وهكذا انتصر عليهم دونما قتـال، فبـالحوار تمكن من وضع يده عليهم، فاقتـادهم إلى السجن، حيث هلك بعضهم هناك، وتحرر بعضهم الآخـر وفي العـام نفسـه مـات الجاثليق تير — يوهانس، ودفن في درازارك.

٥٣ — انتخاب الجاثليق كوستاندين الأول

اجتمع الأساقفـة والقساوسـة للتداول بشأن اختيار جـاثليق للأرمن وقـد اختلف الأمــراء، ولم يكن هناك ملك يحسم الأمــر بإرادة ملكيـة باختيـار جاثليق وتثبيتـه، ومع هذا قـام كوستـاندين، الذي كـان يشغل وظيفـة الوكيل الملكي، فـاختار الـوقوف إلى جـانب برجــربيرد Barjr-berd، وآثر اختياره وكذلك فعل البارون كوستاندين صاحب لامبرون والقسيس غريغور دي سكيورا Skewra ، وآثر كوستاندين الوكيل الملكي للأرمن إرضاء الرب، وتكلم بشكل بارع، وجرى الإصغاء إليه، وهكذا جرى اختيار تير — كوستاندين برجربيرد جاثليقاً للأرمن.

٥٤ — إحلال هيتوم الأول محل فيليب الأنطاكي

في سنة ٦٧١(٢٥ كـانون الثاني ١٢٢٢ — ٢٤ كانـون الثاني ١٢٢٣) أصبح فيليب ملكاً على الأمـة الأرمنيـة، وجدير بالـذكر أن فيليب كـان ابن كـونت طرابلس وأمير أنطاكيـة، وكان قـد تزوج — كما أشرنا — من إيزابيل ابنة الملك ليون، ذلك أن ابن ملك المجر لم يحضر عندما توفي الملك ليون، وبعـدما صـار فيليب ملكاً، أظهر عداوتـه للأمراء الأرمن، وتمادى في تصرفـاته الرعناء، وبلغ به الأمـر أن قام بجمع أمـلاك الملك ليـون وأمـواله، مع أمـوال ورثته، واستـولى عليهـا، ثم شرع بنقلهـا إلى أنطاكية، شيئاً فشيئاً، وغضب أمراء الأرمـن كثيراً ومن ثم قرروا اعتقاله وزجــه بالسجن، الأمــر الذي أثار فيما بعــد كثيراً من التــوتر فيما بين

الأرمن والأنطاكيين.

وفي عام ٦٧٥(٢٤ كانون الثاني ١٢٢٦ — ٢٣ كانون الثاني ١٢٢٧) اجتمع الأمراء الأرمن مع الجاثليق تير — كوستاندين، واختاروا هيتوم ملكاً لهم، وكان هيتوم هذا هو ابن كوستاندين الوكيل الملكي للأرمن، وقد مكنوه من ايزابيل ابنة الملك ليون، وهكذا هيمن السلام والهدوء على الشعب الأرمني سنة تلو سنة، حتى بلغ أعلى مستويات الرقي والعظمة.

وفي عام ٦٧٨(٢٨ كانون الثاني ١٢٢٩ — ٢٢ كانون الثاني ١٢٣٠) قدم امبراطور الألمان من النواحي الكائنة على تخوم المحيط، ثم قصد القدس حيث سيطر عليها بوساطة (سلطان) المسلمين .

(سقط مقدار ورقة ونصف الورقة)

تاريخ سنة ٧٠٠(١٨ كانون الثاني ١٢٥١ — ١٧ كانون الثاني ١٢٥٢)والأحداث التي تلته

٥٥ — وفاة الملكة ايزابيل

في العام ٧٠١ حسب التقويم الأرمني(١٨ كانون الثاني ١٢٥٢ — ١٦ كانون الثاني ١٢٥٣) توفيت ايزابيل في يوم ١٢ — كانون الثاني، وهي التي كانت ابنة الملك ليون، وزوجة الملك هيتوم، والتحقت بالمسيح، وقد عرفت بحسناتها وأعمالها الخيرة، وكانت هذه الملكة قد أنجبت ثلاثة أولاد هم: ليون، وطوروس، وروبين، إضافة إلى خمس بنات، سميت إحداهن باسم فيمي، وهي التي تزوجت واحداً من الفرنجة اسمه جوليان، وكان صاحب صيدا، وقد خسرها في رهان للخيل، وقد اشتراها منه فرسان المعبد.

٥٦ — سفر هيتوم الأول إلى منغوخان

في عام ٧٠٢(١٧ — كانون الثاني ١٢٥٣ — ١٦ كانون الثاني ١٢٥٤) غادر هيتوم ملك الأرمن بلاده كليكية متوجهاً إلى الشرق، برفقة عدد من الرجال من أجل زيارة شعب الرماة، أي شعب جنكيزخان، والمثول في حضرة الخان المسمى منغو، وقد وصل أولاً إلى أماكن سكنى الإسماعيليين المسلمين في مقاطعة كبدوكية، وكان يعتمد في مسيره أثناء الطريق على دليل اسمه بارسيل، وبارسيل هذا هو الذي رسم لهيتوم خطة السير والسفر، وقد وصل هيتوم ومن معه إلى حدود ثيودوثيوبولس، وذلك على مقربة من مكان اسمه فارديني، وقد أقاموا في منزل كان يملكه أمير اسمه كرد، وهناك انتظروا وصول الهدايا من كليكية، لكي يحملها معه إلى الخان، أما كوستاندين — والد الملك ـ فقد أعدّ كل ذخائره وأرسلها إلى الملك مع رجال يثق بهم، ثم قام الملك هيتوم بحمل الهدايا جميعها، وقصد منغوخان، الذي استقبله بحفاوة وابتهاج، واستجاب لكل شيء طلبه منه، ووقع اختيار الخان على واحد من خدمه، وكان رجلاً أعور لمرافقة الملك هيتوم في العودة إلى بلاده كليكية، وكان اسمه ماركاتيا، وأصحبه برجل آخر اسمه باجوني.

وتزوجت في العام نفسه سيبل ابنة الملك هيتوم من بوهيموند أمير أنطاكية وكونت طرابلس.

٥٧ — غزوة التركماني اسلام بيك

في العام ٧٠٣(١٧ كانون الثاني ١٢٥٤ — ١٦ كانون الثاني ١٢٥٥) ظهر من بين البدو التركمان رجل اسمه تركمان بيك، وقد انضم إليه عدد كبير من بني قومه عرفوا باسم الآغا جيري Aghag - eri ، وقد هاجموا المسيحيين وألحقوا بهم أضراراً بليغة، ونهبوا الكثير من المواقع في لحف جبل طوروس، كما أنهم قاموا بإضرام النيران، وإشعال الحرائق،

وقاموا بحصار برج كراكا Krakka ، لكن ما لبث هذا الكلب أن قتل خلال أيام قليلة ومن ثم عاد السلام إلى المنطقة الجبلية.

٥٨ — العودة المنتصرة لهيتوم الأول

في العام ٧٠٤(١٧ كانون الثاني ١٢٥٥ — ١٦ كانون الثاني ١٢٥٦) غادر الأمير غيوفري بلاد كليكية، وترك هذا العالم بعد أن استاء من أعمال الناس مع مسيحيي الشعب، وقد توفي بعدما ترك سيرة مليئة بالأعمال المقدسة.

وفي العام ٧٠٥(١٧ كانون الثاني ١٢٥٦ — ١٥ كانون الثاني ١٢٥٧) وخلال شهر أيلول عاد الملك هيتوم ملك الأرمن إلى البلاد قادماً من عند منغوخان، وخلافاً لذهابه الذي كان بصورة سرية، فإنه عاد مثل الأسد، ومرّ بين أعدائه دونما خوف، حتى وصل إلى الحصن الذي كان يقيم فيه والده، وقد عرف باسم حصن البرج(برجربيرد)،وهناك وجد والده، وأطفاله البنات والبنين الذين فرحوا بعودته سالماً.

وبعد ذلك في شهر تشرين من السنة نفسها حشد الملك هيتوم حشداً عظيماً، وكان معه أخوته وأقربائه والنبلاء، وقد بلغ تعداد الحشدمائة ألف، وزحف ضد بلاد الروم في سفوح جبال طوروس وذلك بالقرب من مدينة ايرغلي Eregli وهاجم منطقة«عنق الكنائس» ومنطقة موراندين Murandin ، وسلب الكثير من الحيوانات القرنية من أبقار وجواميس وأغنام، وكذلك الخيول والبغال والذهب والعبيد الأقنان، ثم عاد إلى بلاده مبتهجاً حيث عم السرور أرجاء البلاد لأيام كثيرة.

٥٩— حفل تنصيب الأمير ليون ولي العهد قائداً للفرسان

قرر في العام ذاته الملك هيتوم تنصيب ابنه الأكبر قائداً للفرسان،

وتوجه لهذا الغـرض هذا الملك إلى منطقة المصيصة، ثـم بعث برسل، وبسفراء إلى أنطاكية لتوجيه الدعوة إلى صهره بوهيموند أمير أنطاكية وكونت طرابلس، من أجل القدوم بصحبة زوجته لحضور احتفالات تلك المناسبة، كما بعث للغرض ذاته إلى جوليان صاحب صيدا،طالباً حضوره هو الآخر، رفق زوجته، كما تكرم بتوجيه الدعوة إلى كونتسة يافا للحضور إلى كليكية، ووجه الدعوة إلى جميع أصدقائه أيضاً، كما قام بجمع جميع حاشيته وكل المراتب الإدارية على اختلاف درجاتها، لحضور مراسم الحفل البهيج، وهكذا جرى تنصيب ليون قائداً لسلاح الفرسان بتاريخ ١٥ تشرين الثاني من العام ٧٠٥، وفرح الملك فرحاً عظيماً، وذلك بالإضافة إلى والده وأسرته، وكل الذين احتشدوا في هذه المناسبة بالذات.

٦٠ — *استيلاء المغول على بغداد*

في عام ٧٠٧(١٦ كانون الثاني ١٢٥٨ — كانون الثاني ١٢٥٩) زحف شعب الرماة باتجاه مدينةبابل، برفقة جميع قادة المئات، وقواد الألف، وذلك تحت لواء القائد الكبير الخان هولاكو، الذي اجتاح تلك البلاد بكل عنف، وفي مواجهة الغزو المغولي، استعد أهالي بابل من المسلمين، قبل وصول هولاكو، وكان ذلك لسببين:

أولهما: لأن السكان كانوا على علم مسبق بهجوم المغول والتتار، وكانوا يعرفون حجم الحملة المعدة ضدهم، ولهذا قاموا بالتجهز والاستعداد، وحضروا ما يلزم لخوض الحرب.

وثانيهما: لأن الخليفة كان مقيماً من قبل في القاهرة، وقد جرى تغيير مقر إقامته ونقله أيام حكم الملك بلدوين، الذي أقام في القدس وتهدد مصر، وأراد احتلالها، فكان أن قُتل الخليفة بأمر من سلطان حلب، وبعد هذا نقلت الخلافة إلى بغداد.

وخرج سكان المدينة للتصدي للغزاة في ميدان القتال، وقدموا هناك عدداً كبيراً من الضحايا، كما أنهم قتلوا العديد من جيش الغزاة، غير أن التتار نظموا هجوماً ثانياً على المدينة، ووقتذاك بعث الخليفة موفداً خاصاً ليتحدث إلى هولاكو خان، وليقول له على لسان الخليفة:«خذ جيشك، واذهب به بعيداً عن ها هنا، فإنك لن تستطيع تحقيق أي تقدم يذكر، فنحن سوف نستنصر عليكم بلبس بردة النبي(ﷺ) أمام الناس جميعاً، ووقتها سيخرج من بين صفوفكم من سينحاز إلى إيماننا، وساعتها سأتولى توفيرهم»، وبعدما استمع هولاكو خان إلى حديث هذا الموفد الخاص، استخف بالخليفة واستهزأ به، وطفق يبصق هو ورجاله نحو الخليفة، ثم رفع هولاكو خان صوته وصرخ قائلاً:«بعون الرب، وبوصية جنكيزخان سوف ندخل إلى المدينة بحد السيف»، وما أن انتهى الحديث بين الطرفين، اندلعت الحرب، وانقض رجال شعب الرماة على الأهالي بسرعة كبيرة، وشرعوا في توجيه الضربات تلو الضربات حتى انهزم السكان، وتركوا ثغرات تسلل منها هولاكوخان ورجاله إلى داخل المدينة، حيث ارتكبوا المجازر والمذابح الهائلة،فلقد قتلوا وذبحوا الرجال والنساء والأطفال، وقذفوا بالجثث النازفة في نهر الفرات(٣٦)، الذي يمر بمحاذاة المدينة حتى تحول لون الماء إلى اللون الأحمر، وذلك نظراً لكثرة الدماء التي نزفت من الجثث في داخل النهر.

وشعر المغول والتتار بعد اقترافهم للمجازر بالإرهاق، والتعب الشديد، فالتمسوا من القيادة المغولية المنتصرة إيقاف القتال، وجمع الأسلاب، وفرض الغرامات والضرائب، والعودة إلى موطنهم.

٦١ — *وفاة ليون أخو هيتوم الأول*

وقرر في العام ذاته ليون أخو الملك هيتوم الذهاب إلى قبرص لزيارتها وليخطب امرأة ويتزوجها،وقام ليون بتحضير جميع المستلزمات الضرورية لاستكمال الزواج، ووضعها على متن سفينة بانتظار هبوب

رياح الشمال، ثم إنه عاد يبحث عن أبيه من أجل نيل تبريكاته، غير أنه أصيب بشكل مفاجيء بمرض عضال أدى إلى وفاته في ٣٠ — أيار، وكان ذلك في مدينة أذنة، وقد فتحت بطنه، وأخرج ما في جوفه، ثم حمل إلى دير القديس أكنير، حيث أودع هناك لبعض الوقت، وبعد هذا جرى نقله إلى مليك بابيروان، حيث دفن هناك.

واعتباراً من هذا اليوم استبد الحزن بكوستاندين والد الملك، وبالملك هيتوم وآل بيته وحاشيته.

٦٢ — *حملة ساروم التركماني*

وقام في العام ذاته تركماني اسمه ساروم Sarum ، بحشد عدد كبير من الرجال، وزحف ضد قلعة كراكا Krakka ، وبث الرعب بين صفوف الناس ثم أخذ معه أسرى وغنائم وأسلاب، وانسحب دون إحداث أضرار كبيرة، وبعد مضي بعض الوقت توفي هذا التركماني.

٦٣ — *قيام هيتوم الأول بالتحكيم في طرابلس*

في العام٧٠٨(١٦ كانون الثاني ١٢٥٩ — ١٥ كانون الثاني ١٢٦٠) ذهب الملك هيتوم على متن سفينة إلى طرابلس، ومعه مائتي رجل، وذلك من أجل معاضدة صهره الذي كان أميراً لأنطاكية، وكونتاً لطرابلس، وذلك إثر تفجر خلاف بين هذا الأمير، وتكتل قوي نشأ بين صفوف حاشيته، وقد تمكن الملك هيتوم من فض الخلاف، وعقد اتفاقاً نظم العلاقة بين الطرفين، ثم عاد إلى بلاده.

وعقد في العام ذاته في أيام عيد الحصاد، اجتماع كبير في مدينة طرسوس، جرى خلاله تنصيب أخو الملك المعروف باسم بلدوين أسقفاً، وبعد مضي عدة أيام نال لقب تير — يوهانس، وحدث في اليوم ذاته أن أصبح طوروس ابن الملك فارساً.

٦٤ — هزيمة أتراك الروم في منداس

وكان قد ظهر في هذه الأحداث أمير من أصل إغريقي اسمه أوشين، قام بغزو المواقع الحصينة في منداس واحتلها، واستنفر في هذه الأثناء ركن الدين سلطان الروم قواته، وحشد جيشاً كبيراً، أوكل قيادته إلى رجال كانوا موضع ثقته، وأرسله إلى المنطقة الحصينة في منداس لمحاصرتها، وقد تمكن من ذلك، غير أن رجلاً تمكن من مغادرة المنطقة المحاصرة، وتوجه إلى الملك هيتوم، وأبلغه أن عدداً كبيراً من المسيحيين قد جرى حصارهم في داخل الأماكن الحصينة، وأبلغه بأخبار حملة السلطان ضدهم، وبناء عليه استدعى الملك قواته، وزحف على رأسها إلى المنطقة الحصينة المحاصرة، ومعه الصليب المقدس، وزحف الأرمن وتقدموا سراً في غسق الليل بمشاعل تضيء دربهم، لكن دون أن يلفتوا الانتباه، وعندما وصلوا على مقربة من كاوستار Kawsitar ، ساروا فوق الثلوج، وحققوا بذلك معجزة كبيرة، وفعلوا ذلك وكأنهم يسيرون في شهر تموز، وكان المدعو أبلهسنانك Aplhasnanc ، يسير في المقدمة، وقد تمكن من استغلال ثغرة وجدها بين صفوف الأعداء، فمرّ بقواته منها، وقام من هناك بهجوم مباغت، وبذلك أرغم هؤلاء الأعداء الأوغاد على الفرار حتى ايرغلي Eregli ، حيث كان هناك معسكر للمؤمنين، وهناك بدأوا في إعادة تنظيم صفوفهم، وخاض إثر ذلك الطرفان معركة مجابهة قاسية، وقد تمكن الأرمن من ترجيح ميزان القوى ميدانياً لصالحهم، غير أن الأعداء تمكنوا من محاصرة بهرام دي هاموس Hamus ، وكان مقاتلاً معروفاً، وشددوا الحصار عليه من جميع الجهات بالرمايات المكثفة من قسيهم، إنما دون التقدم نحوه، وشوهد في هذه الأثناء أخو الملك وهو يقوم بفتح ثغرة بين صفوفهم، والولوج إلى بهرام المحاصر، ونجدته وحمايته حتى وصل إلى مخيم الأرمن، وبما أن الصليب المقدس كان مصدر قوة روحية ومعنوية، فقد ساعد على تحقيق

النصر على الأعـداء ودفعهم إلى الفـرار، وكان الأرمن قـد قتلوا أعـداد كبيرة، في حين عانى الذين بقيوا أحياء من الخيبة والعار، ومنهم من لجأ إلى قونية أي إلى حاضرة سلطانهم، ومن جـانبه عاد السلطان مهزوماً إلى قونية، في حين عاد الملك هيتوم منتصراً ومطمئناً إلى كليكية، وكان مثقلاً بالغنـائم الكثيرة، ولم يقتصر الأمـــر على هذا فقـط، بل حقق هـدفـــه الأسـاسي، وهو تحرير المسيحيين الذين كـــانوا محتشـدين داخل الحصن، وإعادة الطمأنينة إليهم، وقد أمـر بإدخالهم إلى الأراضي التي كان يسيطر عليها.

٦٥ — *الأرمن والمغول يحتلون حلب ودمشق*

في سنة ٧٠٩(١٦ كـانون الثاني ١٢٦٠ — ١٤ كانـون الثاني ١٢٦١) زحف هولاكـو خـان على رأس قـواته في فصل الربيع، وكـان كلما مـر بحصن عـاد إلى المسلمين استولى عليـه صلحـاً أو عنوة، حتى وصل إلى مشارف حلب، فحـاصرها من جميع الجهات، ثم بعـث إلى الملك هيتوم يطلب منه القدوم عليه، ووصل هذا الملك إليه مع جيشه، أي وصل إلى حيث كـان الخان مـرابطاً، وقـد استقبله هولاكـو بحفـاوة كبيرة، وكـان الخان المنتصر قـد قــرر الضغط على حلب بمختلف الوســائل المعـززة للحصــار، واستطاع خـلال سبعـة أيام من القتـال المتـواصل فتح ثغـرة ضيقـة في الأسـوار، وذلك على الرغم مـن اتسـاع هذه الأسـوار وعمق الخنادق، وقد تمكن بواسطة العمل الجماعي من حفـر نفق تحت الأسوار أوصله إلى القلعـة، وبهذه الوسيلة اندفعت قـوات هولاكـو إلى الداخل، واقترف المغول بسيوفهم مجازر رهيبة ضد المسلمين، وقتلوهم دون رحمة أو شفقـة، ومـا من أحـد يمكنه أن يصف المجـازر، بحكـم فظاعتهـا، واتساع المساحة التي انتشرت فوقها الجثث.

وبعد انتهـاء المجازر حملت قوات هولاكـو الغنائم، وجميع ما وقع في أيدي أفـرادها من أسـلاب ومنهـوبات، ثم زحفت هذه القـوات نحـو

دمشق،وكان هولاكو قد أخضع جميع المدن والقلاع والحصون ووضعها تحت تصرفه المباشر، وذلك امتداداً من حلب حتى القدس، وقد عين على كل مقاطعة حاكماً يرجع إليه، ثم أسند الأمور كلها إلى رجل اسمه كتبغا، وقرر بعد ذلك هولاكو خان العودة إلى الشرق، أي إلى حيث أتى، واصطحب ابنه أبغا معه، وقد اصطحب هذا جيشه معه.

٦٦ — *انتصار المصريين في عين جالوت*

قرر كتبغا، المسؤول الأول عن السلطة، عدم الالتزام بأوامر هولاكو، الذي كان قد فرض عليه البقاء في المكان نفسه، وهكذا قام كتبغا بحشد قواته، والقوات الكليكية، فهو كان قد طلب من الملك هيتوم الالتحاق به، وإمداده، فجاء على رأس خمسمائة رجل، ولدى استكمال حشد القوات توجه كتبغا يريد مصر لاحتلالها، وحصل جواسيس السلطة المصرية على أخبار الزحف المغولي، فبادروا إلى إيصالها إلى المصريين المعنيين بالأمر، وقامت قوات الملك بالاستعداد وتعبئة الصفوف على بعد أربعة أيام من مواقع العدو في مكان اسمه بيت(زرعين) إلى الغرب من عين جالوت، وخلال نصف يوم استعد الجيشان وشرعا بالاقتراب من بعضهما بعضاً، وفي مطلع الفجر التحم الجيشان في معركة ضارية، وجرى القتال جبهوياً، جيش مقابل جيش آخر، وكان في غاية العنف، ونظراً لقسوة القتال، ورداءة المناخ ولارتفاع الحرارة وشدتها، ولأن الارهاق قد أصاب خيول المغول قرر شعب الرماة الانسحاب ثم الفرار، وقتل المصريون في المعركة القائد المغولي كتبغا، وحملوا معهم إلى مصر ما كان بحوزته وذلك بالإضافة إلى زوجته وأطفاله، أما الذين ظلوا على قيد الحياة من المغول بعد المعركة، فقد تمكنوا من الفرار إلى بلاد فارس، ولدى وصولهم إلى هناك ولقائهم بهولاكو، أخبروه بتفاصيل الوقائع الحربية وبالهزيمة، وهنا زمجر هولاكو، وزأر مثل الأسد، وأعلن أنه سيذهب للانتقام لدم جنوده.

٦٧ — حملة غنغرا

واستدعى في العام ذاته هيتوم، ملك الأرمن، وحداته المقاتلة، وذلك بهدف الإقلاع بحملة جديدة، فزحف عبر ممر كان بين كبدوكية وقونية، وكان هدفه الالتقاء بجيش شعب الرماة(المغول) في مقاطعة غلاطية، عند مدينة غنغرا Gangra ، وهي مدينة مجاورة لسميرنا، ولولايات لاسكاريس، وكان التتار قد وجهوا الإنذار إلى لاسكاريس، وطلبوا منه اللحاق بهم، وكان الملك عندما تحرك بالاتجاه المذكور تحرك خائفاً، ومع ذلك لم يتوقف عن المسير، هذا وكانت الوحدات التي حشدها شعب الرماة قليلة، ولم يكن بمقدورها الصمود طويلاً، ويبدو أن التتار قد علموا بحجم القوات التي كانت مرافقة للملك هيتوم، ولهذا قرروا الانتشار في الأحراش والمناطق الوعرة، وذلك دون تحقيق فائدة تذكر، وكان هناك أمير من أصل إغريقي ضمن وحدات الملك اسمه باسيل كيراونينك Kerawnenc، وقد توفي في طريق العودة. وإثر وفاته نقل جثمانه إلى كليكية، ودفن قرب أجداده.

٦٨ — وفاة كوستاندين والد الملك هيتوم

في عام ٧١٠(١٥ كانون الثاني ١٢٦١ — ١٤ كانون الثاني ١٢٦٢) زوج الملك الأرمني هيتوم ابنته ريتا إلى ابن صاحب سرونديكار Sar-vandikar في العاصمة سيس، وفي السنة نفسها التحق حاكم سرونديكار، الذي كان مقاتلاً ممتازاً، بالمسيح، بعد قيامه بحملة مقدسة، وكان ذلك في شهر كانون الأول، وقد خلف ثلاثة أطفال هم كوستاندين، وسمباط، وأوشين.

وفي العام ٧١٢(١٥ كانون الثاني ١٢٦٣ — ١٤ كانون الثاني ١٢٦٤) خيم الحزن الكبير على كليكية، وكان الناس جميعاً يتحدثون بلغة روحية واحدة عن حالة الاستقرار التي شهدتها البلاد، وكان هذا

الاستقرار قد ارتبط عملياً بوجود أبو الملك، أي كوستاندين، الذي توفي يوم الأحد ٢٤ شباط، من العام نفسه بعد عمر مليء بالأعمال المقدسة، وكان هذا الرجل يعد الأب الكبير لكليكية، وبفضل نصائحه ظلت ذكراه في أذهان الناس، وظل في مكانة علية من التقدير لسنوات عديدة بعد وفاته، وتذكر الكليكيون ذلك كله، عندما رحل النبلاء والأشراف أسرى إلى مصر، فاقدين لثرواتهم كلها، فقد قضى الرب بضياعها وبأن تحرق أرض الرب مع جميع الحقول والقرى على أيدي الأمم الإسماعيلية(من المسلمين).

٦٩ — *النجاح الأول للتركماني قرمان*

خرج قبل وفاة كوستاندين، والد الملك هيتوم، رجل بدوي من المسلمين اسمه قرمان، وقد انضم إليه عدد كبير جداً من بني قومه، ثم جرت بيعته سلطاناً، ولقد حاول أن يعزز قوته حتى يصبح مثل ركن الدين، سلطان الروم، وذلك بالنظر لخوفه منه، وقد تمكن من فرض سيطرته على كثير من البقاع الحصينة، وأنزل أضراراً جسيمة بأرجاء منطقة ايزورا Isaura(حاضرة ايزوريا)، وبمنطقة سلوقية، حيث قام بأسر الناس، ومزق وحدات الحراسة التي كان الملك هيتوم قد مركزها في المنطقة، كما أنه قتل هلكم، وهو رجل صاحب مكانة عالية، وكان من أصل إغريقي، كنا قد أشرنا إليه من قبل.

٧٠ — *محاصرة القائد سمباط في مانياون*

بدأ قرمان يظهر نواياه السيئة ضد سمباط أخو الملك الأرمني هيتوم، وفي الحقيقة تمكن قرمان من الاستبداد بالمنطقة، واستطاع بالمقابل سمباط هو الآخر التحرك بفضل هداياه التي وزعها، وبذلك تمكن من انتزاع قلعة حصينة من المسلمين اسمها مانياون Maniawn ، وكانت هذه القلعة بالأصل ملكاً للمسيحيين، وقد امتلكها سمباط من قبل

واحتفظ بها لمدة ثلاث سنوات، وهـذا وكـان قـرمـان المتجبر قـد قـام بمهـاجمة هذه القلعـة بكل عنف، وزاد المخـاطر ضـد سمبـاط بأن تولى حصـاره فيهـا، وكما ذكـرنا استطاع سمبـاط بفضل مـا أنفقـه من ذهب وفضة البقـاء بعض الوقت سيداً للقلعة، لكـن قرمان لم يوقف هجـومه العنيف، وتابع محاصرة القلعـة لمدة تسعة أشهر، ثم اقتحمهـا بكل عنف واستولى عليها، وإثر ذلك شمخ قـرمان بأنفه وتكبر كثيراً، وطفق يظهر بكلامـه العجرفـة والغرور، إلى درجـة أنه صار يبعث بأوامـره إلى الملك هيتوم وقال له في إحدى المراسلات«لئن كنت لا تريد الآن الانضمام إليّ والالتحاق بي، لتركع أمـام قدمي، انتظر قليـلاً حتى تهب رياح الخريف على بلدك خـوفاً من وصـولي، ووقتهـا لن يصيبني الوهن أو الضعف»، ومـا أن بلغ الملك الأرمنـي هيتـوم هذا الكلام حتى بـادر إلى والده كوستاندين وأبلغه بالأمر.

٧١ — *انتصار جيش النجدة*

وقال كوستـاندين، البطريرك الجديد للملك:«لا تأبه كثيراً بأوامر هذا الرجل، وإذا مـا أخـذنا بعين التقدير انتصـاراته في ايزورا، وقـواته التي تزداد وتتضـاعف فإنني أخشـى أن نشهـد صـلاح الدين الثـاني، لذلك يتوجب علينا عدم انتظار ما سمعناه منه وما توعدنا به، وأقول علينا أن نزحف ضده بكل قوة، والرب سوف يضعه بين أيدينا، ويمكننا منه».

وتشجع الملك، وذهب إلى طرسوس، وهنـاك قام بحشد قـواته، وقد جمع كل مـا يمكنه جمعـه، ثم توجـه إلى سلوقيـة، حيث ضم إلى قـواته وحدات أخـرى من الفرسـان والرجالـة، وحملة الأثقال والعتـاد، وكان على هؤلاء ومـوكـل إليهم حمل ألف كُرّ من القمح للتـوزيع في داخل القلعة.

وعندمـا وصل الجيش المسيحي والملك إلى تخوم القلعـة، قرر الكفـار

مغـادرتها، وانسحبوا منهـا، ولدى وصـول الملك إلى القلعة مع قـواته لم يجد الكافـر قرمـان، فأمـر بتوزيع القمح داخل القلعـة، وبتغيير الملامح الخارجية للقلعة بالطلاء.

٧٢ — *وفاة قرمان*

وإثر هذا عـادت القوات إلى بلادها عبر طريق مغـاير، دون أي قلق، غير أن الكافـر قرمـان، كان قـد تخفى في مكان قـريب، في غابة كثيفـة، بمحاذاة طرق صعبة وضيقة، وعالية في الجبال، فهناك اتخذ قرمان موقعه المرتفع وكمن، وعندمـا وصلت القوات المسيحيـة إلى ذلك المكان صرخ الكفـار بأعلى أصـواتهم، فـوجهـت إليهم القـوات المسيحيـة سهـامهـا، وأصـابت معظمهم بجـراح بالغـة، ووصلت أصـوات صراخهم إلى مسامع الملك، وهكذا تقدم الرجـال الأكفاء من المسيحيين وانقضوا على الكفار، فبعثـروهـم في ميدان المعركـة، وتخلى هؤلاء عن مواقعهم ولجأوا إلى الفـرار، وتمكن بعض المسيحيين من إصابة قـرمـان برمية سهم وقـد انسحب هذا مجللاً بالعار، ومات بعد أيام الكافر قرمان متأثراً بجراحه، وكان أخـوه المدعو بـونسوز Bunsuz وصهره قـد قتلا في ميـــدان المعـركة، وكـان من بين رجـال الملك الذين قتلوا الوكيل كـوستـاندين، حـاكم ســومـاي Somay ، والأمير غريغور، وصاحب مازوت اكسـاك Mazot Xac الذي بُتر إصبعـه بضربة سيـف، ومع هذا على العموم كان عدد القتلى في صفوف المسيحيين قليلاً.

٧٣ — *انجازات سمباط الشاب*

كان سمباط الشاب المنحدر من أصل إغريقي، أخاً لكل من باكوران Bakuran وكـوستاندين، وعندمـا كـان ما يزال صبيـاً تبناه والد الملك هيتـوم، فقـد شـوهد هذا الشـاب وهو يندفع مع الشجعـان الآخـرين، ويرمي الكفـار أرضـاً بلا حيـاة، وكـان الملك مع آخـرين شـاهدوا هذا

المشهـد، فقـرر الملـك مكافأة الشـاب المندفع، وأرسله في مهـام لدى كوستاندين والد الملك، وكان كوستـاندين هذا قد تعرف إلى مواصفات الشاب، وعلم بها قبل أن يصل إليـه، فاحتفى به كثيراً، وأغـرقه بالمودة، وأحـاطه بأجـواء سعيـدة، ثم أعاده إلى أمـه وإلى أخـوته محمـلاً بالهدايا الثمينة، وكـان الملك قـد رجع إلى بلاده وأراضيـه في غـاية السعـادة والفرح، ودون أية متاعب وذلك بعدما أذل الأعداء من الكفار.

٧٤ — *حج هيتوم الأول إلى أنطاكية*

في العام ٧١٢(١٥ كانون الثـاني ١٢٦٣ — ١٤ كانون الثاني ١٢٦٤) قصد الملك هيتوم ملك الأرمن أنطاكية بزيارة ودية لمشاهدة هذه المدينة، ورافقه في رحلته الحكيم تير — يعقوب رئيس أساقفة عين زربة، وذلك بالإضـافة إلى عـدد من القساوسـة والرهبـان، وقد حمل معـه الكثير من الأشياء الثمينة مثل الـذهب والفضة مما اكتنزه أبوه كوستـاندين، وذلك بهدف توزيعهـا على الفقـراء، ومنح الهبات إلى البيـوتات الدينيـة، وقـد تجول في المدينة، وزار كل مـن كنيسـة القـديـس بطرس، ثم القـديس بولص، كما زار الدير المقدس في كابيك Capik حيث تم قبوله، مثل أبيـه، عضـواً في طائفـة هذا الدير، وهنا تـدخل بأمـور الدير شخصيـاً، ونظم بعض الأمور الخاصة بأخوانه، وخصهم بالهدايا، وبأعطيات تقرر أن يحصلوا عليها سنوياً من بلاده، وبعدما أمضى وقتاً طويلاً في أنطاكية عاد أدراجه إلى كليكية.

٧٥ — *وساطة مغولية بين هيتوم الأول وسلطان الروم*

وفي العام ذاته، في شهـر حزيران، توجـه الملك هيتوم إلى الشرق، إلى الخان هولاكو، وذلك بسبب الأضرار التي كان سكان كبدوكيا، ينزلونها بسكان كليكيـة، الذين يعيشـون في الجبـال والمرتفعـات، ونظراً للمـودة الكبيرة التي كـان هولاكو يكنهـا للملك، أرسل معـه عدداً من القضـاة

المغـول المشهـود لهم بالعـدل، وقـد رافق هؤلاء الملك حتى ايرغلي، إلى حيث وصل سلطان الروم، وقد أقـاما هناك بضعة أيام نتج عنهـا عهد وميثاق صداقة لكي يعم السلام، وهكذا تحول الملك والسلطان، وصارا بمثابة أب وابن، ثم عاد كل منهما إلى بلده.

وفي العام ذاته كانت الكونتسة كيرامـاريا، أخت الملك هيتوم في يافا، قد قصـدت السفر إلى أبيهـا كوستـاندين، بسبب حزنها، ذلك أن سـاعة منيتهـا كـانت قـد دنت، وبالفعل مـاتت في حصن لامبرون، ودفنت في الدير المقدس في سكويرا Skewra ، وقد خلفت ولدين ذكرين وثلاث بنات.

٧٦ — حملة الملك هيتوم الأول على شمال سورية

في عام ٧١٣(١٥ كـانون الثاني ١٢٦٤ — ١٣ كـانون الثاني ١٢٦٥) حشد الملك هيتـوم قواته مع أعداد كبيرة من الرجـالة، وقام بتنظيم حملة ضد منطقـة حلب، واستهدف أبراج معرة مصرين، وسرمين، والفـوعة، وتمكن فقط من أخذ عـدد ضئيل من الأسرى وقليل من الغنائم، وقد تورط هنا في مأزق كبير، استطاع أخيراً أن يتخلص منه، حيـث كان قـد اختار بعضاً من حرسه الخاص من عبيـده، واصطحب واحداً من أمرائه هو كوستاندين أبلها سنانك، وانفصـل عن جيشه، ثم تسلل مع مرافقيه إلى داخل المدينة، وسـار في شـوارعهـا متنكراً ، دون أية مظاهر ملكيـة، وفجأة وجـد نفســه وجهـاً لوجـه أمـام عشريـن من المسلمين مجهـزين بالسـلاح، وكانوا على نيـة الدخول إلى برج مـرتفع في وسط المدينة، من أجل إنقـاذ الأسرى الذين جـرى حشـدهم هناك، وتحرج مـوقف الملك عندما وجد نفسه في مواجهة هذه المجموعة، لكن لحسن حظه لم يتعرف المسلمون على هويته، ومع ذلك رفع أحدهم سيفه وهوى به على الملك، فتـدخل الحارس جــوسلين، وصرف الضربة نحـو جسمــه شخصيـاً، وحاول الرجل مـرة ثانية ضرب الملك، فتصدى له الأمير كـوستاندين،

وحماه من الخطر، ثم أزاح الملك من المكان الخطر، وتقدم هو للمواجهة، وهنا بادر المسلمـون بالانسحـاب وهـم يركضـون نحـو البرج، وبذلك تمكن الملك من النجـاة ومن الخلاص من ورطته دون أن يصـاب بأذى، ثم عاد أدراجه نحو بلاده، محملاً بالأسلاب وبالغنائم، ومسروراً بشكل عام.

واستنفـر في السنة نفسهـا الملك هيتوم قـواته، وزحف ضـد عينتـاب للاستيـلاء عليهـا، غير أنـه لم يستطع إلحاق الضرر بالمسلمين، وعـاد إلى بلاده وبعد مضي وقت قصير، أي بعد انقضـاء الشتاء، قرر الملك هيتوم مجدداً الزحف ضد عين تاب للاستيـلاء عليها، غير أنه عندما وصل إلى برج الرصـاص اضطر إلى التـوقف، ذلك أن الشمس حجبتهـا الشمس الداكنة، وظلت محجـوبة لمدة خمسة أيام، وكـذلك بسبب الرياح العاتيـة والشديدة، ونظراً لغزارة الأمطار، فقـد كان من غير الممكن الخروج من الخيام، وقد لوحظ أن الفرسان والرجـالة كانوا يرتجفون من شدة البرد، ويعانون من رداءة المناخ، ونتيجـة لهذا تقرر الانسحاب، لكن على تعبئة خشية مواجهة أي طارىء، وكان هناك سيرجندي فرنجي اسمه مارتن، كـان من رجال الملك وأتبـاعه، وقـد خـاطب الملك بصراحة، وكـذلك توجـه بالخطاب إلى القادة الذين اجتمعـوا للتشاور حـول الأمر، وكـان بعضهم يتحـدث عن الرجـوع والانسحاب، وبعضهـم الآخر يعـارض ذلك، فقال هذا الرجل مخاطباً الحضـور:«أيها الملك، أيها الأمراء، أقيموا هذه الليلة خـارج خيـامكم ثم تناقشوا بعـد هذا حـول الذي ينبغي أن تقرروه، بالنسبة للبقاء، وبالنسبة للعودة».

واستنفـر الملك هيتـوم في العـام ذاته قـواته، وحشـدها للزحف مـرة أخرى ضد حلب للحصـول على أسرى ورهائن وأسلاب وغنائم، لكن الشتاء حال مرة أخرى دون تنفيذ مشروعه.

٧٧ — حملة مغولية — أرمنية لم تنجز

في عام ٧١٣(١٥ كانون الثاني ١٢٦٤ — ١٣ كانون الثاني ١٢٦٥) بعث الخان هولاكو واحداً من قادته على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل ضد منطقة البيرة الحصينة على الفرات، وكانت في أيدي المسلمين، وكان هذا القائد من قواد الألف حسب المراتب في الجيش المغولي، واسمه دوربا Durba ، وقام هذا القائد بطم خنادق المدينة، وألحق بها أضراراً فادحة، ودمر الحصن وجعل عاليه سافله، ثم بعث إلى الملك هيتوم يطلب منه الالتحاق به، واستجاب الملك وقام بحشد أتباعه وأهل بيته في قلعة تل حمدون، وكانت هذه القلعة هي التي اعتاد الملك على إقامة الحفلات فيها، وخلال أيام قليلة كان الملك قد أعد قواته وبات جاهزاً للالتحاق بالقائد دوربا، ولدى وصوله إلى مكان يدعى بامبكجور Bambkjor أرسل بمائتي فارس من قواته إلى دوربا، تمهيداً لحضوره هو شخصياً على رأس جيشه، وفي تلك الأثناء وصلت إلى الملك وإلى ابنه الأكبر ليون أخبار أفادت أن مولوداً ذكراً، قد ولد لليون في المصيصة في شهر كانون الثاني، وعندما وصلت هذه الأخبار الهامة، من ذا الذي يمكنه أن يصف الفرحة والبهجة التي عمت أوساط الملك هيتوم وابنه وبين أوساط الأعيان والشعب؟ وبالمناسبة نال عدد كبير من الجند ومن المرافقين ومن أفراد الأسرة المالكة ألقاباً راقية وشرفية وفروسية.

وعلم الملك بعد ذلك بأن دوربا قد انسحب من البيرة، لأن سلطان مصر قد حشد قواته لمواجهته، فعاد الملك إلى بلاده في جو بهيج.

٧٨ — حفل تعميد وترقية للأمراء

وجرى في هذا العام، وتحديداً في يوم ميلاد سيدنا يسوع المسيح، أي في يوم الأحد، تعميد بارون الأرمن ابن ليون، وتسميته في العاصمة

سيس في كاتدرائية سانتا صوفيا، وذلك من قبل القديس البطريرك كوستاندين، وقد أطلق عليه اسم كوستادين، وبسبب هذا الحدث السعيد، تم تقليد ولدي سمباط شارة الفروسية، وشملت الترقية الأرمنيين هيتوم وباسيل، الملقب تتار، كما كان هناك غيرهما، وجعلوا في الوقت ذاته من هذه المناسبة مناسبة احتفالات عديدة.

٧٩ — أصداء حملة مصرية على كليكية

وكان في العام ذاته قد قام سلطان مصر بيبرس البندقداري، وبرفقته القائد سم الموت(عز الدين أوغان) مع عدد من القادة، بحشد جيشه، واتجه زاحفاً نحو بلاد الكليكيين لإذلالها ونهبها، ومواجهة لذلك أعلن هيتوم ملك الأرمن الاستنفار العام هو وأخوته، وفوض إلى سمباط حكم الأماكن الحصينة في بابراون Paperawn وسمباطي كلي Smbaty Klay ، وأستاروس Astaros ، وفاركسيني Farxni ، وباباتول Papatul ، وسيك Sik ، وموراندين Murandin ، وكلف أوشين بإمرة حصون كيوريكوس Kiwrkos ، وميتيزاون Mitizawn ، ومانياون Manmawn، وكنج Kanc ، وبعض القلاع الاخرى الادنى أهمية، وكذلك على بقية الامراء والشعب، ثم زحف بقواته حتى وصل الى مكان يدعى باب أنطاكية، ثم تمركز هناك، واتخذ مواقعاً لقواته، وبقي ينتظر الكافر سلطان مصر، ووصل هذا السلطان هو الآخر إلى حدود أنطاكية ومعه جيشه ورابط على ضفاف النهر الاسود، وبقي هناك لأيام بث خلالها عيونه مع عدد من الجواسيس لجمع المعلومات سراً عن أوضاع الملك هيتوم وعن أوضاع كليكية، وفوجىء هؤلاء الجواسيس لدى دخولهم إلى بلاد الملك بالحشود الضخمة التي اجتمعت تنتظر المواجهة مع السلطان، ولما عاد الجواسيس الى معسكر السلطان، وأبلغوه بالذي شاهدوه خيم عليه الخوف، وقرر الانسحاب والعودة الى مصر، وهكذا استراحت قوات الملك الأرمني، وعادت هي الأخرى الى

مواقعها في الحصون والقرى حامدين للرب.

وفي ٢٦ كانون الاول من العام نفسه توفي أوشين، أخو الملك هيتوم وصاحب كيوريكوس، وحدثت وفاته في مدينة طرسوس، ثم نقل جثمانه الى سيس حيث دفن الى جوار المدفن الذي كان مخصصاً لأبيه.

٨٠— *هيتوم الأول يرفض التنازل عن بعض المواقع الحدودية:*

في العام ٧١٥ (١٤ كانون الثاني ١١٦٦— ١٣ كانون الثاني ١٢٦٧) أعاد سلطان مصر حشد قواته من جديد، وزحف باتجاه حصون الأخوة الرهبان الذين يرتدون معاطف تحمل شارة الصليب (من الداوية والاسبتارية)، وبعد ما استولى على أرسوف ثم صفد مع مناطق أخرى، زحف باتجاه كليكية، وفي طريقه توقف لعدة أيام في دمشق، ومن دمشق بعث سلطان مصر عدة رسل الى الملك هيتوم يعرض عليه رغبته في اقامة سلام معه، وأن يعم السلام في المنطقة بين الطرفين، وكان السلطان يرغب فعلاً في تحقيق السلام، غير أنه ربط ذلك بتسليمه بعض الحصون والقلاع الحدوية، لكن الملك هيتوم لم يقبل هذا المطلب لسببين: أولهما أنه كان يخشى من شعب الرماة (المغول) الذي سيقول قادته: لقد بات هيتوم تحت سيادة السلطان، لتنازله عن القلاع والحصون التي كان شعب الرماه قد سلمها له من قبل.

وثانيها:

إنه على الرغم من وضوح طلب السلطان وصوابيته بطلبه الحصول بشكل محدد على شيح الحديد، وقوله: «أعطني هذا الموقع لكي أتخذ منه سوقاً مشتركاً لنا ولكم»، على الرغم من هذا كله رفض الملك الطلب، حتى يتجنب الوقوع تحت سيطرة السلطان، إذ كيف كان له وهو الملك المنتصر، والمعروف بهذا اللقب أن يخضع لسلطان كان عبداً ابن عبد، ولهذا حشد قواته وتمسك بالرفض، وذلك على الرغم من خوفه

وخشيتـــــه، ولهذا أرسل الملك في منـاسبـــــات كثيرة إلى سلطان مصر شخصيـات بارزة محملة بالهدايـا الثمينة بهدف كسب ود السلطان، لكن السلطان رفض قبــول أي شيء، وظل مصراً على مطالبتــه بالحصــون والقلاع الحدوية، التي أشرنا إليها من قبل.

٨١- كارثة ماري

وتوجه السلطان بعد ذلك بجيشـه الى حلب، وهناك عهد بالقيادة الى واحد من كبار رجاله هو سم الموت، وكان معه الرجل الثاني (قلاوون) الألفي وذلك بالاضـــافـة الى سلطان حلب، ولقــد بعث بهؤلاء القـادة الثـلاثة لمواجهـــة قـوات الملك هيتـوم في كليكيـــة، ومكث السلطان في الوقت نفسه مرابطاً حيث هو.

وانطلق القادة الثـلاثة لتنفيذ مهمتهم، وقد وصلوا الى منطقـة اسمها نيقـوبولس في سفح الجبل الاسـود، وهناك نصبـوا مخيمهم، أمـا قـوات الملك هيتـوم فقـد انقسمت إلى ثلاثة أقسام: وكـان القسم الأول بقيـادة الملك، الذي توجـه ليطلب من شعب الرمـاة النجـدة والدعم، وتمركـز القسم الثاني في منطقة اسمها دورن Durn ، وقد توجب على القسم الثـالث التحــرك للتصـدي للمسلمين، وقـد وصـل هذا القسم في يوم الاثنين ٢٨ آب إلى المكان المسمى مـاري Mari ، وعسكر هناك انتظاراً لوصول المسلمين.

وفي فجر يوم الثـلاثاء اقتحم المسلمون مخيم المسيحيين الـذين تصدوا في البـداية للهجوم، لكن سرعـان مـا تراجعت قوات المسيحيين وفـرت دون مقاومة تذكر أو قتـال، تاركين في ساحة الوغى ولدي الملك، وهما: ليـون، بارون الأرمن مع أخيـه طوروس، وكانا قـد انسحبـا من الجيش المنهزم وانفصـلا عنه، ثم عاودا مجابهة المسلمين، فكان أن قتل طوروس في هذه الجولة من القتـال، وحـاصر المسلمـون ليـون بن هيتـوم، بارون

الارمن، وأسروه مع باسيل بن سمباط الملقب بتتار، وذلك بالاضافة الى رجل اسمه سيلارت Cilart ، وآخر اسمه أتوم Atom.

٨٢— *أعمال النهب المصرية لكليكية*

وبعد ما تم أسرهم، جرى نقلهم إلى سيس، حيث أودعوا السجن في أحد المعابد، وبعد مضي عدة أيام استباح المسلمون المدينة، ونهبوها وسلبوهاوخربوها، وأضرموا النيران في كل مرفق ومكان فيها، وعمت الحرائق وانتشرت في أرجاء المدينة، وكان هناك عدد لايمكن تعداده من القتلى والأسرى.

وبعد هذا هاجم المسلمون المناطق الحصينة بحثاً عن المدافعين المتبقين، ورفض هؤلاء الاستسلام، وعندما أدرك المسلمون أن الحاق الضرر بالحصن الأعلى بات مستحيلاً، توجهوا نحو السهول والمناطق الجبلية المشجرة ، فأحرقوها بعدما نهبوا موجوداتها، وجرى تجميع عدد كبير من الناس في مكان اسمه كيما Kema ، وفي مكان آخر اسمه بكنكار Beknkar ، وكان هؤلاء من النساء والأطفال، وقد تم الهجوم عليهم على مرأى الجميع من بني جنسهم، وقد حاول هؤلاء المقاومة، وذلك على الرغم من عجزهم، لكن المسلمون أشهروا سيوفهم، وشرعوا على الفور في تقتيلهم، وكان عدد القتلى كبيراً جداً، ويقال بأنه بلغ عشرين ألفاً في هذا المكان، وبعد هذا حمل المسلمون الأسرى الأحياء معهم، وانطلقوا عائدين عبر طريق غير الذي دخلوا منه، وراحوا إلى باب أنطاكية، حاملين معهم كل ما وقع في أيديهم، وقد باعوا شطراً من منهوباتهم وغنائمهم في أنطاكية.

٨٣— *اعتقال الأمراء الأسرى في مصر*

أخذ المسلمون، إثر ذلك، طريق العودة إلى مصر، حاملين معهم البارون ليون لتقديمه هدية الى السلطان، ولدى مشاهدة السلطان بارون

الأرمن وباسيل، عـدهما أثمن من الذهب ومن الفضـة، وحملهما إلى القـاهرة، وأسكنهما ومن معهما في نـزل صغير، وخصص لهما حـرسـاً وخدماً، وغمرهما بالتشريف والاحترام.

٨٤- بيبرس يبذل جهده في سبيل فداء سنقر الأشقر

ومـا أن سمع هيتـوم بخبر ما حـدث، حتى غـرق في أحـزانه، وتأثر قلبـه، ولم يعـد يعـرف مـا الذي عسـاه أن يفعله، ومع هذا وجـد الملك خـلال أيام الوسيلـة الموائمـة لتحـرير ابنه، فأرسـل رسـلاً إلى السلطان للوسـاطة في هذا الشأن، والسؤال عن إمكانيـة تسليمه ابنه، مقـابل أي طلب يطلبـه السلطان، هذا ولم يكـن السلطان على عجلة من أمـره، ولم يرغـب في اعطاء الحلول بسرعـة، ومع ذلك لم يقطع حبـل الحوار مع الملك، ولم ينقطع الملك من جانبه عن ارسال الهدايا.

وأضمر السلطان بيبرس في قـرارة نفسه فكرة سرية، مفـادها أنه كان له صديق حميم ومخلص، وكانا معا في قوات سلطان حلب عندما هاجمها هولاكـو، ولدى هروب من نجا من المذبحـة منها، وكـان بيبرس الذي أصبح سلطانا قد لجأ الى الفـرار هو وصديقه معا، غير أن صـديقه الذي امتاز بشهامة نادرة، آثر انقـاذ بيبرس، وفضله على نفسه، فأعطاه حصانا جيـداً، وأمن له سبل النجـاه، في حين توقـف هو في مكانه حتى أخـذه هولاكو أسيراً، وحمله إلى الشرق.

وبعـد هذا نجـح بيبرس من جهتـه بالوصـول الى سـدة السلطنة في مصر، وعندمـا وقع ليـون أسيراً بين يديـه، تذكـر أن الملك هيتـوم كـان بمثـابة المستشـار الأكثر صـداقـة مع الخان أبغـا، فبعث إليـه ليبحث له ويسأل عما إذا كان «خشـداشه» مـازال حياً، وقال لـرسل الملك هيتوم: «قـولوا للملك إنه إذا استطـاع أن يطلق سراح خشـداشي من بين أيدي شعب الرمـاة، وأن يعيـده إليّ، فإنني بالمقـابل سـوف أطلق سراح ابنه

ليـون»، وعندمـا بلغ هذا العـرض إلى الملك، بـدأ في تحضير هداياه، واستعد للسفر إلى الشرق لملاقاة الخان أبغا.

٨٥— سفارات أرمنية لدى الخان

وبناء عليـه حـدث في سنة ٧١٦ (١٤ كـانـون الثـاني ١٢٦٧— ١٣ كـانون الثـاني ١٢٦٨) أن ذهب الملـك هيتـوم إلى حضرة أبغـا خـان في الشرق، والتمس منه الافراج عن خشـداش السلطان بيبرس، الذي كان اسمه الحقيقي سنقر الأشقر، ورد عليه الخان بقوله: «إذا وجدته فسوف أعطيكه هدية»، فـانطلق الملك يبحـث عنه في كل مكان، وفتش في جميع الأرجاء عـن سنقر الأشقر، فلم يعثـر عليه، وأصـابه اليأس والارهاق، فقـرر العـودة إلى بلاده، ثـم بعث إلى السلطان بيبرس يخبره باستحـالة العثور على سنقـر، وكان جواب السلطـان: «إذا لم يجلب سنقر لي، فإنني لن أحرر ابنه».

وفي عام ٧١٧ (١٤ كانون الثاني ١٢٦٨— ١٢ كانون الثاني ١٢٦٩) قام الملك هيتوم، بعد تدارس القضيـة مع أخوته، بايفاد الأمير ليون بن سبارابتSparapet إلى أبغـا خان، ليطلب منه السماح له بالتجـول في المعسكرات، وداخل المحـلات السكنيـة البعيـدة للبحث عن سنقـر، وقـد سمح الخان له بذلك، وأمـر بفـرز مجمـوعـة من الجنود لمرافقتـه، واستطاع ليون ورجاله أن يعثر على سنقر، وقد حملوه وأحاطوه بالعناية، وقدموا الشكر للخان، ثم عـادوا به الى كليكية، وعند وصوله إلى سيس بعث إلى السلطان بيبرس يخبره بتحقيق طلبه.

٨٦— احتلال بيبرس أنطاكية

حشـد السلطان بيبرس قـواته كلهـا، وهاجم مـدينـة طرابلس بكل عنف، وألحق بها أضراراً بليغة وكثيرة، ثـم قاد جيشه بشكل مفـاجىء، وسـار به خمسـة أيام بدون توقف في أثناء الليل وخـلال النهـار، حتى

انقض على مدينة أنطاكية المشهورة، وسيطر عليها خلال ثلاثة أيام، وكان فتحه لها يوم السبت السادس من أيار، وما من أحد يمكنه تقدير المذبحة التي ارتكبت في أنطاكية ولا عدد الأسرى، ولاحجم الثروات التي حملها المصريون إلى بلادهم، ولقد كان— والحق يقال— من بين القتلى أعداد كبيرة من أصول أرمنية، هذا وأمر السلطان بإعادة الناس الذين كانوا قدموا من كليكية إلى بلادهم، وسمح لهم بالمغادرة، كما سمح لأمير أنطاكية ولأسرته بالمغادرة دونما قيود إلى أنطاكية، وجدير بالذكر أن هناك من يقول بأن هذه المدينة قد وقعت في أيدي السلطان بسبب هذا الأمير، والله وحده الذي يعلم الحقيقة.

٨٧— *مبادلة الأمير ليون بسنقر الأشقر*

وعندما قرر السلطان العودة إلى مصر عبر أنطاكية، طلب من الملك هيتوم ارسال رهينة له لمبادلتها بابنه ليون، من أجل أن يقوم بتحرير هذا الأمير، مقابل سنقر الأشقر خشداش السلطان، وبعث الملك أوشين ابن أخته، وريموند زميل أوشين، وفاساك Vasak صاحب كنكي Can-ci، وكان ابنا لكوستاندين والد الملك، وفور وصول هؤلاء إلى السلطان، أفرج عن ليون بارون الأرمن، وعاد ليون إثر ذلك إلى كليكية محملاً بكثير من الهدايا، وجرى استقبال ليون من الشعب الأرمني بالفرح الكبير والابتهاج، وبعد مدة وجيزة حمل ليون سنقر الأشقر إلى حضرة السلطان، الذي فرح به كثيرا، وعظم سروره لدى رؤيته صديقه الحميم، وأعطى الأمير ليون إلى ابن سمباط الكثير من الهدايا الثمينة، وجرى استرداد الرهائن والعودة إلى كليكية.

٨٨— *تنصيب يعقوب الأول بطريركاً*

وعقد الملك هيتوم في العام ذاته اجتماعاً كبيرا ضم الأساقفة، والحكماء والأعيان الذين قدموا من الشرق إلى كليكية، وكان الاجتماع

في مـدينة المصيصـة، وقد أصـدر أوامـره بضرورة اختيـار الرجل الموائم ليرأس الصرح البطريركـي، ووقع اختيـار الملك على الحكيم يعقـوب، ووافق على ذلك مجلس الأسـاقفـة، وبنـاء عليـه جـرى تعيينه بطريركـاً، وكرس جـاثليقاً للأرمن باسم القديس سرجيوس، وكـان ذلك في الثاني عشر من شباط.

وقد حصل هـذا التنصيب عندما كان ليـون بارون الأرمن أسيراً عند المصريين، وقـد تحرر فيما بعد، كما ذكـرنا من قبل في شهـر حـزيران من السنة نفسها.

٨٩— زلزال عام ١٢٦٩

في عام ٧١٨ (١٣ كـانون الثاني ١٢٦٩— ١٢ كـانون الثاني ١٢٧٠) تعـرضت كليكيـة إلى زلزال عنيف دمـر العديـد من القرى، خـاصـة في سفح الجبل الاسـود، كما حـول الكثير من المنـاطق الحصينة إلى أطلال، وجرى تدمير حصن سافانديكار Savandikar ، حيث قتل السكان جميعـاً، وفي دير أركأكلين مـات الكهنة والرهبـان تحت أنقاض الأبنيـة، ودمـرت الكـارثة في المنطقـة الجبليـة عـدداً كبيراً من القـرى، وقلبت الأماكن عاليها سافلها، كما دمرت مناطق أخرى من بينها حصن دلنكار Delnkar .

٩٠— وفاة هيتوم الأول وابني القائد سمباط

وتوجـه في السنة نفسها ليـون، بارون الأرمن، إلى الشرق، للقاء أبغـا خـان، الذي استقبله بكل احترام وتقـدير، وحمله الكثير من الهدايا لدى عودته إلى كليكية، وفي السنة نفسها، في ١٥ تموز توفي هيتوم ابن الوكيل الملكي للارمن، ودفن في دير القـديس مليك Mlic ، وفي ٢٩ إيلول من العام ذاته التحق باسيل ابـن القائد سمبـاط بالمسيح في طرسوس، ودفن في دير القـديس مليك، وفي يوم الثـلاثاء ٢٩ تشرين الأول من العـام

نفسـه، وعند غـروب الشمس غـادر هيتـوم ملك الأرمـن هذا العـالم، والتحق بأجـداده، وذلك عندمـا وافـاه الأجل في برجـربيرد، في قـرية أكنير، ثم جـرى نقل جثمانه إلى الدير المقـدس في درازارك، ودفن في كنيسـة القديس البطريرك غـريغـور، وكان أثنـاء وفاته قـد اعترف بأنه أرثوذكسي، وانتسب إلى الدين القويم باسم ماكير Macaire

٩١— *استلام ليون الثالث للعرش*

في عام ٧٢٠ (١٣ كـانون الثاني ١٢٧١— ١٢ كـانون الثاني ١٢٧٢) تمّ بتـاريخ ٦ كانون الثـاني تنصيب ليـون الثالث ابن الملك هيتـوم ملكاً على الارمن، وقـد جرى ذلك في مـدينة طرسوس، في كنيسـة سانتـا— صـوفيـا. وكـان ذلك وسـط حفل بهيج، حضره ممثلو جميـع الأمم المسيحية، ذلك أنهم أصروا على المشـاركة في هذه الأفـراح التي تستحق الحضور والمشـاهدة، وقد حظيـت هذه الاحتفالات بحضـور عدد كبير من الاشراف، وشهدت المناسبة الافراج عن عدد كبير من السجناء، كما جرى تحرير العديد من قيودهم.

وبعـد مضي أيام قليلـة حيث انصرفت الجمـوع بعـد انقضـاء الاحتفـالات، وذهب كـل واحـد إلى بلاده، توجـه الملك ليـون بزيارة شخصيـة إلى ايزورا، من أجل تفقـد المنطقـة، ثم عـاد إلى اقليمـه بكل سرور.

٩٢— *تهديد جديد بحملة مصرية:*

تحرك في السنة نفسهـا سلطان مصر، بيبرس البندقـداري من جـديد للهجوم على كليكية، غير أن الملك ليـون أوفد إليه بعثة بمهمـة خاصة، جعلته يعود إلى بلاده مصر.

هذا وقرر الملك ليـون من جانبـه التوجه إلى الشرق لزيارة أبغـا خان الذي استقبلـه واعتنى به، وقـدم له هـدية تمثلت بعشرين ألـف رجل

ليأخذهم معه إلى بلاده من أجل تعزيز الدفاع عنها، على أن يقوم الخان بزيارة بلاد كليكية بعد بضعة أشهر، هذا ولم يصطحب الملك ليون معه سوى عدد قليل من الرجال، ثم عاد إلى بلاده.

وقدم في العام ذاته ملك من ملوك الفرنجة اسمه ادوارد، على متن سفينة، ونزل في عكا، ومعه ألفي رجل، وقد توقف في المدينة منتظرا وصول ملوك آخرين مع أتباعهم.

وفي العام نفسه، في شهر تشرين الاول منه، ولد للملك ليون طفل ذكر، وكان ذلك في مدينة سيس، حيث عمت الأفراح جميع الأقاليم الخاضعة لسيطرته.

٩٣— *أحداث مختلفة*

في عام ٧٢١ (١٣ كانون الثاني ١٢٧٢— ١١ كانون الثاني ١٢٧٣) جرى في اليوم الذي ولد فيه سيدنا ومولانا سقوط ثلج عظيم، وفي يوم كانون الثاني تساقط الثلج فوق العاصمة سيس، ثم غطى بلاد كليكلية كلها حتى شواطىء البحر.

وتوفي في العام نفسه، والشهر ذاته الحكيم القديس كيراكوس Ki-rakos، والتحق بالمسيح، وحزن الناس والأعيان عليه.

٩٤— *مؤامرة ضد ليون الثالث*

وحدث في السنة نفسها، أن كانت امرأة خليلة للملك هيتوم اسمها مريم، وكانت منحدرة من أصل مسلم، وقد تآمرت مع بعض الناس لاغتيال الملك ليون، بوساطة دس السم القاتل له، وانتظر المتآمرون المناسبة الموائمة لتنفيذ العملية، لكن قدرة الرب تدخلت، وسببت كشف المؤامرة والتحضيرات الاجرامية للمرأة، وكان ذلك عن طريق صبي في الحادية عشرة من عمره، وهكذا نجا الملك من الموت، ومن

آثار هذه المؤامرة، ولم يقم الملك بمعاقبة هذه المرأة ولا المتواطئين معها بالعقاب الذي استحقونه، واكتفى بأن يكون سمحاً ورحيماً.

وأمر الملك ليون في العام نفسه ببناء حصن عظيم في لحف جبل طوروس مقابل قبرالقائد المقدام أندريه، وعلى مسافة مسير نصف يوم، وذلك من أجل ضمان الدفاع عن هذا المعلم، ولحراسة الطريق الشهيرة Xozjorوقد نجز بناء الحصن في العام نفسه، وأطلق عليه اسم حصن كتاريك Katreac .

وجرى في العام نفسه تعميد ابن الملك في العاصمة سيس، وكان ذلك على يد البطريرك السرياني أغناطيوس، وأغناطيوس هذا هو الذي تلقى الطفل لدى خروجه من طقوس التعميد، واختار له اسم طوروس، مثل عمه الذي كان قد قتل على أيدي المصريين في إحدى المعارك.

٩٥— *محاولة اغتيال ادوارد الأول*

عبر في العام نفسه واحد من عبيد الملك ادوارد البحر، ووصل الى عكا، وقد تمكن من التسلل إلى محيط الملك، وكان ذلك في أحد الأيام حيث جلس الملك بمفرده، مرتديا سترة ناعمة، وكان ذلك بعدما أمر بانصراف خدمة من حوله، وهنا اقترب هذا العبد من الملك، وتوجه نحو أذن الملك، وأوهمه أنه يريد أن يهمس في أذنه سراً من الاسرار، وسحب في تلك الأثناء خنجره، ثم وجه ضربة أولى إلى صدر الملك، وحاول الملك أن يمد يده اليمنى الى سيفه، فعاجله العبد بطعنة ثانية، وضربه مجدداً بسلاحه..

حواشي التاريخ المعزو إلى القائد سمباط الأرمني

١— قلعة بابيروان، يعتقد أنها قلعة كاندير Candir ، وتبعد نحو عشرة كيلو مترات عن لامبرون في الجنوب الغربي منها.

٢— اسم قلعة لامبرون بالتركية نامرون، على بعد ٤٠ كم من طرسوس إلى الشمال الغربي منها.

٣— المعروف عن هذه القلعة أنها كانت موجودة في كليكية الغربية،

٤— على مقربة من عين زربة.

٥— وقع هذا الدير على الضفة اليمنى لنهر الفرات إلى الجنوب من كيسوم.

٦— اسمها الحالي جيبين Geben، وقد قامت على نهر جيحان وعلى بعد ٤٠ كم عن مرعش.

٧— هي قلعة سافوران الحالية، وكانت واقعة كما يدل اسمها— «صخرة ساراوند»— على أبواب الأمانوس، على بعد حوالي ١٥كم إلى الغرب من حصن بيلي Hasanbeyli .

٨— وقعت هذه القلعة خلف بلدة بياس، على الطرف الشرقي لخليج اسكندرونة.

٩— معلومات سمباط عن صلاح الدين وتاريخ الدولة الأيوبية ضعيفة ولايمكن الأخذ بها.

١٠— خلط المصنف ما بين أرناط، وريموند الثالث صاحب طرابلس.

١١— كان الداهكان الأحمر يعادل ديناراً ذهبياً عربياً واحداً.

١٢— قلعة وقعت إلى الغرب من سلوقية، على مسافة ٣٠ كم منها.

١٣— نهرصــو هو النهــر الأســود، وشكل الحد الـذي فصل بين الممتلكات الأيوبية ودولة كليكية، هذا وتعلق الأمر هنا بالملك الظاهر غازي صاحب حلب.

١٤— كـان هذا هو الدير الأكثر شهـرة في كليكية، ووقع غير بعيـد عن سيس في سفح جبل طوروس، وذلك قـرب حصن كوبيتـار Kopltar الحصين، وكان هذا الديـر قـد بني— أو رمـم— في بداية القــرن الثـاني عشر مـن قبل طوروس الأول، وقد شغل دور المقر البطركي، والملكي أيضاً، وقـد دفن فيه عدد من رجال الدين والسلطة، هذا وتقــرر أن حصن كـوبيتـار قــد وقع إلى الشمال الغـربي من سيس، وعلى مسافة ١٥كم منها.

١٥— كان دير أركأكلين موجوداً في ضواحي سيس، على الجبل المواجه لها.

١٦— كان دير أريغ يوجد— كما هو محتمل — على مقربة من كابان، في أعالي وادي جيحان.

١٧— كان دير سكيـورا موجود أعلى بعـد عدة كيلومترات في الجنوبي الشرقي من لامبرون وقد استخدم مدفناً للأعيان.

١٨— كـان دير مليك مدفناً للعـديد من أعيـان الأرمن، وكان على مقـربة من قلعة بابيروان بالقرب من طرسوس.

١٩— كانت قلعة سيمانيكي على مقربة من عين زربة.

٢٠— وقعت قلعة كوتاف في وسط وادي جيحان.

٢١— كنك هي كوكور حصار Cukurhisar على مقربة من زيتون.

٢٢— على مقـربة من زيتون، وإلى الغـرب منها، واسمهـا الحالي فيرنيس Fir- nis.

٢٣— هي كانكي Canci إلى الغرب من كنك.

-٣١٠٠-

٢٤— وقعت قلعة سولاكان إلى الغرب من كابان.

٢٥— قلعة وقعت في وسط وادي جيحون

٢٦— على بعد ٢٠ كم إلى الجنوب الغربي من عين زربة.

٢٧— قلعة قامت على بعد ١٠ كم إلى الجنوب من المصيصة.

٢٨— قلعة قامت إلى الغرب من سيحان، على بعد أميال من كوريبيتار، وإلى الشمال الغربي منها.

٢٩— قلعة مولوفونهي بالفعل قلعة ميلفان Milvan ، قريبة من سيحان، وعلى بعد ١٥كم إلى الشمال الغربي من جولك بوغازي Gulek Bogazi .

٣٠— كوكلاك هي قلعة جولك عند مداخل كليكية وكبدوكية، على بعد أميال من لامبرون، وإلى الشمال الشرقي منها.

٣١— وقعت قلعة سيويل على بعد ٨٠ كم إلى الغرب من سلوقية التي كانت حاضرة كليكية.

٣٢— وقعت مانياون إلى الجنوب الغربي من قرمان.

٣٣— قلعتان قريبتان من بعضهما، ووقعت ألار إلى الغرب من مرسين.

٣٤— كانت ألبستان قلعة تقع عند ينابيع نهر جيحان.

٣٥— أخطأ المصنف باشارته إلى حضور العادل، ذلك أن العادل كان متوفى، وكان سلطان مصر آنذاك الكامل بن العادل، ومرت بنا من قبل أخبار الحملة الصليبية الخامسة بكل تفاصيلها.

٣٦ — خطأ صوابه نهر الدجلة.

٣
رسائل صليبية من الأرض المقدسة
(١٢٨١)

تعــود الأصــول المخطوطة، التــي اعتمــدت عليهــا هذه الترجمة إلى مجموعة تعرف باسم: «الرســائل الملكية»، وهي محفوظة في مكتب حفظ السجلات الملكية، وتتألف هذه الاصــول من رسالتين، أرسلت الرسالة الأولى من قبل السيرجوزيف دي كــانسي، الذي كان فارساً من فــرسان مشفى القديس يوحنا في القدس، إلى الملك أدوارد الأول، وحملت هذه الرســالة إلى الملك «أخباراً من ســورية»، أما الرســالة الثانيــة فكانت من الملك ادوارد إلى السيرجوزيف، يشكره فيهــا على التقرير الذي قــدمه له بشأن تطور الأحداث في الأرض المقــدسة، وقــد جرى كتــابة الرسالتين على الرق، ووضعها الخارجي ممتاز، وتشكلان تحفة فنية بالنسبة للخط، لكنهما لســوء الاستخدام طوال العصــور كادتا أن تفســدا حتى بات من الصعب قراءتها بشكل صحيح، ولهذا جــاء نسخهما بعد صعوبات جمة، وتاريخ هاتين الرسالتين مرتبط بأواخــر أيام الوجود الفرنجي في سورية واحتــلال بعضها، وكتبت الرســالة في المدينة التي قدر لها أن تكون بعــد سنوات قليلة مسرح آخر الصراعات الحادة بين المسلمين والفرنجة.

إنها مــدينة عكــا، التي عــرفت باسم عكــو لدى الفينيقيين، ثم أطلق عليها الاغريق اسم بطليمياس Ptolemias ، وبعد هذا عرفت بالعربية باسم عكا، ذلــك أنها فتحت من قبل العــرب المسلمين في سنة ٦٣٦م، وبعــد هذا بقرون استــولى عليهــا الصليبيون بقيــادة بلدوين الأول سنة ١١٠٤، وكــان بلدوين أول ملوك اللاتين في القــدس، وقــد استردها صــلاح الدين من أيدي الفــرنجــة ١١٨٧، ثم عــادت واستسلمت لرتشــارد قلب الأســد والملك فيليب أغسطس سنة ١١٩١، وقــد بقيت منذ ذلك التــاريخ حتى سنــة ١٢٩١ بأيدي الصليبيين، حيث صــارت مقراً لمملكة القدس.

وحمل في سنة ١٢٣٦ الايرل رتشــار أوف كــورنوول شــارة الصليب وشاركــه في ذلك عدد من النبلاء الانكليــز، وكان من بين هؤلاء الايرل

مـارشـال، وإيرل تشستر وسـالسبري، والسير رالف لوسي، والسير رتشارد سيوورد، وقد تأخرت مغادرة هؤلاء نحو عكا حتى أحد الشعانين في سنة ١٢٤٠، وقد وصل الايرل رتشارد إلى عكا في ١١ تشرين الأول، غير أن إقامته في الارض المقدسة كانت قصيرة جداً، حيث عقد هدنة مع سلطان القاهرة، ثم قام في الثالث من أيار من السنة التالية بمغادرة عكا، وذلك بعدما متن تحصينات قلعة عسقلان، وجمع عظام الصليبيين الذين قتلوا في الحرب، وتولى دفنهم في مقبرة بناها على حسابه الشخصي، وقد نزل في طريقه في صقلية، ووصل بعد هذا إلى انكلترا في اليوم الأول من شهر شباط لسنة ١٢٤٢، وكان من بين الفرسان الذين رافقوه: السيرهيوويك، والسير روبرت مارميون، والسيربيتر دي بروس، والسير غويسكارد ليديت Leideit، والسير يوستاس دي ستوتفيل Stuteville ، والسير هاموبكشي Ham-opecche، والسيربلدوين دي بيتون Bettuen ، والسير جـون فتزجون، والسير جونفتزجون، والسيرجون بيوليو Beaulieu، والسير جيرارد فورنفال Furnival ، وغيوفري أخو الإيرل رتشارد، وعدد كبير آخر، كانوا قد هلكوا في هذه الحملة.

وجرى في سنة ١٢٥٢ جلب عظام وليم صاحب السيف الطويل، ايرل سالسبري إلى عكا للدفن فيها، وكان قد قتل في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠.

وفي سنة ١٢٦٨ حمل الأمير ادوارد الانكليزي شارة الصليب، وفعل ذلك معه ابن عمه هنري، وابن الايرل رتشارد، وعدد كبير من اللوردات الانكليز، وتم تدبر قرض مالي قدره ٣٠,٠٠٠ مارك من الملك لويس ملك فرنسا، مقابل رهن موارد بوردو، وكان الهدف من ذلك الانفاق على الحملة الصليبية، وانطلق الأمير من بورتشمورث في أيار ١٢٧٠ ومعه زوجته الأميرة اليانور، وفي بوردو أقلع معها على ظهر

اسطول كـان ينتظرهما في ايغوس — مـورت Aigues- Mortes — وكـان وقتها ميناء بحـريا مع أنه الآن جـزيرة بسبب تراجع البحر عـدة أميال— بغية الالتحاق بالملك لويـس أمام تونس، ومات الملك الفرنسي يوم ٢٥ آب من السنة نفسها، وتخلى ابنه فيليب الجرىء عن الحصار بعد ذلك بوقـت قصير، ورجع إلى فـرنسـا، وبذلـك ترك الأمير ادوارد بلا تأييـد، وكـان هذا الأمير مصراً على الاستمرار، حتى أنه عنـدما حـاول أحدهم ثنيـه عن قراره، ضرب صدره، وأقسـم «بدم الرب»،بأنه سوف يذهب إلى عكا، حتـى لو هجـره الجميع وتخلـو عنه، باستثناء غـلامـه فووين Fowin، وتعرض الأمير في سنة ١٢٧٢ لمحـاولة اغتيال، وقتل المهـاجم، وجـرت معالجة الأمير الجريح، حيـث قامت زوجتـه اليـانور بلعق السم من حول جـرحه بلسـانها، والتأم الجرح فيها بعد، ولم يحدث للزوجة أي ضرر.

وعـانى الجيش الانكليـزي من مصـاعب كبيرة، فقـد تخلى عنه جميع الحلفاء، وفتك المرض بأفـراده، ولم تصل أية مؤن من فرنسـا، لهذا وجد الأمير ادوارد نفسه مرغماً على عقد هدنة مع السلطان لمدة عشر سنوات، وعشرة أشهر، وعشرة أيام، وعاد إلى انكترا عبر ايطاليـا وفرنسا، وكان والده قـد توفي في تلك الأثناء، وأعلن هـو ملكاً، مع أن الناس كـانوا لايعـرفـون فيما إذا كـان حيـاً، ذلك «أنـه ذهب إلى بلاد بعيـدة، قـائمـة فيماوراء البحار،من أجل حرب أعداء المسيح».

واستحـوذ السلطان بيبرس على العـرش، بعدمـا قتل بيـديه السلطان المظفر قطـز في أثناء الصيد، ومالبـث بعد هذا أن خرق الهدنـة، وقام— حسبما جاء في مخطوط أرمني قديم— بـاجتياح سهل أرمينيا، فجعل كل من لقيـه طعمـة للسيف، حيث بلـغ عـدد القتلى أكثـر من مـائتي ألف، والأسرى أكثـر من عشرة آلاف، وعـدد الخيـول والحيـوانات الأخـرى مـايزيـد على ثلاثمائـة ألف رأس، وأرغم ملـك أرمينيـا على التراجع إلى

الجبال، ولجأت أعداد من رعيته إلى الفرار بحراً، وكذلك فعل عدد كبير من التجـار ومن الذين نجـوا من المسلمين، غير أنهم وقعـوا في أيدي القرصان واللصوص.

ويحكى أن السلطـان بيبرس نـال في سنـة ١٢٧٦ نصراً عظيماً على المغـول الذين قادهـم منكوتمر— أخو أبغـا خـان، حاكم المغـول— مع حليفه ليـون الثاني ملك أرمينيا، وحـدث ذلك في سهول حمص،غير أن مـؤرخاً أرمنيـا من القرن الثـالث عشر هو الراهب هيتوم، حفيـد الملك هيتـوم الأول، وسلف ليون الثـاني على عـرش أرمينيا، وكـان أثيراً عند البابا كليمنت الخامس، حيث منحه ديراً في بواتيه، ليتمكن وهو مرتاح، من الكتـابة عن عجـائب البلـدان، التي كـانت المعلومـات وقتهـا قليلة عنها، قال في كتابه «خلاصة تواريخ الشرق» بأن بيبرس قد هزم في هذه المعـركـة، لكنه مـالبث أن تعـافى مما عـانى منه، وأنه جـرت بعـد أربع سنوات معركـة أخرى قرب ضريح خالد بن الوليـد بين خليفة بيبرس، السلطان الملك المنصـور قـلاوون والمغـول بقيـادة منكو تمر وأبغـا، وأن المعركـة استمرت من الصباح حتـى المساء، وكانت النتيجـة— تبعاً لهذا المؤرخ— هزيمة كاملة للمغول، وطرد لهم من البلاد، وكان من نتائجها أن منكوتمر قد توفي بعد أمد قصير، بسبب غمه.

ومن المفترض أن هذه المعـركـة هي الموضـوع الـرئيسي الذي جـرى الحديث عنه وروايتـه في الرسـالـة التي بعث بها جـوزيف دي كـانسي، الذي يبـدو بأن الأمير ادوارد قـد عهد إليـه بمهمـة تزويده بالمعلومـات حـول الأحـداث التي كـانت تقع في فلسطين، وذلك بعـد مغـادرته شخصياً للأرض المقـدسة، ولاتحمل الرواية عن المعركة المعـروضة هنا، تأكيداً بأنها انتهت بنصر عظيم للسلطان لكن حسبما وصفهـا دي كانسي وقصهـا، هناك شيء من التلوين فيهـا لصـالح المغـول، لأن الاسبتـارية كـانـوا قـد عـانـوا كثيراً في تلك الآونة على أيدي المسلمين، لاسيما على

أيدي السلطان بيبرس، مع أنهم برهنوا على شجاعتهم في قتالهم ضده، وهو الذي بات مرعباً جداً الصليبيين في الشرق، ففي سنة ١٢٦٨ سقط تسعون من جنود الصليب هؤلاء ، واحداً تلو الآخر في الدفاع عن قلعة أرسوف، وصمد في السنة التالية قسم منهم في بلدة أخرى لمدة شهرين ضده، فكان أن قتلوا جميعاً ولم يسلم منهم أحدا، وكان مقدم الاسبتارية الذي ذكره دي كانسي هو نيكولاس لورغ Lorgue ، وهو الذي قاد الاسبتارية، أثناء الدفاع عن قلعة المرقب، التي وقعت على مسافة قريبة من ساحل البحر،وقد جرى الاستيلاء عليها من قبل قلاوون بعد حصار دام ثلاثة وثمانين يوماً، وكان فتحها في شهر حزيران لعام ١٢٨٤، ويبدو أن أسرة دي كانسي كانت بين الأسر المعروفة، فقد عين الملك ستيفن وولتر دي كانسي بارونا لمقاطعة كانسي، وخلف وولتر هذا ابنه أوفرد Aufrid ، وكان آخر بارونات هذه الأسرة سيمون دي كانسي، الذي تولى تحصين أراضيه لدى ثورته ضد الملك جون سنة ١٢١٥، وظهر اسم الأسرة في العهود التالية مراراً في أعمال محاكم التفتيش التي تعلقت بشكل رئيسي بأراض في لنكولنشير، ويوركشير، ففي إحدى القضايا التي عرضت في يورك سنة ١٣٠٤، ورد ذكر توماس دي كانسي على أنه بارون سكيربنبيك Skirpenbeck .

ووفقاً لما أورده المؤرخ قطب الدين اليونيني، باتت أخلاق بيبرس بعد الحوادث المذكورة آنفاً، أخلاق ملك يمكن مقارنته بنيرون بشراسته، وبقيصر بشجاعته، ولكي يتجنب نبوءة قالت بأن أميراً كبيراً سوف يموت في تلك السنة، أتى بأمير من أسرة صلاح الدين، هو الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك، وكان أميراً شجاعاً، أثار بشجاعته غيرة بيبرس، وعمل على سمه، وقد جرى ترك بقية الخمر المسموم في حُجرة السلطان بسبب الاهمال، فشرب منه بدون أن يعرف، فأصابته الحمى على الفور، ومرض ومات في قلعة دمشق في أيار عام ١٢٧٧،

ويحكى بأنه قتل ٢٨٠ من الأمراء لأنه شك بهم في أنهم حاولوا قتله، وجرى ذلك في أربع مناسبات.

وحكم قلاوون من بعده مدة أحد عشر عاماً، كانت كلها نجاحات متوالية ضد الفرنجة والمغول، وكان آخر نجاحاته الاستيلاء عنوة على طرابلس التي تولى إحراقها، ثم أعاد بناءها فيما بعد، وقد توفي سنة ١٢٩٠، وهو على نية الزحف ضد عكا، وكان قد قرر الانتقام لقتل بعض التجار المسلمين فيها، وقد توفي في خيمته خارج أسوار القاهرة ليلة الثاني من ذي الحجة، وجاءت وفاته بعدما أوصى ابنه الأشرف خليل أن لا يدفنه حتى يكون قد جعل من ذاته سيداً لعكا، وكان قلاوون شخصاً بهي الطلعة، وعظيم الاحترام، وقد قال بعضهم بأنه توفي نتيجة دس السم له من قبل واحد من الأمراء، وذكر المقريزي خبر وفاته، وأوضح أن ذلك قد حدث بعد إصابته بالحمى نتيجة مرض استمر عدة أيام.

أخبار من سورية

«إلى السيد الأكثر سمواً ورفعة وقوة، مولاي إدوارد، الذي هو بنعمة من الرب، أعظم الملوك جدارة، ملك إنكلترا، وسيد إيرلندا، ودوق أكوتين، الذي الأعلى والأدنى عبيده، يقوم جوزيف دي كانسي الراهب المتواضع في بيت مشفى القديس يوحنا للقدس، المقيم في عكا، بالركوع في خدمة معاليكم، ويرسل تحياته.

التزاماً بما أمرتنا به سيادتكم الجديرة بالتقدير، في متابعة إرسال أخبار الحوادث التي تقع في الأرض المقدسة، نعلمكم يا مولاي، أنه بعد قدوم مقدمنا من طرابلس في نهاية شهر تشرين الأول، حسبما أخبرناكم برسالتنا التي كتبناها أثناء عبور الصليب المقدس، بأن حشود التتار وحشود المسلمين اقتربت من بعضها كثيراً، وبالنسبة للمسلمين فقد

باتوا بين رجالنا ورجال المغول، ولذلك لم نتمكن لانحن ولا أمير(أنطاكية، بوهيموند السابع) — ملك قبرص(هيو الثالث) لم يقدم بعد — من الالتحاق بالتتار، كما أنهم لم يرسلوا إلينا كي نلتحق بهم، بعد استقرارهم، وقسّم السلطان جيشه الذي تألف من خمسين ألف من الخيالة إلى ثلاثة أقسام، ووقف هو نفسه مع القسم الأوسط، الذي يدعونه بالقلب حسب عاداتهم، وكان سنقر الأشقر صاحب صهيون وتخومنا العائدة للمرقب، قائد الميسرة، وتولى قيادة الميمنة تركي شجاع اسمه عز الدين أيبك الأفرم، ولدى رؤية التتار لصفوف المسلمين قاموا أيضاً بتقسيم قواتهم، التي بلغ تعدادها أربعين ألف خيال، إلى ثلاثة أقسام أيضاً، لأن قائدهم كان قد أرسل بقية رجاله إلى أخيه الأسن منه أبغا، الذي كان يزحف خلال البرية، متصوراً بأن أبغا سوف يصل إلى دمشق قبله، وكان في واحد من هذه الأقسام الثلاثة ملك أرمينيا، مع قواته وألفين من التتار، وألف جورجي، وتركي اسمه سنقر، صار تترياً، وهذا كان أيضاً مع جماعته التي بلغ تعدادها ثلاثة آلاف من رجال بلاده، الذين جلبهم من تركيا، والذين دعوا أنفسهم تتاراً، وما أن عبأ ملك أرمينيا قواته وصفّها حتى ألقى بنفسه على ميسرة المسلمين، فحطمها وسبب هزيمتها حتى أن قليلاً منها هم الذين نجوا من السيف، وما كان لهذه الميسرة أن ينجو أحد منها لولا عدم إخلاص سنقر الذي هرب مع معظم أتباعه من دون أن يوجه ضربة أو يتلقى مثلها، وكان قائد ميمنة المغول منكوتمر، وكانت هذه الميمنة تواجه عن قرب ميمنة السلطان، وكان في الميمنة المغولية عشرة آلاف تتاري وذلك دون أن نحصي تعداد حلفائهم، ولقد هزم منكوتمر هذه الميمنة، لكن هذه الهزيمة لم تكن بالدرجة نفسها التي نزلت برفاقهم في الميسرة، وبالتالي لم تكن هزيمة كاملة، وألقى منكوتمر، الذي كان شجاعاً، وجريئاً، وفارساً معتمداً، بنفسه مع المتبقي من شعبه، على القسم الذي كان فيه السلطان، ثم تبع ذلك مذبحة هائلة، واستمر القتال من قبل

الساعة الثالثة حتى غياب الشمس، وحدث الآن أنه لولا قدرة السلطان وصبره، وحكمته وشجاعته لكان مصيره مثل المصير الذي لاقته الميسرة، ففي وسط المآسي التي أحاطت به، ولدى رؤيته الشرور التي أحاقت برجاله حيث قتلوا، وشرع بعضهم بالفرار، أمر بأبواقه فزعقت وبنفره فصوتت، فتحلق حوله الذين ظلوا أحياء، وبدون هؤلاء كان معرضاً للدمار، والذين أطاعوا نداءه من بين جميع قواته كانوا ستمائة رجل فقط، وكان قد خيل للتتار بأن المسلمين قد هزموا تماماً، ولذلك اندفعوا نحو السلب والنهب، واستولوا على خيم السلطان وعلى خيم بقية المسلمين، كما وحصلوا على كميات هائلة من الأسلاب، ما من أحد قادر على تقويم قيمتها تماماً، وكان قد تبع الجيش أعداد كبيرة من السوقة والعامة، فحولوا بذلك المعسكر إلى ما يشبه المدينة المليئة بالناس، وقد قتل من هؤلاء عدد كبير جداً من غير الممكن معرفة قدره وتعداده، وحصل التتار على كميات هائلة من الأسلاب بسبب سرعة تحركهم المذهلة، ولجشعهم العظيم كرجال، فقد امتطوا خيول المسلمين الذين ماتوا، وكانت أفضل من خيولهم، وتركوا خيولهم التعيسة خلفهم، واعلم يا سيدي مايلي: الذي يعد أمراً مدهشاً جداً، إنه لم يكن من الممكن معرفة كمية الغنائم التي أخذها كل طرف من الطرف الآخر، كما أنه من غير الممكن القول من قبل أي إنسان، من هو الذي جرح أو أصيب فيها بعد وكانت إصابته قاتلة(Onqes piles niot trait d` une ni d` autre qui aconter face ni qe nul puisse dire qe nil fust feri ni nafre de pues a la mort) .

فلقد شاهد السلطان سحباً من الغبار قد تصاعدت بسبب الذين كانوا يعملون على المغادرة مع الأسلاب، فقدر أن ذلك قد تسبب التتار به، فزحف نحو هذا الغبار، وكان منكوتمر على مقربة منه، ولم يكن معه

سـوى ستين رجلاً من الخيـالة وليس أكثر من ذلك، وقـد تقدم للقـاء، ظاناً أن القادمين هـم من رجاله: لأن ملكي أرمينيا وجـورجيا كـانا قد تقـدمـا مع أتبـاعهما ودخـلاإلى بلاد المسلمين، وعنـدمـا رأى السلطان ورجاله منكوتمر، وتعرفوا إلى أتباعه وميزوهم من خلال شاراتهم، ظنوا أن هناك كميناً قد نصب لهم، وأن عـرض هذه القوة الصغيرة ما هو إلاّ شرك لاستـدراجهم.نحـو الكمين، هذا من جـانب، ومن جـانب آخـر عندمـا رأى منكوتمر مـدى ضعف إمكاناته والمخـاطـر التي تنتظره من هجـوم يقوم به السلطان، قـام بالتراجع وذهب في طريقـه، ولدى رؤية السلطان لما حدث، اعتقد أنه قـد عاد لحث جيشه كله على التقدم، ولهذا تراجع مسرعـاً، وفـرق الليل فيما بينهما بعـد ذلـك، وهكذا لم يربح أي واحد من الطرفين المعركـة، ولكن بما أن السلطان كان الأخير بالتراجع، اعتقـد الناس أن النصر كـان من نصيبـه، ومـع هذا يمكن للانسـان أن يقـــول بشكل يقينـي إنه منذ الاستيـــلاء الأول على بلادهـم، لم يتلق المسلمون ضربة بمثل هذه القسوة، ولاهزموا مثل هذه الهزيمة.

وعاد ملك أرمينيا مع شطر كبير من قواته نحو ساحة المعركة، ولدى رؤيتها شاغـرة ارتأى أن ينصب خيمه ويبقى هناك حتى الغد، وبينما هو مقبل على القيام بهذا وصل إليـه الخائن سنقر مع شطر من رجـاله وقال له:«لماذا تفعل هذا يا مولاي الملك؟ لقد ذهـب سيدنا منكوتمر»، فأجابه الملك بأنه رغب في العسكرة هناك، لإمضـاء الليل، لأن رجـاله أنهكهم التعب وأضناهم، وهنا أصر سنقـر على أن البقـاء سيكون خيانة وعـدم إخلاص، بعـدما قام رئيسهم بالمغـادرة، وهكذا حدث بعد تبـادل عدد كبير من الكلمات، أن صدقه الملك، وأمر رجـاله بامتطاء ظهور خيولهم، ولقـد ساروا طوال الليل حتى تمكنوا من العبـور من المكان الذي أزالوا منـه خيمهم، غير أنهم لم يجدوا منكـوتمر وتـوقـف الملك لـوقـت قصير لإراحـة خيـولـه، وهنا تابع سنقـر سيره على طريقـه، ثم انعطف الملك

وأخـذ الطريق نحـو بلاده، واجتاز خـلال الأراضي القـاحلة، حيث لم يكن هناك لا عشب ولا مـاء، ولهذ السبب مـات عـدد كبير من خيـوله ومن أصحابه، بسبب العطش على الطريق، أو هلكوا بسبب المشاق التي عـانوا منهـا، وظل الحال هكذا حتى وصل إلى مملكتـه أخيراً وهو سـالم معافى، ولكن في حـالة مأساوية، في حين جـرجر كثير من أتبـاعه الذين سـاروا خلفـه أنفسهم ووصلوا بعدمـا بذلوا غـاية جهـدهم، هذا وقـام رجـال سنقر بسرقتهم وهم على الطريـق، وجردوهم من كل شيء كـان معهم، ولم يتركوا لهم فـرساً يركبونه، وتشاور السلطان مع رجـاله حول أي الطرق الأسلم له للعـودة عليه،إلى ممالكه، وقـد أشار بعضهم عليـه بأن مـن الممكن له المضي عبر الطريـق السـاحلي، من خـلال أراضي الفـرنجة، الذين كـان بينه وبينهم هدنة، وأشار آخـرون أن الأفضل هو المضي عبر البرية حيث لايمكن للتتـار العثـور عليـه، كما وأشـار عليـه آخـرون بأن الأفضل هو اختيـار أقصر الطرق وأكثـرها استقامـة، وقـد وافق على رأي هـؤلاء، ومن ثم سـار حتى وصل إلى بلـدة اسمهـا اللجون، حيث سلف له العسكرة هناك من قبل لدى زحفـه ضد التتار، وأرسل كونت سينت سيفرين Sevrin ، وكيل عكا، عدة رسل له، ليمثلوا بحضرته حتى يتمكـن من رؤية أحـواله والتأكـد منهـا، وقـد وجدوا وبـرهنوا أنه كان فقيراً، وبحـالة عوز، والذين بإمـرته قلة قليلة، وبما أن السلطان لم يكن راغبـاً بأن يعـرف الفـرنجـة أوضـاعـه المتردية والانتكاسـات التي أصيب بها، قـدم إجابات لطيفـة جـداً إلى الكونت، وغـادرفي أثناء الليل، وزحف نحـو القـاهرة، وقـد استراح هناك عـدة أيام،وأ مر بفـرض ضريبة على رعـاياه، حيث أخذ ثلث أمـوال كل من كـان يمتلك عشرة آلاف دينـار، وأخـذ من كل غنـي وفقير حسب أوضاعه، ولهذا انزعجت رعـاياه كثيراً، وخيل إليهم أنه قد قضي عليهم بالموت أو بالدمار، ثم أمر بالإعلان في أرجاء بلاد مصر، بأن على الذين يودون نيل أعطيـاتهم الذهاب إلى المرقب، لأنه سوف يذهب إلى أرمينيـا

للاستيلاء عليها، وأن عليهم الاستعداد من أجل السفر، وقد أمر بالمناداة بإعلانه هذا في وقت واحد من كل أسبوع لمدة شهر، وذلك على الرغم مما قاله عدد كبير من الناس من أنه لن يغادر القاهرة بسبب خسائره العظيمة بالرجال وبالخيول.

وبالإضافة إلى هذا كله ياسيدي، لقد أمر بإعدام خمسة عشر أميراً وذلك مع الذين تخلوا عنه أثناء القتال، وقد خافت رعاياه كثيراً، وامتلأت بالكراهية له، بسبب الذين خلفهم وراءه في القاهرة، وأيضاً بسبب الذين ألقاهم بالسجن، وبسبب هذه التهديدات كلها التي قام بها، وما من أحد من الناس جاء حتى الساعة، إلى القاهرة أو إلى دمشق، وأعني ساعة كتابة هذه الرسائل، ومع هذا صحيح ما قيل بأن قسطلان صفد ووكيله على تخومنا، قد جعلا البداة الذين كانوا في المراعي على مقربة منا، ينسحبون إلى الجبال، لأنهما قالا بوجوب الحفاظ على الأعشاب من أجل قدوم السلطان، ونحن نشك بأنهما قدما هذا التعليل، لكي يجعلونا نرغب بالدخول بهدنة شريرة معهما، أتمنى أن يحول الرب دونها ويمنعنا من القيام بها.

وفضلاً عن هذا يا سيدي، لقد فهمنا مما سمعناه من أفواه عدد من الرجال الموثوقين، الذين قدموا مؤخراً من الجهات القائمة حول حماة، بأن هناك رعباً كبيراً هناك وفي حلب أيضاً، وكذلك في حمص، فالناس في خوف يومي من مفاجأة التتار للبلاد، لأن التتار أقسموا على القدوم بكل تأكيد، غير أننا نعتقد أن هذا لن يكون حتى نهاية الشتاء، وللأسباب المبينة، قام سلطان حماه، بعد رؤيته لهذه الأمور، بإرسال زوجته وأولاده، ومعظم ثرواته إلى مدينة القاهرة.

ومن جانب آخر، عندما علم سكان بداق Baudac ، من خلال رسالة بعث بها السلطان بأن التتار قد هزموا، قاموا بثورة ضد الحكام الذين عينهم التتار عليهم، وكان أبغا آنذاك في البرية على مقربة منهم،

لذلك ما أن سمع بذلك حتى زحف نحـو تلك المدينة واستولى عليها، وكانت هذه المدينة أثناء الثورة تابعة له، وقد جعل جميع المسلحين طعمة للسيف، وقد قطع أصابع الإبهام للرجّالة و ..... لك أن تعلم ياسيدي، بأنهم يمدون بوساطة الإبهام.

وليس لدينا أخبـار أخـرى أثناء كتـابة هذه الرسـائـل لارسـالها إلى معـاليكم، سـوى أننا شحنا قلعتنا برهبـان وبعسـاكـر حسب حـاجتنا، وفعلنا ذلك مسرعين، وقـد قـام مقـدمنا، بنـاء على التماس من ملك أرمينيـا، وبناء على تقـويم للمحنة الشـديدة التي تعـرض لها ويعيش في ظلهـا، وبسبب أعمال النهب التي اقترفها التركمان في مملكتـه، منذ وقت عودته، ولقيـامهم بنهب وإحراق مـدينة اياس، وبلدات أخـرى وقرى، لهذه الأسباب جميعاً بعث إليه بمائة خيال مع خمسين من رجـال الطائفة الذين جـرى اختيـارهم وتسليحهم بشكل جيـد، وبعـث أيضـاً معهم بخمسين من التوركبلية، واعلموا يـا سيدي أن الأرض المقدسة، لم تكن حسب مـا نتذكـره قط في مثل هذه الحالة التعيسـة، كما هي الآن في هذا اليوم.

فهي تعـاني من قلة الأمطار، ومن مختلف أنواع الأوبئة والمصـائب، وقد ترك جـزء كبير من مصر بدون فلاحة، خـوفاً من الحرب، وللسبب الذي ذكرناه أعلاه، ولا تعاني هذه البلاد من هذه الحالة لوحدها، بل إن كل من قبرص وأرمينيـا تعيشـان في الحالة نفسهـا... ولـن يقـوم ملك صقليـة بإرسـال أية مـؤن من ممالكه إلى سـورية، بسبب حـربه مع الإغريق، وذلك حسب ما توصلنا إليه، ولهذا يا سيدي، وحسبما كنا قد كتبنا إلى معـاليكـم، إنه إذا مـا عـزم أي واحـد مـن كبـار اللوردات في بلادكم على القدوم إلى هذه المناطق، سيفعل خيراً إذا مـا أشار على ملك صقلية بأن يسمح للمؤن لتحمل إلى سـورية، حسبما جرت عليه العادة في العصور المتقدمة.

وكما تعلم ياسيدي، لم تكن الأرض المقدسة قط سهلة الاستيلاء عليها، كما هي اليوم، من قبل قادة مقتدرين معهم مخزونات كافية من الأطعمة، يضاف إلى هذا أننا لم نر فيها قط ندرة بالجند كما هي الحال الآن، وكذلك قلة الآراء الصالحة فيها، أرجو لكم ولشخصكم الجدير ولجلالتكم الملكية الازدهار في كل الأوقات، وزيادة الفضل وأن تكونوا أحسن، وأرغب إلى الرب — يا سيدي — أن يفعل هذا لكم، فذلك سوف ينجز بدون أدنى شك، لو أن الرب أعطاكم الرغبة للقدوم إلى هنا، فهذا ما يعتقده جميع السكان في الأرض المقدسة، من الصغير والكبير، وبكم مع عون الرب، سوف يتم الاستيلاء على الأرض المقدسة، ووضعها في أيدي المسيحيين المقدسين.

وهذه الأخبار ياسيدي هي .... ويمكن أن تصدقها على الرغم من كل الأشياء الأخرى التي يمكن أن تخبر بها، ولا تؤاخذني يا مولاي لأن رسالتنا طويلة جداً، ذلك أنه من غير الممكن لنا أن نخبركم عن جميع هذه الأشياء بشكل أكثر اختصاراً، فمن أجل تأكيد الحديث عنها تركتني جلالتكم هنا، لأدونها لكم.

كتبت في اليوم الأخير من أيار.

إلى الملك الأكثر نبلاً، وسمواً وعظمة، ملك إنكلترا».

ومن المحتمل أن رواية السير جوزف دي كانسي عن نصر السلطان قلاوون، مرتبطة بمناسبة إرسال الرسالة التالية من الملك إدوارد، حيث هناك مسودة لها محفوظة حتى الآن بين «الرسائل الملكية»، في مكتب الوثائق، علماً بأن تلفاً كبيراً قد ألم بهذه المسودة بسبب الرطوبة ومرور الوقت:

«من إدوارد، الذي بنعمة الرب، ملك إنكلترا، وسيد إيرلندا، ودوق أكوتين، إلى صديقه العزيز بالمسيح، وسكرتيره المخلص، الراهب

جوزيف دي كانسي، تحيات: إنه فيما يختص بالروايات التي أرسلتها إلينا في رسائلك من الأرض المقدسة، نقدم لك شكراً عظيماً، لأننا نصبح أكثر سروراً كلما سمعنا أخباراً جيدة عن تلك البلاد وعن أوضاعها، وهو الأمر الذي نرغب مخلصين ونود أن نسمع عنه بشكل متواتر أكثر، وبما أنك ترغب في أن تسمع تقارير مسرة عن مملكتنا، إننا نوضح لكم — من أجل أن نزيد في سروركم — أننا في اليوم الذي نعمل فيه هذه الهدايا، نحن ومملكتنا وأولادنا — شكراً للعلي الأعلى — بازدهار، وبصحة كاملة بالجسد، وهذا أمر نود أن تعلمه بنفسك بوساطة العلاقات الصحيحة لا الفاسدة، وبالنسبة للمتبقي تسلمناه بيد مسرورة وتسلمنا هديتك للسنة الجديدة من المجوهرات التي أرسلتها لنا، ونذكر أيضاً: سرجين قوقازيين، وغطاء سرجين، وقبعتي بازيار ألمانيتين، وأربع قبعات بازيار، اللائي نبعث إليكم مقابلهن بشكرنا العظيم، ونرغب في أن تعلم أننا لم نعد هذه الهدايا هدايا صغيرة، لأننا قدرنا هنا النوايا الطيبة للمرسل أكثر من الهدايا نفسها التي أرسلت هذه المرة، ولا نريد في الوقت الحالي أي مزيد من القبعات بسبب القضايا الشاقة لمملكتنا، والتي هي شغلنا الشاغل المباشر، ولانرغب بالاحتفاظ بمزيد من البزاة أكثر مما هو لدينا، أما بالنسبة لأحجار الياقوت التي أرسلتها لنا.... ولأننا نرغب كثيراً في أن تكون قريباً منا من أجل سلواننا وراحتنا، فإننا نأمرك ونطلب منك أن تسرع بقدومك إلى إنكلترا، بأفضل الوسائل التي يمكنك استخدامها وأسرعها، وبما أننا نثق بك تماماً، إنك لن تفقد في أي حال من الأحوال... من الاسبتارية في إنكلترا، أو ممتلكاتهم التي سوف نحافظ عليها ونرعاها، بقدر ما نستطيع بوساطة القانون، وذلك حسبما طلبت، وفيما يتعلق بأملاكك، التي نتمنى أن تكون مزدهرة تماماً، إننا نرغب في أن تكون متأكداً أنها محط عنايتنا المتوالية.

صـدرت في دوركستر في اليـوم العشرين من أيار، في السنة العـاشرة من حكمنا»(١٢٨٢).

ويتفق كل من هيتوم والمقـريزي على القول بأن المعـركة تمخضت عن نصر عظيم للسلطان، وهو أمر لم ينكره دي كانسي تماماً، لأنه حين أعلن أن ما من أحـد من الطرفين قد انتصر، اعترف بأن قـلاوون كان الأخير بالتراجع، وهذا طبعاً يوثق نصره بعض التوثيق.

ومهما يكن من أمر، إن مـا قدمه دي كانسي له قيمة رفيعـة، لأنه كان عسكرياً، ومعـاصراً، وليس مـن المستبعـد شهـوده للقتـال، وبناء عليـه يمكن الركـون إلى روايته واعتمادها أكثر من روايـة أي مؤرخ أو راهب أو رجل علماني، كتب وهو بعيـد عـن روايات الآخـرين، وبعيـد زمنيـاً بسنوات عن الحادثة، ففي حـال المقـريزي قـد كتب بعـد قـرن أخبـار المعركة، أو بعد أكثر من ذلك.

*** *** ***

وكان ابن عبـد الظاهر، رئيس ديوان الانشاء، أيـام السلطان قلاوون قـد أكـد انتصـار قـلاوون لدى حـديثـه عن وقـائع سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م:«وفي هذه السنة تواترت الأخبار بموت أبغا بن هلاون، وذلك لما ناله عقيب كسرة منكوتمر من رعب وخـوف، ولما شـاهده من هول، بقتل عساكره وأكابر المغل»(١) .

وكان أبو الفداء صاحب حماه من أقـرب الناس زمناً وموقعاً من هذه المعركة وقد كتب عنها مايلي:

«ذكر الوقعة العظيمة مع التتر على حمص في هذه السنة — أعني سنة ثمانين وستمائـة، في شهر رجب كـان المصـاف العظيم بين المسلمين وبين التتر بظاهر حمص، فنصر الله تعـالى فيه المسلمين بعـدما كانوا قـد أيقنوا

١— تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور — ط. القاهرة ١٩٦١ .ص٣

بالبوار.

وكان من حديث هذا المصاف أن أبغـا بن هولاكو حشد وجمع وسار بهذه الحشود طالبـاً الشام، ثم انفرد أبغا المذكـور عنهم، وغنم وسار إلى الرحبة، وسير جيوشه وجموعـه إلى الشام، وقدّم عليهم أخاه منكوتمر بن هولاكو، وسـار إلى جهة حمص، وسار السلطان الملك المنصـور قلاوون الصالحي بالجيـوش الاسلامية من دمشق إلى جهـة حمص أيضاً، وأرسل إلى سنقـر يستـدعيه بمن عنده مـن الأمرَاء، بحكم مـا استقـر بينهما من الصلح واليمين، فسـار سنقـر الأشقـر من صهيـون، فلما نزل السلطان بظاهر حمص، وصل إليه الملك المنصور صاحب حماه بعسكره، ثم وصل سنقـر الأشقر، وصحبتـه ايتمش السعدي، والحاج ازدمـر، وعلم الدين الدويـداري، وجماعـــة من الظـاهرية، ورتـب السلطان عسكـره ميمنة وميسرة، وكان رأس الميمنة الملك المنصور محمد، صاحب حماه بعسكره، ثم بدر الدين البيسري دونه، ثم علاء الدين طيبرس الوزيري، ثم أيبك الأفرم ثم جماعة من العسكر المصري، ثم عسكر الشـام ومقدمهم حسام الدين لاجين، نائب السلطنة بالشام، وكـان رأس الميسرة سنقر الأشقر، ومن معـه، ثم بدر الدين تتليك الايدمـري، ثم بدر الدين بكتـاش أمير سـلاح، وكـان بر الميمنة العــرب، وبر الميسرة التركمان، وكـان شـاليش القلب حســام الـدين طرنطاي، نـائب السلطنة ومن أضيـف إليــه من الأمراء والعساكر.

والتقى الفريقان بظاهر حمص في الساعة الرابعة من يوم الخميس رابع عشر رجب الفـرد من هذه السنة، أعني سنة ثمانين وستمائـة، وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة، فهـرب من كـان قبـالتهم من التتر، وركبـوا قفـاهم يقتلونهم، وكان منكوتمرقبـالة القلب، فـانهزم أيضاً، وأمـا ميسرة المسلمين فإنها انكشفت عن مـواقفها، وتم ببعضهم الهزيمـة إلى دمشق، وسـاق التتر في إثر المنهــزمين حتى وصلوا إلى تحت حمص، ووقعـوا في

السوقية وغلمان العسكر والعوام، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم علموا بنصرة المسلمين، وهزيمة جيشهم، فولى المذكورون أيضاً منهزمين على أعقابهم، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وكانت عدة التتر ثمانين ألف فارس، منهم خمسون ألفاً من المغل، والباقي حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل الكرج والأرمن والعجم وغيرهم.

ولما وصل خبر هذه الكسرة إلى أبغا وهو على الرحبة يحاصرها، رحل عنها على عقبه منهزماً، وكتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر البلاد الإسلامية، فزينت لذلك، ثم إن السلطان الملك المنصور قلاوون أعطى الدستور للعساكر الشامية، فرجع الملك المنصور محمد صاحب حماه إلى بلده، ورجع سنقر الأشقر وجماعته إلى صهيون، وسار عسكر حلب إليها، وعاد السلطان إلى دمشق والأسرى والرؤوس بين يديه».

ونص أبي الفداء هذا هام، ويساعدنا على فهم ما حدث في المعركة، ومن الممكن على ضوئه التعامل بشكل أفضل مع نص دي كانسي، وأيضاً على معالجة دور سنقر الأشقر.

وكان ابن حبيب الحلبي قد كتب عن سيرة قلاوون وأولاده، كتاباً أسماه«تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه»، والذي أورده ابن حبيب في أحداث سنة ثمانين وستمائة هام جداً، ويساعد أكثر على التعامل مع مادة دي كانسي، وقد قال:

«في شهر رجب منها، كان المصاف العظيم بين المسلمين وبين التتار، بظاهر حمص، وسببه أن أبغا خان بن هولاكو ملك التتار جمع وحشد، وسار إلى جهة الشام، وكانوا نحو ثمانين ألفاً، ثم انفرد أبغا وذهب إلى الرحبة، وجهز جيشه، والمقدم عليهم أخوه منكوتمر إلى جهة حمص، وسار السلطان عز نصره بالجيوش الاسلامية، من دمشق المحروسة، وكان قدم إليها، وهم نحو خمسين ألفاً، ورأس الميمنة الملك المنصور

محمد بن أيوب، صاحب حماه، ورأس الميسرة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والتقى الفريقان، واشتدت الحرب، فاستظهر العدو أولاً، وكسروا الميسرة، واضطربت الميمنة، وثبت السلطان بمن حوله من الأبطال، واستمروا إلى بعد العصر، وكثر القتل، وأشرف المسلمون على خطة صعبة، ثم تناخى الكبار، وحملوا على التتار عدة حملات، وأنزل الله النصر، وجرح منكوتمر، فانهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، ودقت البشائر، وبقي السلطان واقفاً إلى أن نزل بعد هوي من الليل، وظفروا بالعدو المخذول.

ثم أذن السلطان للعساكر الشمالية فانصرفوا، ورجع هو إلى دمشق المحروسة، والأسرى تقاد بين يديه، ثم عاد إلى الديار المصرية مؤيداً منصوراً، ولما بلغ الملك أبغا خبر الكسرة، وهو على الرحبة يحاصرها، نكص على عقبه منهزماً، وكفى الله شرهم بمنه ولطفه»(١)

١ — تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه — ط القاهرة ١٩٧٦ ج١ ص ٦٢ — ٦٣.

٤

ما جاء عند وولترماب عن الحروب الصليبية

حول الاستيلاء على القدس من قبل صلاح الدين

فقط لمعلوماتنا العامة كانت هناك سنوات من العفو، أو من السرور، قد عرفت بذلك من العفو أو من السرور، أي سنوات عفو وسرور، وأمن وسلام، وفرح ومسامحة، ومجد، وبهجة، وبناء عليه ينبغي دعوة سنة ١١٨٧ لتسجيد الرب، من قبلنا سنة عاصفة من العاصفة، عاصفة الوقت، وعاصفة الاضطراب الكبير، فقد كانت سنة خوف، وسنة قتال، وسنة ثقيلة، وسنة موت وسنة حرمان، وسنة تدنيس وأسف، سنة لم يتوقف فيها طوفان الشتاء عن الازدياد من منتصف أيار حتى الاحد الثالث قبل الصوم الكبير، بحرماننا من الاستراحات السنوية، بخنق الفواكه، وبانتاج الأذى والحرمان، والمنتجات غير المفيدة، وبنشر الجفاف والندرة، والفوضى بين الناس والحيوانات، ومع نبتون غالباً— إن لم يكن دوماً— ما يأتي الفرج بوفرته، ويزيل ندرة الموسم، لكن البحر أغلق في هذه السنة عن الأرض ينابيع رحمته، وحرم أخته ومنع عنها كل ما تحتاجه من فوائد، وزيادة على هذا، كأن الرب بقدرته نسي منحنا الرحمة، وأضاف إلى آلامنا الصادرة عن دناءتنا الخلقية لذلك الوقت، جدب الأرض، والبحر، والهواء، وبعدما أطلق من الجحيم وفك سلاسل ملائكة العصيان، سمح للذي امتلأ بالفضائل الصادرة عن تجسيده وصلبه، بأن يتعرض للحاجة في أرجاء العالم، وللاستهزاء بالمسيحيين بقلبه الدنس والمليء بالشهوة، وظلم مآب لم يكتمل بعد، فهذا ما قاله الرب، ولقد أجل تدميره حتى وقت اكتمال الشر، ويبدو كأس حماقتنا قد امتلأ وفاض، إلاّ أنه ليس فقط وقع الانتقال لظلمنا، علينا وعلى آلنا، ولكن افترض أن ربنا يسوع، الذي هو قاهر للذنب، قد أذن لانتقام الشيطان بأن يقوم ضد شخصه، لأن الناس قد تحدثوا أنه في سنة التعاسة هذه، جرى الاستيلاء على مدينة القدس المقدسة، فغدت

أسيرة السلطان، الذي هو أمير الكفار، وقد أخليت من سكانها بأعمال تدمير دموية فاقت ما بكاه أرميا في مراثيه، وذلك عندما قال وسط دموعه: «كهنتها ينوحون وفتياتها قد دنسن»، ولم يعد الكهنة في تلك المدينة ينوحون ولا الفتيات يدنسن، لأنه لم يبق هناك أحد منهم ولا منهن، وقد قام تيتوس المنتقم (مع أنه لم يعرفها) للأخطاء المقترفة بحق ربنا، بانزال تعداد سكان (القدس) إلى بعض البقايا فقط، لكن السلطان دمرهم تماماً، واجتث الجذور، وقطع الفروع باخراج جميع المسيحيين من المدينة، فالضريح المقدس، وصليب المسيح، صارا طعاماً للكلاب، المتخمين بالطعام، والملطخين بدماء الشهداء، ولذلك سمحوا لعدد كبير بدفع الفدية، ليس حباً كبيراً بالمال، ولا نقصاً بالكراهية من خلال الوهن بعد احتدام جنونهم، ولم يكن هناك نقص بالرقاب لوضعها منحية تحت يد الضارب، بل لإنعدام السيوف التي تتولى الضرب، فضلاً عن أنها لم تمنحهم الفدية، ذلك أن الذين ابتاعوا خلاصهم، سلموا إلى العساكر للدفع، فأصبحوا مجرد بضاعة ومال، وجميع المراثي، والمصائب، والموت، والدمار، وكل ما توقع الأنبياء من كوارث لهذه المدينة، وقع الآن هذا كله في فاجعتها، ويبدو أن الرب ارتأى احداث ذلك عن عمد وباهتمام، ففي الغالب وكثيراً ما قام الرب في الماضي بانقاذها، ولم ينسها من رحمته في كل مرة حدث فيها هجوم مجنون على أسوارها، لكن الآن عندما لم يبق أبناء للمستقبل، ولابقايا من الماضي، ولم يترك فيها شيء على الاطلاق، من الذي بقي ليتولى تحريريها، وإلى من يمكنها الآن أن تتطلع، وممن تنتظر الآن الرحمة؟ من المؤكد أن الذي كان الراد السمع إلى الأطرش على الفور، والنظر إلى الأعمى، والحياة إلى الميت، قد علمنا أيضاً من خلال عدد كبير من المعجزات، أن لانيأس أبداً.

ويدا الرب، المحب لعبده داود، وكأنه عدو له، بسبب أعمال التعداد

للشعب التي قــام بها الملك، على أســاس أنه ادعى لنفســه فخـار ومجد الانتصارات التي هي عـائدة للرب، وعـزا إلى نفسه وإلى أتباعـه النتائج السارة للقتـال، فما كان من الرب إلاّ أن قتل سبعين ألفاً بسيف الملاك، لكنه لم يفعل ذلك انتقاماً، بل عقوبة، حتى يذل فخاره، ولذلك لم يمنح النصر إلى العـدو، ولم يرفع من شأن أعـداء داود، كما أنه لم يثـر كراهيـة الشعب ضده، ولم يعرضــه للذل، ولزوال الاحترام، ولم ينتزع منه كل ما تركه له، بل أظهر اللطف نحوه، وقاد الملك ووجهه وحفظ الشعب من أجل الازدهار، وجعل الشعـب يزيد من معـرفتـه بـالرب، كأب وليس عــدواً، ولاعصـــا، ولاسيفـــاً، ولم يكن وقتهـا في تلـك المدينة تدمير للممتلكات، ولاانتـزاع للثروات، ولاتحويل للسلطـة، فقد بقي التـابوه، وبقيت الأشياء المقـدسة نائيـة عن الخوف الذي ناله الذين بقيـوا أحياء، وقـد قام هؤلاء باحصـاء عـدد الموتى، ودفنهم، والنوح عليهم، ثم إنهم ابتهجوا بالسرور الذي كان نتيجة الحزن.

لكن أي نهاية يمكـن أن تكون هناك لهذه التعــاسـة غير المحــدودة. وذلك بسبب الشيــاطين غير المرعـوبـة والتي لاتعـرف الحيــاء، والتي حطمت سلاسها برضا ربنا، وانتشرت من خلال عملائها أو أزالت من الوجود كل مـا كان هناك من محاسن أو مما عاد إلى الرب، وكل مـا كان هناك من انحطاط، ومـن شرور، وكل مـا عـاد إليهم رفعــوا من شأنه، ووضعوه وصانوه في أعلى أماكن الأمان مع ممتلكات دائمة أبداً، ولذلك سوف تنفـذ إرادتهم إلى الأرض مثل نفاذها في الجحيم، وجـرت عقوبة رجـــال الأيام الخوالي، لكن ليس وصـــولاً إلى الموت، في حين تعـــرض رجـال جيلنا للمـوت وليس إلى العقـوبة، فقـد ذهبت أقـدام الكثيرين، وانزلقت خطوات الأكثـر لأنهم لم يكونوا مدركين أن القـدس ليست لا هنا ولا هناك، ونحن الذين نبحث عن القـدس السماوية، ومع الظهـور الأعظم للأذى على الأرض دعونا نغـادر هذا العالم إلى الآخـر، واتركوا

في الوقت نفسه أملنا للمستقبل أفضل، وتحرراً من حب الأرض(★).....

أصل الداوية

قدم فارس اسمه بينز Payns من منطقة في بيرغندي لها الاسم نفسه، حاجاً إلى القدس، وعندما سمع بأن المسيحيين الذين يسقون خيولهم من ماء صهريج ليس بعيداً عن أبواب القدس كانوا يتعرضون دوماً للهجمات المتوالية من المسلمين،وأن عدداً كبيراً من المسيحيين قد قتلوا في كمائن أقامها المسلمون، أشفق على المسيحيين، ونظراً لأنه امتلأ بالغيرة الصحيحة عليهم، سعى إلى حمايتهم بقدر ما استطاع من قوة، وغالباً ما كان يندفع لمساعدتهم من أماكن اختباء أحسن اختيارها، ويقتل كثيراً من الأعداء، ورداً على هذا احترز المسلمون، ووقفوا متأهبين بأعداد كبيرة بحيث لا يمكن لأحد أن يواجه هجماتهم، ولهذا أرغم المسيحيون على هجر الصهريج، لكن بينز الذي لم يكن كسولاً، ولا من السهل إخضاعه، استطاع الحصول بوساطة صلواته، على عون للرب ولنفسه وسعى بقدر ما أوتي من قوة، وبكل وسيلة ممكنة للحصول لنفسه على مكان واسع للاستقرار في داخل حدود الهيكل، وقد أقنع نفسه بالقليل والفتات من الطعام، وتعهد بأداء اليمين أن يقدم أتباعه التكاليف الكاملة للخيول وللسلاح، واستطاع بوساطة التبشير، وبوساطة الصلوات، وبكل الوسائل الممكنة التأثير على جميع الحجاج، الذين عرف أنهم ذوي طاقات جبارة في القتال، وأقنعهم بالبقاء وتكريس أنفسهم بشكل دائم لخدمة الرب أو العيش في ظل تكريس مؤقت، واختار لنفسه ولأتباعه من الفرسان، حتى يحافظوا على

★— وولتر ماب De Nugis curialium — ط. لندن ١٩٢٤ ص ٢٥— ٢٨. ومع أن مادته قليلة الأخبار، لكنها بحد ذاتها وثيقة تصور مشاعر رجال الدين في أيامها، وتقدم لنا نموذجاً للكتابة الفجة ولطرائق التعبير.

أنفسهم وعلى أسلحتهم وعلى واجباتهم، اختار شارة الصليب، ونوعاً من الترسة، له أشكال مميزة، وانصرف نحو الاهتمام بسلوك أصحابه وبطباعهم.

وحدث في الأيام الأولى لبداياتهم، أن فارساً مسيحياً، له مكانة سامية جداً، وكان عظيم التقدير والشهرة بين المسلمين، وكان رجلاً مكروهاً جداً من قبل أقرباء وأصدقاء، الذين قتل عدداً كبيراً منهم، وقد وقع لسوء الطالع في أسر المسلمين، واقتيد إلى الإعدام رمياً، وكان بين النبلاء الحضور هناك عدداً كبيراً من الرماة المتشوقين للحصول من الملك على اعتراف بالمهارة، مقابل كل نشابة أطلقت انتقاماً لدماء أصدقائهم التي سفكها هذا المسيحي، ووقف الملك إلى جانب الضحية، وهو يرغب في كسبه إلى جانبه إذا ما ارتد، ولهذا أطراه بكل كلمة، وحاول جذبه بكل طريق من الطرق، وبلغ به الأمر حداً أنه عندما رأى ذلك الفارس غير مستعد للتخلي عن عقيدته، لم يفقد أمله في كسبه إلى جانبه، ولهذا أمر بفك رباطه، والعناية بشخصه، وبعد جهود طويلة مخفقة ليجعل المسيحي يتخلى عن التزامه الديني، حزن القائد المسلم واكتأب لأن آماله تبددت، وعلى كل حال، لأن الرب — الذي كان الفارس يعاني في سبيله — قد جعل المسلم عطوفاً، وقد أراد هذا المسلم تحريره من التعرض للعذاب الشديد، فأعطى اسم طفل كان أسيراً لدى المسيحيين، وعرض أنه إذا ما أطلق سراح هذا الطفل فإنه سوف يطلق سراحه مقابل ذلك، بشرط أن يجعل مولاه الرب رهينة مقابل عودته، وذهب الفارس في ظل هذه الاتفاقية إلى القدس، وأخبر الملك بالذي فعله، وقدم الملك والكهنة والشعب الشكر العميق للرب لإعادته إليهم هذا الرفيق المتميز، لكن مالبث الفارس أن علم بأن الطفل قد توفي، وبناء عليه استعد للعودة في اليوم المحدد، وقام الملك والمملكة بصوت واحد بمنع ذلك، وحبسوه بموجب أمر ملزم من البطريرك، وتولى الجميع

بوعده بالكثير من القداسات، والصدقات، وتقديم كل ما يمكن أن يحلله من يمينه الذي أداه، ومع أن الرب بدا وكأنه راض بكل هذا، لم يكن الفارس بشكل مؤكد كذلك، وأصر على استعداداته على العودة وفاءً بوعده، لكن رفاقه عندما عرفوا بمقاصده، حكموا عليه بالإجماع على وضعه في سجن أمين ومشرّف حتى يكون يوم العودة قد مضى، حتى عندما يكون الوعد قد خرق، لن يُعدّ مسؤولاً بعد ذلك، ومطلوباً منه الوفاء، ولأنه أمل بالنجاة إما بالحظ، أو بأن يطلق سراحه بتقدير خاص، عانى من هذا الاعتقال حتى رأى اقتراب اليوم، ولجأ هنا إلى وسيلة الكذب، فوعد صادقاً بالبقاء إذا ما قامت الكنيسة بتحليله من خرقه لوعده للمسلم، وهكذا مشى رجلاً محرراً وتقدم وسط بهجة الجميع وتهانيهم، وبدأ في الليلة التالية بالتحديد رحلته، وأسرع بقدر ما استطاع، حتى لا تبقى رهينته المحبوبة(المسيح) بالاعتقال، وبات الفارس في تلك المناسبةسبباً خاصاً لكثير من القلق، لأنه كان في وقت واحد منتظراً من ملكه، ومطلوباً من منتقميه، ومع أن الملك المسلم جعل نفسه مسؤولاً عن ذلك الفرار السري، الذي حمّله كثيراً من العداءات ومواجهة المعتدين المقتدرين، ظل يذكر الرهينة على شفتيه حتى انتهاء النهار وانتهاء أمله، وكان ذلك عندما قدم له التحية، بشكل غير متوقع، الفارس الفار، وهويسير على قدميه، وقد أعياه سفره وسرعته الكبيرة، ولم يكن هذا اللاجىء قادراً على الكلام إلا بصعوبة بالغة، لكن ما أن تمكن من الكلام، حتى التمس العفو، لأنه لم يستطع الوفاء بوعده، وامتلأ الجميع بالدهشة، والعطف، وابتهج الملك بوفاء أسيره، فأطلق سراحه، وأعاده رجلاً حراً من خلال نعمة المسيح(★).

مايختص بابن سلطان القاهرة

ليس قبل هذه الأيام بكثير، ألقي القبض على ناصر الدين بن عباس،

★ De Nugis curialium لوولتر ماب ص٣٣ — ٣٥ .

سلطان القاهرة، من قبل فرسان الداوية، وألقي به في السجن، وكان شاباً لطيفاً، وأكثر من هذا محترماً في مختلف المجالات ومشهوراً: بالأصل وبالنسب، وبالجندية وبالشجاعة، وبالثقافة وبنقاء الذهن، وعندما كان مايزال حراً في بلاده، تعلم كثيراً من الجدل حول ديانتنا، وحول أخطاء شعبه، وبما أنه رأى أن عقائدهم ليس لها أسس ثابتة، أو إيمان، كان سيتبنى المسيحية، لولا أن مركزه السلطوي قد منعه، وعندما جعل هذا معروفاً بشفتيه للذين وضعوه بالأغلال، لم يكتفوا بعدم تصديقه، بل أغلقوا آذانهم عن سماعه لدى مطالبته بالتعميد، ووعدهم ناصر الدين أنه سوف يحصل لهم على القاهرة بقواه الخاصة، وبخططه للعمل، وعليهم الاعتماد عليه بذلك والوثوق بحكم أصله، وذلك شريطة أن يجعلوه يتعمد، ولقد أصروا على عنادهم وتصلبهم في مواقفهم، واهتموا اهتماماً قليلاً بخسارة روحه، وجعلوا آذانهم مصغية لقضية أخرى، وحملت أخبار هذه المسألة إلى المصريين، ولدى إدراكهم لخطورة ما وعد به رفيقهم الشجاع الذي بلغ به الحد إلى الموافقة على تسليمهم، امتلأوا بخوف عظيم، وبأعظم كراهية له كعدو لشريعتهم، وقرروا أنه إذا عرض للبيع— كما جرت العادة— أن يشتروه، دون الاهتمام بمقدار التكاليف، وبعثوا برسل لذلك، وعندما جرى تحديد السعر، قاموا بكل براعة بمقايضة الشاب بأوعية ذهبية وبأواني وكؤوس من الذهب ذات ثمن مرتفع، وخوفاً من شجاعة ذلك الرجل التي لاتقهر، تسلموه— وفقاً للاتفاقية— وهو بالأغلال، وأعلن في وسط المدينة إلى حيث جاء، عن نفسه أنه كان مسيحياً، ولم يخش في وجه شتائم الناس الغاضبين، عن ا لإعلان عن خلاصه، وبناء عليه عندما حمل إلى القاهرة، خرج الناس إلى استقباله بصرخات الفرح، وحرروه من أغلاله، واحتفوا به وشرفوه وكأنه أب لبلادهم، وسيدهم والمدافع عنهم، وعندما وصلوا إلى وسط المدينة، وجهت الدعوة إلى بقية السكان للاجتماع بوساطة صوت المنادي، وهكذا اجتمعت حشود كبيرة، وبروح

جماعية وسرور عارم لم يتوقفوا عن تقديم شكرهم إلى ربهم، وكأنه قام بانقاذهم من أيدي المسيحيين، وكانوا يتوقعون أن يجعلوه قائدهم في الدفاع عن المدينة، لأنهم كانوا بلا قائد، لكنه لم يتزحزح عن موقفه ولم يتجاوب لا بالإطراء، ولا بالخوف من العقوبة، واستدعى الأب، واعترف أمامه بأنه مسيحي، مما أدهش المدينة كلها دهشة عظيمة، ووقف قادة الناس وأعيانهم— بصرف النظر عن العامة— مندهشين، في صمت عميق، ثم تناقشوا ، مع كثير من الخلاف، حول تبني خطة من خطتين، وكان بينهم من كان راغباً باعدامه والتخلص منه على الفور، ولم يرغب الآخرون بذلك، فصدوراً عن احترامهم لشخصه، رأوا أن المناسب هو اعتقاله وايداعه السجن على أنه مجنون وبسبب جنونه، وجرى استدعاء الأمراء من الجوار، ولدى معرفتهم بالواقعة، اختلفت أيضاً مواقفهم، ورأى أكثريتهم أنه بالتخلص منه ستتوفر الفرصة أمامهم للاختيار للدفاع عن المدينة وللقيادة، وبحكم قولهم ذلك بات من المتوجب صلبه بحكم خرقه لشريعتهم والإرتداد عنها، وفي المقابل كان الذين رغبوا بمصلحة المدينة وبازدهارها وأمنها، أكثر عقلانية، واعتقدوا أن على رفاقه وعلى أهله، أن يسعوا لديه بحكم احترامه للمدينة، وبسبب عنايتها به، واحتراما منه لأصله النبيل، فيضغطوا عليه للاقلاع عن عقيدته المجنونة والتخلي عنها، وأن يتولى عبادة رب آبائه، ولكن الذي حدث أنهم لم يستطيعوا تحقيق الاستجابة لهذا الطلب لابالرجاء ولا بالدموع، ولذلك اقتيد نحو الأمام وربط إلى عمود، ومثله مثل الشهداء الكبار من النبلاء أمثال الملك إدموند وسباستيان المبارك، اتخذ هدفا للنشاب، وبعث به إلى المسيح، وبات هذا الذي «ولد مجدداً من الماء ومن الروح القدس» طاهراً نقياً بما فيه الكفاية، لأن الدم سائل، وكل سائل جاء من الماء.

شيخ الجبل لدى الحشيشية

ومثل هذا حـدث أن رجـلاً صاحب نفـوذ عظيم، صـار يدعى شيخ الجبل لدى الحشيشيـة، لأنه كـان الحاكم على الذين استقـروا تحت نير سلطانه، وكـان أيضاً مصـدر ايمان شعبه وعقيـدته، وكان قـد طلب من بطريرك القـدس تزويده بكتب الأناجيل، وقد بعث بها كليـة مع مترجم لهم، وجـرى استقبـال المترجم، وقبـول الانجيل بكل تشـوق ورغبـة، وجـرى اختيـار واحـد من هؤلاء الناس، وكـان رجـلاً جيـداً وعظيماً، وأرسل إلى البطـريرك ليجلب معـــه كهنة ولا وبين يمكـن على أيديهم تسلم تعميـد كـامل، مع قرابين الايمان، وبينما كـان هذا الرجل مسـافـر باتجاه بلده، جـــرى اعتقـاله من قبل كمين نصبـه داويـة المدينة ومن ثم جـرى قتله، ومضـت الحكاية تقـول بأنهم فعلـوا ذلك خشيـة أن تحول الكفار قد تقود إلى وحدة السلام، لأنه قد قيل بأن الحشيشية كانوا رأس الكفار وغير المؤمنين، واكتشف شيخ الجبل الخيانـة، فبقي ملازماً لإيمانه القـديم وكـان بامكان الملك والبطريـرك الحزن والأسى، ولم يكن بوسع أي منهما انزال عقـوبة، فالبطريرك لم يكن بإمكانه فعل ذلك، لأن رومـا كانت أسيرة حـافظة النقود، ومن جميع الجوانب، ولم يكن أيضـاً بامكان الملك، لأن الاصبع الصغير (للداوية) كان أعظم منه.

وكـــان قـــد جـــرى بالعنف انتخـــاب رينـالد أوف باث Bath ابن جـوسلين أسقف ســالسبري، لمنصب الأسقفيـة، لكن رئيس أســاقفـة كانتربري لم يقبل القيـام بترسيمه، وعندما شكا هذا إلى أبيـه جوسلين، أجابه:

«أيها الأحمق، امض مسرعـــاً جـــداً إلى البـــابا، ومن دون خـــوف أو إطراء، وجه إليه ضربة جيدة بمحفظة نقود ثقيلة، وسيقوم هو بالانحناء بالاتجاه الذي ترغـب به»، وبناء عليـه ذهـب، وضربه، وانحنى، وسقط البـابـا، وارتفع الأسقف، وكتب مبـــاشرة كـذباً ضـــد الرب، في مطلع

رسـائله، وذلك في المكان الذي توجب أن يكتب فيه: «بفضل نعمة حافظة النقود» قد كتب بدلاً عن ذلك: « بفضل نعمة الرب»، ثم فعل كل مايرضيه.

وعلى كل حال لندع روما سيدتنا وأمنا، الوعاء المكسور في الماء، ولتكن بعيدة عنا حتى نصدق مانراه، ومثل هذا هناك الكثير من الكذب يقال حول السادة الداوية، دعونا نسألهم ونصدق كل ما نسمعه، والذي يفعلونه في القدس لانعرفه، فهم يسكنون بيننا ببراءة كافية.

ما يتعلق بأصل الاسبتارية

امتلك الاسبتارية قاعدة مكرسة للخير، بالقيام بالتفريج عن المحتاجين بالمساعدة الخيرة، وقد بدأوا بشكل متواضع، وبدا بيتهم المأوى الخاص بالمعونات والاحسان، وعن طواعية استقبلوا الغرباء، واحتذوا حذو حواريي الرب، حيث كانوا متشوقين لاستقبال المسافرين، ولمنحهم المأوى، ولقد عاشوا مدة طويلة مخلصين لتعهداتهم، ولم يلمسوا حافظة نقود المسافر، بل قدموا إليه منحاً كريمة من مخازنهم، ولم يدعوا شيئاً ناقصاً يلبي رغبة المريض، حيث قدموا له كل عناية ممكنة، وبعد شفائه أعادوا إليه أمواله كاملة، وبسبب هذه السمعة قام عدد كبير من الرجال والنساء بتقديم ممتلكاتهم إليهم، وجاء الكثير من الناس إليهم لتقديم خدماتهم في رعاية المرضى والضعفاء، وبناء عليه جاء أحد النبلاء لتقديم الخدمات هناك، مع أنه كان معتاداً على تقديم الخدمات إليه، وأخذ هذا النبيل بغسل قدمي واحد من المرضى كان مصاباً إصابة بالغة بالدمامل، وصار يصاب بالغثيان نتيجة الروائح النتنة، ولذلك قام بدون تردد بشرب الماء نفسه الذي استخدمه في الغسل حتى يرغم معدته على أن تصبح معتادة على الشيء الذي سبب لها الغثيان، واستحوذ هؤلاء على الرب «بهدوء وبصوت منخفض»، لكن نزوعاً إلى الشرنما كثيراً وبقوة بينهم، وذلك بسبب مواريثهم،

وأعني بذلـك الطمع والجشع الذي هو أصل المسـاوىء، وانتبهـوا أن «الريـح تدمـر الصخـور إلى قطع صغيرة، وكـذلك تفعـل الزلازل والنيران»، وفي ظل هذه النـار، توجهـوا نحـو معلمهم، وأعنـي بذلك البابا، والمجمع المقـدس لكنيسة روما، وعـادوا وهم غارقين في كثير من المظالم «ضد الرب، وضد تعميـده»، وجرى في اللاتيران عقد مجمع تحت قيادة البابا الاسكندر الثالث، وحصل جميع حشد الأساقفة الذي جمعهم هذا البابا، مع رعاة الديرة ورجـال الدين بصعوبة لأنفسهم — مع أنهم كـانوا شخصياً مـوجـودين— مـا كان قليـلاً جـداً بالنسبة لامتيـازاتهم وحقـوقهم، وحصل الاسبتـارية مـن جهـة ثانيـة على السلم، ونحن حضـور، لكـن مـا أن إرفض المجمع، حتى قـام سيـدهـم على الفـور، وأقصـد به كيس المال، بفتح شفتيـه المتهـدلتين، فـاستطاع— ليس عن طريق الحب— بالسيطـرة على كل شيء في رومـا، وغـدونا نحن مـرة أخرى فـرائسهـم، وغدت امتيازاتهم وحقـوقهم مجدداً، أكثر ثبـاتاً وقوة، ولقـد سيطروا ، ولا أقـول إن ذلك كـان بكيس نقـودهم، بل بوسـاطة استثماراتهم، ولن أقـول بوسـاطة أشخـاصهم، بل بوسـاطة أهدافهم الدينية، «لأنهم ازدادوا دوما، ونحن تناقصنا»، وحياة المذابح قد أعطيت إلينا أولاً من قبل الرب، ثم منحت بعـد ذلك من قبل البطاركة، ونحن لم ننجح في وراثـة آبائنـا، حيث لم نستطـع أن نشغل دور رجـل الأعمال والتجارة، لكننا نستطيع أن نستجـدي، فقد وضـع كل منا الحياء جـانباً، والاحترام منعناه، وتنكرنا لجميع أنواع الحيـاء برضـا منا وإرادة، فما هو التعـويـض الذي نلناه مقـابل ذلـك ومتى؟ بما أن جميع المذابح تقـريبـاً مشغـولة الآن من قبل أعضـاء التنظيمات الدينيـة، لم يبق بالكاد مـذبح واحـد فيه كفـاية لأي واحـد من الكهنة، فهؤلاء أعظم عـدداً بكثير من المذابح، ومع أن الدير سجن للراهـب، وكذلك مـع أن إرميا قـد قـال: «وجهت الفأس نحو جذر حياتي ما لم أجلب أعطيات إلى المذبح»، فلقد غيرت التنظيمات الأوضاع، ولقد حصلنا على وسائل عيشنا بأن أصبحنا

تابعين لهم ندفع الأتـاوة من مصـادر عيشنا، وصـار الـدير بيت السجن للراهب فيــه ســوف يسجن الكاهن لأن الرهبــان أرادوا ذلك، فقــد استأصلونا بمختلف الخدع، وأبقونا بعيدين عن الكنائس، وعندما يقوم الجند، الذين أوكلت إليهـم حقـوق الحماية،وهم في حـالة عـوز حقيقي، ويطلبون العون من مخازن الداوية أو الاسبتارية، فيجيبهم هؤلاء: «نحن نمتلك الوسـائل لمساعـدتكم، لكن لايمكننا أن نقـدم شيئاً من خـزينة الداوية أو الاسبتـاريـة إلاّ إلى أخـواننا خـاصـة، ومـع هذا إذا مـا كنتم راغبين في الدخول في رهبانيتنا، وأن تسهمـوا بشكل ما بممتلكاتكم إلى بيت الرب، فسوف تعفون وتصبحون أحـراراً»، وبناء عليه يقوم هؤلاء الرجـال المساكين، المتشوقين للتحـرر من قيودهم التي ربطـوا بها بشدة، وبما أنهم، كما يعتقـدون، ليس هناك ممتلكات سوف يفقـدونها دون أذى وألم، باستثناء الهبـات المقــدمــة إلى الكنائـس، تراهم يقــدمــون وهم مسرورين على تسليم هـذه الهبـات إلى الاسبتــاريـة والداوية، فبــذلك يمكنهم الحصـول على حـريتهم، فبـوسـاطة الخداع، لابل، كما ينبغي أن أقول، بخداع مضاعف ثلاث مرات، نجوا من السيمونية (بيع المناصب الدينيـة)، وكأن الرب لن يلاحظ بأي وسـائل أثرت بيوتهم، فقـد هلك أبناء الجنود وأحفــادهم، وأكثـر من هذا ظلما، هلـك عــدد كبير من الأشخاص ذوي المكانة، بدون فائدة(★).

أندرونيكوس امبراطور القسطنطينية

عندما كان لويـس السمين يحكم في فرنسا، وهنري الأول في انكلترا، كان حاكم القسطنطينية أندرونيكوس، الذي اشتهر بولديه:

أندرونيكوس ومانويل، وبعدما جرى إرسال أندرونيكوس من قبل أبيه في حملة عسكرية، وكان مشغولاً فيها،، توفي الأب، ثم احتل مانويل العـرش، بشكـل غير شرعي، لأنه كـان الأخ الأصغـر، وقـام بـابعـاد

★-De nugis curialium لوولتر ماب ص ٣٨— ٤٤.

أندرونيكوس لدى عـودته، وحمل الأخ الأكبر شكواه ضـد الخطأ العظيم الذي اقترف بحقـه، ونشرها في المقاطعـات والبلدات، فنجح في تسليح نصف العـالم تقـريبـاً ضـد مـانويل، وكـان سينتصر عليـه، لكن مانويل الذي كـان محباً للمال، وجشعاً نحـو التشريف، والذي عرف بأن الاغـريق فيهم فسـولـة وعجـز، وضعف وخـوار، وغير مخلصين نحـو أعدائهم، ولا مـوثوقين وجبناء، قام بـاستخدامهم في سبيل أغـراضه في تلك الآونة، فصب لهم الأمـوال وأغـدق عليهم الوعـود، وفضـلاً عن هذا، أحضر من أجل حماية أشخـاص وممتلكات الاغـريق، رجـالاً من هذا الجانب من الجبـال، الذين نصبهم في الحقيقـة للحماية ضـد مخاوفـه وأعدائه، وبما أنه لم يضن بالمال، مـلأ هؤلاء الجياع البلاد بقطعانهم، وبما أنهم دخلوا على شكل قبـائل، تكاثروا إلى درجـات باتوا فيهـا حشـداً كبيراً، وقـام مانويل وهو المنتصر بعملهم وثروته بالعطف على أخيـه، في سـاعة هزيمتـه الكاملة ونفيه، ومنحـه مملكة على حدود الأتراك، كـانت كبيرة بحجمها وقيمتها، غير أنها كانت نائيـة، وفرض مقابل منحه إياها يمينا تعهد به بتنازل دائم عن الامبراطـورية، وربط بذلك ليس شخصه فقط، بل ابنه ووريثـه، الشاب أندرونيكوس، وهكذا اعتقد مـانويل بأنه أرضى العدالة، فيما يتعلق بقضية اغتصابه للعـرش، وكان تقياً في منحته التي أعطاها بدون ارغام.

وبعـدمـوت أنـدرونيكوس الأب، جـدد أندرونيكـوس الابن الالتزامـات التي فرضها مـانويل، وبما أن هذه العلاقات جـرى الحفاظ عليها باخلاص حتى أيـام البابا لوسيوس Lucius، الذي خلف البابا الاسكندر الثالث، فقد حكم مانويل المتقدم الذكر، الامبراطورية بسعادة عظمى، وقد قبـل لابنه مانويل، ابنة لويس، ملك فـرنسا، وغـادر الحياة مليئاً بالسنين والتشريف وسعيـداً، إلاّ في المسألة التاليـة، وهي أنه خلف ولداً في السابعـة من عمره، تحت وصـاية اغريقي، عـرف بحكم منصبه

باسم البروتوسالفاتور Protosalvaor ، وعندما نقلت الأخبار إلى أندرونيكوس، وكان رجلاً منحط الأخلاق، ذلك أنه أنكر المسيح مرتين في سبيل نيل العون من الأتراك، لابل إنه قام بانكاره الآن للمرة الثالثة، عند ذلك قام بحشد قوة كبيرة من المسلمين، ونقل صراعه من خلال الجزر المجاورة، التي كانت ملكاً لمانويل، ومن خلال المقاطعات المجاورة، واتخذ حجة لعمله، الادعاء بأن البروتوسالفاتور عازم على الزواج من زوجة سيده، وأن الاثنين قد تآمرا على قتل مانويل الشاب، أو أنهما قاما بالحقيقة بقتله،وذلك حتى يحكما معا بمظهر فيه مراعاة للفضيلة.

وفضلاً عن هذا، وعد أندرونيكوس والدموع تنهمر من عينيه أن يكون وصياً مخلصاً جدا على الأمير الشاب، إذا ما اعترف الشعب به أنه جدير بهذه المهمة، وذلك بفضله وعونه، وبذلك تخلص من كل الخداع والتآمر، وتابع البكاء، فأضاف إلى وعوده أعطيات وكل إدعاء في أن يكون مستقيماً، وصدقه الناس جميعاً، وقبلوه بمثابة وصي على الصبي ومعلم.

ثم إنه جاء مع قوة كبيرة، فمزق صفوف القوات التي كانت تحت قيادة البروتو سالفاتور، لأن هذه الصفوف لم تكن تتمتع بشجاعة الجنود، وكانت قد بيعت من قبل قادتها للموت خيانة، فهكذا كان اخلاص الاغريق، ووصل أخيراً إلى البحر الذي يدعى «ذراع القديس جورج»، وبعث أمامه ببعض الاغريق، من أهالي القسطنطينية، ثم عبر البحر بمساعدة ألكسيسوس وفضله، وبعون الأهالي وسمح له بالدخول من خلال باب الدانيين، وذلك بعد دفع ثمن، وإعطاء وعد بعدم شنق السكان، وكان متبقياً في القسطنطينية أناس كان قد جلبهم إلى هناك مانويل، وقد دعاهم السكان المحليون باسم الفرنجة، ومعهم أجانب من كل أمة تقريباً، وقد كره الاغريق هؤلاء كراهية شديدة،

بسبب حسدهم لهم، لأن قدرة الاغريق قد أنهكت بحروب طروادة، أي منذ أيام أجاكس، الذي انتصرت الخديعة ضد شجاعته بشكل غير عادل، ولايوجد في أي مكان بين الاغريق من يستحق أن يكون ساميا أو مشهوراً، وقد انحدروا إلى حد أصبحوا فيه منبوذين ومكروهين من قبل الناس جميعاً، ومرفوضين من قبل كل تكتل صالح، ونعلم أيضاً بأن عصابات من المطرودين والمنبوذين والمدانين قد ربطوا أنفسهم ببلاد الاغريق هذه، وأن الذين هم أدنأ الناس، وأنهم لذلك قد نفيوا من ديارهم وأوطانهم قد حصلوا بين الإغريق على سلطات جعلت كراهية الاغريق لهم تبلغ درجة لايوازيها في لهيبها إلاّ الكراهية ضد الطرواديين لو أنهم عادوا إلى الحياة، وأنا لا أحسدهم على ادعائهم الانتماء إلى العذراء المقدسة جداً (القديسة كاترين)، التي اتبعها الرب من يوم ميلادها الى يوم وفاتها بكرامات وبمعجزات، ولست مبتعداً بأي حال عن الذين اختارهم الرب، وفقط إنني أتكلم عن الجنود، لأن هذا العرق الاغريقي قد انحدر كثيراً في ممارسة القتال بعد تدمير جيش طروادة، ولم يوجد بينهم من استحق المجد العسكري منذ آخيل وأجاكس، وابن تيدوس Tydues (ديوميد Diomede) (★).

★ — المصدر نفسه ص ١٠٧— ١٠٩.



المحتوى

الصفحة	الموضوع